عشتُ وشاهدتُ

بيروت ١٩٥١


AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY

عِشْتُ وَشاهَدْتُ

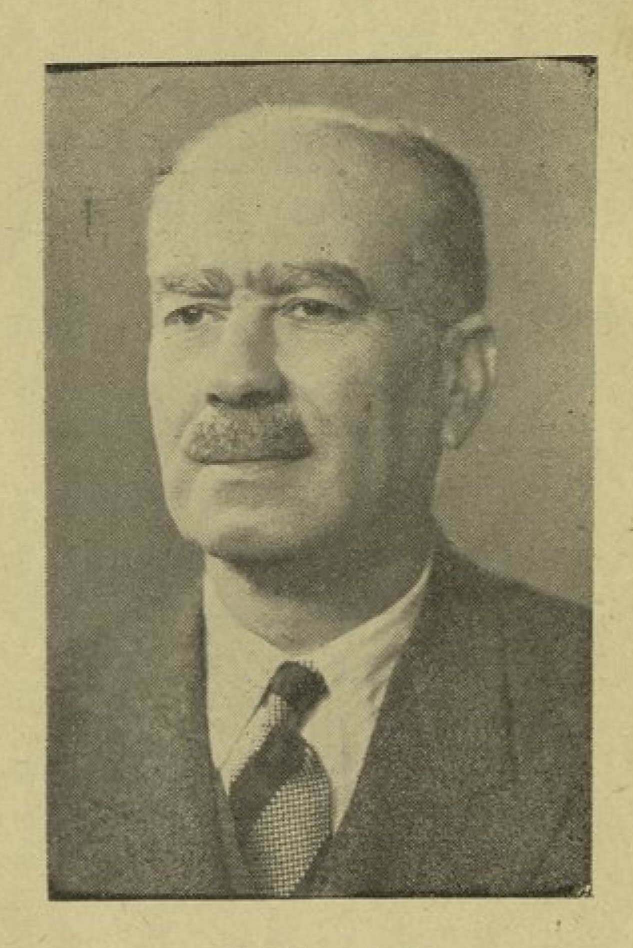
بقلم

أنيس النصولي

بيروت ١٩٥١

الطبعة الاولى

بيروت
رجب ١٣٧٠ — نيسان ١٩٥١



محي الدين النصولي

الإهداء

اليك يا اخي محي الدين أهدي هـــذا الكتاب لأنك عملت كثيراً في سبيل الاصلاح وجاهدت طويلاً في تنمية الشباب وقـــد ُهزمت امام تراث الماضي والحاضر المثقلين بالاستغـــلال الشائن والطائفية البغيضة والاقطاعية الدموية والرأسمالية القاسية فما وهن عزمك ولا فت في عضدك فظلت ابتسامة الصلاح تطفو على قسمات وجهك وتنير طريقك .

اليك يا اخي الحبيب اقدم هذا الجهد المتواضع لعلك تجد فيه ما يزيدك ثباتاً على ثبات وقوة على قوة وتقرأ في صفحاتـه ما بذله المخلصون ممن تقدموك فتظل في ساحة العمل مثالاً للشرفاء من المواطنين الذين يخوضون معركة الاصلاح في الوطن العربي وهم جد مؤمنين بمستقبل هذا الوطن .

انيس النصولي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ضاعت فلسطين من العرب وتجزأت البلاد العربية فاصبحت جمهوريات وممالك وشاعت روح الاقليمية فيها وطغت موجة الطائفية عند بعضها واستغل الاستقلال رجال تأكدوا ان الحكم ثروة مجموعة وترف زائد وعيش رغيد ونسي الكثير ان هذا الاستقلال هو ثمرة تضحية فذة وارواح بريئة طارت على اعواد المشانق ودماء جبلت في تراب الغوطتين وجبل العرب وسفوح لبنان وسهول العراق والحجاز.

اقول ان وطني العربي الكبير الذي تغلبت على اجزائه الحبيبة القطيعة الاقتصادية والسياسية ومواطني العرب الذين يعيشون غرباء في بلادهم يشعرون بما يشعر به كل وطني حر من ألم مكبوت وانهم ليرجون ان تنقشع عنهم هذه التجزئة الوقتية وان يتجمعوا في وطن موحد له علم واحد وجيش واحد وحكومة واحدة واني اكتب هذه الفصول وقد عشت امام حوادثها وجهاً لوجه وشاهد عدل واقتبست بعضها من الثقاة ولعلي اخدم الجيل الجديد بهذه الفصول .

ولعل حوادث التاريخ القريب توحي له ان يتنكب طريق الانانية والطائفية والاقليمية فيتحد ويتعرف بعضه الى بعض في ظل الوطن العربي الأكبر . تلك امنية الحياة ان لم اشاهد تحقيقها في حياتي فسيشاهدها ابنائي واخواني من الشباب واني لأنظر بعيونهم واحيا بوحدتهم ولو كنت تراباً في لحد موحش .

الشريف حسين ومعاهدة سيكس - بيكو

الذكريات هي الحياة، هذا السجل الذي يطوينا ويطوي صفحاته كل يوم! ولعلي مصيب كل الاصابة ان انشر للجيل الجديد من الشباب العربي ما عرفته وشاهدته وقرأته ومحصته عن حركتنا الاستقلالية الثورية. ترى هل انسى الاستقبال العظيم الذي استقبلت به مدينة بيروت الامير فيصل بن الشريف حسين عقب طرد القوات العثمانية منها بعد الحرب العالمية الاولى؟ هل انسى البيروتيين وقد جروا عربة الامير من نهر بيروت حتى المفوضية العربية في بناية الداعوق «بمحلة الحاووض» وبناية سرسق مقر الجنرال بليفن بايديهم بدل الخيول؟ انني اكاد اسمعهم حتى هذه الدقيقة يصرخون بملء افواههم — ما نرضى غيرك سلطاناً — يا فيصل يا بن الحسين يا عزنا — ثم اغمض عيني فانظر الى فيصل يتمشى في ردهات قصر عمر بك الداعوق — مكتب الاستعلامات الاميركي اليوم — ثم أراه يجتمع في دار المغفور له احمد مختار بيهم ودار المغفور له سليم علي سلام — في المصيطبة — بالشباب وكلهم متحمس لا يرضى عن الاستقلال بديلاً ولا عن الامبراطورية التي تبدأ بتطوان ولا تنتهي الا بضم الامارات على الخليج وبغدان. انني صديق لاكثرهم وقد استشهد بعضهم في ميادين القتال والثورات المختلفة التي اشعلت ضد فرنسا واستشهد آخرون في فلسطين والمعتقلات والسجون وركب بعضهم المناصب الكبيرة فاصبحوا من المسؤولين المرموقين في توجيه سياسة الحكومات العربية الحاضرة، واهمل آخرون كل شيء لانهم كانوا باشد الحاجة لان يحاربوا غوائل الزمن ومصائبه. ورأى بعضهم ان يماشي السياسات الاقليمية وان يخضع لسلطان الانتداب طلباً للعافية واجتهاداً منهم ان هذه السياسة المسالمة تدرأ عن الاوطان اخطاراً مداهمة لا قبل لشعوبنا باحتمالها.

عشت مع هؤلاء الذين لا يقتنعون من دنياهم الا بالامبراطورية العربية الكبرى التي تضم لا اقل من خمسين مليوناً من العرب والتي تنعم بجيش قوي وتمثيل خارجي واحد وجهاز إداري داخلي واحد واقتصاد موجه واحد ثم عاصرت



الاقليميين الذين يقولون باستقلال كل اقليم عربي وانفصاله عن بقية الاقاليم ونعتهم كل من يتدخل في امورهم ولو عن طريق النصح والاستشارة «بالدخلاء» . ثم مشيت مع الفكرة التي حبذت لبنان الصغير ثم عشت مع الفكرة التي قالت بلبنان الكبير وضم الاقضية الاربعة اليه ثم رأينا سوريا تنقسم الى حكومات في عهد الانتداب الفرنسي . فهناك حكومة دمشق وحكومة حلب وحكومة جبـــل الدروز وحكومة العلويين . اقول عاصرنا كل هذه التطورات حتى خرجت فرنسا من بلادنا عام ١٩٤٥ بعد ان تمكن لها الامر فيها عام ١٩١٨-١٩١٩ .

تبلورت القومية العربية واخذت تنمو ويشتد ساعدها اثر الانقلاب العثماني عام ١٩٠٨ وذلك عندما قام الاتحاديون بسياسة طورانية تركية بحتة وجعلوا من اهدافهم القضاء على العروبة في معظم ارجاء الدولة العثمانية . فشعر العرب بالظلم المحيق بهم وطالبوا حينئذ باللامركزية ولم يطالبوا بالاستقلال التام بالنظر للروابط الدينية التي كانت تربطهم بدولة الخلافة وكانت معظم جمعياتهم واحزابهم تدعو الى ذلك كحزب العهد وحزب الاستقلال والجمعية القحطانية حتى ان المؤتمر العربي العام الذي عقد في باريس في الثامن عشر من حزيران عام ١٩١٣ وترأسه المغفور له السيد عبد الحميد الزهراوي لم يدع الى اكثر من تحقيق اللامركزية في البـــلاد ومع ذلك فقد لاقى معظم هؤلاء الشباب الذين دعوا الى اللامركزية حتفهم على أعواد المشانق عام ١٩١٦ إبان الحرب العالمية الاولى الكبرى .

ورأى الشريف حسين بن علي شريف مكة وهو من سلالة محمد الرسول الاعظم أن ينتهز الفرصة لاعلان الحرب على العثمانيين ويحالف بريطانيا فتبادل المراسلات الرسمية مع السير هنري ماكماهون المقيم البريطاني في مصر وكان يد الحسين اليمنى في هذه المفاوضات الكولونيل لورنس صاحب كتاب «اعمدة الحكمة السبعة» فتعهدت بريطانيا وحلفاؤها بتأسيس دولة عربية مستقلة تمتد من الخليج الفارسي الى كيليكيا حتى الحدود المصرية على ان يكون لانكلترا ادارة خاصة في ولايتي بغداد والبصرة ، ثم تنازل الشريف حسين لفرنسا اثناء الحرب عن الساحل السوري اللبناني على أن تدرس أوضاعه بعد الحرب ، وتبودلت الرســـائل بين الشريف

حسين والسير مكماهون بهذا المعنى في عامي ١٩١٥ و ١٩١٦ ولم يعقد أية معاهدة ذات نصوص صريحة بين الشريف حسين والحلفاء تنص على استقلال البلادالعربية ولكن كان هنالك عهود مقطوعة ورسائل متبادلة مما جعل الشريف حسين يموت قهراً وألماً من ألاعيب السياسة التي أخذت تتخلص من هذه الوعود بعدئذ أمام معاهدة سيكس - بيكو التي عقدت بين فرنسا وانكلترا بشأن نفوذ الدولتين في المشرق .

ومن الاسباب التي ساعدت الشريف حسين على اعلان الحرب على الدولة العثمانية الاوضاع الاقتصادية البائسة التي أخذ يتخبط فيها الحجاز أثناء الحرب العالمية الاولى فانقطع سبل الحجاج عن الاماكن المقدسة وحوصر هذا القطر بحراً فكاد يهلك من الجوع .

واضطر الشريف ان يفاوض انكلترا تحت تأثير العامل الاقتصادي، فرحبت انكلترا بدورها بهذا الحليف الجديد الذي كان عندها خير وسيلة لتهدئة الشعوب الاسلامية التي كان يظلها العلم البريطاني .

ثم كانت مظالم احمد جمال باشا التركي قائد الجيش الرابع في سوريا وفظائعه التي ارتكبها فيها وتعليقه لخيرة رجال العرب على أعواد المشانق اكبر حافز عارض لاعلان الثورة العربية واطلاق الرصاصة الاولى ضد الدولة العثمانية .

والغريب أن الشيوعيين بعد أن تقلدوا الاحكام وقلبوا دولة القياصرة رأساً على عقب نشروا بعض الوثائق السرية منها الاتفاقية السرية التي عقدت في آذار من عام ١٩١٥ بين انكلترا وفرنسا من جهة وبين روسيا من جهة اخرى وفيها تمنح روسيا استانبول والمضايق شرط أن توافق فرنسا وانكلترا على اقتسام النفوذ في البلاد العربية والكردية .

والاغرب من هذا كله أنه بينما كانت انكلترا تمد يدها إلى الشريف حسين كانت تمد اليد الثانية الى فرنسا فعقدت معها معاهدة سيكس - بيكو في السادس عشر من أيار سنة ١٩١٦ وهي تنص على تقسيم الدولة العثمانية الى خمس مناطق ، الاولى : منطقة تشمل الساحل السوري اللبناني وكيليكيا وكردستان ودياربكر

تعطى لفرنسا وتديرها بصورة مباشرة أو غير مباشرة كما تشاء . والثانية : منطقة تشمل بغداد والبصرة تعطى لانكلترا . والثالثة : منطقة فلسطين ما عـــدا عكا وحيفا فانها تحكم دولياً . أما عكا وحيفا فيكونان من نصيب بريطانيا . والرابعة : منطقة تشمل سوريا الداخلية وشمال العراق الى ما بعد الموصل على أن يكون لفرنسا فيها النفوذ الاقتصادي والاستشارة السياسية . والخامسة : منطقة خاصة تشمل شرق الاردن والقسم البـاقي من العراق على أن تكون لانكلترا فيه الكلمة الاولى .

هاتان هما المعاهدتان اللتان كانتا تناقضان العهود المقطوعة للشريف حسين ، وقد محيت المعاهدة الاولى بانكسار روسيا واندفاعها في تيار الشيوعيـــة وأما المعاهدة الثانية سيكس بيكو فكان أمام العرب أن يجاهدوا سنين لمحوها وأن يغرقوا في الدم الى الركب قبل أن يتوصلوا إلى بعض النتائج التي يرضون عنها . وقد رفع راية الجهـــاد رجل العرب الاكبر ودماغهم المفكر العبقري فيصل الاول وسنحاول أن نخطو معه في جهاده خطوة خطوة .

•

الحكومة العربية الاولى في دمشق

بدأت الثورة العربية في العاشر من حزيران عام ١٩١٦ - ٩ شعبان ١٣٣٤ هجرية - وذلك حينما اطلق الشريف حسين رصاصته الاولى في بطاح مكة ، وقد تمكنت قواته من هزيمة الاتراك في الطائف ومكة نفسها واستعصت عليها يثرب او المدينة المنورة لوصول النجدات العثمانية لها وللدفاع المجيد الذي دافع به عنها القائد التركي فخر الدين باشا ولم تستسلم الا في عام ١٩١٩ رغم الحصار الشديد الذي فرض عليها وشاءت الصدف ان اشاهد هذا القائد الشجاع فاذا هو ضعيف البنية ترى على وجهه آثار الجدري . وكانت قوات الشريف حسين تتألف من الشباب العربي ومعظمهم من السوريين والعراقيين والمصريين واللبنانيين الذين فروا من

صفوف الجيش العثماني وكانوا يعرفون برجال الثورة ، واشتركت قوات الشريف حسين بقيادة ولده الامير فيصل في احتلال سورية وفلسطين جنباً الى جنب مع جيوش الحلفاء وخربت خطوط المواصلات فيهما وعطلت اربعين الف مقاتل من العثمانيين عن العمل وهكذا احتل فيصل حينما انتهت الحرب العالمية الاولى سوريا الداخلية وشرق الاردن كما احتلت الجيوش البريطانيـــة فلسطين والعراق والفرنسيون الساحل اللبناني وكيليكيا .

ولسوريا في العهد الفيصلي صفحات مطوية يجب علينا ان ندرسها بتؤدة ونباهة وعدل لان هذه الصفحات تكشف لنا عن الاسس التي قامت عليها الحكـومات العربية الحاضرة وعن كثير من الشخصيات التي لعبت دوراً كبيراً في سياستها .

كان اليوم الثاني من تشرين الاول عام ١٩١٨ يوماً مشهوداً فقد قدم سوريا الامير فيصل بن الشريف حسين من الازرق في سيارة خاصة وخرجت عاصمـــة الامويين بعلمائها واعيانها وشبابها ونسائها تستقبله استقبال الفاتحين المحررين ويذكر الذين كانوا في دمشق يومئذ ان الامير فيصـل ترجل من سيارته ثم امتطى صهوة جواد اصيل وسار في موكب حافل احاط به حوالي الف وخمسمائة فارس مـن رجاله وبايديهم سيوفهم ورماحهم وبنادقهم وسار شباب الاحيـاء بين يديه فرقاً فرقاً تهزج اهازيج حماسية واخترق هذا الموكب العظيم دمشق مـــن شمالها الى جنوبها وكانت النساء تزغرد وتنثر عليه الازهار والورود والرياحين من الشرفات والسطوح . ثم استقر فيصل في دار الوجيه المعروف محمود بك البارودي والد صديقنا الغيور فخري بك البارودي صاحب الاناشيد الثورية اللاهبة ، الذي بذل الشباب والمال في سبيل القضية الاستقلالية المقدسة . وما تزال هذه الدار في محلة القنوات وهي كعبة النهضـة وقد زرتها مراراً وشاهدت بام عيني كيف كان فخري بك يبذل عن سعة وكرم لكل ضيوفها . وكان جزاء فخري بك عـــلى مساعيه الوطنية التشريد والسجن والحكم بالاعدام من قبل الفرنسيين .

واذاع الشريف فيصل في الخامس من تشرين الاول سنة ١٩١٨ بلاغاً على الاهلين قال فيه انه الف حكومـــة دستورية عربية مستقلة استقلالاً تاماً باسم

السلطان حسين يشمل نفوذها سائر البلاد السورية وانه عهد برئاسة هذه الحكومة الى القائد رضا باشا الركابي الاداري المحنك وان هذه الحكومة دأبها العدل والمساواة فهي لاتفرق في الحقوق والواجبات بين جميع المواطنين على اختلاف مذاهبهم واديانهم ، ولقب رضا باشا الركابي بلقب الحاكم العسكري العام ثم ناشد هذا البلاغ السوريين ان يكونوا يداً واحدة ومثالاً حسناً للطاعة حتى يثبت للعالم اجمع انهم اهل للاستقلال وحكم انفسهم بانفسهم .

وازمع الامير فيصل بعد تأسيس حكومته في دمشق ان يحرر الاجزاء الباقية من سوريا الشمالية ، فزحف جيشه وهو من الهجانة بقيادة السيد علي جودة الايوبي الى حمص فدخلها سلما وقد رحب بهم الحمصيون ترحيباً حاراً وكان ذلك في الرابع عشر من تشرين الاول سنة ١٩١٨ ثم زحف الى حماه فدخلها في التاسع عشر من الشهر نفسه بعد ان جلا الاتراك عنها ، ثم اشترك الجيش العربي والجيوش الانكليزية بمعركة حاسمة مع الجيوش العثمانية في معركة خان السبيل فلم يستطع الاتراك الثبات وارتدوا الى شمال حلب وعلى رأسها نوري السعيد في الخامس والعشرين من الشهر ولم يمض بعد ذلك وقت طويل حتى عقدت الهدنة بين العثمانيين والحلفاء – ٣٠ تشرين الاول سنة ١٩١٨ – فوضعت الحرب اوزارها .

واراد فيصل ان يزور شمالي سوريا فقام برحلة موفقة الى حمص وحماه وحلب ودعا الجماهير في هذه المدن الى طاعة الدولة العربية الجديدة والى النهضة الجبارة وقال لهم : ان الاتراك حكموا الامة العربية ٦٠٠ عام هدموا خلالها امجاد العروبة ولكن واتت الظروف الامة العربية فثارت على الترك وحالف السلطان حسين فرنسا وانكلترا لانهما ينصران الضعيف ثم اعلن للجمهور الحلبي ماصرحت به انكلترا وفرنسا في الثامن من تشرين الثاني عام ١٩١٨ للملأ وهو أن « السبب الذي من اجله حاربت فرنسا وانكلترا في الشرق انما هو لتحرير الشعوب التي رزحت اجيالا طوالا تحت النير التركي تحريراً نهائياً واقامة حكومات وطنية تستمد سلطتها من السكان في سوريا والعراق » وناشد فيصل الجمهور الحلبي أن يستمسك بالاتحاد واعلن ان العرب هم عرب من قبل موسى وعيسى ومحمد وأن

الرجل عنده لايكون رجلا الا اذا كان خادماً لهذة الامة العربية ثم طلب اليه أن يعتبروه الخادم الصغير المخلص الذي لايفتر عن نصرة الحق .

هكذا بدأ فيصل جهاده في سوريا معلنا في كل ناد الاسباب التي دفعت والده للثورة على الاتراك ودفعته هو نفسه لاحياء التراث العربي .

•

حكومة عمر الداعوق العربية الاستقلالية

غادر الموظفون الاتراك دمشق وبيروت في الثلاثين من ايلول عام ١٩١٨ وتسلم زمام الامر في العاصمة السورية الامير سعيد الجزائري وقد عاونه في الحكم شكري باشا الايوبي وبديع المؤيد وفارس الخوري والغريب ان احد افراد هـذه الحكومة الموقتة شكري باشا الايوبي فتح ابواب السجن في القلعة واخرج منهـا ما ينيف على اربعة آلاف سجين بينهم القتلة والسارقون والحشاشون والمزوورون. ومع ذلك فقد ظلت دمشق هادئة نوعاً . وارسل الامير سعيد الجزائري برقية الى جميع المدن السورية ينبئها بتأسيس الحكومة العربية . وقد اطلعنا عليها يوم ارسلت الى رئيس بلدية بيروت في ذلك الوقت السيد عمر الداعوق وهذا نصها: « بناء على انسحاب الحكومة التركية فقد أسست الحكومة العربية الهاشمية على دعائم الشرف طمئنوا الجميع واعلنوا الحكومة باسم الحكومة العربية ». واجتمع وجهاء بيروت وكان بينهم جماعة من آل بيهم وآل طراد وآل سرسق وآل سلام وآل الطيارة فالفوا حكومة عربية موقتة برئاسة عمر الداعوق وقد اصدرت فور تأليفها منشوراً طلبت فيه الى البيروتيين ان يتابعوا اعمالهم اليومية بهدوء ونظام وان لا يحملوا



السلاح وان لا يعتدوا على احد وان لا يتجمعوا او يتظاهروا وان يحافظوا على الاسر التركية النازلة بينهم لانها وديعة عندهم وهذا هو نص المنشور التاريخي :

١ – على الاهلين والموظفين ورجال الدرك والشرطة متابعة اشغالهم ووظائفهم بتمام السكينة والهدوء وبكل نشاط واستقامة ويتحتم على الاهلين ان لا يتداخلوا فيما لا يعنيهم وان لا يعتدي بعضهم على بعض .

٢ – ممنوع قطعياً حمل السلاح والخروج الى الطرقات ليلا بعد الساعة الثانية بعد الغروب .

٣ – اذا حدث تعد على احد فعليه ان يخبر اقرب مخفر للبوليس .

٤ – اذا وقعت اقل مغدورية او مخالفة او تهاهل بالوظيفة على الاهالي من قبل اي كان فعليه اعلامي حالا .

٥ – كل من يتجرأ على مخالفة هذه الاوامر يجازى اشد الجزاء بلا شفقة ولا رحمة وكل من يتجاسر على سلب الامن العام يحاكم على الفور ويعدم شنقاً او رمياً بالرصاص .

٦ – المظاهرات والتجمع والقاء الخطب ممنوع .

٧ – بما ان الاتراك وعيالهم وسائر الغرباء هم بمثابة وديعة عندنا فيجب على كل فرد تمام الاعتناء برفاهيتهم وراحتهم كما تقتضيه الشهامة العربية .

والحق ان البيروتيين كانوا مثالا للهدوء والسكينة والدعة في عهد حكومة الرئيس الداعوق لاحترام السكان لهذه الشخصيات الكريمة التي تولت الاحكام ، ويفخر الرئيس الداعوق ان في عهد حكومته لم تطلق رصاصة واحدة ولم يجرؤ احد من القبضايات ان « يضرب سكيناً » او يعيث في الارض فساداً ولو تجرأ احدهم ان يشذ ويعلن العصيان او يقطع الطريق لما كان لدى حكومة الداعوق من القوى ما توقفه بها عند حدوده .

وكان البيروتيون في هذه الاثناء يعطفون فعلا على الاسر التركية والجنود الاتراك الذين اسرتهم حكومة الداعوق وجردتهم من سلاحهم وقد شاهدتهم يسكنون السراي الكبيرة الى ان تولت امورهم سلطات الاحتلال البريطانية .

اما الاتراك في دمشق فلاقوا الامرين في عهد الامير سعيد الجزائري لان شهوة الانتقام تغلبت على كثير من السكان الموتورين والمجرمين الذين افلتوا من سجون القلعة فاعملوا في البقية البـــاقية منهم سلباً وتقتيلا وما يزال يروي الك الرئيس الداعوق ان الاجانب كانوا مثالا حسناً للطاعة حتى ان السفير البابوي وهو جار له كان لايخالف للحكومة العربية الموقتة امراً .

ورأت حكومة الامير سعيد الجزائري الموقتة ان تتسلم زمام الاحكام في بيروت فعينت شكري باشا الايوبي حاكما عسكرياً عليها ثم عينت معه جميل الالشي رئيساً لاركان حربه .

واتى الايوبي الى بيروت عـــلى رأس كتيبة تتألف من مائة جندي واعلن انضمام العاصمة اللبنانية الى اسرة الحكومة العربية ثم رفع العلم العربي على السراي الصغير باحتفال مهيب ودعا حبيب باشا السعد واقامه حاكما مدنياً على بيروت بعد ان اقسم يمين الطاعة للشريف السلطان حسين .

وشعرت فرنسا ان هذه الخطوات التي خطتها حكومة الامير سعيد الجزائري في سوريا تناقض معاهدة سيكس – بيكو فقامت تطالب انكلترا ان يعهد اليها بادارة المناطق التي تخولها لها هذه المعاهدة ريثما يبت بمصيرها في مؤتمر الصلح فقسمت اذ ذاك القيادة العليا للحملة المصرية وعلى رأسها المارشال اللنبي البلاد السورية الى ثلاث مناطق واطلقت عليها اسم « بلاد العدو المحتلة » .

المنطقة الشرقية : وتشمل ولاية سوريا القديمة من معان جنوباً حتى حدود تركيا شمالا مع اقضية ادلب وجسر الشغور والباب غرباً والفرات شرقاً عـلى ان تديرها حكومة عربية صرفة يتولى رئاستها الامير فيصل ابن الشريف حسين .

والمنطقة الغربية : وتضم لواء بيروت ولواء جبل لبنان ولوائي اللاذقيـــة وطرابلس من ولاية بيروت القديمة وقضائي انطاكية واسكندرونة من ولاية حلب وتدير هذه المنطقة فرنسا مباشرة وعين لها الكولونيل بياباب حاكما لها .

والمنطقة الجنوبية : وتشمل فلسطين من الحدود المصرية جنوباً حتى الناقورة غرباً فنهر الاردن شرقاً وتضم لواء القدس ولوائي نابلس وعـــكا من ولاية

بيروت القديمة وتتولى السلطات البريطانية ادارتها وعين الجنرال بولز حاكما عليها.

ولما اعلن المارشال اللنبي هذا التقسيم للبلاد السورية طلبت فرنسا الى الامير فيصل ان ينسحب شكري باشا الايوبي من بيروت وان ينزل العلم العربي عن سارية السراي فكان لها ما ارادت وتم انزال العلم العربي باحتفال كئيب حزين وغادر الايوبي والمائة جندي بيروت الى دمشق وظل الاشي معتمداً عربياً في بيروت وتولى الكولونيل بياباب الحكم في المنطقة الغربية وكان هذا بدء النفوذ الفرنسي الفعلي في لبنان وبدء ظهور الاشي بعدئذ سياسياً سورياً يعتمد في قوته على الانتداب الفرنسي. وارتفع العلم المثلث الالوان على لبنان والساحل السوري.

●

لورنس يعطف على فيصل

قسم المارشال اللنبي البلاد السورية إلى مناطق نفوذ وأطلق عليها إسم «بلاد العدو المحتلة». ولما كانت سوريا هي الامل المرجو لبعث الأمجاد العربية فقد بذل فيصل كل جهوده لدى دول الحلفاء ليسمع صوته وصوت السوريين في مؤتمر الصلح، وكانت انكلترا وفرنسا ترجوان لو تبقى قضايا البلاد العربية بمعزل عن مؤتمر الصلح لتتفقا فيما بينهما على اقتسام المغانم فيها ولكنهما أجبرا أن يجاريا الرئيس ولسن رئيس الولايات المتحدة في اتخاذ قرار يقضي بوجوب فصل أرمينية وبلاد العرب عن تركيا واستفتاء السكان في هذه المقاطعات في تقرير مصيرهم وانتخاب الوصي عليهم، وقد قال الحلفاء في مؤتمر الصلح: «إن بعض الشعوب التي كانت تخضع للدولة التركية قد بلغت من الرقي درجة يصلح الاعتراف بها كأمم مستقلة محتاجة إلى النصح الاداري ومساعدة دولة وصية حتى تصبح قادرة على السير وحدها ولهذا فان رغائب هذه الشعوب يجب أن يكون لها المقام الاول في انتخاب الدولة الوصية. وعلى الدولة الوصية أو المنتدبة أن تقدم تقريراً سنوياً إلى مجلس جمعية الامم الذي يحدد تحديداً صريحاً نوع السلطة والمراقبة والادارة

التي تخول للدولة المنتدبة أو الوصية ممارستها » . وعلى هذا الاساس أفسح مؤتمر الصلح المجال للامير فيصل بن الحسين ولشكري غانم رئيس الجمعيـــة السورية اللبنانية في باريس وهوارد بلس رئيس الجامعة الاميركيـــة في بيروت وداود عمون رئيس الوفد اللبناني أن يدلوا بآرائهم القيمة في الاساليب الطيبة التي يجب أن تحكم بها سوريا .

وطلب الامير فيصل الاستقلال التام لسوريا وأن تنتخب المستشارين الاجانب وتستخدمهم في مصالحها الاقتصادية والحربية والتربوية والمالية عند الحاجة الماسة وأن تكون متصلة بشؤونها الخارجية مع الدولة الحجازية . ودافع هوارد بلس رئيس الجامعة الاميركية عن السوريين وقال بأهليتهم للحكم وأشاد بمواهبهم ثم قال إنه من الواجب أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم . أما شكري غانم رئيس الجمعية السورية اللبنانية في باريس فطالب بانشاء وحدة سورية شاملة تحت الانتداب الفرنسي . وأما داود عمون رئيس الوفد اللبناني فبسط الفكرة اللبنانية التي ترمي الى اعادة لبنان الى حدوده الطبيعية والجغرافية قبل عام ١٨٦٠ وطلب أن يكون للبنان برلمان أو جمعية تشريعية واستقلال اداري باشراف فرنسا . وقد تألف هذا الوفد من بعض أعضاء مجلس الادارة في لبنان وكانت فرنسا تغذية بأموالها ونفوذها وعرفنـــا منهم السادة : عبد الحليم الحجار واميل إده ونجيب عبد الملك وعبد الله الخوري .

واحتفلت فرنسا بالامير فيصل حينما قدم فرنسا ليمثل والده جلالة الحسين في مؤتمر الصلح ولكنها كانت ترجو لو يتفاهم مع ممثلها في سوريا المسيو جورج بيكو قبل قدومه الى اوروبا فلم يتم لها ذلك . وقصد الامير فيصل الى ستراسبورغ في الالزاس وتعرف الى الجنرال غورو فيها وقلده آنئذ وسام الليجون دونور من رتبة كراند اوفيسيه . وهكذا شاء القدر ان يجمع الرجلين الذين دارت بينهما بعد سنتين معركة ميسلون على ابواب دمشق .

ولاريب في ان الامة العربية مدينة لدرجة كبيرة للكولونيل لورنس الشاب البريطاني الذي كان يعطف على قضيتهم فهو الذي أقنع الحكومة البريطانيـــة

بوجوب ارسال دعوة لجلالة الحسين للاشتراك في مؤتمر الصلح وهو الذي كان يسدد خطوات فيصل في الدفاع عن قضية العرب بمؤتمر الصلح ولهذا كانت الحكومة الفرنسية تكرهه وتود لو تتخلص من نفوذه .

وكان الامير فيصل سياسياً لبقاً فزار المسيو كلمنصو اثناء اقامته بفرنسا — وكلمنصو هو ابو النصر — زيارات طويلة وقد انتزع منه تصريحاً قال فيه ان فرنسا مستعدة للاعتراف باستقلال سوريا شرط ان يعترف السوريون بمصالحها . وقد سمعت فيصلا يردد دائماً في بيروت ابان خطبه انه « قابل المسيو كلمنصو وتفاهم معه » .

وعندي ان اكبر انتصار احرزه فيصل في مؤتمر الصلح هو اقناعه الولايات المتحدة بوجوب تعيين لجنة دولية لدرس احوال بلاد العرب والوقوف على آمال واماني الاهلين فيها . ولكن فرنسا التي كانت تطمع بسوريا عارضت في ارسال هذه اللجنة واقنعت انكلترا ان تماشيها في سياستها . اما الولايات المتحدة فانها ارسلت لجنة الى سوريا حالا بامر الرئيس ولسن وكان لها قصة واستقتاء جديران بالدرس .

الاستقلال يؤخذ ولا يعطى

قررت عصبة الامم ايفاد لجنة دولية الى سوريا ولبنان وفلسطين لاستفتاء السكان في الدولة التي يريدون ان تنتدب عليهم وفقاً لما جاء في المادة ٢٢ من ميثاق العصبة وقد رفضت فرنسا الاشتراك في هذه اللجنة وجارتها انكلترا في هذا الرفض لأن الاهلين كانوا يعطفون على الحكومة الفيصلية ولأن فرنسا لم تكن مطمئنة الى متانة مركزها في الاستفتاء اما ويلسون رئيس الولايات المتحدة فاصر ان تذهب اللجنة الى الشرق وكان عددها خمسة يرأسهم المستر تشارلس كراين وهو من الرجال القلائل الذين درسوا احوال الشرق دراسة طيبة ومن المتمولين الكبار.



وكان على الامير فيصل ان يبرح فرنسا حالا بعد قرار عصبة الامم بالاستفتاء الى سوريا ليعلن للسوريين انهم امام حدث كبير اذا عرفوا أن يستفيدوا منه بسمت لهم الايام في تأسيس دولتهم الجديدة. وقد وصل الى بيروت على المدرعة الفرنسية «ادجار غينه» في الثلاثين من نيسان واستقبل استقبالاً حاراً وما يزال خطابه يرن في اذني وما تزال جملته الشهيرة - الاستقلال يؤخذ ولا يعطى - التي فاه بها في دار المعتمد العربي منقوشة في طيات قلبي وقد اثار فيصل في خطابه قضية الانتداب وقال اننا استقلاليون مائة بالمائة ولا نطلب تدخل انكلترا ولا اميركا ولا ايطاليا ولا فرنسا ولكننا سنطلب من هذه الدول المستشارين الفنيين بحسب ما

يوافقنا . اما استقلالنا فنريده سالماً مطلقاً تاماً ناجزاً من كل تدخل .

واعلن الامير فيصل للجمهور البيروتي ان مبدأ الاستقلال قرر في عصبة الامم وان اللجنة الاميركية قادمة لتنقل الى العصبة رغبات السوريين وانه مزمع ان يعقد مؤتمراً سورياً في دمشق تذاع فيه هذه الرغبات وان المهاجرين من السوريين في كل الاقطار لا يرضون عن استقلال العرب بديلا وانهم جديرون أن يبرهنوا للعالم اجمع انهم يد واحدة ويد الله مع الجماعة .

وغادر الامير فيصل بيروت الى دمشق وعقد مؤتمراً في دار الحكومة وكان يتألف هذا المؤتمر من الوفود السورية التي أتت للسلام عليه ، وبسط لهم الامير أن اوروبا لا تعرف عن العرب والمدنية العربية الا ما روته الف ليلة وليلة وأن الاوروبيين يعتبروننا اليوم جماعة من البدو الذين يسكنون الصحراء وهم لم يقرءوا شيئاً عن نهضتنا الحديثة . ثم ان اوروبا لا تفرق مطلقاً بين العرب والاتراك وكادت تتهمنا بكل الجرائم والآثام التي اقترفتها الدولة العثمانية ، ووجد الامير فيصل صعوبات جمة في اقناع الاوروبيين بوجوب التفريق بين العرب والاتراك وان سورية تطلب استقلالها بحدودها الطبيعية وان لها مع شقيقاتها المقاطعات العربية صلات مشتركة هي صلات الدم واللغة والتاريخ . وهنا طلب فيصل الى اعضاء المؤتمر ان تؤيده الأمة في سياسته وأن تبذل في سبيل استقلالها كل نفيس لأن الاستقلال يؤخذ ولا يعطى . والتفت فيصل الى أعضاء المؤتمر وقال ان الاقلية في سوريا ستكون مطمئنة وان مطاليبها ستدرس عندي بعين الاعتبار والترجيح وذلك لما قاسته في عهد الاتراك ولما بذل الدساسون من انواع الشقاق والنفاق بين الاخوة . ثم قال انه لا تهمه العصبية والوجاهة بقدر ما يهمه العلم والكفاءة والصالح العام .

وقام بعض اعضاء المؤتمر كسعد الدين الخليل رئيس الوفد الحوراني والشيخ نوري الشعلان شيخ مشايخ الرولة والامير نسيب الاطرش زعيم الدروز والشيخ عبد الحسين صادق من كبار المجتهدين في جبل عامل ومحمد فوزي باشا العظم ومحمد ابو الخير عابدين والشيخ اسعد الصاحب من دمشق وبطريرك الروم الارثوذكس وبطريرك الروم الكاثوليك ومطران السريان الكاثوليك وسعيد باشا

سليمان حيدر من بعلبك وعمر الاتاسي من حمص وابراهيم الخطيب من لبنـان وخطبوا بين يدي فيصل وقالوا انهم طوع يديه وانهم يضحون بدمائهم في سبيله وسبيل سوريا وانهم يبايعونه على الموت وانهم يعتمدون عليه في المفاوضات . وتأثر فيصل من هذا الحماس الدافق وشكر لهم غيرتهم ودعا الى الاتحاد ورعاية الاجانب وكل من يأتي منهم الى ديارنا للعمل للتجارة لان العرب يحترمون الضيف ويجيرون الغريب ويحمونه . وهكذا اعتبر الامير فيصل بعد هذه الخطب الحماسية في هذا المؤتمر انه وكيل الأمـة السورية الشرعي له ملء الحق ان يتابع قضيتها ويدافع عنها .

•

الاحزاب السورية تدعم الاستقلال

نشطت الحكومة الفيصلية التي كان يرأسها رضا الركابي الى تأسيس الاحزاب الوطنية والاندية السياسية وانشاء الصحف لدعم الحركة الاستقلاليـة في سوريا وفلسطين وقد نجحت في اثارة الشعور القومي الى حد بعيد رغم نضوب الوسائل المادية لديها ، واطمأن الناس لهذه الحكومة لانها كانت تبذل جهدها في تنظيم البلاد اداريا ونشر المعارف وترتيب الجيش وكانت تدعم حكومة رضا الركابي جمعية «العربية الفتاة» وهي جمعية اسست على طراز حزب تركيا الفتـاة وكانت لجنتها الادارية تسيطر على الحكومة الفيصلية في دمشق كما كانت لجنة حزب الاتحاد والترقي تسيطر على حكومة تركيا الفتاة . وتألفت اللجان الادارية المتتالية لهذه الجمعية من كبار رجال العرب عرفنا منهم ياسين الهاشمي ورضا الركابي ونسيب البكري ورفيق التميمي والدكتور احمد قدري وسعيد حيدر واحمد مريود وشكري القوتلي وعزة دروزه وتوفيق الناطور وخالد الحكيم والدكتور اسعد الحكيم ومحمد الشريقي وجميل مردم بك والدكتور عبد الرحمن الشهبندر وحسن الحكيم وعمر الاتاسي والامير عادل ارسلان ويوسف حيدر ورشيد طليع . وكانت جمعية العربية الفتاة سرية ترتدي رداء حزب الاستقلال العربي الذي انشىء في دمشق

سنة ١٩١٩ وكان شعاره : «استقلال البلاد العربية وتحريرها من النفوذ الاجنبي».

وانبعث حزب العهد السوري عقب انتصار الحلفاء ودخولهم سوريا ، وكان هذا الحزب قد اسس في الاستانة ، ومعظم اعضائه من العسكريين السوريين والعراقيين وقد قرر رجاله ان يعملوا لمصلحة سوريا والعراق واستقلالهما وقام في القاهرة حزب الاتحاد السوري وهو حزب انشىء على اثر انتشار معاهدة سايكس – بيكو التي قسمت بلاد العرب الى مناطق نفوذ افرنسية وانكليزية فعمل جاهداً أن ينقذ سوريا من براثن الاستعمار الفرنسي وان يتخلص من سيطرة الحجاز على سوريا او بالتالي سيطرة الشريف حسين على المقدرات السورية لانه كان ذا نزعة متحجرة بالتمسك بارائه ولايقيم وزنا لأراء الرجال الذين التفوا حوله ابان الثورة .

وبدأ هذا الحزب عمله ابان الحرب اي في اوائل ١٩١٨ وكانت لجنته الادارية تتألف من الدكتور عبدالرحمن الشهبندر والسيد رشيد رضا وسليم سركيس ورفيق العظم والشيخ كامل القصاب وفوزي البكري وخالد الحكيم ومختار الصلح وكان هذا الحزب يعتقد بالوحدة السورية التي تحدها جبال طوروس شمالاً والخابور فالفرات شرقاً والصحراء العربية فمداين صالح جنوباً والبحر الاحمر فخط العقبة ورفح فالبحر الابيض غرباً وان تستقل سوريا استقلالا تاماً تضمنه عصبة الامم وان تحكم حكما ديمقراطياً لامركزيا مدنيا وان يضمن دستورها حقوق الاقليات . وانتخب هذا الحزب الامير ميشال لطف الله رئيساً له وكان الامير لطف الله يجهزه بالاموال الضرورية .

وشاهدت دمشق في الخامس والعشرين من كانون الثاني ١٩٢٠ مولد الحزب الوطني السوري وهو حزب يؤيد حكومة ملكية ديمقراطية نيابية تكون من الشعب والى الشعب يرأسها الامير فيصل باسم ملك سوريا ويسعى الى استقلال البلاد السورية استقلالا لا شائبة فيه بحدودها الطبيعية ويساوي في الحقوق بين السوريين على اختلاف عناصرهم واديانهم ويدعو الى تدعيم الصلات الاقتصادية والخارجية والقومية بين سوريا وسائر الاقطار العربية ويطالب بالتجنيد الاجباري

والتعليم الالزامي ويرجو تحسين النظام الاجتماعي بتنشيط النقابات الزراعية وتأسيس صناديق للتعاون الاقتصادي . .

وأسس في مصر حزب عرف باسم الحزب السوري المعتدل عمل لتأليف دولة سورية في ظل الوصاية أو الانتداب الاميركي تحدها جبال طوروس شمالا وصحراء سينا جنوبا ومن البحر المتوسط غربا الى الصحراء العربية شرقاً وان تقسم سوريا الى ولايات متحدة مستقلة كل منها بشؤونها الداخلية على غرار الولايات المتحدة الاميركية على ان تلتقي كلها في حكومة مركزية واحدة ذات صبغة ديمقراطية نيابية . وان يكون الدين فيها منفصلا عن الحكومة ، واللغة العربية هي اللغة الرسمية من اقصى البلاد الى اقصاها . وكان من اعضاء هذا الحزب رجال مفكرون عرفوا بخدماتهم للنهضة العربية الحديثة واشهرهم الدكتور فارس نمر والدكتور يعقوب صروف صاحبي المقطم والمقتطف وسعيد باشا شقير وانطون مشاقه وخليل خياط وميشال ايوب ونسيم صيبعة وامين مرشاق وسليم حداد وسامي الجريديني . ولم يكن لهذا الحزب رئيس معين وانما كانوا ينتخبون رئيساً لهم في كل جلسة يعقدونها . وبسط هذا الحزب رأيه الى لجنة كراين ولكنه لم يفز بطائل لان اميركا لم تكن لتهتم بعد بشؤون الشرق ولان رائحة البترول لم تكن بعد لتنبعث منه .

وسعت هذه الاحزاب الى بث روح الوطنية في البلاد السورية وكانت كلها تهدف الى استقلال سوريا ووحدتها وانهاضها من عثرتها علمياً واقتصادياً وعسكرياً والحق ان هذه الاحزاب هيأت سوريا لمجابهة لجنة كراين بمجابهة الرجل الحر الكريم الذي لا يرضى بغير الكرامة والعزة .

•

كيف اقتسمت انجلترا وفرنسا النفوذ في الشرق

حاولت فرنسا جهد المستطاع ان تفوز بعطف الشعب السوري قبل قدوم اللجنة الاميركية وانفقت في هذا السبيل عشرات الالوف من الجنيهات واني

أعرف شخصياً أن مبالغ طائلة عرضت على سماحة مفتي بيروت الشيخ مصطفى نجا فاعرض عنها ولم يرض أن يبيع ضميره . وكانت اللجنة تتألف من المستر تشارلس كراين رئيساً والمستر هنري كنغ مندوباً والمستر البوت يساو والمستر جورج منتغمري مستشارين فنيين والكابتن وليم باي ملحقاً والمستر لورنس مور مديراً للاعمال ونشطت الدعايات الفرنسية وتعددت اسباب الاغراء فاقبل بعضهم على طلب الانتداب الفرنسي حباً بالمال لا حباً بفرنسا ، ومكثت اللجنة الاميركية في سوريا ولبنان وفلسطين مدة شهر ونصف الشهر تقريباً وجابت بلدانها الواحدة اثر الاخرى واجمعت الاكثرية المطلقة على طلب الاستقلال التام مع الوصاية الفنية الاميركية فاذا أبت الولايات المتحدة هذه الوصاية فلتكن من انكلترا وقد رفضت اكثرية السكان الانتداب الفرنسي وشذ عن هذا الاجماع الموارنة في جبل لبنان كما انها رفضت الهجرة الصهيونية الى فلسطين .

وبينما كانت لجنة كراين الاميركية تستفتي السكان في سوريا اتفق لويد جورج مع المسيو كليمنصو على اقتسام النفوذ في المشرق في ١٩ ايلول سنة ١٩١٩ وبموجب اتفاق لويد جورج - كليمنصو تنـــازلت انكلترا للدولة الفرنسية عن كيليكيا وسوريا ولبنان وأطلقت يدها اطلاقاً تاماً في هذه المقاطعـات . وتعهدت فرنسا لقاء ذلك فصل الموصل عن سوريا واطلاق يد الدولة البريطانية في العراق وفلسطين واحتلال شرق الاردن وسلخها عن امها سوريا لتكون مقراً للجيوش الانكليزية وكان الامير فيصل يرجو ان لا ينكث به حلفاؤه ولكنهم اضطروه بهذا الاتفاق ان يوجه وجهه تجاه باريس ويلجأ الى كليمنصو النمر الفرنسي لعـله يصل معه الى نتائج تحفظ استقلال البلاد وسيادتها .

والغريب ان لجنة كراين اسقط في يدهـــا حينما تم الاتفاق بين لويد جورج وكليمنصو فحملت تقريرها الى واشنطن وسلمته الى وزارة الخارجية التي القته في سلة المهملات وقد ظل امره مكتوماً الى ان نشر مؤخراً في عام ١٩٢٤ . وتقول هذه اللجنة ان سوريا تطلب الاستقلال التام مع المساعدة الاميركية او الانكليزية وترفض المطالب الافرنسية وتحتج على معاهدة سايكس - بيكو وتصريح بلفور

الذي يمهد للصهيونيين انشاء وطن في فلسطين ويقـاوم فكرة لبنان الكبير واستقلاله . اما الفكرة الاستقلالية اللبنانية فكانت تطلب فصل لبنان والاقضية الاربعة عن سوريا وانشاء دولة لبنانية تحت الوصاية الفرنسية .

وقال بعضهم بلبنان الكبير المستقل ادارياً ضمن الوحدة السورية دون وصاية فرنسا لانهم كانوا يتخوفون من المستقبل الاقتصادي القاتم الذي قد يخيم على البلاد اذا فصل لبنان عن سوريا .

ذكرنا ان فيصلا وجه وجهه الى باريس لما اقتسمت الدولتان البريطانية والفرنسية النفوذ في المشرق وقد أبدى من المهارة الديبلوماسية في انتزاع الكثير من الشروط النافعة لسوريا وقتئذ من كليمنصو ما ادهش الساسة، وكان مشروع كليمنصو – فيصل ينص على اعتراف الحكومة الفرنسية بالشعب السوري واهليته لحكم نفسه بنفسه وضمان استقلال سوريا من كل تعد خارجي ضمن الحدود الجنسية اللغوية والجغرافية لهذا الشعب. وتعهد الامير فيصل ان يستعين بالحكومة الفرنسية ويطلب منها وحدها المستشارين الفنيين في الامور الادارية والمالية والعسكرية ويكون هؤلاء موظفين تحت امرة الحكومة السورية بموجب عقود يتعاقدون بها معها .

واتفق فيصل وفرنسا على انشاء نظام دستوري للحكم يضمن للاهلين حقوقهم وحرياتهم ويكون لسورية ممثل لدى الحكومة الفرنسية في باريس كما ان هـذه الاخيرة سيقوم سفراؤها وقناصلها بتمثيل مصالح سوريا الخارجية ويكون لفرنسا الحق الاول في عقد القروض مع سوريا اللازمة للمشاريع الهامة ما لم يتقدم الوطنيون انفسهم لمثل هذه القروض .

وأكدت فرنسا على فيصل بوصفه الرجل المسؤول الاول في سوريا ان يعترف باستقلال لبنان وسلامة حدوده تحت الانتداب الافرنسي . امـا حدود البلدين سوريا ولبنان فستعين في مؤتمر الصلح بما يضمن مصالح الطرفين . وقالت فرنسا ان اللغة العربية هي اللغة الرسمية في دواوين الحكومة والمدارس واما اللغة الفرنسية فتدرس بصورة اجبـارية والحق ان كلا الرجلين فيصل وكليمنصو بذلا جهداً

متميتاً للوصول الى هذه الاتفاقية ولو لم يكن كليمنصو في الحكم بفرنسا لما وجدنا فرنسياً واحداً مستعداً ان يتساهل مع فيصل الجذاب مثل هـذا التساهل .

وعرض فيصل هذا المشروع على الوطنيين بسوريا في اوائل عـام ١٩٢٠ فرفضوه وأقاموا النكير عليه وكاد بعضهم يتهمه بالخيانة . ولو فرض فيصل ارادته يومئذ لما تخبطت البلاد بالفوضى ولما قست فرنسا على سوريا قسوتها المعروفة ولما عاشت تحت الحكم العسكري ولما دخلت جيوش فرنسا دمشق بعد معركة ميسلون .

●

المؤتمر السوري يعلن استقلال سوريا

رأى فيصل ان الاتفاق مع فرنسا أمر عسير لا يرضى عنه الشعب السوري فقال يومئذ كلمته المشهورة « انني لا أرضى أن أبني ملكي على الجماجم » وهكذا فشل مشروع كليمنصو - فيصل إلى الابد . فرجع فيصل إلى المؤتمر السوري في دمشق ليقول كلمته في مصير البلاد وكان يتألف من أعضاء انتخبهم المندوبون الثانويون الذين كانوا ينتخبون قبلاً نواب سوريا في المجلس النيابي العـثماني ومن بعض أعيان ووجهاء بيروت ولبنان وفلسطين فأعلن هذا المؤتمر استقلال سوريا الطبيعية داخلاً وساحلاً ومن ضمنها فلسطـين ليضع انكلترا وفرنسا أمام الامر الواقع ونشر دستوراً يقول بالنظام الملكي الدستوري ونادى بالامير فيصل ملكاً على سوريا باسم الملك فيصل الاول وحصر الملك في اسرة فيصل نفسه وأوجـد مجلساً نيابياً يُنتخب على درجتين ومجلساً للشيوخ يعين بعض أعضائه الملك والبعض الآخر ينتخبه مجلس الشيوخ نفسه ونص الدستور أن تكون مدة النيابة أربـع سنوات ومدة العضوية في مجلس الشيوخ تسع سنوات ويتجدد ثلث أعضاء مجلس الشيوخ كل ثلاث سنين . ونودي بالامير فيصل ملكاً على سوريا في الثـامن من

آذار عام ١٩٢٠ وتلي في قصر البلدية بدمشق في حفلة رسمية قرار المؤتمر السوري التاريخي بهذا الشأن . وقد توج القرار بهذه المقدمة : « إن الامة العربية ذات المجد القديم والمدنية الزاهرة لم تقم جمعياتها وأحزابها السياسية في زمن الترك بواصلة الجهاد السياسي ولم ترق دماء شهدائها الاحرار وتثر على حكومة الاتراك إلا طلباً للاستقلال التام والحياة الحرة بوصفها امة ذات وجود مستقل وقومية خاصة ، لها الحق أن تحكم نفسها بنفسها اسوة بالشعوب الاخرى التي لا تزيد عنها مدنية ورقياً» واختتم القرار بهذه الفقرة : « هذا واننا باسم الحكومة السورية التي أنابتنا عنها نحتفظ بصداقة الحلفاء الكرام محترمين مصالحهم ومصالح جميع الدول كل الاحترام وإن لنا الثقة التامة بان يتلقى الحلفاء الكرام وسائر الدول عملنا هذا المستند الى الحق الشرعي والطبيعي في الحياة بما نتحققه فيهم من نبل القصد وشرف الغاية فيعترفوا بهذا الاستقلال ويجلوا الحلفاء جنودهم عن المنطقتين الغربية (لبنان) والجنوبية (فلسطين) ليقوم الجند الوطني والادارة الوطنية بحفظ النظام والادارة فيهما مع المحافظة على الصداقة المتبادلة حتى تتمكن الامة السورية العربية من الوصول الى غاية الرقي وتكون عضواً عاملاً في العالم المدني »

تألم الفرنسيون من النهضة الوطنية الاستقلالية التي أشعل نارها فيصل وولوا وجههم الى لندن فكانت اتفاقية لويد جورج - كليمنصو وبها أعطيت فرنسا النفوذ الاول في سوريا ثم عملوا مع اللبنانيين الذين قالوا بخلق لبنان الكبير في ظل الإنتداب الفرنسي ليغطوا مركزهم الذي كشفه استفتاء اللجنة الاميركية المعروفة بلجنة كراين وأظهر ضعفهم لدى الشعب السوري وكان همّ الموظفين الفرنسيين في لبنان وعلى رأسهم المسيو جورج بيكو بث الدعاية بين اللبنانيين لانشاء لبنان الكبير ذي الحدود الموسعة . وعمل الفرنسيون في سبيل ذلك بواسطة مجلس إدارة لبنان والبطريرك الماروني . ورفع مجلس ادارة لبنان عريضة الى مؤتمر الصلح يلتمس فيها ارجاع لبنان الى حدوده التاريخية والجغرافية القديمة لأن الدولة العثمانية سلخت عنه بعض أجزائه عنوة واغتصاباً « ولأن لبنان لا يتسع له العيش والرخاء ما لم تعد اليه القطع المفصولة عنه ، ولما كانت القطع المغتصبة من

لبنان تعد قسماً منه ومعظم سكانها هم من اللبنانيين أصلاً ، فان مجلس ادارة لبنان ينادي باستقلال لبنان السياسي والاداري بحدوده التاريخية والجغرافية واعتبار البلاد المغتصبة عنه بلاداً لبنانية كما كانت قبل سلخها عنه ويرجو أن تكون حكومة لبنان ديموقراطية تحفظ حقوق الاقلية وحرية الاديان . وقامت فرنسا الى البطريرك الماروني الياس حويك تحمله على السفر الى باريس ليطالب بانشاء لبنان الكبير في ظل الانتداب الفرنسي فقصد اليها ومعه لفيف من المطارنة فاجتمع البطريرك الى وزير الخارجية الفرنسية والى كليمنصو نفسه ففاز منه بهذا التصريح وها نحن نثبته للتاريخ :

« باريس في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٩١٩

« أيها السيد :

« إن المفاوضات التي جرت من يوم وصولكم الى باريس فيما بينكم وبين وزير الخارجية وبيني أنا قد وطدت ولا شك فيكم الاعتقاد أن حكومة الجمهورية متمسكة تمسكاً لا تنفصم عراه بتقاليد الولاء المتبادل منذ قرون بين فرنسا ولبنان ، تلك المفاوضات التي أكدت لكم أيضاً أن حل المشكل الذي نسعى اليه في مؤتمر الصلح هو على وجه الاجمال مطابق لأماني الشعب الذي أنت ممثله السامي . إن رغبة اللبنانيين في المحافظة على حكومة ذاتية ونظام وطني مستقل تتفق كل الاتفاق مع تقاليد فرنسا الحرة وأن اللبنانيين لمتأكدون من مساعدة فرنسا ومؤازرتها . وبالاستقلال عن كل مجموع أهلي أياً كان وأن يحافظوا على تقاليدهم ويوسعوا نطاق نظمهم السياسية والادارية وأن يستعجلوا بأنفسهم زمن الانتفاع التام من مرافق بلادهم وأخيراً أن يروا أولادهم يتأهبون في مدارسهم الخاصة للقيام بالوظائف العمومية .

أما الحدود التي سيجري فيها هذا الاستقلال فلا يمكن تعيينها نهائياً قبل أن يقرر ويحدد أمر الوصاية على سورية على أن فرنسا التي بذلت ما في وسعها سنة ١٨٦٠ لكي تخول لبنان أرضاً أوسع لا تنسى أن تضييق حدوده كما هو الآن نتيجة الضغط الذي أنّ لبنان تحته زمناً طويلاً وأن فرنسا التي ترغب في تحسين الصلات

الاقتصادية بين البلاد الموضوعة تحت وصايتها ستنظر أيضاً بغاية العناية عند تحديد تخوم لبنان في ضرورة تخويل الجبل الاراضي السهلية والمرافىء البحرية اللازمة لعمرانه وانني على ثقة من أن التأكيدات التي أبديتها لغبطتكم توافق العواطف التي حملت الشعب اللبناني في هذه المرة أيضاً على طلب وصاية فرنسا لبلاده ولي الامل أن الحل النهائي الذي سيبته مؤتمر الصلح في المسألة السورية يفسح المجال للحكومة الفرنسية ويمكنها أن تحقق كل التحقيق أماني هذا الشعب الباسل .

واقبل يا صاحب الغبطة فائق اعتباري » .

« كليمنصو »

حارب الفرنسيون استقلال سوريا حرباً لا هوادة فيها فضحوا بالموصل وزيوتها وأعطوها لانكلترا أيضاً كيما تطلق يدهم فيها والحق أن انكلترا أيضاً ضحت بالصداقة العربية اكراماً لهذه الزيوت العظيمة التي تستعين الامبراطورية بها في الحروب .

كانت الموصل عقدة العقد وكانت زيوتها في عام ١٩١٩ السبب في خسران العرب « الاستقلال السوري » لأن الموصل كانت سورية وفي منطقة النفوذ الفرنسي ثم كانت الموصل على بعدها وسيلة لخلق لبنان الكبير والحكومات المختلفة في المقاطعات السورية . ودار الزمن دورته فانتقلت الموصل باتفاقية لويد جورج – كليمنصو من الجانب السوري الى الجانب العراقي .

•

دولة الانتداب هي للتهذيب لا للاستعمار

كانت الولايات المتحدة الاميركية تتمتع بمنزلة في عهد الرئيس ويلسن قل أن تمتعت به دولة أجنبية في سوريا فقد أجمع الاهلون تقريباً في عام ١٩١٩ على طلب وصايتها لانها بعيدة كل البعد عن استغلال البلاد ومرافقها ولأن لها شغفاً عظيماً في انماء النظم الديموقراطية والروح الحرة وقد حاولت بالفعل بواسطة الجامعة

الاميركية وتربيتها العالية أن تخلق لهذا الشرق رجالاً يفكرون باساليب علمية ويضطلعون بالمسؤوليات بحكمة ورجاحة عقل ورحابة صدر قلّ مثيلها .

وقد اعلنت لجنة كراين حين وصولها الى سوريا ان ليس للشعب الاميركي اي مطامع في الشرق الادنى ولا يهمه الا أن يسود السلام في العالم .

ولكن حكومة الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية وفي عهد الرئيس ترومن خسرت كثيراً من نفوذها بسوريا لمساندتها الصهيونية ومساعدتها مساعدة فعالة بالاموال والسلاح على انشاء دولة اسرائيل التي اصبحت شوكة في عـــين الاتحـــاد العربي .

والظاهر ان الولايات المتحدة الاميركيـة أصبحت مطية لليهود في هـذا الشرق حتى انها فقدت نفوذها العظيم بشرقنا بحقبة لا تزيد عن ثلاثين عاماً وكانت لجنة كراين نزيهة في احكامها وآرائها التي تقدمت بها الى عصبة الامم حتى اصبحت مضرب المثل بتوصياتها المثالية فقد اشارت قبل كل شيء ان الدولة التي يوكل اليها الانتداب على سوريا يجب ان لا تأتي مستعمرة بل مهذبة غايتها المقدسة تنحصر في تقديم الخدمات الطيبة للشعب السوري وتوفير كل الاسباب لترقيته .

ثم اشارت لجنة كراين ان تحدد مـدة الوصاية بوقت وأن تنشأ حكومة وطنية مستقلة لها دستور وبرلمان قادرة على تنمية الروح الوطنية القومية عند الاهلين وان تضمن هذه الحكومات حرية العبادة والكتابة والصحافة وان تحافظ على الاقليات وينبغي على الدولة الوصية أن تبذل جهودها في تسيير الدولة السورية نحو الاستقلال الاقتصادي فلا تستخدم سلطانها في تأييد الشركات الاجنبية التي من دأبها الاحتكار وقالت لجنة كراين ان من واجب الدولة الوصية أن تحافظ على وحـــدة البلاد السورية لان سوريا هذه الرقعة من الارض لا تحتمل التجزئة ولا يجوز أن تقوم فيها حكومات عديدة تتنافر وتتخاصم على النفوذ ثم لا يجوز الا أن تبقى سوريا عربية بلغتها ومدنيتها وتقاليدها . اما سوريا فيجب أن لا تهمل ما للبنان من الاستقلال الذاتي الذي اكتسبه بجهاده منذ مئات السنين في عهد الدولة العثمانية .

ومن الضروري ان يشعر اللبنانيـون انهم عضو محترم في الدولة السورية وانهم

اصحاب مكانة فيها لا تقل عن مكانتهم في المملكة العثمانية وان اتصالهم بسوريا اقتصادياً وسياسياً هو افضل من انفصالهم عنها .

وطالبت لجنة كراين ان يكون الامير فيصل ملكاً على سوريا المتحدة لان السواد الاعظم من السوريين يجل هذا الامير الجذاب صاحب الشخصية القوية ولانه وصل الى مكانته العالية بجهاده المتواصل وثورته على المظالم التركية ولانه عربي يريد ان يقتبس كل الفضائل من المدنية الغربية ثم هو سياسي لبق متسامح بعيد النظر يعرف لن ينال ثقة الاقلية قبل الاكثرية وليس له من ينافسه من الزعماء .

وتمنت لجنة كراين ان تكون الولايات المتحدة الاميركية هي الدولة الوصية على سوريا لان ستين في المائة من مجموع السكان طالبوا بوصايتها بينما لم تنل اية دولة اخرى اكثر من ١٥ بالمائة وذلك لثقة الشعب السوري بنزاهة الولايات المتحدة وشرف مقاصدها ولان الولايات المتحدة اخذت بيد كل من دولتي كوبا والفيليبين نحو الاستقلال بروح ديموقراطية نبيلة . اما اذا رفضت حكومة الولايات المتحدة الوصاية على سوريا فالافضل ان تكون بريطانيا هي الوصية لان الشعور العربي كان ضد فرنسا ولأن لبريطانيا رجالاً مدربين في خدمة الشرق . وكان السوريون يتخوفون من انكلترا لئلا تتحول الوصاية عندها الى استعمار يخدم الامبراطورية البريطانية . وتقول لجنة كراين أن الدولة السورية تضمن كل المصالح الفرنسية من تربوية واقتصادية وتحافظ عليها . أما اذا أصرت فرنسا أن تكون هي الدولة المنتدبة فلتكن هي الوصية على لبنان الصغير فحسب وهذا ترتيب ممكن ولكنه ليس الترتيب الذي ينظر اليه بعين العطف والمصلحه . ولا تشير اللجنة على عصبة الامم بالاخذ بهذا الرأي .

هذه هي التمنيات التي تقدمت بها لجنة كراين بواسطة وزارة الخارجية الاميركية الى عصبة الامم ولكنها أهملت ولم تظهر الى العالم الا في سنة ١٩٢٤ . لقد ماتت هذه التمنيات أمام الاتفاقات البريطانية الفرنسية وأصبحت حبراً على ورق وكان ما كان من احتلال فرنسا لسوريا كلها .

نحرت فرنسا الدولة السورية الجديدة

وعينت الجنرال غورو مفوضا ساميا في الشرق

اعلن المؤتمر السوري في دمشق الدولة السورية ، واعلن كذلك انتهـاء الحكومات العسكرية الاحتلالية في المناطق الثلاث على ان تحكم على طريقة اللامركزية وان يكون للبنانيين حقهم في حكم انفسهم بانفسهم ضمن حدود لبنان الصغير شرط ان لايكون لفرنسا او غيرها اي تدخل بينهم اوتأثير عليها .

واستند المؤتمر في اعلان الدولة السورية وملكية فيصل الاول على العهود والوعود التي قطعها الحلفاء ابان الحرب العالمية الاولى باستقلال البلاد العربيـة ومن ضمنها سوريا وعلى المبادىء التي جهرت بها حكومة الولايات المتحدة وعلى رأسها ويلسون والتي تقول بتحرير الشعوب واستنكار المعاهدات السرية المجحفة التي تتنكر لمصير الامم .

ولكن فرنسا التي كان يهمها ان توطد نفوذها في سوريا اجابت على اعلان الدولة السورية بالتحدي وعينت الجنرال غورو قائداً عاماً للجيش الفرنسي في الشرق ومندوبا سامياً لفرنسا في سوريا وكيليكيا وصرحت ان مهمة الجنرال غورو هي المحافظة على النظام في هذين القطرين الى ان يقرر مؤتمر الصلح مصير المقاطعات التي سلخت عن جسم الامبراطورية العثمانية . واني لاكاد ارى بعيـني رأسي استقبال الجنرال غورو في بيروت هذا الاستقبال العسكري الشائق ، وهو رجل شبه اعرج اصيب في جسده ففقد يده اليمنى وكان الفرنسيون ينظرون اليه كبطل من ابطالهم المشوهين .

ومنذ ان وطئت قدما الجنرال غورو مدينة بيروت بدأ الجنود الفرنسيون يتدفقون من البحار الى سوريا بحجة استبدال - جند بجند - وراح كبار الضباط الفرنسيين يلتحقون بجيش الشرق . واخذت جيوش الاحتلال البريطانية بالجلاء عن دمشق وحلب ولم يبق منها الا القوى المرابطـة في حوران وشرقي الاردن وحلقت طائرات الانكليز في سماء العاصمة الاموية تنثر اوراقاً تشكر فيها القوات

العربية وسكان دمشق على ما ظهر منهم نحو البريطانيين من عطف تتمنى للعرب مستقبلا زاهراً .

وشعرت الحكومة العربية بعبء المسؤوليات التي ستواجهها بانسحاب الجيوش البريطانية فطلبت الى الاهلين ان يساعدوها في المحافظة على الامن والسلم في البلاد وتوزيع العدل على جميع الطوائف ومنع الاعتداء وقطع دابر الشقاوة والاهتمام معها في تنظيم قوات الدرك والشرطة وراحت فرنسا بعد انسحاب الجيوش البريطانية من سوريا تبلغ الحكومة البريطانية ان وحداتها ستحل محل البريطانيين في شتورا ورياق وبعلبك فهال الحكومة العربية هذا الامر وانتدبت نوري السعيد - نوري باشا السعيد رئيس الحكومة العراقية اليوم - ليباحث الجنرال غورو في بيروت عن الاخطار والنتائج السيئة التي قد تنجم عن هذا الاحتلال الذي يمقته الشعب السوري ويأباه .

ولكن فرنسا طمأنت الحكومة العربية بلسان الجنرال غورو ان انسحاب الجيوش الانكليزية واستبدالها في بعض المراكز بالجيوش الفرنسية ليس سوى تدبير عسكري موقت وان هذا لايدل قطعاً على تجزئة سوريا وان الحكم في كل المنطقة الشرقية سيظل مناطاً بحكومة دمشق كما ان الحاميات العربية في بعلبك ورياق ستبقى مسؤولة عن النظام والامن . وخابر فيصل الشجاع كليمنصو بشأن الاحتلال الفرنسي الجديد لبعلبك ورياق واقنعه أن تكتفي فرنسا - بضابط ارتباط - يقيم في بعلبك و- ضابط ارتباط اخر - يقيم في راشيا . فانفجرت الازمة وما كاد ضابط الارتباط يأتي الى بعلبك ليقيم فيها حتى قام البعلبكيون بتظاهرة على ابواب المدينة ومنعوه من الدخول اليها وصادروا امتعته الخاصة فاصدر الجنرال غورو امره الى قوة فرنسية يقودها الجنرال ده لاموط بالزحف على مدينة الشمس فوصلت طلائعها الى قرية الطيبة وتبعد ٨ كيلومترات غربا عن بعلبك واشتبكت هناك مع السكان بمعركة خسر فيها الجيش الفرنسي ٩ قتلى و١٥ جريحاً واحتجت الحكومة العربية على هذه التدابير الفرنسوية وبعد اخذ ورد انسحبت الجيوش الفرنسية من بعلبك وبقي فيها ضابط الارتباط الفرنسي وحوكم

الذين اعتدوا عليه .

ان حادث بعلبك افهم الحكومة العربية بدمشق وجميع السوريين ان امام استقلالهم عقبات وعقبات وان الجنرال غورو يود ان ينتهز الفرص ليدخل بلادهم فاتحاً وانه يرجو ان يتوج تاريخه العسكري بمجد جديد ، وهل في دنيا الشرق مجد اعظم من فتح دمشق وتأسيس امبراطورية فرنسية في المشرق عجز عن تأسيسها نابوليون الاول ونابوليون الثالث . ان الجنرال غورو عزم امره ان يحل القضية السورية بالسيف وان لا يسأل عن ديبلوماسية فيصل ونفوذه وان لا يهتم لاماني السوريين .

●

الوطنيون يشعلون الثورة في سوريا

كانت معركة بعلبك درساً قاسياً للشعب السوري وللحكومة العربية في دمشق سواء بسواء . وقد تبين لهما ان الاستقلال لا يؤخذ بالخطب الرنانة والكلام ولا بالتصريحات الفخمة ولا باجتماع الشباب بالاحياء وعند كبار رجال الاحياء وانما يؤخذ الاستقلال بالقوة وبذل الدماء رخيصة في سبيله . وهبت حكومة دمشق تفكر بالتجنيد الاجباري ولكن الشعب لم يقبل عليه لانه كان خارجاً من حرب طحنت شبابه طحناً .

وراحت العصابات السورية تعمل في مختلف المناطق لقهر القوات الفرنسية التي كانت ترجو ان تثبت اقدامها في سوريا ولبنان ، واشهر من تجرأ على محاربة فرنسا بشراسة وبطولة كان الدنادشة في تل كلخ وبدأت الثورة عند الدنادشة حينما رفع الحاكم العسكري الفرنسي العلم الفرنسي على دار الحكومة في تل كلخ وطلب الى وفد منهم الذهاب الى بيروت لاستقبال الجنرال غورو فرفضوا استقبال الجنرال والحوا على الحاكم بانزال العلم فارسل اليهم ان يتفرقوا والا ضرب بيوتهم بالقنابل فكتبوا اليه انهم احلوا الفرنسيين بينهم لانهم حلفاء ولا يحق للحليف ان يرفع

علماً في ارض لا يملكها وانهم سيدافعون عن وطنهم حتى الموت، واخرجوا عيالهم الى البر وحاصروا سراي تل كلخ والتحموا مع الجند الفرنسي في معركة امتدت اربع ساعات وانتهت بتراجع القوات الفرنسية ولكن القيادة العليا لفرنسا في المشرق ارسلت على الدنادشة الطيارات والمدافع والفرسان وبعد جهود جبارة تغلبت وفرضت عليهم الغرامـــات وصادرت املاكهم وخيولهم ومزارعهم وحكمت على بعضهم بالاعدام وهاجر معظمهم الى دمشق وناضلوا معهـــا حتى النفس الاخير .

ويظهر ان دروز الشوف وعلى الاخص اهالي مزرعة الشوف لم يكونوا راضين عن تحكم فرنسا بلبنان فاعتدوا على الاميرال مورنه قائد الاسطول الفرنسي في المشرق وكان يرافقه المسيو جورج بيكو اثناء مرورهمـا ببعقلين في طريقهما الى بيت الدين وقد جرح الاميرال مورنه جرحاً خطيراً شفي عـــلى اثره . فسيرت فرنسا فرقاً من جيوشها الى الشوف اخذت تفتك بالشباب الشوفي فاضطر هؤلاء الى الاعتصام برؤوس الجبال للدفاع عن انفسهم وشن الغارات على الجند الفرنسي وما نزال نذكر محاصرة الحي الدرزي في مزرعة الشوف بالقوى الفرنسية وضربه بالمدفعية والقنابل الملتهبة وقتلت فرنسا يومئذ اربعين رجلا وامرأة وهدمت ٢٥ منزلا . وبدأت حوادث الشوف في آب سنة ١٩١٩ وانتهت في تشرين الثـــاني سنة ١٩١٩ .

وثار اهالي الحولة على الفرنسيين وعلى رأسهم محمود الفاعور وكان ساعدهم الايمن سكان قرى « هونين والخالصة وكفركلا » من قضاء مرجعيون ورجـــال آل الاسعد من قرية الطيبة فجهزت فرنسا عليهم حملة قوية تبلغ زهاء الالف جندي بقيادة الجنرال ده لاموط أحرقت البيوت ونهبت الطروش . وخسرت فرنسا في هذه الحملة ما يقرب من سبعين قتيلا .

وحاولت فرنسا ان تساند قبائل « الاسماعيلية » ضد « النصيرية » في منطقة اللاذقية فماشتها في اعتداء رجالهم على اراضي ومزارع النصيريين وقام الكولونيل جان يزحف على النصيرية الذين ابوا الاذعان للظلم فحاربهم في المرقب فخسر قسما

كبيراً من حملته في اوديتها ورأت فرنسا ان تفاوض الشيخ صالح العلي قـائد الثورة النصيرية فخضع لها لقاء تقديم عدد تافه من البنادق وعوضت فرنسا عـلى المنكوبين النصيريين وعينت ابراهيم الكنج النصيري قائمقاماً على بانياس واطلقت سراح الزعماء النصيرية الذين قبضت عليهم فتوطد السلام في ربوع اللاذقية .

وكرهت انطاكيه ان تكون فريسة للذل الفرنسي بعد ان قبضت السلطات الفرنسية فيها على بعض اعيانها وامرتهم بتكسير الحجارة في طرقاتها فثار اهالي الحمام والعمق على الحاميات الفرنسية ولكن فرنسا قتلت منهم حوالي الخمسين شخصاً .

وهكذا نرى ان النفوذ الفرنسي في الحولة والشوف واللاذقية وانطاكيه وتل كلخ اخذت تزعزعه الروح الاستقلالية في سوريا ولبنان وقالت فرنسا ان هـذه الحوادث تمت بايعاز من الحكومة الفيصلية في دمشق وان بوسعها ان تؤدب العصاة جميعاً . وبينما كانت فرنسا تمني نفسها بالقضاء على الفتن في المنطقة الغربية السورية التي كانت تحكمها كانت قواتها في كيليكية تلاقي الامرين من الكماليين الاتراك في مرعش واورفـه وعينتاب ومرسين وجن الفرنسيون من هزائمهم في سوريا وكيليكيه فكانوا يحرقون البيوت ويهدمون القرى ويعدمون الناس على الشبهات وطلب الجنرال غورو الى حكومة باريس ان تمده بنجدات قوية فارسلت اليه ستين الف جندي . وكانت هذه القوة كافية للقضاء عـلى حكومة فيصل في دمشق .

•

اوروبا لا تعترف بالدولة السورية

أحب فيصل من صميم قلبه ان يتفق مع فرنسا وأن يخلص في هذا الاتفاق الذي دعي باتفاق كليمنصو - فيصل وقد كان يده اليمنى في المفاوضة مع فرنسا المغفور له رستم حيدر واوردنا نصوص هذا المشروع وكان له ثلاثة ملاحق ونظم في باريس

في نسختين بتاريخ السادس من كانون الثاني عام ١٩٢٠ . اما الملحق الاول فكان خاصاً بالاقليات وتضمن ان الاقليات تستفتي في مصيرها اذا ارادت الالتحاق بسوريا او لبنان عند تحديد الحدود بين البلدين .

اما الملحق الثاني فكان بشأن جبل الدروز وللجبل ان يكون له استقلال نوعي ضمن الدولة السورية .

واما الملحق الثالث فكان عن بيروت والاسكندرونة وقد تقرر فيه ان تكونا مدينتين حرتين . .

والمؤسف ان الجنرال غورو لم يحسن معاملة الامير فيصل بعد ان بذل هذا الاخير الجهود الجبارة لتذليل كل العقبات في سبيل صيانة الانتداب الفرنسي على سوريا بعد ان تخلت عنه كل من الولايات المتحدة وانكلترا فقد كان غورو يحاول ان يتقدم على الامير فيصل – وهو سيد البلاد واملها المرجى في الاستقلال – بالحفلات العامة حتى انني شاهدته بنفسي يتقـــدم على الامير فيصل في حفلة من حفلات سباق الخيل في بارك بيروت . والغريب ان الكياسة الفرنسية لم تكن لتستسيغ هذا النوع من المعاملات وهي مضرب المثل في اللياقة والمجاملات.

وشاء القدر ان اشاهد الملك فيصل عام ١٩٢٥ في احدى الحفلات الرسمية ببغداد يقوم المندوب السامي البريطاني بنفسه على اشعال لفافة العاهل الكبير . واستغل المعارضون الكثيرون هذا الطراز من المعاملة السمجة وراحوا يحركون في فيصل كبرياءه الجريحة .

ولكن ذلك الرجل العاقل الذي كان يحب بلاده حباً جما ويرجو ان ينتهز الفرص لاقتناص استقلالها من دول الاستعمار ويخشى حكم التاريخ عليه فهم ان الذين حوله من القوالين غير الفعالين اذا وقعت الواقعة فظل يداور فرنسا لعله يفوز منهـــا باماني البلاد .

ترى ماذا كان بوسع فيصل ان يفعل امام هؤلاء الذين كانوا يخطبون الخطب النارية ضد مشروع اتفاقية فرنسا والذين كانوا لا يخجلون ان يقولوا ان بامكانهم طرد فرنسا وانكلترا سوية من سوريا . ولم يستح بعضهم ان يصرح ان فيصلاً كان

يفرط في حقوق البلاد .

واراد فيصل ان يمهد لتنفيذ اتفاقية كليمنصو - فيصل فاجتمع الى الجنرال غورو وطلب اليه ان يصدر عفواً عاماً عن الوطنيين الذين حملوا لواء الثورة في الشوف والحولة واللاذقية وبعلبك وان ينشيء حكومة وطنية في بيروت تتفاهم مع حكومة دمشق العربية فأبى الجنرال غورو لانه كان يبيت في قرارة نفسه احتلال سوريا عسكرياً وتهديم الحكم الفيصلي. وهذا ما باعد بين الامير فيصل وقائد جيش الشرق وجعل الامير يرتمي بين احضان القدر ويهمل مشروع اتفاق كليمنصو - فيصل ويندفع مع المؤتمر السوري باعلان الاستقلال والدولة السورية في الثامن من اذار سنة ١٩٢٠ ثم يرضى بتتويجه ملكاً دستورياً على سوريا باكملها .

وتقدم الوجهاء والاعيان والرؤساء الروحيون المسيحيون لمبايعة فيصل ملكاً وذكر الرؤساء الروحيون في عقد البيعة انهم يبايعونه « على اطاعة الله واحترام الاديان والحكم بالعدل واجراء المساواة وتوطيد الامن وتعميم المعارف واسناد الوظائف لمستحقيها » . وتألفت الوزارة الدستورية الاولى في التاسع من اذار سنة ١٩٢٠ برئاسة السيد رضا الركابي ، وعين بها رضا الصلح وزيراً للداخلية وفارس الخوري وزيراً للمالية وساطع الحصري وزيراً للمعارف ويوسف الحكيم وزيراً للحربية وعلاء الدين الدروبي رئيساً لمجلس الشورى وسلكت هذه الوزارة طريق الاعتدال والتروي ورأت ان تتقرب من انكلترا وفرنسا ولكن مع الأسف الشديد ابلغت هاتان الدولتان الملك فيصل انهما لا تستطيعان الاعتراف بقرار المؤتمر السوري ودعتاه الى زيارة لندن وباريس لبسط القضية السورية مجدداً . ولكن كيف يمكن لفيصل السفر وقد بدأت الحوادث تأخذ بعضها برقاب بعض بسرعة مدهشة .

وقامت فرنسا توعز لمجلس ادارة لبنان وللبطريرك الماروني ولمجلس بلدية طرابلس ولبعض الهيئات في لبنان ان تحتج على قرار المؤتمر السوري واعلان الدولة السورية وتتويج الملك فيصل فكتب مجلس ادارة جبل لبنان الى الجنرال غورو عريضة بتاريخ الثاني عشر من آذار سنة ١٩٢٠ قال فيها : « لقد اطلع هذا المجلس

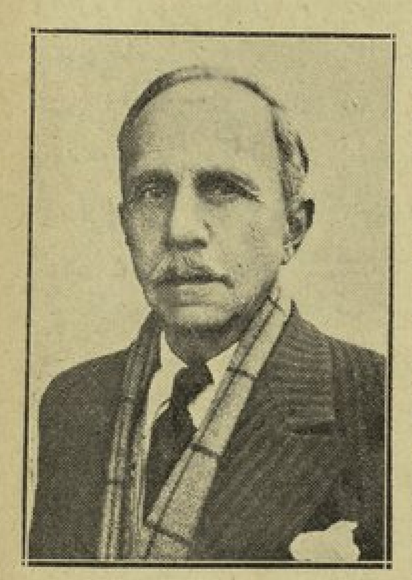
على قرار صادر من المؤتمر السوري بمناسبة تتويج سمو الامير فيصل ملكاً على سوريا فوجد فيه مساً بحرية لبنان وحقوقه ولما كان ليس للمؤتمر السوري ولا لسواه من الحكومات المحلية صلاحية البحث والتدخل في امور لبنان وادارته فيحتج هذا المجلس نيابة عن اللبنانيين على كل ما ورد في المنشور المذكور فيما يتعلق بجبل لبنان ويؤيد استقلاله المطلق في شهر ايار سنة ١٩١٩ راجياً رفع هذا الاحتجاج الى المؤتمر العام المؤتمن على مصالح الامم .

وكتب بطريرك الموارنة يقول : « استناداً الى الانتداب الذي خولنا اياه الشعب اللبناني لتمثيله والمدافعة عن حقوقه لدى مؤتمر السلام نحتج على قرار المؤتمر السوري في دمشق المخالف لاماني اللبنانيين . واذا كان بعض اللبنانيين قد اشتركوا في المؤتمر السوري فهؤلاء لا يمثلون قطعاً الامة اللبنانية . »

وكتب مجلس بلدية طرابلس ان المؤتمر السوري لا يمثل طرابلس ويطلب ان تكون سوريا باكملها تحت الحماية الفرنسية . وسعى الفرنسيون لدى خطباء المساجد ان لا يدعوا الملك فيصل في خطبهم بل يكتفون بالدعاء للخليفة العثماني محمد وحيد الدين السادس فاستنكر مسلمو الساحل هذا التدخل في امور دينهم ولم يطعهم خطيب جامع المجيدية في بيروت الاستاذ محي الدين المكاوي – قاضي بيروت اليوم – فقبضوا عليه ونفوه الى ارواد . واضطرت فرنسا اخيراً الى اخلاء سبيله لئلا تتهم في تعصبها ضد المسلمين وهي الدولة التي يحتمي في كنفها الملايين من المسلمين .

مجلس ادارة جبل لبنان يساند فيصلا

سلكت الوزارة الركابية سبيل الروية والاعتدال فلم تظهر العداء لفرنسا وانما كانت تداورها ولكنها حينما قررت عصبة الامم في مؤتمر سان ريمو في السادس والعشرين من نيسان عام ١٩٢٠ منح فرنسا الانتداب على سورية ومنح بريطانيا الانتداب على العراق وفلسطين اشتد الضغط الشعبي على هذه الوزارة فاستقالت وعهد صاحب الجلالة الملك فيصل بتأليف الوزارة الجديـــدة الى السيد هاشم الاتاسي فشكلها واحتفظ لنفسه بالداخلية وعين الدكتور عبد الرحمن شهبندر وزيراً للخارجية والسيد يوسف العظمة وزيراً للحربية والسيد فارس الخوري وزيراً للمالية والسيد جلال الدين وزيراً للعدلية والسيد ساطع الحصري وزيرا للمعارف والسيد جورج رزق الله وزيراً للتجارة. ورأت هذه الوزارة انها بحاجة للمال عصب الدولة فبدأت عملها باصدار قرض داخلي بنصف مليون دينار سوري بفائدة ستة بالمائة ويرهن لقاؤه مليون دونم من اراضي الدولة في ولاية حلب ولوائي حمص وحماه ولكن القدر لم يمهل سورية في حياتها الاستقلالية فبقي هذا المشروع العظيم حبراً على ورق . كذلك عدلت هذه الوزارة قانون التجنيد الاجباري وفرضته على كل السوريين وقررت أن تكون الخدمة الفعلية سنة واحدة .



الوجيه عارف النعماني

وها هي سورية اليوم وبعد ثلاثين عاماً من الجهاد المرير المغموس بالدم والدموع لم تنفذ الخدمة الاجبارية على جميع السوريين والسوريات إبان الازمات وهي لن تصون استقلالها الا اذا حملت رجالها ونساءها السلاح الحـــديث وتمرسوا باستعماله

خصوصاً وقد قامت الى جوارها دولة اسرائيل التي تنعم بمساعدة من وراء البحار قل أن نعمت بمثلها دولة ناشئة في التاريخ الحديث .

وأشعلت هذه الوزارة حرباً شديدة ضد النفوذ الفرنسي في لبنان وسوريا فسلحت العصابات وأمدتها بالرجال والاموال فكنت تراها مشتبكة مع الجند الفرنسي في جبل عامل والبقاع وجبال اللاذقية في مناطق النصيرية وانطاكية والجزيرة . وراح وزير الحربية يوسف العظمة بنفسه الى الحدود التركية في الشمال يباحث الكماليين في انشاء تعاون عسكري تركي سوري ومنعت الحكومة السورية الجيش الفرنسي من استعمال سكة حديد رياق - حلب فلم يقدر أن يمد وحداته بالرجال والسلاح في كيليكيا وعصفت رياح الانكسار الشنيع بالفرنسيين في كيليكيا أمام شجاعة الكماليين واستبسالهم فاضطروا ان يعقدوا الهدنة مع الاتراك وأن يصالحوهم وأن ينسحبوا من بوزانطي وعينتاب وأطنه وبالتالي من كيليكيا باجمعها وهكذا اعترف الفرنسيون أنه ليس بوسعهم أن يقاتلوا على جبهتين : جبهة تركية في كيليكيا وجبهة عربية في سورية فجلوا عن الاولى ليحتلوا سورية بعدئذ بتمامها لانه توفر لديهم سبعون الف جندي مسلحون بالسلاح الكامل .

وبدأت فرنسا بعد انسحابها من كيليكيا تصب جام غضبها على العصابات الاستقلالية فزحفت قوات فرنسية كبيرة على صيدا وصور ومرجعيون ودمرت القرى وأحرقت الدور والمزارع وحكمت بالاعدام على زعماء هذه العصابات أمثال صادق حمزه وأدهم خنجر وغيرهما وحكمت بالنفي المؤبد على السيد عبد الحسين شرف الدين والسيد كامل الاسعد والسيد راشد عسيران وغيرهم . وفرضت على جنوبي لبنان غرامة قدرها مائة الف جنيه مصري وجمعت الاسلحة من القرى وشدت الكثيرين الى أعمدة نصبتها على الرمال وأعدمتهم رمياً بالرصاص .

ورأت هذه الوزارة أن تلعب آخر ورقة في يدها فأرادت أن تظهر للعالم أجمع أن موارنة جبل لبنان الذين تعتمد عليهم فرنسا في بقائها بالمشرق لا يريدونها ويودون أن يستقلوا وأن يتفقوا مع السوريين على توسيع حدودهم واستغلال

مرافقهم الاقتصادية والتجارية المتبادلة لانه ظهر كما أسلفنا من نتائج استفتاء لجنة كراين أن بقية سكان البلاد من مسلمين على اختلاف طوائفهم ومن روم وارثوذكس وبروتستانت وقفوا صفاً واحداً ضد الانتداب الفرنسي ، والحق أن مجلس الادارة في جبل لبنان لم يكن ليعامل باحترام فطالما هزأ بأعضائه الكومندان لابرو متصرف الجبل الفرنسي ولم ينفذ لهم قراراتهم ولطالما شعر أعضاؤه أنه اذا كانت هذه هي البداية من الانتداب الفرنسي فكيف تكون النهاية وقد فاتح الملك فيصل الامير ألاي سعيد البستاني - وكان هذا الرجل يتردد على دمشق بغية ايجاد نوع من التفاهم بين لبنان وسوريا - بحسنات الاتحاد الوطني بين البلدين الشقيقين فأمن الامير ألاي سعيد البستاني بوطنية الملك فيصل ومهد المعتمد العربي في بيروت أن يجتمع بسعد الله الحويك وسليمان كنعان والامير أمين ارسلان والياس الشويري وخليل عقل ومحمود جنبلاط ومحمد الحاج محسن وفؤاد عبد الملك وكلهم من أعضاء مجلس الادارة في جبل لبنان وقد اتفقوا مع الحكومة العربية في دمشق بواسطة معتمدها جميل الالشي على استقلال لبنان التام وتوسيع حدوده وقرروا أن يرفعوا عريضة إلى عصبة الامم وأن يوقعوها بهذا المعنى وأن يسافروا بانفسهم إلى دمشق فحيفا فباريس لملاحقة قضية الاستقلال اللبناني التام بالاتفاق مع سوريا ودفع لهؤلاء الاعضاء مبلغ عشرة آلاف جنيه تناوله السيد سليمان كنعان باسم قرض من الوجيه البيروتي المعروف عارف النعماني ووقع الامير امين أرسلان سنداً بهذا المبلغ للسيد النعماني عند الطلب . وهذا هو نص العريضة التي وقعها اعضاء مجلس ادارة لبنان نثبتها للتاريخ .

« ان مجلس ادارة جبل لبنان المؤلف نظاماً من ١٣ نائباً وفي الوقت الحاضر من ١٢ نائباً عاملا بسبب خلو مركز احد نائبي كسروان المستقيل قد وضع نهار السبت الموافق ١٠ تموز سنة ١٩٢٠ باكثريته الكبرى القرار التالي :

« انه لما كان اللبنانيون منذ اعلنت الدول العظمى حق انشاء الحكومة الوطنية لشعوب هذه البلاد قد طلبوا وما زالوا يطلبون تأييد حقوقهم بتأسيس حكومة وطنية مستقلة . ولما كان استقلال جبل لبنان ثابتاً تاريخياً منذ اجيال

طويلة وموقعه وطبيعة اهاليه الموالفة للحرية الاستقلالية منـــذ القدم مما يستلزم استقلاله وحياده السياسي ايضاً لوقايته من المطامع والطوارىء. وكان مع ذلك من اهم مصالحه وراحة شعبه الوفاق وصفاء العلاقات مع مجاوريه وقد دل على ذلك ما احدثه التقاطع من ثوران الجهلاء لارتكاب الحوادث المؤلمة المقلقة المتسلسلة من السنة الماضية الى هذه الآونة . فبناء على ما تقدم قد بذل هذا المجلس مزيد الاهتمام توصلا لوفاق يضمن حقوق البلدين المتجاورين سوريا ولبنان ومصالحهما ودوام حسن العلاقات بينهما في المستقبل وبعد البحث في هذا الشأن وجد انه من الممكن الوصول الى ذلك بمقتضى البنود التالية :

١ ـ استقلال لبنان التام المطلق .

٢ ـ حياده السياسي ، بحيث لا يحارب ولا يحارب ، ويكون بمعزل عن كل تدخل حزبي .

٣ ـ اعادة المسلوخ منه سابقاً بموجب اتفاق يتم بينه وبين حكومة سوريا .

٤ ـ المسائل الاقتصادية يجري درسها وتقرر بواسطة لجنة مؤلفة من الطرفين وتنفذ قراراتها بعد موافقة مجلس لبنان وسوريا .

٥ ـ يتعاون الفريقان في السعي لدى الدول للتصديق على هذه البنود الاربعة وضمانة احكامها .

ولاجل التمكن من العمل على ذلك بحرية وبمعزل عن ضغط وتأثير خارجي ولاجل السعي الناجح في المراجع الايجابية لتقرير احكام البنود الاربعة المتقدم بيانها والتي هي مطالب الامة اللبنانية ومصلحة لبنان الحقيقية والمنزهة عــــن المآرب والاغراض الخصـــوصية وبالنظر لنيابة هذا المجلس عن الشعب اللبناني القانونية والمؤيدة مؤخرا ايضاً باصوات اكثرية الشعب الكبرى قد قررت اكثرية المجلس موقعة هذه المضبطة الانتقال والتوجه بالذات لملاحقة ومتابعة تقرير مضمون البنود الآنف بيانها في اعمال القضية والمراجع الايجابية وابلاغ هذا القرار بكامله الى المقامات الرسمية والسعي بالطرق الممكنة . فؤاد عبد الملك . محمود جنبلاط سليمان كنعان . خليل عقل . سعدالله الحويك . محمد الحاج محسن . الياس الشويري .»

ولم يفاتح اعضاء مجلس ادارة لبنان زميليهما داود عمون ولا حبيب السعد بهذه القرارات اعتقاداً منهم ان هذين العضوين هما لفرنسا قلبا وقالبا . وكانت فرنسا تتبع اخبار هذا المجلس ، فرمت حول اعضائه شبكة من الجاسوسية واصطادتهم جميعاً وحاكمتهم بتهمة الخيانة العظمى ونفتهم الى ارواد فجزيرة كورسيكا فباريس وظلوا مبعدين عن لبنان الى عام ١٩٢٣ .

ارادت حكومة الاتاسي في دمشق ان تستجلب لبنان الى صفوفها واراد مجلس لبنان ان يمد يد الاخوة الى سوريا ولكن شاءت الحوادث والظروف ان تحطم فرنسا حكومة دمشق بعد انسحابها من كيليكيا وان تحتل سوريا وتنفذ فيها سياستها . وكان حقد الجنرال غورو يغلو كالمرجل على فيصل ورجاله فرأى ان يضرب ضربته في سوريا ولهذه الضربة حديث مؤلم وشجي . وما يزال ترجيعها يدمي القلوب الحساسة .

●

فرنسا تتهم مجلس الادارة بالخيانة العظمى

قبضت السلطات الفرنسية على اعضاء مجلس الادارة في لبنان الذين وقعوا المضبطة او الوثيقة التاريخية التي يطلبون بها استقلال لبنان وتكبيره والتفاهم مع سوريا على الامور الاقتصادية التي تجمع بين البلدين ثم اعتقلت الوجيه البيروتي السيد عارف النعماني والاميرالاي سعيد البستاني وغيرهما وسجنتهم منفردين ثم حاكمتهم مجتمعين في السرايا الصغيرة . والفت فرنسا مجلساً عسكرياً لمقاضاتهم بتهمة الخيانة العظمى برئاسة الكولونيل بكرسون وعضوية الضابط كلمنصو وديبوي ولابير وكان يوم الثامن عشر من تموز مشهوداً اذ مثل هؤلاء الرجال الذين احبوا وطنهم لبنان حباً جماً وارادوا له السيادة والاستقلال امام محكمة اجنبية تتهمهم بالخيانة لانهم لم يقولوا بالانتداب الفرنسي . ولم ينكر احد منهم ان اجتهاده في خدمة لبنان جمله يفكر ان الاستقلال خير من الانتداب وان التفاهم مع سوريا خير من القطيعة

معها طالما تعترف سوريا بلبنان الكبير المستقل. وفي التاسع عشر من تموز اصدرت عليهم الاحكام التالية :

١ – ينفى سعدالله الحويك شقيق البطريرك الحويك ٨ سنوات ويعيد من المبلغ الذي تناوله مصروفاً لسفره ١٤٠٠ ليرة ويغرم ٢٨٠٠ ليرة .

٢ – ينفى فؤاد عبدالملك ١٠ سنوات ويعيد ٨٠٠ ليرة من اصل المبلغ الذي تناوله مصروفاً لسفره ويغرم ١٦٠٠ ليرة .

٣ – ينفى خليل عقل ١٠ سنوات ويعيد ١٤٠٠ ليرة من اصل المبلغ الذي تناوله مصروفاً لسفره ويغرم ٢٠٠٠ ليرة .

٤ – ينفى سليمان كنعان ١٠ سنوات ويعيد ١٤٠٠ ليرة من اصل المبلغ الذي تناوله مصروفاً لسفره ويغرم ٢٨٠٠ ليرة .

٥ – ينفى محمد محسن ٨ سنوات ويعيد ١٤٠٠ ليرة من اصل المبلغ الذي تناوله لسفره ويغرم ٢٨٠٠ ليرة .

٦ – ينفى محمود جنبلاط ٧ سنوات ويعيد ١٣٥٠ ليرة من اصل المبلغ الذي تناوله لسفره ويغرم ٢٧٠٠ ليرة .

٧ – ينفى الياس الشويري ١٠ سنوات ويعيد ١٥٠٠ ليرة من اصل المبلغ الذي تناوله لسفره ويغرم ٣٠٠٠ ليرة .

٨ – ينفى الامير ألاي سعيد البستاني ١٠ سنوات .

٩ – ينفى الامير امين ارسلان ٦ سنوات .

١٠ – وحكم على السيد عارف النعماني ورشيد عقل من اقرباء خليل عقل والياس الحويك ابن شقيق البطريرك الحويك بغرامات مختلفة وسجن تتراوح مدته بين ٤ سنوات و ٩ سنوات ونقل هؤلاء الرجال الذين مثلوا فكرة لبنان الاستقلالية الى أرواد ومن ثم الى جزيرة كورسيكا فباريس ولم يطلق سراحهم الا في أواخر عام ١٩٢٣ اي في الوقت الذي استتبت فيه الامور لفرنسا في المشرق .

ولم يكف ما أصاب هؤلاء الشباب الاستقلاليين من عنت وارهاق بل قام بعض اللبنانيين وعلى رأسهم اميل اده وداود عمون والمطران مبارك وغيرهم

يستنكرون الاستقلال الذي اراده مجلس الادارة للبنان ويبرقون الى الجنرال غورو متبرئين من اعمالهم ويتهمونهم بالخيانة وقد ظل اميل اده متعلقاً بفرنسا، حتى انه لما عينته السلطات الديغولية رئيساً للجمهورية لم يتورع ان ينفي الحكومة الوطنية اللبنانية الاستقلالية وان يزجها في قلعة راشيا عام ١٩٤٣، وفي يقيننا ان اميل اده الذي تسلم مقدرات لبنـــان رئيساً لمجلس الوزراء ورئيساً للجمهورية مسؤول لدرجة كبيرة عن توجيه لبنان وجهة تقول ان اللبنانيين هم من بقـــايا شعوب البحر المتوسط، وان لا علاقة للعروبة بهذا الجبل الاشم الذي انبت خير الادباء النابغين. وما تزال هذه الفئة التي حاربت الاستقلال منـــذ حركة مجلس الادارة عام ١٩٢٠ وكرهت ان يمد لبنان يد الاخوة الى شقيقاته العربيات انعزالية منكمشة على نفسها.

كيف عرفت فرنسا بضبطة مجلس الادارة؟ هذا سؤال بسيط يمكن الاجابة عليه بسهولة فقد كان يجتمع شباب المجلس في منزل السيد نجيب الاصفر في بيروت. وكان هذا «الاصفر» على اتصال مع المجلس والامن العام الافرنسي فكان كل ما يقال في بيت الاصفر يرسل حرفياً الى الجنرال غورو نفسه ولهذا كان القبض على مجلس الادارة «ميسوراً» وقد قبض على معظمهم عند نفق المديرج – حمانا. ووقع هؤلاء الشبان في فخ الرجل الذي ائتمنوه واجتمعوا في داره وصدقوا انه استقلالي مثلهم ...

والغى الجنرال غورو بعدئذ مجلس ادارة جبل لبنان لانه لا يحسن ان يقوم بوكالته التي هي في نظر الجنرال «المطالبة بالانتداب الفرنسي على لبنان» وعين مكانه لجنة ادارية موقتة ومن ثم هيأ نفسه ليضرب ضربته في دمشق.

انذار غورو للملك فيصل

شعر الجنرال غورو ان زمام الامر كاد يفلت من يده فالاضطرابات منتشرة في الشمال والجنوب واللبنانيون الخلص الذين يمثلهم مجلس الادارة راحوا يفتشون على طريق الاستقلال التام الناجز فاحب ان يضع الامور في نصابها حسب زعمه وارسل انذاراً قوياً الى الملك فيصل تضمن المواد الآتية :



يوسف بك العظمة

١ – قبول الانتداب الفرنسي دون قيد ولا شرط لأن هذا الانتداب يحترم الاستقلال السوري وحكم السوريين لأنفسهم ولا يعني مطلقاً اي نوع من انواع الاستعمار او الادارة المباشرة بل هو معونة واستشارة ووصاية .

٢ – احتلال محطات سكة حديد رياق حلب وحمص وحماة لتتمكن السلطات الفرنسية من نقل جيوشها واعتدتها الى حلب واحتلال هذه المدينة احتلالاً عسكرياً لئلا يطمع الاتراك بها وتسقط في ايديهم .

٣ – التعامل بالورق النقدي السوري في جميع انحاء المنطقة الشرقية والغاء الاحكام التي صدرت في هذه المنطقة بشأن البنك السوري .

٤ – الغاء التجنيد الاجباري وارجاع القوى السورية الى ما كانت عليه في اول

كانون الاول سنة ١٩١٩ .

٥ - تأديب المجرمين الذين حاربوا فرنسا وشنوا عليها حرب العصابات .

وقد اصرّ الجنرال غورو على قبول هذه الشروط بكاملها دون تجزئة خلال اربعة ايام تبتدىء من منتصف ليل ١٥ تموز وانه اذا لم تنفذ فستكون يد فرنسا مطلقة في العمل وان ما يقع من الكوارث على البلاد تكون حكومة فيصل مسؤولة عنها .

ويقول الاستاذ الكبير السيد ساطع الحصري مؤلف كتاب « يوم ميسلون » ووزير المعارف في الحكومة السورية في ذلك العهد انه اجتمع الى الجنرال غورو في عاليه وابلغه قبول جلالة الملك فيصل لانذاره ولكن الدلائل كانت تشير الى ان غورو مزمع على دخول دمشق مهما كان الثمن ومهما حاولت الحكومة السورية ان تكتسب من الوقت وان الجنرال كان على تفاهم مع بعض العناصر العربية امثال جميل الالشي وعلاء الدين الدروبي وغيرهم .

وكان فيصل قد اعتمد ان يبحث القضية السورية امام مؤتمر الصلح وطلب الى غورو ان يهيء له اسباب السفر فرفض غورو طلبه وارسل اليه الانذار الذي ذكرناه والح عليه في قبوله . وكان على الحكومة التي يرأسها هاشم الاتاسي ان تقول كلمتها أمام هذا الانذار فجمعت المؤتمر السوري في الثالث عشر من تموز واحتجت له على معاملة الجنرال غورو لها وأعلنت انها لا تريد الا السلام والمحافظة على الاستقلال وانها لا تحب ان تخل بالصلات الحسنة التي تربطها مع حليفاتها وهي لا ترفض المفاوضات وان جلالة الملك مستعد للسفر لمواصلتها .

واضطرب الدمشقيون وهاجوا وماجوا لدى سماعهم بالانذار الذي وجهه غورو للملك فيصل وحاولوا ان يثيروا الفوضى في كل مكان حتى ان بعضهم هاجموا السجون لاخراج المجرمين وبعضهم تظاهر ضد فيصل وهتف بسقوطه ونعته بالخيانة ومع ذلك فقد ظل فيصل هذا الرجل الحديدي الذي لا ينسى واجبه عند الملمات ، فلم يقطع حبل المفاوضة مع غورو حتى النهاية .

وكان يعتقد كل من ياسين الهاشمي ويوسف العظمه ان الجيش الذي كان يرأسه

فيصل جيش ضعيف السلاح لان انكلترا كانت تقتر عليه في تزويده بالعتاد ولأن فرنسا كانت قد استجلبت قوات كبيرة ولديها الطيارات والدبابات ولهذا كان هذان القائدان يقولان ان الجيش العربي في دمشق لن يتمكن من الصمود امام الجيش النظامي الفرنسي اكثر من بضع ساعات .

وكان من رأيهما التفاهم مع فرنسا وقبول انذارها ولكن غورو لم يرد التفاهم واصرّ على تحطيم الدولة السورية ليصبح في ذمة التاريخ فاتحاً لاقـدم مدينة في العالم .

وذهب يوسف العظمه مع فلول الجيش السوري الى ربى ميسلون ليحفظ الشرف السوري العسكري من ذل الاستسلام . واكبر دليل على ذلك ما رواه الاستاذ ساطع الحصري في كتابه « يوم ميسلون » فقال ان يوسف العظمه خاطب ساطعاً قبل رحيله الى الجبهة : ـ « انا ذاهب ، اني اترك ليلى ابنتي امانة لديكم ، ارجوكم ان لا تنسوها » قال ساطع : « ولقد ادركت حالا ما كان يقصد من كلامه هذا . انه يتوجه نحو الجبهة موطداً العزم على ان لا يعود منها ابداً . »

وظل جلالة الملك فيصل وفياً ليوسف العظمه فلم ينس ليلى طيلة ايامه وخصص لها راتباً شهرياً قدره عشرون جنيهاً رغم جميع الظروف والامكنة التي مرّ بها .

وبدأ هجوم الجيش الفرنسي في فجر الرابع والعشرين من تموز عام ١٩٢٠ على ربى ميسلون بعد ان كان قد احتل مجدل عنجر ووادي القرن ووادي الحرير ولم تطل المعركة الى اكثر من الظهيرة . اذ ماذا تفعل فلول جيش سلاحها ضعيف وبعض الشباب من المتطوعين امام الدبابات والطيارات وجيش مجهز باحدث الاسلحة وقد اراد يوسف العظمه ان يموت قبـل ان يرى موطنه فريسة الذل الفرنسي فمات شهيداً بينما كان غيره يتمرغ على اعتاب غورو ليصبح وزيراً اوشبه وزير فتأمل انواع الرجال !..

دخل الجيش الفرنسي مدينة دمشق وعلى رأسه الجنرال غوابيه في السـاعـة الرابعة بعد ظهر الاحد الواقع في الخامس والعشرين من تموز سنة ١٩٢٠ وقرر الجنرال غورو حالاً انهاء العهد الفيصلي في سوريا ودعم قراره هـذا بضبطة تولى

تنظيمها بعض السماسرة الذين تجدهم - برسم الخدمة - في كل عهد ذكروا فيها: « ان البيعة للملك فيصل قد سقطت بناء على تركه العاصمة وفراره منها » . وصرح الجنرال غوابيه للسوريين عقب دخوله دمشق : ان الامير فيصل جرّ البلاد الى مسافة اصبعين من الهلاك وان مسؤوليته عن كل ما حدث من الاضطرابات الدموية على مسرح سوريا في الاشهر الاخيرة كبيرة وبديهية الى درجة لم يعد معه من الممكن استمراره في حكم البلاد ؟ وارسلت حكومة الجمهورية الفرنسية كتاباً رسمياً الى جلالة الملك فيصل تطلب اليه فيه ان يغادر دمشق حالاً مع اسرته وحاشيته ووضعت تحت تصرفه قطاراً خاصاً تحرك من محطة الحجاز في الساعة الخامسة من ٢٨ تموز عام ١٩٢٠ . وغادر فيصل دمشق وقدم الى عصبة الامم احتجاجاً صارخاً . . .

والف الملك فيصل قبل رحيله عن دمشق وزارة برئاسة السيد علاء الدين الدروبي اشترك فيها كل من عبد الرحمن اليوسف وعطا الايوبي وبديع المؤيد وجميل الالشي وفارس الخوري ويوسف الحكيم وجلال الدين زهدي وقد كان معظم اعضائها من المعتدلين وأمل الملك فيصل ان تكون هذه الوزارة وسيلة للتفاهم بينه وبين فرنسا . ولكن فرنسا كانت في واد والملك في واد . فرنسا تريد أن تتحكم هذه المرة في مصير سوريا لئلا يفلت منها الزمام وترجو ان لا ترى لفيصل ظلاً . وفيصل يهم أن يتفاهم معها بعد ان تخلى عنه الانكليز والاميركان .

وحكمت فرنسا بعد ايام قلائل من دخولها لدمشق بالاعدام على معظم الوطنيين وجرى تبليغ هؤلاء الوطنيين أنباء اعدامهم بمناشير القيت من الطائرات وهذه هي اسماؤهم : احمد مريود . شكري القوتلي . كامل القصاب . الامير محمود الفاعور . صبحي بركات . عادل ارسلان . احسان الجابري . احمد قدري . توفيق اليازجي . خير الدين الزركلي وغيرهم . والمهم ان الاعدام لم ينفذ باحد من هؤلاء الوطنيين وقد غادر معظمهم دمشق ليرجع اليها مرفوع الرأس وقد شاء القدر ان يكون بعضهم حكاماً لسوريا بعد حين . وشاءت رعونة الجنرال غورو ان تفقد فرنسا فيصلاً الى الابد وان تفقد بعد ذاك نفوذها في المشرق .

معركة ميسلون صفحة من صفحات المجد العسكري

اذا اهتمت الحكومة السورية بتقوية الجيش فانها ولا ريب تحافظ على استقلال سوريا محافظة الحكومات التي تقدر معنى الشرف العسكري وتقدر معنى القوة التي يحترمها الجميع وتطأطىء لها الرؤوس جميعاً. لقد ظفر الجنرال غورو بسورية عام ١٩٢٠ لقمة سائغة لان جيشها كان هزيلا يتألف من ثمانية آلاف جندي يملكون خمسة عشر الف بندقية مختلفة الطراز . وكان هذا الجيش يتألف من ثلاث فرق عسكرية نظامية ، فرقة الشام وفرقة حلب وفرقة درعا وكانت كل فرقة تتألف من ثلاثة ألوية وكل لواء يتألف من ثلاثة افواج ولكل فوج سرية رشاشات . وكان عدد الضباط العاملين في الجيش السوري لا يقل عن خمسمائة ضابط



الجنرال غورو

من مختلف الرتب وقد مارسوا القتال في مختلف ميادين الحرب العالمية الاولى . واشهر من عرفنا من رجال الجيش السوري كان المغفور له يوسف العظمة ، واحمد اللحام ، ومصطفى وصفي وشريف الحجار ، وحسن يحيى الصبان وعارف التوام ويحيى جياتي واحمد اسماعيل الطباخ واسماعيل الصفار وياسين الهاشمي ونوري السعيد ومصطفى نعمة وتحسين الفقير .

وكان كل هؤلاء يعتقدون ان الجيش السوري لن يتمكن من الصمود اكثر من بضع ساعات امام قوات عسكرية منظمة حديثة كقوات الجنرال غورو. ولقد انكسرت فلول يوسف العظمة في ميسلون لان وزارة الاتاسي قبلت انذار الجنرال غورو وسرحت الجيش مساء التاسع عشر من تموز ولأن قوات فرنسا كانت كثيفة في عددها وعددها .

كان المغفور له يوسف العظمة يرجو للدفاع عن دمشق انشاء سلسلة من الحصون حول قرية مجدل عنجر التي تسيطر على طريق رياق - دمشق وكان يأمل ان يداعب القوات الفرنسية الزاحفة بثلاثة آلاف جندي تدعمها بطاريتان من

المدافع ولكن تسريح الجيش بأمر من الوزارة الاتاسية وتنفيذاً لانذار الجنرال غورو فت في عضده ويقول الاحياء من الذين حضروا معركة ميسلون ان العظمه لم يكن معه سوى (ستين) جندياً نظامياً ولولم تسرح الحكومة الاتاسية جيشها لما تشدد الجنرال غورو ولما عتى وتجبر ووصل رأسه الى السماء كما تقول العامة في انذاراته المتعددة . وقبل معركة ميسلون وصل شريف الحجاز على رأس ثلاثة الاف فارس وزحف حوالي الثلاثة الاف شاب من شبيبة دمشق وكل منهم يحمل بندقية مختلفة في حجمها وشكلها الى ميسلون وعبثت كل هذه القوى في وهادها ولكن انى لها ان تثبت امام المدفعية الفرنسية وقنابل الطائرات والدبابات وصمد المتطوعون من فجر الرابع والعشرين من تموز حتى الظهر وكان يوسف العظمه يستحثهم ويراقب حركة القتال حتى صرعه الاعداء برصاص رشاشاتهم وقتل من المتطوعين السوريين ثمانمائة ماتزال قبورهم وقبر الشهيد يوسف العظمه في وادي ميسلون وقتل من الفرنسيين حوالي ثلاثمائة جندي دفنوا في مقبرة قريبة من مدافن الشهداء السوريين .

ولايستطيع المرء وهو يجتاز الطريق بين بيروت ودمشق الان يمر بميسلون ويحيي هؤلاء الشهداء وعلى رأسهم يوسف العظمه فقد كتبوا اول صفحة من صفحات المجد للاستقلال السوري ثم اعلنوا ببساطة انهم يموتون فداء عن الوطن الحبيب .

وظل الجيش الفرنسي زاحفاً بعد معركة ميسلون حتى وصل الى المزه وفي الساعة الرابعة من بعد ظهر الاحد الواقع في ٢٥ تموز دخلت فرقة من الجيش الفرنسي دمشق وكانت مقفلة حزينة وكان اول من استقبل الفاتحين جميل الالشي ! ! ولم يكد الجنرال غوابيه يحط الرحال في العاصمة حتى فرض على الحكومة السورية دفع عشرة ملايين من الفرنكات غرامة حربية وامر بنزع السلاح من الجيش السوري المحلول وتسليمها جميعاً الى القوات الفرنسية ثم طلب من اهالي دمشق ان يسلموه عشرة الاف بندقية وفرضت القوات الفرنسية الغرامات ايضاً على مدن حمص وحماه وحلب كما انها امرت سكان هذه المدن بوجوب تسليم السلاح الذي في حوزتهم .

واوجبت الحكومة الفرنسية على جلالة الملك فيصل ان يغادر دمشق وقدمت له قطاراً خاصاً وازدحم قصره بالمودعين الذين قدروا جلالته حق قدره وبرح دمشق الى درعا والتف الزعماء حوله فيها فارسلت فرنسا طائراتها تلقي المناشير على الاهلين وتهددهم بتهديم مدنهم من الجو اذا التفوا حول فيصل او ساعدوه. وبرح فيصل درعا الى حيفا فبور سعيد فايطاليا وقد حز في نفسه ان يموت الشباب السوري ويشرد وينفى بعد ان قبل انذارات غورو باجمعها .

●

مهزلة التقسيم في سورية

أنكرت فرنسا على فيصل أن يتكلم باسم سورية ثم طردته من هذه البلاد الجميلة التي أحبته وأحبت فيه بصورة خاصة روح التساهل وسياسة الاعتدال التي انتهجها . والحق ان السوريين كادوا يجمعون على توكيله بالقرار الذي اتخذه المؤتمر السوري عند مجيء لجنة كراين في الثاني من تموز عام ١٩١٩ وكان هذا القرار واضحاً وصريحاً فقد قال انه « يضع تمام الثقة بشخص الامير فيصل ويجاهر بالاعتماد التام على سموه كما أنه أظهر رغبته الشديدة في المناداة به ملكاً على البلاد السورية باجمعها »

وأعلن المؤتمر السوري الامير فيصل ملكاً على « سوريا المتحدة المستقلة » في الثامن من آذار عام ١٩٢٠ .

وكان خروج فيصل من سورية بدء متاعب لفرنسا وللسوريين أنفسهم وأدرك ذلك عقلاء الفرنسيين المعتدلين فكان من رأي الكولونيل طولا والكولونيل كوس وكان الاول مرافقاً لفيصل والثاني معتمداً لفرنسا في دمشق أن يظل فيصل على عرش سوريا وأن يكون موضع ثقتها وقد سعيا السعي الحثيث لدى الجنرال غورو لابقاء الملك فيصل حتى تذوب معارضة العناصر السورية المتطرفة ولكن كيف السبيل إلى إقناع غورو العسكري الذي تملكت عليه شهوة الفتح حتى انقاد

لها انقياداً أعمى فكان خروج فيصل وكانت الثورات السورية التي أنهكت الجيش الفرنسي في الشرق وأضنت السوريين ودمرت الكثير من معالمهم وآثارهم الغالية.

إن نظرية الانتداب التي أقرتها عصبة الامم في ميثاقها والتي عرفت بالمادة الثانية والعشرين من ميثاق العصبة تقول : «إن بعض الشعوب التي كانت خاضعة للدولة العثمانية قد بلغت درجة من الرقي تؤهلها وقتياً لأن تكون مستقلة على ان تسترشد بنصائح دولة منتدبة إلى أن تصبح قادرة على حكم نفسها بنفسها.

ويتحتم أن تعتبر رغبات هذه الشعوب في اختيار الدول التي يجب ان تنتدب عليها ، ولكن الحقيقة المؤلمة التي لا جدال فيها أن فرنسا لم تحترم المادة الثانية والعشرين فتدخلت في الذي يعنيها والذي لا يعنيها فحرمت سوريا من جيشها وتمثيلها الخارجي وتدخلت في القضاء والتعليم ورسمت لها منهاجاً خاصاً ووضعت يدها على ميزانية سوريا فكانت تعطيها ما تشاء من الاموال وتقطع عنها ما تشاء.

وسعت فرنسا بشخص الجنرال غورو الى نشر الاقليمية في البلاد فقسمت سوريا الى خمس دول : دولة دمشق ودولة حلب ودولة لبنان الكبير ودولة العلويين ودولة جبل الدروز وهذه اكبر مهزلة عرفتها سوريا في حياتها السياسية ، وقد جرى هذا التقسيم لغاية واضحة وهي الاجهاز على القومية السورية العربية وإرضاء الزعماء في كل هذه المناطق ، والضحك عليهم بالالقاب والمعاشات وكان الجنرال غورو يرجو أن يجعل من بلاد العلويين وجبل الدروز مستودعاً للتجييش الفرنسي وكان دوماً يأمل ن تكون فرنسا في هاتين المقاطعتين من سورية ذات نفوذ قوي ورهيب وأن يطبع شبابها بالاخلاق الحربية الفرنسية وأن يكون منهم مراكشيين وجزائريين جدداً يفدون فرنسا بدمائهم في كل ساحة وميدان.

ونجحت سياسة الجنرال غورو الى حد بعيد لدى العلويين فكنت تراهم في سوريا واخوانهم الشراكسة مادة الجيش الفرنسي وقوته الضاربة التي لا ترحم.

وراح الجنرال غورو يخالف ميثاق عصبة الامم فحكم لبنان وجبل الدروز حكماً مباشراً. اما دمشق وحلب فحكمها سوريون عينهم الجنرال المفوض السامي.

كبت السوريون آلامهم وتألموا في صميمهم بعد أن شاهدوا وطنهم يتجزأ الى

دويلات يحكمها بعض النفعيين وزاد في آلامهم زوال هذ الاستقلال الذي كان يمثله فيصل أحسن تمثيل وفرض الجنرال غورو سلطانه على سوريا من أقصاها الى أقصاها فكان يسجن وينفي ويغرم كل من تسول له نفسه ان يقول كلمة في الانتداب أو في رجال الانتداب او في اذناب الانتداب !

وتشاء الظروف ان يزور المستر تشارلس كراين رئيس لجنة الاستفتاء الاميركية دمشق في نيسان عام ١٩٢٢ فيهيج قدومه ذكرى الاستقلال وفيصل والمؤتمر السوري وميسلون والضحايا والشهداء في قلوب السوريين الجريحة فتزحف دمشق للقاء هذا الرجل النبيل الذي قدم تقريره الصحيح الى وزارة الخارجية الاميركية ثم نام فيها هذا التقرير لان الولايات المتحدة شاءت ان تتبع سياسة العزلة ولأن انكلترا وفرنسا كانت لها الطاعة العليا في الشرق الاوسط وفي مقدرات الشعوب التي كانت تحت سيطرة السلطنة العثمانية وقام الدكتور المغفور له عبدالرحمن شهبندر يبث المستر كراين ما يلاقيه السوريون من ظلم وعنت من هذا الانتداب الجائر ويتألم مما تعانيه البلاد من سوء الادارة . وتظاهرت دمشق نساء ورجالاً لدى وداعه وخطب الدكتور الشهبندر ووجه كلامه الى المستر كراين قائلاً له : « ان يكون شاهد عدل على ما رآه من هول الانتداب الفرنسي في سوريا » . وكانت هذه الصرخة الاولى التي صرخها الدكتور شهبندر هي بدء النضال بين سوريا وفرنسا ، بين شعب أعزل ضعيف يريد الحياة الحرة وبين قوة عسكرية يرأسها جنرال جبار . وكان رفاق الدكتور شهبندر في هذه الغضبة التي جعلت سوريا تستفيق بعد احتلال عسكري دام سنتين هم حسن الحكيم وسعيد حيدر والدكتور خالد الخطيب . وقد لاقى هؤلاء من فرنسا بسبب هذه الصرخة الداوية ما لاقاه كل مظلوم مع كل ظالم .

•

عبد الرحمن الشهبندر زعيم حزب الشعب

قبضت فرنسا على الدكتور عبدالرحمن الشهبندر الزعيم الذي جاهر فرنسا والعالم انه ضد الانتداب وزجته مع رفاقه الشجعان حسن الحكيم وسعيد حيدر والدكتور خالد الخطيب في السجون واتهمتهم بالتآمر على سلامة سوريا وخيانتها وثارت دمشق للقبض على هذه الفئة الطيبة من الرجال الاحرار فاغلقت حوانيتها اسبوعاً كاملاً . وهذا الاضراب — او اقفال الاسواق والمدن — كان السلاح السلبي الذي حاربت به سوريا القوات الفرنسية المحتلة . وكان يمتد احياناً هذا الاضراب اربعين يوماً واشهراً باكملها وكانت الجماهير ترضى بالتضحية ويعاون الغني الفقير وتتألف لجان في الاحياء لمساعدة المحتاجين الذين كانوا ينقطعون عن اعمالهم طيلة ايام الاضراب . وتألفت محكمة عسكرية



خاصة للنظر في هذه التهمة الشائنة تهمة التآمر على سلامة الدولة والخيانة التي وجهت اليهم فكان الشهبندر ورفاقه مثال السوريين الاحرار الذين يجاهرون بما يعتقدون دون ضعف او جبن او خور وكانوا يعلمون ما سينتظرهم من احكام تتفق والعقلية العسكرية الانتدابية من شدة وظلم .

وصرح الدكتور شهبندر امام المحكمة انه استقلالي وانه يكره كل انتداب ويرفضه سواء أكان هذ الانتداب فرنسيا او اميركيا او انكليزيا وجاهر امام هيئة المحكمة انه ليس مستعدا ان يتودد الى فرنسا او الى قواتها التي تحتل بلاده وانه لا يحبها لانها تسلب سوريا استقلالها .

وكان السيد حسن الحكيم مثال الشجاع الابي الذي لايهاب الموت امام هيئة المحكمة العسكرية فقال لها : « اذا كانت هذه المحكمة تريد ان تحاسبني على

شعوري الخاص فلتعلم انني استقلالي اكره كل انتداب ووصاية وحماية وانني احب وطني حباً يملك عليّ احساسي ومشاعري وانـــني هنا وامامكم اهتـــف : «لتحيى سوريا المستقلة البعيدة عـــن كل وصاية وانتداب وحماية اجنبية» . اما الدكتور خالد الخطيب فاعرب عن استغرابه من هؤلاء الفرنسيين اعضاء المحكمة الذين يجلسون لمحاكمة شباب يقولون بحرية اوطانهم واستقلالها وابناء فرنسا هم الذين دكوا صروح الباستيل ونادوا بالحرية لكل البشر .

واما السيد سعيد حيدر فقال : «اذا كنتم يا اعضاء المحكمة المحترمة تريدون محاكمتي لانني احب بلادي فاعلموا انني عربي احب الاستقلال لكـــل اوطاني العربية ونحن لسنا اول من حوكموا اوحكموا في سبيل ثباتهم على مبادئهم .»

ورغم كل هذه التصريحات الحرة العلنية فلم تجرؤ المحكمة العسكرية ان تحكم على احد منهم بالاعدام بل حكمت عليهم بالاحكام التالية : الدكتور عبدالرحمن الشهبندر بالسجن عشرين سنة والسيد سعيد حيدر بالسجن خمسة عشر سنة ، حسن الحكيم عشر سنوات ، خالد الخطيب عشرسنوات ، وحكم على غيرهم باحكام مختلفة وابعد هؤلاء الشباب الى جزيرة ارواد واعتقلوا في قلعتها مدة لا تقل عن ثمانية اشهر عفي عنهم بعدها .

ولم تعرف سوريا في تاريخها الحديث رجلاً ذا عقلية منظمة تنظر الى الامـور نظراً علميـــاً وشابا مناضلاً يستخف بالاخطار كالزعيم عبد الرحمن الشهبندر فانه بعد خروجه من السجن سعى الى تأليف حزب مرتب له مبادىء واضحة ضم خيرة العاملين في حقل الوطنية وقد دعي هذا الحزب «بحزب الشعب» وترأسه الزعيم الشهبندر بنفسه وكان هذا الحزب هو المسؤول الاول عن الثورات اللاهبة التي اشتعلت في دمشق وحماه وجبل الدروز ضد فرنسا والتي ارغمت الانتداب على تحوير سياسته نحو الوطنيين والامال والاماني الوطنية .

وهذا لايعني ان السوريين لم يعرفوا النضال قبل هذه الثورات التي نظمهـــا حزب الشعب . فالمغفور له ابراهيم هنانو الزعيم الحلبي رفع علم العصيان ضد فرنسا عام ١٩٢١ في جبل الزاوية وظل يحاربها حرباً لاهوادة فيها مايقرب من العـام

ثم اضطر امام القوات الفرنسية الساحقة ان يلتجيء الى شرقي الاردن ونكلت به السلطات البريطانية فسلمته الى السلطات الفرنسية وهذه حاكمته بدورها وبرأته لانه كان يناضل في سبيل عقيدة راسخة هي عقيدة الاستقلال .

واشتهر ابراهيم هنانو بالنبل والصلابة في المبدأ فلم يلن لفرنسا ولم يعجم عوده اويكسر ، بل ظل هذا الزعيم الذي لايساوم في حقوق بلاده ومات وهو هذا الرجل الذي تتشرف سوريا بذكراه كما تشرفت بذكرى يوسف العظمة يوم ميسلون .

وسبقت ثورة هنانو ثورة الشيخ صالح العلي ودامت هذه سنتين في بلادالعلويين والفرق بين الثورتين ان ثورة الشيخ صالح العلي كانت تمدها حكومة دمشق الفيصلية بالمال والسلاح بينما ثورة هنانو كانت تقوم على التضحية المثلى يبذلها هنانو ورفاقه المجاهدون .

اما الثورة التي نظمها حزب الشعب بقيادة الشهبندر فكانت نتائجها بدء التحول في سياسة فرنسا نحو اللين ونحو احترام الاماني الوطنية والسورية نوعاً .

●

اعلان الثورة السورية وهزيمة فرنسا في معركة المزرعة

عينت فرنسا الجنرال «ويغاند» مفوضاً سامياً لها في سوريا ولبنان عام ١٩٢٢ بدلا من الجنرال «غورو» فحاول ان يستجيب الى بعض مطالب السوريين فيجمع بين حكومات دمشق وحلب والعلويين . ويطلق عليها كلها حكومة الاتحاد السوري وقد تم هذا الاتحاد فعلا عام ١٩٢٢ وترأسه السيد صبحي بركات احد الزعماء الذين حاربوا فرنسا في انطاكيه في العهد الفيصلي ولكن السياسة الفرنسية التي كانت تأمل ان تفرض ارادتها في بلاد العلويين فرضاً وان تستغل هذه البقعة الى اقصى حدود الاستغلال الغت هذا الاتحاد بعد مرور عامين على ولادته فاصدر الجنرال ويغاند مرسوماً نصت المادة الاولى منه على ان حكومتي دمشق وحلب

تتحدان دون بلاد العلويين ابتداء من اول كانون الثاني عام ١٩٢٥ وتؤلفان وحدهما دولة واحدة تدعى الدولة السورية .

وهكذا نرى ان فرنسا التي تورطت في تجزئة البلاد السورية في عهد الجنرال غورو لم يعد يطيب لها الا تشجيع الاقليمية في قطر كثرت فيه الطوائف والمذاهب الدينية حتى يظل رجالها هم اصحاب السيادة الفعلية في الحكم .

قلنا ان حزب الشعب الذي ترأسه الدكتور شهبندر كان يبغض تجزئة البلاد السورية ويود ان يجمعها كلها وكان يشاركه في هذه الفكرة احرار السوريين وعلى رأسهم سلطان باشا الاطرش . والدروز هم فئة من السكان يأبون الضيم ويكرهون المذلة وهم بطبيعتهم رجال حرب وقتال .

وتشاء السلطات الفرنسية ان تعين لجـــبل الدروز « الكابتن كاربييه » حاكما . وكان هذا الحاكم الفرنسي يمثل الشذوذ في الاخلاق الى ابعد حدوده فنكل بالدروز واضطهدهم وضرب بعضهم بالسياط وارهقهم بالغرامـــات ونفى الكثيرين منهم وسجنهم فلم يطق الدروز في الجبل هذه المعاملة فاجتمع زعماؤهم في منزل الدكتور عبد الرحمن شهبندر في الثامن من تموز عام ١٩٢٥ الى زعماء حزب الشعب وتعاهد زعماء الدروز وزعماء دمشق على اشعال الثورة والى قيام السوريين بمساعدة الثورة في جبل الدروز حال نشوبها .

وطلب الزعماء الدروز الى الجنرال سرايل « وهو المفوض الذي خلف ويغاند وكان من احرار الفرنسيين » ان يجتمعوا اليه ليبثوه مظالمهم وما يعانونه من آلام لا تطاق ينزلها بهم الكابتن كاربييه فما كان من مندوب الجنرال سرايل « المسيو شوفلر » في دمشق الا ان اعتقلهم جميعاً وهم في طريقهم الى بيروت لمقابلة المفوض السامي . وكان المفوض السامي قد قبل ان يجتمع اليهم وعين لهم وقتاً لمقابلتهم .

وكان اعتقال هؤلاء الزعماء الشرارة الاولى للثورة الدرزية التي عمت بعدئـذ دمشق والغوطتين وحماه .

وبدأت المعارك في الجبل بين الدروز والجيش الفرنسي واشهرها معركة «الكفر» التي وقعت في تموز عام ١٩٢٥ والتي قتل فيها ما ينيف على ثلاثمائة جندي فرنسي

وعلى رأسهم قائدهم « الكابتن نورمان » وقد ابلى الدروز في هذه المعركة بلاء حسناً وبرهنوا انهم اشهر من يسدد المرمى بالبنادق الحربية . وخسر الدروز في معركة « الكفر » اربعين مقاتلاً من رجالهم .

واما المعركة الثانية التي وقعت بين الدروز وفرنسا فكانت « معركة المزرعة » التي كادت تخسر فيهـــا فرنسا مكانتها في كل المشرق لو عرف الثوار الدروز ان يستغلوا نتائجها، فقد زحفت يومئذ الجيوش الفرنسية وكان يقدر عدد رجالها بخمسة آلاف مقاتل يقودها الجنرال ميشو ، فكمن لها الدروز في المزرعة ، وابلوا في قتالها البلاء الحسن وخسرت من رجالها اربعة آلاف مقاتل ولو لم تنسحب الالف الباقية بسرعة لمزقت شر تمزيق ، ويقول النقادون الحربيون انه لو ثابر الدروز في زحفهم بعد معركة المزرعة لدخلوا دمشق وطردوا فرنسا منها .

ووقعت معركة المزرعة في آب عام ١٩٢٥ . ثم كانت معركة « المسيفرة » في ايلول من العام ذاته والتي خسر فيها الدروز وفرنسا كثيراً من الرجال . والمهم ان نذكر ان فرنسا اضطرت للجلاء عن الجبل الدرزي بعد هذه المعارك خصوصاً وقد نفذ حزب الشعب عهوده المقطوعة لزعماء الدروز فاعلن الثورة ودعا الشباب الدمشقي للسلاح واللجوء الى الغوطتين لتكون مقراً لقتال الفرنسيين وهكذا اضطرت فرنسا ان تحارب على جبهتين : جبهة الجبل الدرزي وجبهة الغوطتين وهذا ما جعل رجالها وعـــلى رأسهم المفوض السامي سرايل ان يفقدوا توازنهم ويخسروا اعصابهم فيأمر بضرب دمشق طيلة ٢٤ ساعة في الثامن عشر من تموز عام ١٩٢٥ ويدك اعظم قصورها واشهر معالمها الاثرية في حي باب العامود وغيره من الاحياء المجاورة له .

وتأثر العالمان العربي والاسلامي من قذف دمشق بالقنابل وانهالت الاحتجاجات على باريس حتى ان قناصل الدول الغربية عدوا هـــذا الحادث فظيعاً . وتشير الاحصاءات ان دمشق خسرت ستمائة دار من اجمـــل دورها بعد ان ضربت بالقنابل واصبحت الاسواق المهدومة اليوم جادات تقوم على جانبيها اجمل الوكالات الحديثة .

معارك الغوطة الدامية وثورة حماه .

اذا كان الدروز قد بهروا العالم بمعارك « الكفر والمزرعة والمسيفرة » وبرهنوا انهم من صميم الوطنيين الذين لا يرضون عن الاستقلال بديلا فان رجال الغوطة في دمشق قد اعطوا القوات الفرنسية دروساً لا تنسى في التضحيـــة بمعركتي « بلدة » و « يبيلا » في تشرين الثاني عام ١٩٢٥ .


فوزي القاوقجي

لقد كان سكان الغوطة يموتون وهم مطمئنون اذ يقاتلون عدواً جاء ليغتصب استقلالهم وحرياتهم ، وقـد رأيت بام عيني القوات الفرنسية تربط جثث الشهداء باذناب الخيول لتجرها في ساحات دمشق .

وان كنت انسى فلا انسى الشهيد مربود وهو من رجالاتنـا المعدودة يموت وجثته تربط الى ذنب حصان يجرها في ساحة المرجة !! ثم هل انسى الفلاحين والفلاحات وقد ربطوا جميعاً الى الاشجار بين القنب ثم اطلق عليهم الرصاص دفعة واحدة فلفظوا ارواحهم وهم يشهدون رجال الانتداب ان السوريين لا يقلون عن اية امة في الدنيا ايماناً باستقلالهم ووحدتهم . وكان يقود هؤلاء الشباب المقاتلين في الغوطتين السيد مصطفى وصفي وقـد نجح في حرب العصابات نجاحاً لفت اليه الانظار . وكان الثائر حسن الخراط – وهو من العامة – احد الذين جاهدوا جهاد الابطال في معارك الغوطة ودمشق ويحكى عن بطولته القصص الكثيرة حتى انه كان يهاجم بنفر قليل من رجاله قوات كثيرة العدد من الفرنسيين ويتفوق عليها .

وأشعل الثورة في مدينة حماه في الرابع من تشرين الاول عام ١٩٢٥ السيد

فوزي القاوقجي وهو شاب من شباب طرابلس واحد الضباط الذين عملوا في صفوف الجيش الفرنسي ، وقد ترأس مؤخراً جيش الانقاذ في حرب فلسطين ، فهاجم مع رجاله من الثوار الحمويين دار الحكومة والثكنات العسكرية واوقع في القوات الفرنسية خسائر جسيمة ، حتى روي انها خسرت ما لا يقل عن اربعمائة قتيل ، واضطر فوزي القاوقجي ورجاله للانسحاب من المدينة لكثرة النجدات الفرنسية التي وردت على حماه .

وكادت الثورة السورية تؤتي اكلها فقد اصابت النجاح في جبل الدروز ودمشق والغوطتين لولا انقطاع السلاح الذي كان يشحن من شرقي الاردن عن سوريا فقد عطف الانكليز بادىء ذي بدء على الثورة ثم تنكروا لها فمنعوا عنها المؤن والذخائر وقد كان هذا كله نتيجة للضغط الفرنسي في باريس على الساسة الانكليز في لندن . وتمكنت فرنسا ان تخمد الثورة بفضل النجدات المتواصلة التي كانت تفد تباعاً على سوريا . وكانت معظم هذه النجدات من القوات التي كانت تقاتل الثائر المجاهد البطل عبد الكريم الريفي . فكانت فرنسا قد اجهزت على هذه الثورة مع حليفتها اسبانيا وأسرت عبد الكريم وارسلته الى المنفى السحيق . ولعل من اكبر الاسباب الاساسية في فشل الثورة تذبذب بعض الزعماء السوريين وميلهم الى حيث تميل مصلحتهم فقد كان الطابور الخامس الذي قضى على الثورة وشرد رجالها في الاصقاع العربية المجاورة ونشر في كل مكان ان الخراب كاد يحيق بمرافق سوريا من جراء هذه الثورة التي بذل كثير من الشباب دماءهم في سبيلها .

وكانت هذه الثورة اللاهبة سبباً من الاسباب التي دعت فرنسا الى التفكير بالتعاون مع الوطنيين والى ارسال مندوب سام مدني الى سوريا بدلاً من ارسال مندوبين عسكريين كما فعلت في السابق فقد كفاها ما عانته من تضحيات في عهد الجنرالية غورو وويغاند وسارايل وكفاها فضائح لوثتها لدى العالم واشهرها فضيحة ضرب دمشق بالقنابل . فبعثت الحكومة المسيو دهجوفنيل العضو في مجلس الشيوخ الفرنسي والوزير السابق مندوباً سامياً في سوريا ولبنان بدلاً من الجنرال

سارايل وشاه دهجوفنيل قبل قدومه الى سوريا ان يبحث مع الوطنيين والاحزاب السورية في القاهرة بعض الحلول للقضية السورية فتوصل الى بعض النتائج الطيبة اشهرها مشروع عرف بمشروع دهجوفنيل - الداماد وخلاصته ان دهجوفنيل حينما حط الرحال في دمشق الف حكومة جديدة ترأسها الداماد احمد نامي بك وهو ابن الداماد فخري بك وكان في عدادها ثلاثة من الكتلة الوطنية وهم السيد فارس الخوري والسيد لطفي الحفار والسيد حسني البرازي وقد اقترح دهجوفنيل على حكومة الداماد استبدال الانتداب بمعاهدة مدتها ثلاثون عاماً واقامة الوحدة السورية واجراء انتخابات حرة لجمعية تأسيسية وكاد ده جوفنيـــل ينجح نجاحاً باهراً في سياسته لو وافقت على مشروعه المعروف بمشروع دهجوفنيل - الداماد وزارة الخارجية الفرنسية . والمهم ان نقول هنـــا ان الهيئة السياسية التي كانت تلحق بالمفوضية العليا الفرنسية كانت تخاف على نفسها فترسل تقاريرها الى باريس وتسبب كل هذه المتاعب لسوريا وفرنسا في آن واحد .

والمعروف عن دهجوفنيل قوله المشهور : « الحرب لمن يريد الحرب والسلم لمن يريد السلم » وكان هذا السياسي مخلصاً في مشروعه الذي كان يقضي بتدعيم السلم في سوريا وعقد معاهدة ود وصداقة بين وطنـــه والوطن السوري . وكاد يتفاهم مع السوريين لو بادلته وزارة الخارجية الفرنسية الاخلاص الذي بادلها اياه .

ولعل اكبر ثمرة من ثمار نجاح دهجوفنيل كانت في لبنان فقد انشأ حكومة الجمهورية اللبنانية بدلاً من حكومـة لبنان الكبير عـــين يومئذ السيد شارل دباس رئيساً لها . وعرف الرئيس دباس بنزاهته وعفته واخلاقه الشريفة في خلق وطن يقوم على الكفاءة اكثر مما يقوم على الطائفية ، ولكن القدر عاجله فمات ولبنان في اشد الحاجة الى امثاله من الرجال الذين لا يستغلون الطائفية لمصالحهم ولا يستغلون مرافق البلاد لاهليهم وذويهم واحزابهم .

•

رفض المسيو دهجوفنيل المفوض الفرنسي في سوريا ولبنـــان الرجوع الى بلادنا لما رأى وزارة الخارجية الفرنسية تضع العراقيل امام سياسته الحرة وابى ان يكون آلة لتنفيذ منهاج استعماري يقتل نفـــوذ فرنسا في المشرق باعتقاده فاضطرت الحكومة الفرنسية ان تعين مكانه المسيو بونسو وهوسياسي اشتهـــر بالصمت حتى ان الصحفيين لم يفوزوا منه بتصريح خلال اقامته في ربوعنا . وكان دائما يعجب بجمال الجو في سوريا ولبنان وطيب الهواء . وقد رأى المسيوبونسو ان يقبل حكومة الداماد التي نذرت نفسها لتنفيذ مشروع ده جوفنيل ـ الداماد وعين مكانها حكومة جديدة برئاسة تاج الدين الحسني ابن الشيخ بدر الدين الحسني محدث الشام الاكبر .

والشيخ تاج رجل دين اتصف بالذكاء والمرونة وقد استغل مركز ابيه الديني والتفاف العلماء والعامة حوله فتقرب من فرنسا بوسائله الخاصة ووساطة امثال السي قدور بن غبريط ممثل مراكش في باريس فركب رئاسة الجمهورية في دمشق وكان له آثار عمرانية ما تزال تنطق بعلو همته، كبناية البرلمان السوري ومدرسة التجهيز وغيرهما وكان الشيخ تاج يتقرب الى العامة فيوزع عليها الدقيق باسعار رخيصة ويرتب لكبرائها المرتبات . ودعا الشيخ تاج البلاد السورية الى انتخاب مجلس نواب يمثلها ويضع لها دستورها العتيد في الرابع والعشرين من نيسان عام ١٩٢٨ ففاز الوطنيون في هذه الانتخابات وبرهنوا انهم اصحاب النفوذ في الامة السورية وقد سمى هؤلاء الوطنيون أنفسهم « بالكتلة الوطنية » وافتتح المجلس النيابي في التاسع من حزيران عام ١٩٢٨ وانتخب السيد هاشم الاتاسي رئيساً له . ولمع في هذا المجلس الاستاذ فوزي الغزي وهو الذي وضع الدستور السوري في مائة وخمس عشرة مادة فدعي بحق « ابي الدستور » .

والمؤلم ان هذا الشاب المتشرع مات مسموماً من قبل زوجتـــه وعشيقها . وكانت خسارة سورية به خسارة لا تعوض فهو الذي ايد المبدأ الجمهوري في الحكم

وقرر ان تكون السلطة التشريعية في يد مجلس واحـــد يدعى البرلمان . ونص الدستور السوري ان تكون الوزارة التي تمثل السلطة التنفيذية مسؤولة امــام البرلمان وقد حصر الدستور السوري رئاسة الجمهورية بالمسلمين دون غــيرهم من بقية الطوائف .

ولكن بونسو الذي كان يطبق السياسة الفرنسية في بلادنا لم ترق له « الوحدة السورية» التي أكدها الدستور السوري ونص عليها ولم يطب له « أن يعقد رئيس الجمهورية السورية المعاهدات مع الدول الاجنبيـة » أو يكون له الحق « بالعفو الخاص » أو « للبرلمان الحق في العفو العام » . وقال الدستور السوري «بالتمثيل الخارجي » و « تكوين جيش قوي » فرفضت فرنسا كل هذه الحقوق التي تجعل من سوريا دولة مستقلة ذات سيادة .

وكان الدستور السوري ينص أن من حق رئيس الجمهورية ان يعلن الاحكام العرفية إذا شاء ايام الازمات القاسية التي قــد تمر بالبلاد فأبى المفوض السامي الفرنسي أن يصادق على هذه المواد كلها وعارضها بشدة . وهكذا بدأ النضال بين البرلمان السوري والمفوض السامي الفرنسي المسيو بونسو وكان كل من الطرفين السوري والفرنسي يتشبث برأيه في الدستور فرفض البرلمان السوري أن يحذف أية مادة من هذه المواد التي ذكرناها كما رفض المفوض الفرنسي أن يصادق عليها فأصدر المسيو بونسو قراراً بتأجيل انعقاد البرلمان السوري ثلاثة اشهر كما اعقبه بتأجيله ثلاثة اشهر اخرى ثم اجل انعقاده الى مدة غير مسماة ثم امر بحله . وهنــا بدأ النضال السلبي السوري وعلى رأسه الكتلة الوطنية ضد فرنسا وكان رئيس هذه الكتلة السيد هاشم الاتاسي . وظلت هذه الكتلة متوسلة بالسلبية حتى عقدت سوريا المعاهدة المعروفة بمعاهدة ١٩٣٦ .

ونشر المفوض السامي المسيو بونسو الدستور السوري الذي وضعه المغفور له فوزي الغزي بعد ان أضاف اليه المادة التالية التي شلته من الاساس وهذا نصها : « ما من حكم من أحكام هذا الدستور يعارض ولا يجوز ان يعارض التعهدات التي قطعتها فرنسا على نفسها فيما يختص بسورية ولا سيما ما كان منها متعلقاً بجمعيــة

الامم . يطبق هذا التحفظ بنوع خاص على المواد التي تتعلق بالمحافظة على النظام وعلى الامن وبالدفاع عن البلاد وبالمواد التي لها شأن بالعلاقات الخارجية .

لا تطبق احكام هذا الدستور التي من شأنها ان تمس بتعهدات فرنسا الدولية فيما يختص بسورية في اثناء مدة هذه التعهدات الا ضمن الشروط التي تحدد في اتفاق يعقد بين الحكومتين الافرنسية والسورية . »

وهكذا نسف المفوض السامي الدستور السوري الذي يضمن لسوريا الاستقلال والوحدة والسيادة والجيش والتمثيل الخارجي بجرة قلم وبرهنت فرنسا انها لا تريد ان تتنازل للسوريين عن حقوقهم التي نصت عليها المادة الثانية والعشرون من ميثاق عصبة الامم وان ليل السوريين مع فرنسا ما يزال طويلاً يتطلب تضحية وجهداً .

ونشر المفوض السامي المسيو بونسو دستور لبنان الكبير ودستور حكومة العلويين ودستور جبل الدروز في نفس اليوم الذي نشر فيه دستور الحكومة السورية . وكان ذلك في الرابع عشر من ايار عام ١٩٣٠ . ونص الدستور العلوي على ان العلويين سوريون .

كذلك نص دستور جبل الدروز ان اهالي الجبل سوريون ايضاً ولم تعد حكومة اللاذقية ولا حكومة السويداء تسميان بالدولتين دولة اللاذقية ودولة السويداء !! ولكنهما ظلتا منفصلتين عن سورية الام . والمهم ان هذه الدساتير كلها تستمد حياتها من حكام فرنسا في الشرق فهم الذين يميتونها وهم الذين يحيونها .

•

المعاهدة السورية الفرنسية عام ١٩٣٦

اراد ممثل فرنسا في سوريا ولبنان ان تعقد الحكومة السورية معاهدة مع دولته بعد ان نظر الى الواقع السوري نظرة فيها كثير من التعقل . فقد كانت سوريا مركزاً لاضطرابات وقلاقل لا آخر لها لأن السوريين كانوا مزمعين ان ينالوا

استقلالهم ويحافظوا على سيادتهم وان يسفكوا في سبيل ذلك الدماء غزيرة فسهل المفوض السامي الفرنسي اسباب تأليف الوفد السوري وهيأ له سفره ودرست وزارة الخارجية في باريس مشروع معاهدة سورية فرنسية عرفت بمعاهدة سنة ١٩٣٦ . وكانت هذه المعاهدة تقوم على اساس التحالف والصداقة بين فرنسا وسوريا واعتراف فرنسا صراحة بالسيادة والاستقلال السوريين وكان جميل مردم بك الديبلوماسي السوري قطب الحركة السورية في المفاوضة كما كان المسيو فيينو من موظفي الخارجية الفرنسية صاحب اليد الاولى في المفاوضات من الجانب الفرنسي وكان على فرنسا بعد زوال انتدابها عن سوريا ان تهيء كل الاسباب لقبول سوريا عضواً في عصبة الامم في مدة ثلاث سنوات ابتداء من ابرام المعاهدة من الجانبين المتعاقدين ولو قرأنا هذه المعاهدة ودرسناها لوجدناها تتلخص في هذه المواد :


السيد جميل مردم بك

المادة الاولى — يسود بين سوريا وفرنسا سلم دائم وتتحالف الدولتان المستقلتان دفاعاً عن السلم ومحافظة على مصالحهما المشتركة .

المادة الثانية — تتشاور الدولتان دوماً بشأن السياسة الخارجية التي قد تمس مصالحهما المشتركة وتقفان دوماً موقفاً واحداً ويكون لكل منهما لدى الآخر ممثل سياسي .

المادة الثالثة — تنقل الى سوريا بعد زوال الانتداب جميع الحقوق والواجبات الناجمة من جميع المعاهدات والاتفاقات وسائر العقود الدولية التي عقدتها فرنسا باسم سوريا .

المادة الرابعة — اذا اختلفت سوريا وقطعت علاقاتها مع أية دولة تتداول فرنسا وسوريا لتسوية الخلاف وفقاً لميثاق عصبة الامم وفي حال الحرب يتخذ

الطرفان فرنسا وسوريا اسباب الدفاع الواجبة وتقدم سوريا لفرنسا في الاراضي السورية السكك الحديدية ومجاري المياه والمرافىء والمطـــارات وكل وسائل المواصلات .

المادة الخامسة – تحفظ سوريا النظام في كل ارجائها وتدافع عن اراضيها . وتقدم فرنسا لها كل المساعدات العسكرية مدة المعاهدة .

المادة السادسة – تعقد هذه المعاهدة لمدة خمس وعشرين سنة وتفتح المفاوضات لتجديد هذه المعاهدة أو تعديلها اذا طلبت احدى الحكومتين ذلك اعتباراً من السنة العشرين بعد وضعها موضع التنفيذ .

المعاهدة السابعة – توضع هذه المعاهدة موضع التنفيـذ يوم قبول سوريا في عصبة الامم .

المادة الثامنة – لا يبقى على الحكومة الفرنسية أية مسؤوليات أو واجبات دولية نحو سوريا بعد أن توضع هذه المعاهدة موضع العمل .

المادة التاسعة – كتبت هذه المعاهدة باللغة الفرنسية واللغة العربيـــة وكلا النصين رسمي ويعول على النص الفرنسي وإذا اختلف الطرفان المتعاقدان بشأن تنفيذ هذه المعاهدة فيتفاوضان مباشرة وإذا لم يتفقـا يلجأن الى التحكيم حسب ميثاق عصبة الامم .

وكان لهذه المعاهدة ملحق عسكري نص أن الحكومة السورية هي التي تدفع نفقات جيشها وتضع فرنسا بعثة عسكرية تخـــدم في الجيش والدرك والبحرية والطيران عند سوريا وتعود نفقاتها على الحكومة السورية . كذلك لا يكون المعلمون والمدربون والاخصائيون في الجيش السوري الا من الفرنسيين. وتستعمل سورية السلاح الفرنسي والتجهيزات الفرنسية . وتتعهد الحكومة السورية أن تضع تحت إمرة فرنسا قاعدتين جويتين تبعدان عن المدن الكبرى اربعين كيلومتراً على وجه التقريب ويسمح لفرنسا بصورة موقتـة أن تستعمل مطاري « المزة » و « النيرب » ، وأن تستبقي لمدة خمس سنوات من تنفيذ المعاهدة بعض الفرق في جبل الدروز وبلاد العلويين . ولا يفيد استبقاء هذه الفرق الفرنسية في سوريا

احتلالاً أو مساساً في السيادة والاستقلال السوريين !! ثم يسمح للطائرات الفرنسية أن تحلق في الاجواء السورية وفوق المدن والقرى . وتحافظ سوريا على جميع المأمورين الفرنسيين وعائلاتهم وتمنحهم كل الامتيازات التي كانت لهم سابقاً في عهد الانتداب .

ثم تبودلت بين فرنسا وسوريا بعض البروتوكولات وكان أهمها البروتوكول الذي يحدد العلاقات الاقتصادية والمالية بين سوريا ولبنان وكان ينص هذا البروتوكول صراحة أن هذه العلاقات الاقتصادية والمالية إذا فشلت في عهد الاستقلال أو لم تؤد الى تعاون مشترك فان الحكومة السورية لن تقرر ضد لبنان نظاماً متفاوتاً عن الانظمة المطبقة على البلدان المنسلخة عن السلطة العثمانية .

ويظهر ان الرأي العام السوري كان مستعداً لابرام معاهدة سنة ١٩٣٦ ودليلنا على ذلك فوز الكتلة الوطنية بعد رجوع وفدها من باريس في انتخابات الحادي والعشرين من كانون الاول عام ١٩٣٦ وقد انبثقت عن هذه الانتخابات حكومة وطنية ترأسها جميل مردم بك بطل المفاوضات . وانتخب المجلس النيابي الجديد السيد هاشم الاتاسي رئيساً للجمهورية والسيد فارس الخوري رئيساً للبرلمان . والمضحك أن فرنسا التي كما قلنا سابقاً تبدأ حسناً جداً في مشاريعها وتنتهي الى أسوأ ما يكون في النتائج نكلت عن إبرام هذه المعاهدة ورجعت بالبلاد الى عهد الانتداب حتى كان عام ١٩٣٩ العام الذي نشبت فيه الحرب العالمية الثانية . وصار النفوذ الفرنسي في سورية بعد انكسارها سنة ١٩٤٠ نفوذاً لا قيمة له مما أدى الى جلاء قواتها عن المشرق بكامله .

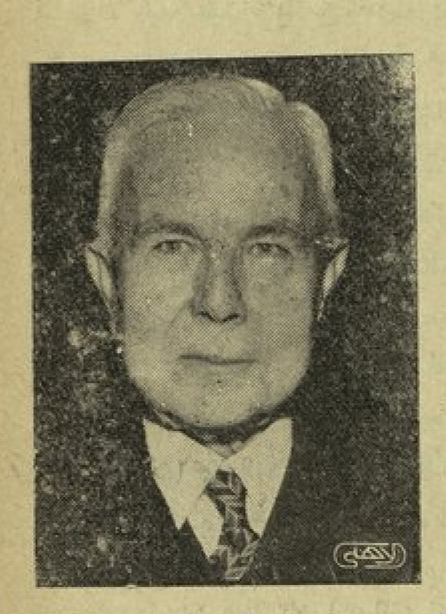
•

محمد علي العابد اول رئيس للجمهورية السورية

دعا المسيو بونسو السوريين في كانون الاول عام ١٩٣١ الى تنفيذ الدستور الاشل الذي نشره وليظهر لهم نياته الحسنة اقال حكومة الشيخ تاج الدين الحسيني وطلب اليهم انتخاب برلمان يمثلهم. ونزل السوريون الى ميدان الانتخاب



فخامة السيد هاشم الاتاسي



دولة فارس الخوري

ولكن فرنسا لم تكن جادة كل الجد في ان يكون هذا الانتخاب نزيهاً لأنها كانت تحرص اشد الحرص ان يفوز انصارها وحاولت ان تزور وان تعطي مريديها من المرشحين اصواتاً ليست لهم فوقعت الواقعة في دمشق في العشرين من كانون الاول عام ١٩٣١ وهاجم الاهلون في كثير من الاحياء صناديق الاقتراع وحطموها ووقع بعض القتلى والجرحى. كذلك توقفت الانتخابات في مدينة حماه وفي دوما للسبب ذاته. وكان هذا اول درس تتلقنه سوريا في التزوير وقد عمد اليه بعض

المسؤولين من الوطنيين حينما تولوا الاحكام في عهد الاستقلال . وهذه سيئة اقتبسناها من رجالات فرنسا في بلادنا ووافقهم بعض كبارنا في هذا المضمار مراحل .

ثم استؤنفت الانتخابات بعد ان توقفت في نيسان عام ١٩٣٢ وبعد ان اتفق الوطنيون والسلطات المنتدبة على توزيع المقاعد . والمهم ان نذكر ان البرلمان السوري الذي خلق عام ١٩٣٢ كان برلماناً هزيلاً يمثل النزعة الفرنسية في البلاد اكثر مما يمثل النزعة الوطنية السورية فقد كان الوطنيون او « الكتلة الوطنية » لا يمثلهم الا سبعة عشر نائباً من اصل سبعين نائباً . وكان الباقون يتلقون الاوامر والوحي مباشرة من مندوب المفوض السامي في دمشق .

ولأول مرة في تاريخ سوريا يجتمع المجلس النيابي لانتخاب رئيس للجمهورية وقد ترشحت آنئذ شخصيتان لهما وزنهما الاولى محمد علي العابد كبير اثرياء الدمشقيين والرجل الذي كان لا يستطيع ان يعصي أمراً لفرنسا لأن شهوة الحكم والرئاسة كانت ملء جوانحه فقد عمل المستحيل لتكون له مهما كان الثمن ومهما عانت البلاد في هذا السبيل والثانية السيد صبحي بركات الثائر الانطاكي الذي حارب القوات الفرنسية ايام الاحتلال الاولى والذي كان لا يقل عن منافسه شهوة في الحكم وقد تمكن محمد علي العابد من الفوز برئاسة الجمهورية باكثرية صوتين على صبحي بركات وكان ذلك في الحادي عشر من حزيران عام ١٩٣٢ ثم انتخب السيد صبحي بركات رئيساً للبرلمان السوري وتألفت اول حكومة دستورية سورية في عهد الانتداب برئاسة السيد حقي العظم وكان يمثل الكتلة الوطنية فيها عضوان وحاولت فرنسا بشخص المفوض السامي الجديد

المغفور له سعد الله الجابري

الكونت ده مارتل الذي أتى خلفاً للمسيو بونسو ان تعقد معاهدة مع الحكومة السورية الدستورية الجديدة فلم تفز بطائل لان الرأي العام السوري لم يكن ليهضم معاهدة تكون فيها فرنسا «كل شيء» وتكون فيها سوريا «لا شيء».

وقد سبق ان ألفت لجنة من البرلمان السوري برئاسة فوزي الغزي دستوراً حديثاً لا عيب فيه فوضع له المفوض السامي الفرنسي تحفظات شلته بتمامه.

وهكذا كنت تجد الرأي العام السوري لا يثق بفرنسا لأنها كانت تبدأ جيداً وتنتهي على أسوأ ما يكون في مفاوضاتها السياسية.

ولعل مشروع معاهدة عام ١٩٣٣ خير شاهد على ما نقول. فان فرنسا وضعتها ووافقت عليها الحكومة السورية وكاد المجلس يبرمها لولا انسحاب الوطنيين وضغط الرأي العام فعطل المفوض السامي البرلمان السوري مدة دورتين ثم اقفله الى اجل غير مسمى.

وهنا يظهر الشيخ تاج الدين الحسني للمرة الثانية على مسرح السياسة السورية فيتسنم رئاسة الدولة عام ١٩٣٤ ويحكم البلاد صورياً ويحكم المفوض السامي في دمشق مباشرة. فتثور البلاد من اقصاها الى اقصاها وتلجأ الى سلبيتها وتقفل المدن السورية برمتها ما لا يقل عن خمسين يوماً فتضطر فرنسا الى اقالة حكومة تاج الدين عام ١٩٣٥ والاتفاق مع الكتلة الوطنية على ارسال وفد يتفق وفرنسا مباشرة في باريس على اسس معاهدة تكون فيها سوريا عزيزة الجانب لها سيادة واستقلال محترمين.

وتألف الوفد السوري من السادة هاشم الاتاسي رئيساً وسعدالله الجابري وفارس الخوري ومصطفى الشهابي وجميل مردم وادمون حمصي أعضاء ونعيم الانطاكي اميناً للسر واحمد اللحام خبيراً عسكرياً.

وكان يتسلم زمام الاحكام في فرنسا وقتئذ الحزب الاشتراكي فوفق الوفد السوري الى عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ مع فرنسا وقد رفض البرلمان الفرنسي ان يصادق على موادها. وللمعاهدة السورية - الفرنسية مواد لا بد من دراستها وسردها الواحدة اثر الاخرى. وقد ذكرناها سابقاً.

كيف نالت سوريا استقلالها من فرنسا

نشبت الحرب العالمية الثانية وسوريا رازحة تحت الانتداب الفرنسي ولكن النتائج السريعة التي ادت الى انكسار فرنسا في الجبهة الغربية امام الجحافل الهتلرية اهابت بانكلترا وفرنسا الحرة - وهي القوى الفرنسية التي لم تذعن للسيطرة الالمانية - ان تدخل سوريا ولبنان فاتحة في صيف ١٩٤١ لطرد القوات الفرنسية الفيشية والبعثتين الالمانية والايطالية اللتين كانتا تسيران فرنسا في المشرق نحو السياسة المحورية .

وأرادت فرنسا الحرة التي كان يرأسها الجنرال ديغول في لندن والجنرال كاترو في سوريا ان تبرهن للسوريين عن تعلقها بمبادىء الحرية التي تقاتل من اجلها ، فأصدرت بياناً في الثامن من حزيران عام ١٩٤١ اي قبل دخول جيوشها الى سورية القته بواسطة الطائرات تقول فيه انها تنهي الانتداب وتعترف بسوريا دولة حرة مستقلة ذات سيادة . وقد ايدت بريطانيا هذا الاستقلال بلسان رئيس مجلس الوزراء المستر تشرشل في مجلس العموم بتصريح رسمي اعلنه حينذاك ثم ضمنته ايضاً بلسان مندوبها السير مايلز لمبسون في مصر الذي حض جميع الدول العربية على الاعتراف بالاستقلال . وحذت الدول الحليفة بريطانيا وفرنسا على الاعتراف بالاستقلال السوري ايضاً . ولكن المضحك في سياسة فرنسا سواء اكانت فرنسا فيشية أو حرة انها عمدت الى الشيخ تاج الدين الحسيني برئاسة الدولة ولقبته رئيساً للجمهورية وهو الرجل الذي خدم الانتداب ورجال الانتداب ابان حكمه اكثر من كل سوري مسئول اسندت اليه الاحكام .

وتألفت وزارة في عهد الشيخ تاج الاستقلالي برئاسة السيد حسن الحكيم ، وقد حاولت هذه الوزارة ان تنتزع من الفرنسيين الصلاحيات التي تمارسها الدول المستقلة فكانت فرنسا الحرة تأبى ذلك رغم كل الجهود التي بذلها رئيسها السيد حسن الحكيم ووفق هذا السياسي السوري الى ضم بلاد العلويين وجبل الدروز ضماً نهائياً الى دمشق الأم ، كما وفق بتسلم كتاب من الجنرال كاترو الى رئيس

الجمهورية السورية الشيخ تاج الدين يعترف فيه باسم فرنسا الحرة بالاستقلال السوري

وحينما لاح النصر للحلفاء في الافق ووقفت سوريا الى جانبهم موقفاً مخلصاً دعيت البلاد الى انتخابات جديدة فقام . مجلس نيابي يمثل آمال الامة وامانيها وقد انتخب هذا المجلس السيد شكري القوتلي رئيساً للجمهورية ، وتسلم السيد شكري القوتلي وحكومته السلطات التي كانت تتمرس بها فرنسا .

وفي عهد السيد شكري القوتلي اصبحت سوريا عضواً في جمعية الامم المتحدة وصار لها كل الحقوق وعليها كل الواجبات التي نص عليها ميثاق سان فرانسيسكو . ثم جلت فرنسا بجيوشها ومعداتها عن سوريا كما جلت عن اراضي الجمهورية اللبنانية واصبح للجلاء عيد في كلا الجمهوريتين الشقيقتين . وكان ذلك في عام ١٩٤٥ .

وينص الدستور السوري انه لايجوز لرئيس الجمهورية ان يعاد انتخابه فعدل مع الاسف شكري القوتلي الدستور لصالحه ونزل الى الميدان حزبياً وقد كان له ما اراد فانتخب للرئاسة مرة ثانية وترك الحبل على غاربه لمن ساعدوه فاصبحت سوريا تعاني من فوضى الميوعة والاستغلال مما ادى الى ثورة نفسية كانت تجيش في صدور السكان . وجاءت اسرائيل تنشيء دولتها وتثبت اركانها بنفوذ الولايات المتحدة وانكلترا وروسيا واندفاع الصهيونيين وتضحياتهم فاتخـــذات الدول العربية كلها في الميدان امامها وجاء هذا الانخذال حافزاً آخر للتخلص من السيد شكري القوتلي وحكومته فقام الجيش وعلى رأسه الزعيم حسني الزعيم في الثلاثين من آذار عام ١٩٤٩ بانقلاب عسكري كان من نتائجه استقالة القوتلي للشعب السوري ومغادرته سوريا الى سويسرا .

وظل الزعيم حسني الزعيم قابضاً على زمام الامور مدة اربـــعة اشهر ونيف اعدم بها مع وزيره الدكتور محسن البرازي اثر انقـــلاب عسكري ثان ترأسه الزعيم سامي الحناوي في الرابع عشر من آب ١٩٤٩ وتبين ان حسني الزعيم الذي انتخبه الشعب السوري رئيساً للجمهورية تحت تأثير القوة والارهاب كان يسخر الدولة ومرافقها لمصالحه الخاصة فتخلصت سوريا من كابوسه المخيف . وكان اعدامه بدء انقشاع السحب الدكتاتورية من سوريا سيما وقد كان الرجل غير موزون

متهتكا في سيرته واستدعى الزعيم الحناوي رجال الاحزاب وسلمهم مقاليد الحكم وانسحب مع قواته الى الثكنات العسكرية وتألفت اثر ذلك وزارة السيد هاشم الاتاسي احد رؤساء الجمهورية السابقين ، ثم كان الانقلاب الثالث بزعامة اديب الشيشكلي ولن نقول عنه كلمة الان ... سدد الله خطوات هذه الوزارة لانتشال سوريا من فوضى الارهاب وصيانة الديمقراطية في المشرق . ولسوف تعاني سوريا كثيراً من المتاعب اذا لم ينزو رجال الجيش عن السياسة واحابيلها ويهتموا بالدفاع عن البلاد ضد الاجنبي وضد كل معتد يريد بالاستقلال سوءاً .

•

شخصية فيصل الجذابة

من هو فيصل ؟

من هو هذا الزعيم الذي قاد الثورة العربية بعد ان اطلق ابوه الحسين الرصاصة الاولى في بطاح مكة ؟.

كيف اكتسب هذا الرجل ثقة السوريين فاصبح وكيلهم في اوروبا ؟

ثم كيف قدمت له سوريا تاجها وعرشها وهي مطمئنة اليه راضية عنه ؟

هذه اسئلة جدير بنا ان نجيب عليها ! لقد شاهدته لاول مرة في حياتي حينما قدم الى بيروت من دمشق ابان الاحتلال عام ١٩١٩ واستقبله البيروتيون استقبال الفاتحين وجروا عربته بايديهم بعد ان فكوا عنها الخيول .

ثم شاهدته اميراً يروح ويجيء من دمشق الى اوروبا ويحط الرحال في الوكالة العربية في بناية الداعوق ويجتمع فيها الى العناصر الوطنية التي كانت تقول بالاستقلال الناجز والسيادة المطلقة .

وعرفته شخصياً في العراق ملكاً كريماً تقدمياً يود لو ينهض بهذا القطر الشقيق نهضة علمية جبارة تضيء سبيله في الحياة فكان لا يرد طلباً للسيد ساطع الحصري مدير المعارف في عهده بل كان يدفعه الى تأسيس المدارس في كل الانحاء العراقية.

ورأيته يتفق مع المعارضة في العراق وعلى رأسها ياسين الهاشمي لتهاجم سياسته في الحكم مع الانكليز حتى يرجع فيفاوض الانكليز وينال منهم ما يستطيع نواله لهذا الوطن الناشىء .

لقد كان فيصل يعتقد بسياسة المراحل او الخطوات . وهل للسياسي الضعيف الذي لا يملك من امر الدنيا حولا ولا قوة الا هذه السياسة الناعمة اللينة التي توصله الى بعض مآربه ولا اقول كلها ، دون ان يسفك نقطة من الدماء. ولذا كان فيصل موضع احترام الساسة الغربيين وتقديرهم .

وكان فيصل اول من اسس حكومة عربية في دمشق بوصفه قائداً للجيوش التي احتلت المنطقة الشرقية من بلاد العدو المحتلة وممثلاً لوالده الملك حسين. وهكذا نجد ان هذا الرجل الكبير كان اول من فتح عيون السوريين للحكم الاستقلالي العملي واول من دربهم على ان يطالبوا بحقوقهم عن طريق التنظيم . وكان فيصل على اتصال دائم مع الجمعيات الثورية السورية قبل ان تشتعل نيران الحرب وقبل ان يفتك جمال باشا الطاغية التركي بهذه النخبة المختارة من الشهداء الذين اعدموا عام ١٩١٦ . ولهذا يمكننا ان نقول ان فيصلا كان يشتغل للقضية العربية عامة وللقضية السورية خاصة . ثم حينما ذهب الى مؤتمر الصلح في باريس نصب نفسه ممثلا لسوريا ودافع عن قضيتها دفاعاً حاراً وقد انكرت عليه فرنسا يومئذ ان يتكلم باسم سوريا والسوريين فاضطر ان ينال التوكيلات المختلفة من دمشق وحلب وحمص وحماه وان ينالها من كبار ممثلي الطوائف والتجار والزراع . ثم كان القرار الاخير بالتوكيل من المؤتمر السوري العام الذي عقد عند مجيء لجنة الاستفتاء الاميركية في الثاني من تموز عام ١٩١٩ .

وصرح المؤتمر السوري في قراره انه يضع تمام الثقة بشخص الامير فيصل ويجاهر بالاعتماد التام على سموه ، كما انه اظهر رغبته الشديدة في المناداة به ملكاً على البلاد السورية باجمعها .

ويقول الاستاذ ساطع الحصري في كتابه « صفحات من الماضي القريب » ان فيصلا كان ذكياً حاد الذكاء ومرناً خارق المرونة وكان يتمتع بمحبوبية شديدة

وفعالية لا تعرف الكلل . وكان نادر المثال في روحه المثابرة الوثابة .

وللساطع الحصري شهادته القيمة بفيصل فقد رافقه اربعة عشر عاماً وعرفه في بؤسه وعزه ، يوم طرد من دمشق بعد معركة ميسلون ويوم اعتلى عرش العراق، يوم كان ديبلوماسياً مبتدئاً ويوم اصبح ناضجاً في اساليبه السياسية وتفكيره العالي في معالجة المعضلات .

وكان فيصل ذا شخصية جذابة ساحرة تستهوي رؤساء العشائر في البادية واكبر الساسة في اوروبا . فكان اذا جلس الى رؤساء العشائر حياهم وآكلهم وشاربهم على طريقتهم وكان اذا اجتمع الى الساسة الاوروبيين كان ذلك المحدث اللبق والشاب الانيق الظريف . واستطاع برقته وحجته القوية ان ينال كثيراً لسورية وللعراق. ولو عاش لاستفادت القضية العربية ولاندفعت في طريق النجاح سنوات الى الامام .

ولعل اجمل ما تحلى به فيصل روح الرجاء والامل التي كانت تسيطر عليه فلم يقنط ولم يستسلم يوماً من الايام بل كان من اولئك المكافحين الذين لا يحسبون للفشل حساباً . وقد كان كثير الايمان بالفوز ولذا اتيح له ان يشيد دولة وينشىء وطناً عربياً لا اقول انه بلغ درجات الكمال ولكنه وضع له اسساً صحيحة اذا جد الابناء في صيانتها اتت « البناية العربية » شاهقة متينة .

وكان فيصل مؤمنا بالعروبة وبالامة العربية جمعاء معتقداً انه لا بد ان تنبع من اغوارها روح التجدد فتسير في ركاب المدنية الحديثة جنبا الى جنب مع الامم الحية . وكان يخاف من الرجعية ويخشاها ويرجو صادقا ان تموت الامية ويمحا الفقر والجهل عند الطبقات العامة .

ولم يكن فيصل جامداً بل كان ذا حيوية فياضة شديدة تدفعه دوما للامام . وقد بذل كل جهوده ليكون ولي عهده مثله تنبض في عروقه روح الوطنية العميقة فعين لغازي ولده لجنة من خيار المعلمين والمربين اعتنوا به عناية خاصة لانه كان متأخراً بالنسبة لعمره في العلوم والمعارف ثم ادخله طالبا في المدرسة الحربية ببغداد وطبق عليه النظام الذي كان يطبق على سائر التلاميذ . فكان ينام كما

ينامون على سرر فوق الاسفلت في « القاووش » ويعامل بصرامة وشدة . وقد شاهدت « غازيا » في « المدرسة المأمونية » في بغداد كشافا كسائر الكشافين .

هذا شيء عن شخصية فيصل العظيم الذي كان يعتبر كل العرب ابناءه كغازي سواء بسواء .

•

لولا نفوذ فيصل لتبعثر ذهب لورنس في الرمال

تنازع السيادة والحكم في الحجاز اسرتان هاشميتان في القرن التاسع عشر هما آل ذي عون وآل ذي زيد وكانت الغلبة لآل ذي عون فكانت لهم ولاية مكة وسدانة الكعبة . اما جد فيصل فكان محمد عبد المعين بن عون بن نمي واليه ينتسب الملك حسين والد فيصل ابي الثورة العربية . وكان للملك حسين ملك الحجاز اربعة اولاد كبيرهم الملك علي ملك الحجاز سابقاً ، والملك عبد الله ملك شرقي الاردن والملك فيصل ملك العراق والامير زيد احد كبار موظفي الحكومة العراقية اليوم .

ولد فيصل عام ١٨٨٥ م (١٣٠١ هـ) وهو الولد الثالث للشريف حسين وامه « السيدة عبدية » وهي من الشريفات وابوها الشريف عبد الله ابن عم الشريف حسين وحمل في يومه الثامن الى قبائل عتيبة المرضاع خارج الطائف . وهذا تقليد عربي قديم .

وعاش فيصل الطفل في البادية تصهر جسده الشمس المحرقة وتنمي فيه الصحراء روح الحرية والانطلاق . ثم استدعت الدولة العثمانية الشريف حسين والد فيصل الى الاستانة ليعيش في كنفها خوفاً منه واحتياطاً لكل طارىء فاصطحب امرته معه ورحل الى استانبول وأقام على ضفاف البوسفور سبعة عشر سنة كان فيها اسير السلطان العثماني . وكان الشريف حسين يرجو ان يحفظ اولاده القرآن الكريم وان يجيدوا تعلم اللغة العربية واصولها فعين الاستاذ صفوة العوا معلماً لهم وهو شاب دمشقي ومن اسرة معروفة .

ولقد شاهدته عام ١٩٢٥ في بغداد اميناً لخزينة البلاط الملكي. واشتهر بولائه لتلميذه فيصل وبحبه للأسرة الهاشمية ، وكان يغار عليها جداً فلا يبذر بفلوسها ولا يفرط بدنانيرها ولهذا كرهه الناس وأهل الجوائز والعطاء في بغداد . وكان فيصل الطالب كسولا بينما كان اخوه عبد الله مجتهداً وكان المعلم صفوة العوا يهدده دوماً بالضرب اذا لم ينكب على دروسه ويجتهد فيها وهكذا نرى اليوم الملك عبد الله من كبار الادباء ورواة الشعر ومن المحدثين المبقين الذين لا يشق لهم غبار في ذكر الطرائف والنوادر ولعل لصفوة العوا كثيراً من الفضل في هذا التوجيه الادبي للملك عبد الله .

وعينت الدولة العثمانية الشريف حسين اميراً على مكة بعد كل هذه المدة التي قضاها في استانبول وتولى فيصل اذ ذاك وكان شاباً في الخامسة والعشرين شؤون البدو والقبائل وكان يضطر كثيراً لأن يحمل عليهم حملات تأديبية مع اخيه عبد الله ويقاسي فيها عذاب الحر الشديد والعطش وحمى الملاريا وله مع عرب عسير والادارسة وقائع كان ينتصر احياناً فيها وكان احياناً ينسحب امام هجماتهم القوية .

وانتخب فيصل نائباً عن جده في البرلمان العثماني فكان في البرلمان عضواً يدعو الى التفاهم بين العنصرين العربي والتركي على اساس اللامركزية وظل على ولائه لسدة الخلافة وكان يدعو النواب العرب لهذا الولاء ويقول بوجوب اتحاد سائر العناصر التي تتألف منها الامبراطورية العثمانية .

وحينما اشتعلت الحرب العالمية الاولى ودخلت تركيا الى جانب المانيا وحلفائها وعين جمال باشا السفاح حاكماً على سوريا وبدأ يضطهد احرار العرب ويعلقهم على اعواد المشانق بلغ فيصل جمال باشا ان هذه السياسة الغاشمة التي يتبعها تجاه العرب تفكك عرى الدولة وتقودها الى الفوضى والخراب والانهيار فاستاء جمال باشا من فيصل وهم باعتقاله فتستر فيصل وهرب بحيلة من الحيل ومال الى الثورة على الظلم التركي والانتصار للعروبة .

وأعلن والده الشريف حسين الثورة على تركيا في حزيران من عام ١٩١٦

وعين فيصل قائداً لجيش الشمال فظهرت مواهبه الحربية ورجولته في ميادين القتال وبرز دهاؤه في جمع القبائل حوله . وكان نصيره الكولونيل لورنس الانكليزي الذي كان يوزع الذهب الانكليزي على زعماء العرب يميناً وشمالا فاستمالهم لفيصل ولقضية الحلفاء ضد دولة الخلافة العثمانية .

والحقيقة ان فيصلاً نجح الى حد كبير في التغلب على احقاد الزعماء العرب الذين كانوا يحيكون المؤامرات لبعضهم البعض والف بين قلوبهم فمشوا تحت رايته يخدمون الثورة العربية ويخدمون سياسة بريطانيا ، ولولا نفوذ فيصل في القبائل لتبعثر ذهب لورنس في رمال البادية ، ولذا يمكننا ان نقول ان دهاء فيصل وذهب لورنس وضعف تركيا كل هذه العوامل جعلت الجيوش البريطانية تدخل سوريا ظافرة فاتحة .

وهنا يبدأ فيصل جهاده في خدمة القضية الاستقلالية العربية ويبزغ نجمه في حومة الصراع ضد الاستعمارين الفرنسي في سوريا والبريطاني في العراق . ولقي فيصل من العذاب في تفهمه للسياسة الاوروبية والديبلوماسيين الاوروبيين، ومن قومه العرب اصحاب النزعات المختلفة والنعرات الطائفية والمذهبية ما يهدم اعاظم الرجال ومع ذلك فقد ظل مثابراً حتى قضى مريضاً .

●

فيصل ملك العراق

عصفت العواصف بفيصل منذ حل في دمشق فقد كان السياسيون العرب الذين يؤلفون «الحاشية» او «البطانة» اصحاب اراء متضاربة ونزعات مختلفة وكان كل منهم يريد أن يوجه الامير الوجهة التي يريدها وكان فيصل مايزال طري العود في السياسة فوقع تحت رحمة «خطبهم وقصائدهم» النارية فاختلطت عليه الامور ولو ترك فيصل وشأنه لماشى منطق السليم كما فعل حينما عقد الاتفاقية المشهورة باتفاقية فيصل - كليمنصو ولكن انى له ذلك وكل يعلن سخطه على

فيصل وسياسة فيصل وقد قرأنا للدكتور عبدالرحمن الشهبندر شهادة حق في فيصل ابان حكمه لمدينة دمشق ومفاوضاته للساسة الاستعماريين من انكليز وفرنسيين فقال : « وتراجع فيصل من غير نظام – ابان المفاوضات السورية الفرنسية لانه كان لايزال حديث العهد بالشؤون السياسية والحملات المدبرة. ولوانه وقف موقفاً ثابتاً ودافع عن آرائه بمثل الطريقة المدبّرة الحاذقة التي سلكها في العراق فبما بعد لوجد من المعتدلين انصاراً يؤيدونه ويقفون في وجه مناوئيه » – المقتطف اكتوبر سنة ١٩٢٣ – . وهكذا اضطر فيصل تحت ضغط القصائد والخطب والكلام الحامي ان يقبل عرشاً وتاجاً في دمشق باذار سنة ١٩٢٠ ثم اضطر كذلك بعد معركة ساعات ان يتخلى عن هذا العرش المحطم وان يتدهور هذا التاج عن رأسه وان يضيع هذا الملك في تموز من السنة نفسها بعد يوم ميسلون .

قلنا ان الشريف حسين والد فيصل نادى بالثورة العربية على دولة الاتراك العثمانيين في الثاني من حزيران عام ١٩١٦ – ٩ شعبان سنة ١٣٣٤ هجرية – وعين فيصل اذ ذاك قائداً لجيش الشمال العربي وقد اتيح له ان يستولي على العقبة وان يطرد الحامية التركية منها في السادس من تموز عام ١٩١٧ وان يصبح بعد هذا الانتصار القائد العام للجيش العربي الذي كان المساعد الاول لجيوش الجنرال اللنبي قائد الحملة المصرية التي فتحت سوريا وفلسطين وحررتها من الحكم التركي. ودخل فيصل مدينة دمشق فاتحاً في الاول من تشرين الاول عام ١٩١٨ ورفع الاعلام العربية على دورها الرسمية . ورحل الى باريس في الثاني والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩١٨ ليمثل والده الملك حسين والآمال والاماني العربية الاستقلالية في مؤتمر فرساي . كذلك رحل الى لندن وباريس في الثاني عشر من ايلول عام ١٩١٩ بعد ان فوضه السوريون للدفاع عن قضيتهم وزودوه بتوكيلهم وقد توصل بلباقته وعطف السياسة الانكليزية عليه ان يعقد اتفاقه المشهور مع المسيو كليمنصو وقد حمل عليه من اجله في دمشق اهل القصائد وساسة الخطب والكلام فتراجع عن هذا الاتفاق بعد ان امضى كل من فيصل وكليمنصو هذا الاتفاق بالاحرف الاولى من اسميهما . ثم نادى به المؤتمر السوري ملكاً دستورياً

على سوريا الموحدة المستقلة ذات السيادة في الثامن من آذار عـــام ١٩٢٠ وكان هذا اليوم يوماً مشهوداً في حياة سوريا الوطنية .

وكان كل الذين يعرفون بواطن الامور ودخائل فيصل يتأكدون ان فيصل ما كان ليرجو ان ينزلق هذا المنزلق ويقبل العرش السوري قبل ان ينال اعتراف الحلفاء بحكومته ولكنه غلب على أمره .

وكان ما كان من اختلاف فرنسا معه وتخلي بريطانيا والولايات المتحدة عنه في سوريا ثم انخذال الجيش السوري وانخذال فلول الجيش السوري والمتطوعة من المتحمسين في معركة ميسلون في الخامس والعشرين من تموز سنة ١٩٢٠ . وخرج فيصل من دمشق بعد هذا التاريخ وقضى فصل الصيف في ايطاليا وجعلها مركزه واخذ يحتج منها لدى المقامات الانكليزية والاميركية على ما جناه الجنرال غورو والمتطرفة من الفرنسيس على الاستقلال السوري ودعي بعـــد ذلك لانكلترا للاستشارة في الشؤون العربية فاجتمع الى اقطاب الساسة من البريطانيين وقد رأى هؤلاء ان فيصلاً خير من يتسنم عرش العراق - وكانت بلاد الرافدين في غليان تتأجج نيران الثورة في جنباتها - فاقروا أن يعقـــدوا مؤتمراً في القاهرة برئاسة المستر تشرشل وزير المستعمرات لدرس احوال الشرق الاوسط ومصالح بريطانيا فيه فدبروا الخطة التي يجب ان يرسموها ليكون فيصل ملكاً دستورياً على العراق .

وبعدئذ رحل فيصل الى البصرة بعد أن فقد أمله نهائياً من العرش السوري في حزيران عام ١٩٢١ ثم قرر مجلس الوزراء في بغداد ان يكون فيصل بدلا من عبد الله ملكاً دستورياً - ١١ تموز عام ١٩٢١ - على المملكة العراقية واقيمت له حفلات التتويج في ٢٧ آب عام ١٩٢١ بابهة لا مثيل لها وهكذا شاهد فيصل حفلة تتويجه في بغداد ولكن كان عرشه على ضفاف دجـــلة أشد قوة وأعظم مكانة من عرشه على ضفاف بردى لانه كان مدعوماً من السلطات البريطانية ومن الوطنيين العراقيين انفسهم .

محا فيصل عن العراق لونه « التابعية الهندية »

كان العراق ولا يزال ذا مكانة جغرافية ممتازة فهو ملتقى الطرق البرية والجوية التي تربط الشرق بالغرب ثم هو جار الهند التي تعتبر قارة بنفسها . الهند التي استعمرتها بريطانيا بواسطة شركاتها والتي اصبحت درة التاج البريطاني .. وكانت انكلترا تسعى في سبيل المحافظة على الهند ان تؤمن صلاتها بالبلاد المجاورة لها فمكنت علاقاتها مع ايران والدولة العثمانية ، وفتحت في موانى البصرة وبوشير وبندر عباس وبغداد الوكالات والقنصليات .

واخذ الساسة الانكليز وعلى رأسهم اللورد « كرزن » يعتبرون العراق متمما للهند ولهذا كانت بريطانيا ترمق بلاد ما بين النهرين بعين الطمع وترجو جاهدة ان لا يكون لالمانيا وروسيا اية مطامع او مشاريع فيها . ولهذا كانت مشاريع المانيا وعلى الاخص سكة حديد « بغداد - برلين » اكبر ما يخيف السياسة البريطانية في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الاولى . ولما انحازت الدولة العثمانية الى جانب « الدول المركزية » او الى جانب المانيا وحليفاتها لاحت للاستعماريين الانكليز فرصة لا مثيل لها في احتلال العراق ، فجهزوا حملة عسكرية من الهند نزلت في الفاو والبصرة وانتزعت ولايات البصرة والموصل وبغداد ووضعت هذه الولايات العربية العثمانية اسس المملكة العراقية الحديثة .

وقد قدمت بريطانيا تضحيات هائلة حتى تم لها فتح العراق اذ اندحرت في معركة الكوت وخسرت كثيراً من رجالها وعتادها ولكنها رغم كل ذلك ادعت ان لها حقوقاً سياسية في العراق الى جانب حق الفتح الذي دفعت ثمنه باهظاً من الدماء والاموال . والمؤسف أن انكلترا بعد ان تم لها الامر في العراق جعلته « تابعاً هندياً » ، واسلمته الى الضباط الذين حكموا في الهند وعاشوا فيها او خدموا في جيوشها ولكن العراقيين الذين كانت تتأجج في نفوسهم الروح الاستقلالية والذين اشتركوا بثورة الشريف حسين بن علي والذين اعتمدوا على بنود الرئيس ويلسن المثالية ومراسلات الحسين - مكماهون والوعود المقطوعة من بريطانيا للعرب ثم

هؤلاء العراقيين الذين شيدوا مع اخوانهم الشاميين العرش في دمشق واقاموا الحكومة العربية فيها اندفعوا نحو ثورة صاخبة ولم يمكنوا بريطانيا ان تجعل من العراق « تابعاً هندياً » وهكذا أفسدت ثورة العراق المشهورة سنة ١٩٢٠ كل الخطط التي وضعها الاستعماريون وافسدت معها الحكم البريطاني الهندي في بلاد الرافدين.

ورأى الانكليز ان يعطوا العراق نوعاً من الحكم الذاتي وأن يحافظوا بذلك على مصالحهم في الشرق وقد انتدبت الحكومة البريطانية لهذه المهمة السير بيرسي كوكس فعينته مندوباً سامياً وأنجدته بجملة كبيرة مكنته من تهدئة الثورة.

ألف السير برسي كوكس حكومة عراقية وطنية ترأسها سماحة نقيب بغداد السيد عبد الرحمن الكيلاني وكان من اعضائها بعض الوجوه والاشراف. ولكن ظهر للسياسة البريطانية ان الحكم الوطني في العراق يحتاج الملك يرأس الدولة العراقية ويعمل على تنظيم العلاقات العراقية ببريطانيا العظمى. ولعبت السياسة البريطانية لعبتها فشجعت الكثير من الزعماء أن يطالبوا بعرش العراق فكان منهم حسبما نعرف الامير عبد الله بن الحسين وطالب باشا زعيم البصرة والنقيب البغدادي والشيخ خزعل وغيرهم ولكن لورنس صاحب كتاب «أعمدة الحكمة» الذي حارب جنباً الى جنب مع فيصل أقنع الوزارة البريطانية أن هذا الامير العربي هو خير من يعتلي عرش العراق لاخلاصه واندفاعه في خدمة وطنه وقضية الحلفاء.

ورأت الحكومة البريطانية ان تعهد للمستر تشرشل عضو الوزارة أن يحل المعضلات البريطانية في الشرق الاوسط وبعد دراسة مستفيضة عقد تشرشل مؤتمراً في القاهرة برئاسته وعضوية بيرسي كوكس وجعفر باشا العسكري وغيرهما وقرروا فيه ترشيح فيصل للعرش العراقي وأزالوا من أمامه كثيراً من العقبات ثم أخفتوا اصوات مناوئيه ودعي فيصل للعراق ونودي به ملكاً في عهد وزارة النقيب واستفتي الشعب العراقي في ملكيته فأفتى ٩٦ بالمئة من الشعب بتأييده. وهكذا زالت الحكومة العراقية الموقتة وزال معها آخر شبح للتابعية الهندية وأطل فيصل يعمل لخير العراق والعروبة.

كان فيصل نقطة التوازن بين العراق وانكلترا ..

استلم فيصل دفة السفينة العراقية في ظروف اقل مايقال فيها انهــا قاسية ، وقد كان عليه وهو مليك لدولة دستورية ديمقراطية حديثة ان ينظم علاقاتها ببريطانيا بمعاهدة تضمن حقوقها وتجعلها ذات سيادة مصونة . ونظم فيصل هذه العلاقات بمعاهدة عام ١٩٢٢ التي عقدها مع بريطانيا بالنيابة عن بلاد الرافدين والحق ان هذه المعاهدة ضمنت لانكلترا المنتدبة سيطرتها على الشؤون العراقية في الداخل والخارج ووضعت بريطانيا في نصوص هذه المعاهدة كل المواد التي تعهدت بهــا في صك الانتداب لعصبة الامم فانشأت دستوراً للدولة العراقية الجديدة وضمنت حرية التعليم والاديان والتبشير ومنعت العراق ان يتنازل عن اي قسم من املاكـه او ان يؤجرها لاية قوة من القوى الدولية وحفظت للاجانب حقوقهم وخولتهم بعض الامتيازات في المحاكم وامنت «الباب المفتوح في التجــارة» واستملكت كل المرافق العامة التي كان يحتلها الجيش البريطاني ودفعت اثمانها حسب قرارات اللجان التي عينتها بريطانيا نفسها ومثلت بريطانيا العراق في الخارج ولتؤمن تنفيذ هذه المعاهدة كان المندوب السامي البريطاني على ضفاف دجلة المستشار الرسمي للملك وعلى الحكومة العراقية ان تتحمل قسما من نفقاته ونفقات دائرته .

واوجبت المعاهدة على الدولة العراقية تعيين مستشارين فنيــين في مختلف الوزارات واذا احتاج العراق الى اخصائيين فليس امامه الا ان يختــار من يشاء من البريطانيين ، والحق انني لمست لمس اليد يوم كنت مدرساً في وزارة المعارف العراقية بين عام ١٩٢٤ — ١٩٢٧ ان المستشار في الدولة العراقية كان كل شيء ولم يكن الوزير الا صورة جميلة تجلس على كرسي الوزارة بالديوان . ولم تبرم هذه المعاهدة في المجلس التأسيسي العراقي بسهولة اذ عارضتها الاكثرية الساحقة وكادت تنفجر البلاد في ثورة لاهبة لولا شخصية فيصل المهيمنة على الزعامات والتي كانت تذيب امامها كل الصعوبات لاعتقاد الجماهير باخلاص فيصل وحبه للعروبة . وقوي شأن المعارضة في البرلمان العراقي وخارجه وظلت تلح في تعديل المعاهدة العراقية

وكان فيصل يجتمع الى رجالها ويشجعهم سراً ويأمرهم ان يتصلبوا في مواقفهم ليلين امامه الساسة الانكليز .

واستفاد فيصل من المعارضة فوقع بروتوكول ٣٠ نيسان عام ١٩٢٣ وبه اشترط العراق على بريطانيا ان تنهي مدة المعاهدة عند فوزه بعضوية عصبة الامم ثم وقع معاهدة عام ١٩٢٧ وبها وعدت بريطانيا فيصلا في المادة الثامنة منها ان ترشح العراق الى عضوية العصبة عام ١٩٣٢ اذا حافظ على هدوئه وتقدمه في الميادين العلمية والاقتصادية .

وشاءت بريطانيا ان تحافظ على مصالحها التقليدية في العراق وان تلبي الرغبات الوطنية العراقية فاعلنت انها تتخلى عن معاهدة عام ١٩٢٧ لتبحث معاهدة جديدة عرفت في التاريخ بمعاهدة سنة ١٩٣٠ وهي المعاهدة التي ما تزال نافذة المفعول حتى يومنا هذا .

وضمنت بريطانيا العظمى في هذه المعاهدة حقها في استعمال المطارات وجميع وسائل النقل البرية والبحرية والجوية كما انها ضمنت ايضاً تقديم المساعدات العسكرية للعراق واوجبت بريطانيا على العراق ان يأذن لها في نقل جيوشها وذخائرها ومعداتها اذا اشتبكت في حرب مع اعدائها واستفادت بريطانيا العظمى كثيراً من نصوص هذه المعاهدة في الحرب العالمية الثانية . وقد قامت حركة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١ لتحول دون تنفيذ هذه المعاهدة فقتلتها بريطانيا بالقوة وهي في مهدها .

وبرت بريطانيا بوعودها عام ١٩٣٢ ورشحت العراق لعضوية عصبة الامم ووقفت الى جانبه تساعده بعد ان امضى معاهدة سنة ١٩٣٠ وهكذا تحرر العراق رسمياً من الانتداب واصبح دولة مستقلة ذات سيادة لها مكانتها بين امم الارض الحية وكان فيصل ابان هذه المفاوضات بين الانكليز والعراق نقطة التوازن ولطالما تناول اللطمات من الطرفين ولكن عبقريته السياسية واناته وسعة صدره وخلقه الكريم كل ذلك جعله يخطو بالعراق هذه المراحل السياسية التقدمية .

اسباب الثورة العراقية على انكلترا

لماذا ثار العراق على بريطانيا العظمى ؟ ولماذا اضطر العراقيون أن يسفكوا دماءهم في الشمال والجنوب ووادي الفرات غزيرة دون أن يبالوا بالتضحيات الجسيمة التي قدموها ؟

الجواب سهل وبسيط فقد كانت التصريحات والبيانات التي أصدرها الحلفاء إبان الحرب العالمية الاولى كلها دون استثناء تبشر بحرية العرب وتحقيق أمانيهم القومية ودليلنا على ذلك خطاب لويد جورج الذي أذاعه في الخامس من كانون الثاني عام ١٩١٨ وبنود الرئيس ويلسن رئيس الولايات المتحدة والتصريح البريطاني الفرنسي الذي اذيع في سوريا والعراق والمراسلات المشهورة والمعروفة بمراسلات الحسين - مكماهون . وقد صبر العراقيون على هذه الوعود حتى عيل صبرهم وبدأت البلاد تنفجر باعلان الاصطدام المسلح حينما اخذت الحكومة البريطانية تضيق على الصحافة واندفع الشباب العراقي من الضباط يثيرون الحركات العدائية الفعالة في دير الزور والجزيرة العليا فألهبوا الشعور القومي العربي ورددت أودية الفرات والدجلة صدى الثورة فرحبت بها القبائل . وزاد الطين بلة في العراق أن الحكم البريطاني فيه إبان الحرب الاولى كان حكماً غريباً عن الاسلام والعروبة وكان يقف سداً قوياً دون أمانيهم القومية سيما وقد كان هذا الحكم شديداً يتناول الجميع بضرائبه ولا يتهاون في جبايتها .

وتعاون الزعماء السياسيون مع رجال الدين في إشعال نيران الثورة وتقارب الشيعة والسنة في تأسيس الدولة العراقية الجديدة ، وقال الكتاب والشعراء بالامجاد العباسية الاسلامية . ويعود الفضل في اتحاد السنة والشيعة الى رجلين كبيرين قد لا ينساهما التاريخ هما الزعيمان الشيعيان الوطنيان السيد محمد الصدر والسيد جعفر ابو التمن ولا ريب في أن اتحاد الطائفتين حمل القبائل وسكان الارياف على الانضواء تحت لواء الثورة كما حمل رجال الدين في الكاظمية والنجف وكربلاء والزعماء السياسيين في بغداد والموصل أن يهتموا بالثورة ويبذلوا من أجل نجاحها

جهودهم القوية . واشتركت القبائل في الثورة طمعاً في التهرب من الضرائب لان حكومة الاحتلال البريطانية أجبرت المناطق العشائرية في العراق على دفع الضرائب بصورة فظيعة لم تعرفها في حياتها .

ثم كانت القبائل تشكو ظلم الشيوخ ، أي شيوخها ، لان بريطانيا إبان الاحتلال أعطت هؤلاء الشيوخ سلطاناً عظيما ودعمتهم في زعامتهم المطلقة والمؤسف ان الحوادث أثبتت ان هؤلاء الشيوخ قد أساءوا استعمال سلطتهم فسيروها لمآربهم ومصالحهم الشخصية . ويهمنا ان نثبت هنا للحقيقة ان القبائل لم تثر وتتحرك نحو العصيان إلا حينما تأكد لديها ضعف الحكومة البريطانية في العراق .

وساعد على المشاغبة قسم من موظفي العهد التركي العثماني فان هؤلاء كانوا يتناولون مرتبات ضئيلة يقبضونها من الخزينة ولكنهم كانوا يفضلون من صميم قلوبهم رجوع العهد العثماني ليتمكنوا من الاستخدام في دوائر الحكومة .

وإذا قلنا ان اصرار الحكومة البريطانية في العراق على إعلاء شأن القضاء ومنع الرشوة ومراعاة الدقة في دواوين الادارة والاهتمام بالامن العام والاحوال الصحية العامة جعل الكثيرين يرون هذه الامور مسائل غير مألوفة بالنسبة لما اعتادوه في عهد الحكومة العثمانية ، وذلك لان النزاهة والصرامة والاستقامة يتعب منها من اعتاد حياة الفوضى والاعوجاج والخيانة ثم ان تطبيق هذه الاساليب الجديدة والانقلاب على الاساليب القديمة البالية دفع بعض الفئات الموتورة على تغذية الثورة .

وقامت حركة دينية في القبات المقدسة في الكاظمية والنجف وكربلاء وهي تحض على كره الانكليز الذين يحتلون العراق وفيه رفات السادة الاشراف من آل محمد ثم كان الوطنيون يعتبرون المساجد ملجأ لهم وكانوا يعقدون في أروقتها اجتماعاتهم ويرسلون منها دعاة التحريض الى القبائل .

وناوأت «جمعية العهد» السلطة البريطانية في شمال العراق وكان معظم اعضائها من الشباب المثقف كالاطباء والمحامين والمدرسين وكان مركزها في الموصل ولها فرع في دير الزور ونفخ شباب العهد روح الثورة في قبائل شمر التي يرأسها عجيل

الباور وقبائل العقيدات فهاجمت المسافرين وقطعت الطرق وفقد الامن في الربوع الشمالية العراقية ، وقام جميل المدفعي يقود بعض القوات العربية واطلق على نفسه لقب « قائد الجيش العراقي الشمالي » واحتل مدينة « تلعفر » ومعه عدد عديد من القبائل المعروفة « بقبائل الجبور » ولكن جميل المدفعي لم يثبت امـــام القوات البريطانية التي اتت لتأديبه فانهزم وانسحب من تلعفر وكان ينتظر منه ان يثبت ويهاجم الموصل لان الموصليين كانوا عـــلى استعداد للترحيب به . وظهر اخيراً لبريطانيا ان « جمعية العهد » التي خلقت لها كل هـــذه المتاعب في شمال العراق تستمد قوتها من سورية وان الامير زيداً شقيق الامير فيصل كان يشجعها بالمال والرجال .

وحاول الاتراك ان يساعدوا رجال الثورة في العراق عن طريق مـــاردين وديار بكر ولكن العرب الثائرين فهموا تمام الفهم ان الاتراك بعملهم هذا كانوا يروجون لمصالحهم الخاصة ولو نجح الترك في إمداد الثورة في الشمال بالمال والسلاح واستمع العرب الى نصائح الترك لأفلت الزمام من يد الانكليز ولوقعت الموصل غنيمة باردة في يد الكماليين ...

وحينما عهدت جمعية الامم « بالانتداب » لبريطانيا على العراق ثار ثائر العراقيين في كل الانحاء واعتقدوا ان « الانتداب » كلمة خلقها الاستعمار للتمويه على الضعفاء وكان من نتائج اعلان الانتداب رسمياً تقارب السنة والشيعة واجـــتماع اعيانهم ووجوههم في المساجد حتى تمكن بعضهم ان يستحلف شيوخ القبائل على الثورة في وقت واحد . وتبين بعدئذ ان خطوط الثورة العراقية وضعت بصورة اكيدة في منزل من منازل كربلاء .

رغبت الحكومة البريطانية ان يكون للعراق عاهل يحكمه ويؤازره الشعب ويضع فيه ثقته ويتعاون معها في المحافظة على مصالحها ومؤسساتها . وكانت ترجو مخلصة ان تظهر للوجود حكومة عراقية عربية شرعية يختفي وراءها «جون بول» ليعمل عمله دون ان يلجأ للقوة والسلاح لان كل حكومة لا تعايش في النهاية الا اذا قامت على دعائم « الرأي العام » وكان المهم قبل كل شيء التفتيش عن ملك للعراق يحبه ويحترمه العراقيون . وانقسم الشعب في اتجاهاته وميوله فاهل السنة من بغداد وموظفو العهد التركي البائد كانوا يحبون ترشيح امير عربي هاشمي او امير عربي من سكان البلاد خيفة ان تبتلعهم الموجة الشيعية المسيطرة على وادي الرافدين .

وكان كثير من سكان الشمال الذين يسكنون الموصل وكركوك يعتقدون انهم لا بد ان يرجعوا الى احضان تركيا بين عشية وضحاها ولهذا كانت فكرة البحث عن عاهل للعراق هي في نظرهم فكرة سخيفة تستحق الهزء والضحك . وكان نقيب بغداد السيد عبد الرحمن الكيلاني يسعى للعرش بالتقرب الى البريطانيين ولكنه تناسى ان بريطانيا كانت ترجو ان تعتمد على شاب قوي لا على رجل فان اضنته السنون والايام وابتلي بكثير من الامراض والعلل . وكانت اماني السيد الكيلاني في العرش العراقي لا تتعدى اماني اي « راجا » من « رجوات الهند » الذين يستمعون الى كلام الآمرين الانكليز ويقدسونها .

اما الرجل الذي عمل للعرش العراقي بدمه وماله وكان يود أن يعتليه فهو السيد طالب باشا النقيب زعيم البصرة وسيدها المطاع ووزير الداخلية في حكومة عبد الرحمن الكيلاني .

وكان طالب باشا قد خدم بريطانيا ابان الحرب فاشعل الثورة العربية ضد الاتراك في العراق ، ثم حاول اخماد الثورة العربية العراقية سنة ١٩٢٠ وتوسط لدى زعماء القبائل في استجلابهم للطاعة البريطانية ! وكان عيب طالب باشا النقيب

في نظر الانكليز عنفه وجبروته وحزبيته التي لا حد لها فهو من هذه الناحية مخيف اذ قد يرضي بعض الناس ولكنه في الوقت نفسه يغضب قسماً غير قليل من الناس ولذلك اجتنبه الانكليز ثم أبعدوه . وكثر عشاق العرش العراقي فذكر اسم « شيخ المحمرة » واسم « ابن السعود » و « آغا خان » .

ولكن الاكثرية الشيعية وهي القوة المحاربة نادت بصراحة لا مثيل لها انها لا ترضى بغير الاستقلال التام ثم لا ترضى إلا ان يكون أحد أبناء الحسين بن علي على رأس حكومة الاستقلال او بعبارة اخرى صاحب العرش وافترقت الشيعة الى حزبين: حزب يقول بترشيح عبد الله بن الحسين وحزب يقول بترشيح فيصل بن الحسين. وكانت دائرة المندوب السامي البريطاني ترى رأي الشيعة وتؤيد الدعوة الى مرشح هاشمي لا سيما المس بل السكرتيرة الشرقية فقد كتبت في رسائلها: « اني على اقتناع تام بانه ليس هناك غير حل عملي واحد وهو ترشيح أحد أنجال الشريف واختار الامير الاول منهم فيصلاً . »

وانتدبت وزارة الخارجية البريطانية المستر كورنوالس صديق فيصل ان يزوره - وكان في لندن - ويعرض عليه عرش العراق وقد تمت المقابلة في السابع عشر من كانون الاول عام ١٩٢٠ في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وظلت المحادثة بينهما مستمرة الى الساعة الثالثة ورفض في النهاية فيصل هذا العرش اعتقاداً منه ان هذا العرش يعود الى اخيه عبد الله وانه لن ينافسه فيه .

ولما رأت وزارة الخارجية البريطانية إصرار فيصل على رفض عرش العراق طلبت الى المستر لورنس ان يتصل بالامير عبد الله ويحاول اقناعه ان لا يثير اي اعتراض على تنصيب فيصل ملكاً على عرش العباسيين وقد اقتنع عبد الله برأي لورنس بعد ان وعده هذا الاخير ان يكون ملكاً على سوريا ولكن هذا الملك كان في النهاية بشرق الاردن . ولذا نحن لا نعجب اذا ما حنّ عبد الله دوماً الى العرش السوري وسعى له ثم سعى لسوريا الكبرى .

فقد اضاع عبدالله بضياع العرش السوري منه امنية طالما حلم ووعد بها ولكن هل يتحقق حلم عبدالله وهو اليوم شيخ بعد ان افلت منه وهو شاب ؟؟! وبعد ان

تبينت بريطانيا ان عبد الله لن يثير امامها الاعتراضات والمشاكل سعت الى تنصيب فيصل على عرش العراق وعقدت من اجل ذلك مؤتمر القاهرة في آذار عام ١٩٢١.

•

عقد تشرشل مؤتمر القاهرة عام ١٩٢١

دعا المستر تشرشل وزير المستعمرات البريطانية الى عقد مؤتمر في القاهـــرة للنظر في امور الشرق الاوسط وكان ذلك في الثاني عشر من آذار عام ١٩٢١ وكان هذا المؤتمر يضم خيرة الموظفين البريطانيين في هذه الرقعة من الشرق ولعل اهم المواضيع التي كانت تشغل بال المستر تشرشل هـي الاحتفاظ بكل الممتلكات التي ربحتهـــا بريطانيا بحق الفتح والتي بذلت في سبيلها الرجـال والاموال ثم تخفيف العبء عن المكلف البريطاني وتأسيس الدولة العراقية الجديدة على ان يرأسها رجل حصيف ذكي يعرف ان يكتسب ثقة بريطانيا وثقـــة الشعب العـــراقي في وقت واحد. وكان الامير فيصل هـو المرشح الاوحد في نظر تشرشل وقد شجع تشرشل على الاستمساك



المستر تشرشل

بفيصل اصله العريق فهو من سلالة محمـــد الرسول الاعظم ونجـــل الشريف حسين ملك العراق.

ولهذه الاسرة قدسية لاتعادلها قدسية عند العرب والمسلمين من السنة والشيعة ثم كان فيصل ديبلوماسيا رقيقاً فهو الشاب الذي عجم عود القبائل في البادية فهانت عليه سياستها وحكمها ثم هو هذا السياسي الناعم الذي ربي في استانبول وتعلم فيها

اصول المجاملات الشرقية وانغمس في مشاركة الرجال الكبار في فرسايل فاكتسب الكثير من الدهاء . وكان الوطنيون يرون في فيصل بطلاً اشتغل في خدمة القضية العربية منذ ان فتح عينيه وهو ملك سوريا وصاحب العرش في دمشق الذي اعتدى عليه الفرنسيون وطردوه من الشام ظلماً وعدواناً .

والحق أن الموظفين البريطانيين الذين اشتغلوا مع فيصل ابان الحرب العالمية كانوا يعتقدون انه هو الرجل الاوحد الذي يمثل الأماني العربية فساعدوه لدى المسؤولين في لندن على تسنم عرش العراق وكان في مقدمتهم السير بيرسي كوكس والمستر لورنس والمس بيل وغيرهم . ثم كانت بريطانيا تعتقد في شخص المستر تشرشل ان خروج فيصل من الشام بعد معركة ميسلون سببت ألماً مريراً في نفوس العرب وجرحاً بالغاً في قلب فيصل نفسه لان انكلترا تخلت عنه في ساعاته الفاصلة الحرجة في دمشق وكانت بريطانيا ترجو ان تسترضي الملك حسين الساخط الجموح الذي كان يظهر ثورته على الساسة الانكليز في كل مناسبة لانهم لم يحفظوا عهودهم معه .

وتغلب تشرشل بحسن دهائه على الصعوبات السعودية التي كانت تقف سداً في سبيل العرش الفيصلي على العراق فاكد للعاهل السعودي ان فيصلاً سيكون خير جار وحليف للمملكة السعودية فلم يمانع عبد العزيز آل سعود في تنصيب فيصل على العراق .

اما منافس فيصل في تسنم عرش العراق فكان طالب باشا زعيم البصرة ووزير الداخلية في حكومة السيد عبد الرحمن الكيلاني المعروف بنقيب بغداد . وكان طالب باشا كريماً جواداً يبذل المال للشعب عن سعة وكان جريئاً لا يهاب ان يقتل خصومه وكان بامكانه ان يستغل نفوذه كوزير للداخلية وان يضغط على الرأي العام العراقي من اجل مصالحه الخاصة وقد هدد مرة البريطانيين بالثورة والشغب اذا هم مالوا الى فيصل في ترشيحه لعرش العراق ، فاعتقلوه ونفوه الى سيلان .

واتخذت السلطات البريطانية وسائل الشدة والقمع في سائر الانحاء العراقية

فهدأ انصار طالب باشا وتخلوا عنه فأفسح المجال امام فيصل وعبدت امامه طريق العرش وتسنى لمؤتمر القاهرة ان ينفذ قراراته بشأن ملكية فيصل في العراق . وعاضدت الصحافة العراقية فيصلا وعلى الاخص جريدة الشرق التي كان يشرف على تحريرها سكرتير مجلس الوزراء السيد حسين افنان وجريدة لسان العرب لصاحبها السيد ابراهيم حلمي العمر وجريدة الاوقات العراقية وجريدة الموصل وجريدة العراق فنشرت هذه الصحف عدة مقالات في تأييد العرش الهاشمي وامتدحت فيصلاً وعددت مناقبه وكانت المس بيل هي الموجهة لهذه الصحافة فكانت تحترمها وتجلها وكانت هي تحاول بدورها ان تكون للصحافة المقام الاسمى لدى المندوب السامي البريطاني .

واتجه فيصل من جدة الى البصرة فوصلها في الثالث والعشرين من حزيران ثم برحها إلى بغداد فاستقبلته الجماهير بالهتاف ورفعت له الاعلام ذات الالوان الهاشمية وهي الاخضر والاحمر والاسود وأظهرت الطوائف عاطفة الحب نحوه فكنت ترى السنة والشيعة والمسيحيين يستقبلونه استقبالاً منقطع النظير ولم يستقبل فيصل استقبالاً فاتراً الا في النجف وكربلاء واقترح رئيس مجلس الوزراء السيد النقيب على مجلس الوزراء الذي يرأسه ان ينادى « بسمو الامير فيصل ملكاً على العراق شرط ان تكون حكومة سموه حكومة دستورية نيابية ديموقراطية مقيدة بالقانون » .

ودعم قرار مجلس الوزراء باستفتاء الشعب في الحادي عشر من تموز وكان الشعب بمجموعه مع مليكه فيصل . وفي صباح الثالث والعشرين من آب توج فيصل في السراي الكبير في بغداد بحضور شيوخ القبائل ورجال الدين والعسكريين والوجهاء وما يزال صوته يرن في الاذان قال في خطابه : واني لاآلو جهداً بان استعين برجال الامة على اختلاف مواهبهم وتباين طبقاتهم وتفاوت معتقداتهم فالكل عندي سواء لافرق بين حاضرهم وبين باديهم ولاميزة لاحد عندي الا بالعلم والمقدرة والامة بمجموعها حزبي لاحزب لي سواها ومصلحة البلاد عامة هي مصلحتي لا مصلحة لي سواها

وبرّ فيصل بوعوده واول عمل قام به هو مباشرة الانتخابات وهيأ الامة مجلساً تأسيسياً ديموقراطياً كان الرقيب على اعماله .

•

خلقت السياسة نغمة الاقليمية بين العرب

سوريا والعراق قطران يتمم الواحد منهما الآخر والصحراء التي تفصلهما لا قيمة لها من الوجهة الجغرافية وبامكان العربي الساكن على ضفاف بردى ان ينتقل الى بغداد والموصل الواقعتين على ضفاف دجلة بالسيارة والطائرة بسهولة تامة . وما كان العراقي أو السوري ليتعرف الى الاقليمية لولا بذرة التفرقة التي بذرها الاستعمار في ربوعه . وللاستعمار اساليب يرجو ان يحققها ومطامع لا يستغني عنها فأوقع الشقاق بين العرب واستولد « الاقليمية » عندهم فقال «بالسوري» لساكن الشام وقال «بالعراقي» لساكن بلاد الرافدين وأغرى السوري بالعراقي والعراقي بالسوري وأوقد الفتنة بين الاخوان وضرب العرب بعضهم ببعض ودليلنا على ذلك واضح بين فما كان العرب ليقولوا عن انفسهم سوريين وعراقيين ولبنانيين وحجازيين الى آخر النغمة البغيضة قبل الحرب العالمية الاولى وانما عرفوا هذه النغمة الشاذة بعد دخول الحلفاء لبلادهم واشتغال السياسة الاجنبية بين صفوفهم .



نوري باشا السعيد

ثم كلنا يشهد ان العراقيين من رجال الثورة كانوا من المؤسسين للحكومة

الفيصلية في دمشق وقد تبوأ كبارهم خيرة المناصب العالية فيها ولعبوا دوراً قل مثيله في توجيهها فياسين باشا الهاشمي ونوري السعيد وغيرهما كانا من كبار الموظفين في حكومة الشام ولن تنسى دنيا العرب يوم اقفلت دمشق عن بكرة ابيهـــا احتجاجاً على اعتقال ياسين الهاشمي من قبل الانكليز وصراخ شبابها في التظاهرات الصاخبة : الامة كلها ياسين ، الامة كلها ياسين . مما يدل على الوحدة العربيـة التي جمعت قلوب الشباب العربي وان العروبة الشاملة هي التي كانت تحدوهم للعمل لا « الاقليمية » التي اخترعهـا الاستعمار ونفخت في تشجيعها روح الطائفيـــة والاستثمار .

ثم عمل المثقفون والعسكريون العرب في عاصمة الدولة العثمانية جنباً الى جنب فقامت الحركة الاستقلالية على اكتافهم واسسوا الجمعيات الثورية وهم يسعون للاستقلال العربي وخاضوا ميادين القتال في جيش الثورة وهدفهم تحرير البلاد العربية كلها من ربقة الاستعباد التركي ولم يكن ليفكر شاب واحد من شباب العرب الذين بذلوا دماءهم اما على اعواد المشانق او في المعارك ضد الاتراك انهم يسعون للاقليمية العربية التي اخترعها الحلفاء بعد احتلالهم لاقطاره .

وما يزال العرب حتى هذه الدقيقة اطفالاً في السياسة فهم لا يتفهمون الغرب الداهية ولا يتطلعون الى مطامعه تطلع الخبير الذي يستقصي الامور فقد ارتمى الحسين بن علي وغيره من الساسة في احضان السياسة الغربيـة قبل ان ينـــالوا التأكيدات الوافية لخير العرب ، ولعل للحسين وغيره اعذاراً اقتصادية يجب ان نعطف عليها اولعله لم يكن بمقدوره ان يتفهم شيئاً عن معاهدة سيكس - بيكو ولكن الثابت ان انكلترا وفرنسا دخلتا في مفاوضات رسمية بشأن نفوذهما في البلاد العربية منذ كانون الاول سنة ١٩١٢ اي حينما كادت الدولة العثمانية تلاقي حتفهـا في الحرب البلقانية فقد اعترفت فرنسا لانكلترا ان العراق هي منطقـــة نفوذ بريطانية واعترفت انجلترا مقابل ذلك ان سوريا ولبنان هما منطقتان فرنسيتان .

والحق ان الدولتين البريطانية والفرنسية تم لهما ما اراداه عقب انتهاء الحرب العالمية الاولى واقتسمتا قطرين وحدت بينهما الطبيعة من حيث الاقتصاد والثقافة

والتاريخ والدم والمصالح المشتركة .

وأراد الانكليز بعد الحرب ان يقنعوا الساسة الفرنسيين بالتنازل لهم عن سوريا باعتبارها قطراً متمماً للعراق فأبوا وذكروا الانكليز بتقاليد فرنسا في الشرق منذ العهود الصليبية وذكروها بما لهم في جبل لبنان من صداقات عند الموارنة والبطاركة في بكركي ثم وقفوا وقفة ثابتة لا يحيدون عنها عندما لوحوا لبريطانيا بمعاهدة سكس - بيكو .

وحاول الانكليز ان يغروا فرنسا بالتنازل لها عن نيجيريا بأكملها اذا تنازلت هي بدورها عن سوريا لهم فأخفقوا واضطرت انكلترا ان تجاري فرنسا لانها بحاجة لمساعدتها في سياستها الاوروبية ويذكر الذاكرون منا ان انكلترا ظلت تضغط على فرنسا حتى اقتطعت منها الموصل (وكانت الموصل يومذاك سورية في التقسيم لا عراقية) وعد ذلك انتصاراً كبيراً في السياسة للمستر لويد جورج على النمر الفرنسي كليمنصو . وحين عوتب كليمنصو على هذه الكبوة التي كباها قال انه لم يعرف تماماً اين تقع الموصل ...

واغتنمت انكلترا الفرصة المواتية باعلان الدولة العثمانية الحرب على الحلفاء عام ١٩١٤ فهاجمت العراق بجيوشها البرية واساطيلها البحرية واحتلت الفاو والبصرة ثم كان لها مع الاتراك سلسلة من المعارك انتهت بانتصارها واحتلال بغداد اما فرنسا فانها كانت تحارب في بلادها الجحافل الالمانية ولذا لم تجهز حملة تحتل بها سوريا وانما اعتمدت على معاهداتها مع بريطانيا في تثبيت نفوذها في المشرق .

•

معركة كوت العمارة واستسلام الجنرال طونسند

اعتبر الساسة الانكليز العراق قطراً له علاقات وثيقة بالهند ولهذا طمعوا به وبذلوا الجهد لامتلاكه . ولما أعلنت الحرب العالمية الاولى سيرت بريطانيا العظمى جيشها على بلاد الرافدين في السابع من تشرين الثاني عام ١٩١٤ واحتلت بادىء

ذي بدء مدينة عبادان والفاو .

أما عبادان فهي مدينة حديثة تسيل من مستودعاتها الوف الاطنان من الذهب الاسود المعروف بالبترول وقد زرتها في سنة ١٩٢٥ وقضيت فيها يوماً واحداً شاهدت خلاله ما وصلت اليه الصناعة البريطانية الحديثة من اتقان وفن في تكرير هذه المادة العجيبة التي يتوقف عليها القتال واسباب النصر في حروبنا. اما «الفاو» فهي المعتقل الذي تدفن فيـــه الحريات بل هي مقبرة الاحرار من العراقيين في عصرنا هذا .

وتم احتلال عبادان والفاو بقيادة الجنرال « دلماين » وجلا الاتراك عن البصرة في صباح الواحد والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩١٤ واحتلتها انكلترا في اليوم الثالث والعشرين من الشهر نفسه وقد دخلتها القوات البريطانية سلماً ودون ان تسفك نقطة دم واحدة وكان على رأس الحملة الانكليزية التي احتلت البصرة الجنرال باريت والسير برسي كوكس قنصل بريطانيا في الخليج الفارسي والرجل الذي لعب الدور الاول في تأسيس الدولة العراقيـــة وتتويج فيصل ملكاً على عرش الرشيد .

وجيشت بريطانيا جيوشها في البصرة وجعلتها القاعدة العامة لتموين قواتهـا بالذخائر والمعدات الحربية وزحفت منها فرقة احتلت « القورنة » وهي الزاوية التي يلتقي فيها دجلة بالفرات وقد استسلم فيها صبحي بك التركي مع جنده ويقدر عددهم بالف ومايتي جندي . ولما رأى الترك في الاستانة انخذال جيوشهم عينوا « سليمان عسكري » بك قائداً لقواتهم في العراق وزودوه بالصلاحيات التـامة . وكان سليمان عسكري بك من القواد البارزين وأحد اركان الحزب المعروف بحزب الاتحاد والترقي فخطب في بغداد ورحل الى العشائر واستفز حميتها الدينية واستثار العرب والاكراد فتطوعوا في جيوشه وجمع منهم مـا ينوف على عشرة آلاف مقاتل وقد تمكن سليمان عسكري بك من وقف الزحف البريطاني ولكنه اصيب في معركة « الشعيبة » فلجأ الى الناصرية وانتحر فيها .

وحل الاميرآلاي نور الدين بك محل سليمان عسكري وقد خاض هذا القائد

التركي معركة « السن » مع البريطانيين وهي تبعد ١٢ كيلومتراً الى الشرق من كوت العماره فكسر فيها وخسر العثمانيون ما لا يقل عن ١٧ الفاً من جنودهم بين قتيل وجريح واسير واضطروا ان يتراجعوا الى خطوط جديدة نظموها في سلمان باك -طيسفون- او طاق كسرى وسكر الجيش البريطاني من خمرة الظفر فهاجم سلمان باك وكاد يحدق بهـــا لولا النجدات التركية التي زحفت من بغداد بقيادة خليل باشا عم انور باشا وضربت قلب الجيش البريطاني في الصميم ثم حصرته في كوت العمارة ، واستسلم للقوات التركية في اليوم التاسع والعشرين من نيسان عام ١٩١٦ وقد بلغ عدده ١٣٥٠٠ جندي وكان على رأسه الجنرال طونسند.

وطربت الحكومة العثمانية لهذا النصر العظيم وأمرت ان تقام الزينات في كل المدن العثمانية وما ازال اذكر زينة بيروت في ذلك العهد والناس تموت من الجوع والشباب العربي يتهيأ للموت على اعواد المشانق في برج بيروت ومرجة دمشق . وارسل الاسرى الى قلب الاناضول .

ويروي الراوون ان انكلترا حاولت ان تغري خليل باشا بالمال كيما يفك الحصار عن كوت العمارة ويقال انها بذلت له ما لا يقل عن مليون جنيه فرفض باباء وعاجل الموت خليل باشا فمات بالحمى ففقدت تركيا بفقده قائداً مجرباً حكيماً قلّ مثيله بين القواد عندها .

وعندما منيت بريطانيا بهذا الانكسار الشنيع في كوت العمارة ارسلت حملة جديدة بلغ عددها ٤٠ الف جندي الى البصرة بقيادة الجنرال « مود » فهاجم خطوط الترك الامامية في التاسع من كانون الثاني عام ١٩١٧ وعبر البريطانيون الفرات ودجلة واحتلوا سلمان باك وديالى ثم دخلوا « بغداد » في الحادي عشر من آذار عام ١٩١٧ وواصلت القوات البريطانية زحفها فاحتلت سامرا والرمادي وتكريت والشرقاط وكركوك وكادت تصل الى الموصل حينما عقدت الهدنة بين الحلفاء والدولة العثمانية في الثلاثين من تشرين الاول عام ١٩١٨ ولكن الانكليز اصروا على احتلال الموصل وطردوا الاتراك منها .

وهكذا تم لانكلترا ان تحتل العراق بعد حرب شديدة دامت اربع سنوات

وظلت الموصل مدة مؤرجحة بين الحكم العراقي والحكم التركي حتى ارسلت عصبة الامم لجنة لاستفتاء السكان فيها عام ١٩٢٥ فأفتى الموصليون انهم عرب وانهم لا يرضون عن الدولة العراقية بديلا . وقد كنت في هذه الاثناء مدرساً في ثانوية الموصل ورأيت من حماس الشعب الموصلي وتعلقه بعروبته ما يجعلني اليوم ادون ما شاهدته بعيني رأسي والله خير الشاهدين .

●

جاء الجيش البريطاني للعراق منقذا لا فاتحا

اراد الانكليز ان يلحقوا العراق بالادارة الهندية وان يطبقوا فيه قوانين صارمة تمنع على العربي الابي الحرية والاستقلال ولطالما كان الحاكم الاداري او من يلوذ به يحمل سوطه في دروب المدن والقرى العراقية ويضرب فيه من لا يطيعه او لا يقوم للسلام عليه ، وهكذا شاء العسكريون البريطانيون الذين عاشوا في الهند ان يحكموا العراق حكما شاذاً لا تتقبله العقلية العربية ولا العقائد العربية المنتشرة في العراق .

وقد كانت الوعود الانكليزية تختلف تماماً عن هذه الاعمال الشاذة فالجنرال مود فاتح بغداد قال في منشور له يوم دخلت جيوشه عاصمة العباسيين :

« ان جيوشنا لم تدخل مدنكم واراضيكم بصفتها قاهرة او اعداء بل بصفتها محررة ، فقد اخضع مواطنوكم منذ ايام هولاكو لمظالم الغرباء فخربت قصوركم وذوت حدائقكم وانت اشخاصكم واسلافكم من جور الاسترقاق .

« لقد سيق ابناؤكم الى حروب لم ينشدوها وجردكم القوم الظلمة من ثروتكم وبددوها في اصقاع شاسعة . . انها ليست امنية مليكي المعظم وامنية شعوبه فقط بل هي امنية الامم العظمى المتحالفة معها حكومة جلالته ان تعودوا كما في السابق وقد كانت اراضيكم مخصبة وكان العالم يتغذى بالبان آداب اجدادكم وعلومهم وصناعاتهم وقت كانت بغداد احدى عجائب الدنيا . . لقد ذهب كثيرون

من اشراف العرب ضحية في سبيل الحرية على ايدي اولئك الحكام الغرباء الذين ظلموهم . وانكلترا وحلفاؤها مصممون على ان لايذهب دماء هؤلاء الابطال هدراً وامنية انكلترا وحلفائها ان تسمو الامة العربية مرة اخرى وتستعيد عظمتها ومجدها . »

وحينما اعلنت الهدنة بين الحلفاء والمانيا في الحادي عشر من تشرين الثاني سنة ١٩١٨ نشر السير وليم مارشال القائد العام للجيش البريطاني في العراق والذي خلف الجنرال مود بياناً قال فيه :

« ان الجيش البريطاني جاءكم منقذاً لافاتحاً ... » واسرفت بريطانيا في اذاعة البلاغات التي من اجلها دخلت انكلترا وحلفاؤها الحرب وكلها تمني العرب بالحرية والاستقلال والحكم الذاتي .

وماكادت بريطانيا يتم لها احتلال العراق من اقصاه الى اقصاه حتى عزمت على حكمه حكما عسكريا مباشراً فعينت لكل مدينة من مدنه ضابطاً عسكريا أسمته «حاكما سياسياً» وكان مع الاسف الشديد معظم هؤلاء الحكام السياسيين من ضباط المستعمرات الذين امتلأت نفوسهم بالصلف والغرور وقد اصطفى هؤلاء بعض المساعدين من الذين لاخلق لهم فامعنوا في ظلم الناس واضطهادهم حتى فكر كل عراقي دون مبالغة في الثورة مهما كانت نتيجتها . .

وراح هؤلاء الحكام السياسيون يروجون لانشاء حكومة عراقية يكون على رأسها السيد برسي كوكس معتمد بريطانيا في خليج فارس ففشلوا لان الشيعة والسنة قالوا واصروا ان تكون بلاد العراق الممتدة من شمالي الموصل الى خليج فارس دولة عربية واحدة يرأسها ملك عربي مسلم يتقيد بمجلس تشريعي وكان سكان العراق يتمنون ان يكون احد انجال الشريف حسين عاهل مكة ملكا على العراق .

وسلك هؤلاء الحكام السياسيون سبيل القمع والارهاب فنفوا بعض الزعماء وسجنوهم وراحت فرنسا تبذل مساعيها لامتلاك سوريا بالقوة فكانت معركة ميسلون فتنبه الشباب العراقي لتنظيم قواه فبعث جمعية العهد التي نشرت غاياتها

للملأ وتتلخص : في استقلال العراق استقلالاً تاماً بحدوده الطبيعية على ان يكون جزءا لايتجزأ من الوحدة العربية وتأسيس حكومة دستورية مدنية في العراق ورفض الهجرة الصهيونية الى البلاد العربية . وانشئت الى جانب جمعية العهد «جمعية حرس الاستقلال» عام ١٩١٩ وهي جمعية سرية سياسية كان همها الاوحد توحيد كلمة العراقيين على اختلاف مللهم ونحلهم وبذل كل مايمكن من الجهود للقضاء على بواعث التفرقة في الدين والمذهب .

وكانت «جمعية العهد» وجمعية «حرس الاستقلال» تعملان سراً لان الحكومة البريطانية لم تكن لتسمح بانشاء الاحزاب وعقد الاجتماعات واصدار الصحف والحق يقال ان هاتين الجمعيتين كانتا السبب الاول في تنظيم الثورة العراقية اللاهبة التي كانت حجر الزاوية في خلق الاستقلال العراقي والدولة العراقية الفتية الجديدة . ثم كانت جمعية حرس الاستقلال نموذجاً طيباً للالفة والاتحاد بين عناصر الوطن الواحد ، فكانت تضم السني والشيعي والكردي والعربي وقد علمتهم ان يعملوا سوية لغاية واحدة . ولهذا كان للثورة نتيجتها الطيبة .

●

اكتوى الفراتيون بنار المستعمرين من الترك والانكليز

لا ريب في ان العراق يعتمد في دفاعه على القبائل القوية التي تسكن وادي الفرات ومعظم هذه القبائل اذا لم نقل كلها من الشيعة التي تأتمر بأمر المجتهدين والزعماء من رجال الدين ، وتنقاد هذه القبائل انقياداً اعمى لرؤسائها فهي تطيعهم اطاعة عمياء ، وكانت هذه القبائل غنية بالسلاح لانها كانت دوماً تدافع عن نفسها ضد الجبابرة من الولاة العثمانيين الذين كانوا يسيئون الظن بها ولا يتورعون عن الفتك برجالها اذا آتتهم الفرص وقد عرفت بريطانيا كره الفراتيين للدولة العثمانية فاستغلته الى حد كبير اثناء الحرب العالمية الاولى .

والغريب ان انكلترا ابان زحفها على العراق لم تتصد للفراتيين بقليل او كثير

بل تركتهم ينشئون لانفسهم حكومتين الواحدة في كربلاء والاخرى في الحلة والنجف وذلك على اثر جلاء الترك عنها في عام ١٩١٥-١٩١٦ .

وللفراتيين مآس مع الاتراك والانكليز فقد امر الاتراك في حزيران عام ١٩١٦ اهل الحلة ان يخلوا بيوتهم وشاء عاكف بك القائد التركي ان يقصف بعض احيائها بالمدافع ففعل ثم شنق بعض شبابها ويقدر عددهم بثلاثين شاباً واحرق دورهم . كذلك اشتد النزاع بين سكان كربلاء والاتراك لان الكربلائيين كانوا يكرهون الجندية العثمانية ولا يريدون الانخراط في سلكها والمهم ان نتأكد ان الدولة لم تنل من الكربلائيين منالاً لرجولتهم وقوة شكيمتهم .

وشاءت بريطانيا بعد ان تم لها احتلال العراق ان تبسط نفوذهـا في وادي الفرات فأخذت تدعو رجاله الكبار وزعماءه المختارين الى مقر المندوب السامي البريطاني في بغداد وتمدهم بالاموال والمعاشات وتجزل لهم العطاء كيما يدخلوا في حظيرة الطاعة دون عناء ثم عينت للنجف الكابتن مرشال حاكماً عسكرياً وقالت للعلماء ان سلطانه محدود في المسائل العسكرية . وهكذا عينت غيره من الحكام العسكريين في الحلة والديوانية وغيرهما من المدن الفراتية ليتسنى لها حكم البلاد بشبكة بريطانية مرتبة .

ولدى زيارتي للنجف عام ١٩٢٦ سمعت من الشباب النجفي المتعلم اخبـاراً واخباراً عن حاكم النجف العسكري الكابتن مرشال فقد كان صاحبنا إذا نزل الى اسواق النجف يأمر الناس ان تقف له إجلالاً واحتراماً وكان لا ينزل الى الاسواق الا وحوله الحرس المعروف « بالشبانة » ثم كان ينتهك في بلد مقدس يضم رفات المؤمنين من اقاصي الدنيا أحضرت لتجاور رفات امير المؤمنين علي بن ابي طالب. ثم كان سوطه اسرع ما يكون إلى ابدان الذين يرمقونه بنظرة ازدراء أو هوان أو انتقاد لسلوكه الذي لا يرتضيه إنسان فكيف بعربي في النجف يقدس الرجولة ويعيش في شبه صحراء ترفرف عليها أجواء الحرية بأكملها . وقد دعا سلوكه هذا بعض الشباب إلى اغتياله وقد لبسوا فعلاً ملابس حرسه الشبانة ودخلوا عليه الى مقره وقتلوه رمياً بالرصاص .

وحاصرت بريطانيا النجف إثر مقتل الكابتن مرشال خمسة وأربعين يوماً وضربت حولها نطاقا قوياً ولم تأذن لاحد ان يدخل اليها او يخرج منها كما انها منعت عنها المؤونة ولم ترض ان تفك عنها الحصار الا بعد ان سلم لها النجفيون الشباب الذين تآمروا على مقتل مارشال فشنقتهم حالا ودون محاكمة ثم سجنت الكثير من العلماء والوجهاء ونسفت بعض بيوت الزعماء وهذا يدلك على ان الفرات الذي اكتوى بنار الترك والانكليز كان من اول الثائرين لما دقت ساعة الخلاص وناداه علماؤه للدفاع عن بيضة الاستقلال .

وكان الفراتيون ومايزالون من اكثر العراقيين اخلاصاً للبيت الهاشمي فقد ارسلوا الى السلطان حسين ان يشملهم بعطفه ويرسل اليهم احد انجاله يتولى امورهم وقدموا له العرائض التي تثبت مطاليبهم وقد ارسلها السلطان حسين بدوره الى ولده ومندوبه لدى مؤتمر الصلح الامير فيصل . وكان لمقتل هؤلاء الشباب دون محاكمة اثره المدوي في العالم العربي لانه لايجوز عرفا ولا عدلا ان لا تعطى للمتهم الفرص الكافية للدفاع عن نفسه وان تسوقه للموت سوق الخرفان للذبح .

وبوسعي ان اؤكد ان النجفيين اشتركوا في كل مؤتمر سري عقد في سبيل اشعال الثورة . والنجفيون هم قلب الفرات بل هم عصبه الحساس المخيف فدافعوا عن مبادىء الثورة العراقية الاستقلالية حتى النفس الاخير .

●

الملك عبد الله بن الحسين

عبد الله بن الحسين صاحب شرقي الاردن ، واحد الذين حملوا لواء الثورة على الترك ، والمرشح الاول لعرش العراق قبل ان يكون للعراق عرش وتاج ... والرجل الذي قال بسوريا الكبرى وما يزال يقول بها ويدعو اليها . عربي طيب الارومة احبه الكثيرون وكرهه الكثيرون . احبه من احبه لاعتقادهم انه عمل

ما بوسعه ان يعمل لفلسطين والعرب ضمن اطار الامكانيات الدولية وظروفه الخاصة وقواه المعروفة ، وكرهه من كرهه لانهم يعتقدون انه مسؤول عن ضياع فلسطين للدرجة القصوى فساير اليهود وضعف امامهم وتملقهم لان انكلترا حامية شرقي الاردن وحليفتها العظمى تريد ذلك .

والحق ان عبد الله مهما اوذي في سمعته وتحامل عليه المتحاملون فهو عربي كبير بنى لبنة من لبان النهضة الحديثة في المشرق وهو مؤسس دولة ومنشىء حكومة ولا يجوز ان يكون ضحية لدعاية ما تزال تغمرنا ويقوم بها خصومه . ولهذا لن نسمح لانفسنا ان نحمله مسؤوليات نعتقد ان العرب شعوباً وحكومات هم المسؤولون عنها في الدرجة الاولى ونرجو ان ننصف الرجل في حياته ونعرفه الى شبابنا الناشىء دون ان نزج انفسنا في عصبيات وعنعنات لا تهمنا من الوجهة العلمية مطلقاً .

والملك عبدالله بن الحسين اديب منشىء وراوية اشعار تقرأ كتابه ـ مذكراتي ـ الذي اصدره مؤخراً فتشعر انك امام رجل فيه الكثير من سمات النبل والصدق والشجاعة والتدين وهو يميل شأن معظم البشر الى اظهار اعماله بصورة فيها اشياء من المباهاة ، وهذا ضعف اصيب فيه امراء ووزراء من قبله .

ولد عبد الله بن الحسين بن علي بن محمد امير مكة من آل عبد المعين بن عون في مكة وامه السيدة عابدية وهي ايضاً من شريفات البيت الهاشمي وقد توفيت والدته وهو في الرابعة من عمره فكفلته جدة والده فنشأ عندها نشأة عربية محضة وسمع عندها من النساء حوادث العشائر وعلى الاخص حوادث الغزوات الوهابية الاولى للحجاز وحروب الوهابيين مع والي مصر محمد علي باشا الكبير وقد رضع منذ صغره كره الوهابية وهو ما يزال لا يذكرها بالخير وتشعر الألم المرير في قرارة نفسه عندما يكتب عنها وعن استيلائها على الحجاز ويسخر سخرية لاذعة من هؤلاء الرجال الذين جاءوا من سوريا ولبنان والتفوا حول السعوديين بحجة الغيرة على العرب والعروبة والاسلام .. فاثروا وأصبحوا من كبار الاغنياء .

ونال عبد الله الطفل الأذى الكبير من مشايخه عندما طلب العلم وقرأ القرآن

فعرف « الفلكة » وجمعت اليها رجلاه وضرب فهو من هذه الناحية ككل ابناء جيله في البلاد العربية ولم يحفظ بعض آيات الله الا بعد ان اشهد ان « لا اله الا الله » من الضرب على رجليه فاضطر الطفل عبد الله ان يهرب من شيخ والده علي المنصوري والالتجاء الى جدته التي كفلته بعد وفاة امه . ولم يستأنف عبد الله الدرس في الطائف الا عند شيخ كريم هو العالم الجليل الشيخ ياسين البسيوني الذي رغب الطفل في القراءة وأهدى اليه جملاً صغيراً ويقول الملك عبد الله في مذكراته تعليقاً على هذا الحادث :

« وللشيخ ياسين ولهذا الجمل الفضل في زوال نفوري من المعلمين ومن القراءة الابتدائية .» ولا ريب في ان تعلق الملك عبد الله بالمعلمين الاذكياء خريجي الجامعات اليوم يرجع الى ما عاناه الطفل عبد الله من عنت هؤلاء المشايخ الذين كانوا يعتبرون الفلكة خير اداة للتعليم .

وكان الطفل عبدالله خطاطاً مجيداً فاتقن الخط الثلث والنسخ والرقعة العثمانية وكان أحد اساتذته يأمره أن يكتب مائة سطر للتمرين .

عاش عبد الله الطفل في مكة بلد الله الحرام وقبلة الاسلام ويظهر ان الرحلات اللطيفة التي كانت تقوم بها الاسرة الهاشمية من مكة الى الطائف في الصيف قد اثرت على مخيلته فهو ما يزال يذكر بالخير هذه القوافل التي كانت تنقلهم وهي مزدانة الهوادج بالجوخ الاحمر والبسط الفارسية الجميلة . وظل عبد الله في وطنه الحجاز الذي « لا شبيه له بين الاوطان » حتى أمر السلطان عبد الحميد بنقل الحسين بن علي والده الى استانبول عاصمة الخلفاء لاختلاف حدث بينه وبين امير مكة عون الرفيق بن محمد فسافرت الاسرة واقامت في دار على ضفاف البوسفور وعين الحسين عضواً في مجلس شورى الدولة . والحق ان الحسين قد نفي نفياً لاحتجاجه على أساليب الولاة وامير مكة التي كانت ترمي الى ابتزاز اموال الحجاج بشتى الطرق واضطهاد الناس ظلماً واعتسافاً . وظل عبد الله كل هذه المدة التي اقامها في استانبول مع اخويه علي وفيصل يتعلمون العلوم العربية والتركية والاصول العسكرية .

وقد اعجب عبد الله باستانبول فيقول عنها – انها جميلة حوت الجمال ، وحسناء فتنت الرجال – ثم له رأي بالسلطان عبد الحميد تفرد به فيعتقد انه لم يكن ظالماً كما زعم الناس بل كان حذراً متحوطاً ويدعي ان الحكومات الاتحادية لو احصي ما وقع في عهدها من ظلم وتشريد وصلب ونفي لكان ظلم عبد الحميد بالنسبة الى جبروتهم عدلاً محضاً .

وتعرف الطلاب الصغار علي وعبد الله وفيصل باستاذهم الملازم الثاني صفوة افندي العوا وكان « معاون استاذ » في دروس العمارة والهندسة بالمدرسة الحربية وكان يلقنهم التركية والجغرافيا والحساب والتاريخين العثماني والاسلامي . امـــا العربية فكان يدرسهم اياها الاستاذ الشيخ محمد قضيب البان وهو عالم ازهري من حلب .

وأما الادب التركي فكان استاذهم فيه الاديب المشهور محمد عارف باشا وكان صفوة العوا من المعلمين الذين لا يتعرفون الا الى الشدة في اداء الواجب وقـــد استفاد منه طلابه كثيراً وشاءت الصدف ان اشاهده في بغداد وهو مدير للقصر الملكي عام ١٩٢٥ فاذا صفوة العوا هو هذا المعلم القديم الذي يغار على اموال فيصل اكثر مما يغار فيصل نفسه على أمواله واذا بصفوة مكروه من كل من اراد صيداً من الخزينة الملكية .

ورضي السلطان عبد الحميد عن الحسين بن علي وتألم كثيراً لحرمان الدولة والملة من مواهبه الهاشمية فعينه أميراً على مكة وأصدر مرسوماً قال فيه :

« ان الخطة المباركة الحجازية مربوطة رأساً بمقـــام الخلافة العظمى وانه لا يسري اليها ما يخالف الحقوق المقدسة بمناسبة الدستور الجديد القائمة بين الامارة الشريفة والسدة السنية السلطانية » .

فسافر الحسين ومعه أولاده الى الحجاز فاستقبلته الجمـــاهير الحجازية بالفرح والسرور ثم أم المسجد الحرام في مكة فنزل وطاف ثم أم دار الامارة واستقبل فيها المهنئين .

والظاهر ان حزب الاتحاد والترقي كان يرجو ان يحكم الحجاز بموجب الدستور

كسائر الولايات العثمانية فرحب خطباؤهم به على هذا الاساس وقالوا له :

« جئنا نرحب في الامير الدستوري الذي يؤمل من سيادته ان يضرب صفحاً عن الاصول الادارية القديمة وعن الظلم الذي كان يرتكبه الامراء السالفون تبعاً للادارة المستبدة السابقة وارضاء للسلطان وان البلاد اذ تحي سيادة الامير فانما تحي فيه الامير الذي عرف روح العصر والتجدد المطلوب للعمل تحت الدستور الذي هو نبراس الامة »

ولكن الحسين الذي كان ينزع للاستقلال وللحكم المطلق اجابهم انه حظي بمقام اسلافه وآبائه على الشريطة التي بايع بها الشريف ابو نمي السلطان سليم الاول عند الفتح العثماني للبلاد العربية وهذه الشريطة تقول باستقلال الحجاز الداخلي والحكم باهله على شريعة الله وسنة نبيه .

وانتخب الامير عبد الله وكان يعرف آنئذ بالشريف عبد الله بك نائباً عن مكة وقد جدد انتخابه ثلاث مرات وانتخب ايضاً وكيلاً ثانياً لرئاسة مجلس المبعوثان ويقول النائب الشريف عبد الله بك ان النواب كانوا يأتون الى المجلس العثماني بنفوذ جمعية الاتحاد والترقي وان هذه الجمعية كانت تهيء كل الاسباب ليهيمن الترك على سائر العناصر العثمانية وان الضرائب كانت تصرف على الولايات التركية ثم كانت تهمل الولايات العربية من أسباب الاصلاح .

●

الشريف عبدالله بك يتعرف الى كتشنر

عرف الشريف عبدالله بك الكثير من معاصريه الاوروبيين والاتراك الذين كانت لهم يد في السياسة العربية . ولهذا يمكننا ان نقول ان صاحب الجلالة الملك عبدالله صاحب شرقي الاردن رجل محنك عركته التجارب وبلته الايام فاجتمع الى كتشنر المندوب السامي البريطاني في مصر — او قنصل عام بريطانيا في مصر اذذاك — وكان ينزل الشريف عبدالله بك يومئذ ضيفاً على الخديوي عباس

الثاني في قصر عابدين وقد جاء اللورد كتشنر لزيارة الشريف والسلام عليه وكان يرافقه المستر ستورز وهو اليوم السير لونس ستورز وكان يترجم بينهما ستورز بنفسه .

وقد ابلغ اللورد كتشنر الشريف عبدالله بك انه جد مغتبط بالتعرف اليه وان حكومة جلالة الملك البريطانية راضية كل الرضى عن الحالة الراهنة في الحجاز فالامن فيه مستتب والحجيج دوماً بخير وان الحكومة البريطانية لا ترضى باي تغيير يكون في هذه البقعة الاسلامية المباركة ثم لمح اللورد للشريف عبدالله بك قائلا : « اذا حدث اي حادث تحتاج فيه الى اية خدمة اقدمها فاني مستعد »

والحق يقال ان الساسة الانكليز في مصر وعلى رأسهم اللورد كتشنر كانوا دوما ينظرون الى امير مكة الحسين بن علي الرجل الطموح الذي يجب ان يرموا شباكهم حوله فيما اذا انقضت تركيا عليهم وراحت تؤمن بالسياسة الالمانية وتتبع خطاها .

وقامت حملة صحفية في استانبول ضد الشريف عبدالله بك نائب مكة الذي تبادل الزيارات مع اللورد كتشنر في مصر وقالت ترى ماذا يجري بين سمع الحكومة العثمانية وبصرها وهل من مؤامرات جديدة ضد الدولة العلية وخليفة المسلمين السلطان ابن السلطان من مصر والبلاد العربية ؟

كان الشريف عبدالله بك نائب مكة محافظاً لايريد اخراج الحجاز من صبغته الخاصة الى ولاية عثمانية ولذا احتك مراراً مع اقطاب الاتحاديين كطلعت باشا وزير الداخلية وانور باشا وزير الحربية في الحكومة العثمانية ولطالما برهن الشريف عبدالله بك لهذين الزعيمين ان تأسيس روابط الاخوة بين العالم الاسلامي ودولة الخلافة لايكون الا بابقاء الامتيازات الخاصة بالحجاز والاهتمام باميرمكة لان مكة هي القلب النابض لسياسة التقارب بين العرب والترك . وكانت العثمانية الاتحادية ترجو صادقة ان تمد الخط الحديدي بين مكة والمدينة من جدة الى مكة ومن ينبع الى المدينة وكان امير مكة الحسين بن علي يمانع في ذلك لان انشاء هذا الخط يمحو نفوذه بين القبائل فتصبح هادئة بطبيعة الحال بسبب القوى العسكرية

التي بامكان الدولة ان تسيرها على هذه القبائل اذا شقت عصا الطاعة وكان هذان القطبان طلعت وانور يبغيان سلوك سياسة الشدة مع الاسرة الهاشمية لولا نشوب الحرب العالمية الاولى ومد السكك الحديدية بين المدن الحجازية مهما كان الثمن . ثم لما رأى الاتحاديون ان الحرب واقعة حتما وانهم بحاجة لصداقة الشريف وغيره من الزعماء العرب التفتوا الى الشريف عبدالله بك وقالوا له ان مشروع الخط الحديدي يؤجل الى مابعد انتهاء الحرب ثم طلبوا منه متطوعة ليشتركوا في الجهاد واسترداد مصر وما اضاعوه من القفقاس ، وكان ما كان من سياسة الاتحاديين الترك مع العرب وثورة الشريف حسين المشهورة واعلانه الاستقلال العربي بمؤازرة الحلفاء .

ويقول جلالة الملك عبدالله في مذكراته ان سعيد باشا الصدر الاعظم كان يشكو من النظم الديمقراطية والنيابية التي تجبره ان يعين معه وزراء « لاخبرة لهم في شيء » وقد حضر الشريف عبدالله بك مجلس رئيس الوزراء التركي وهو يحتج على قصف بيروت الى الدول الاوروبية واغراق الطرادة الصغيرة «عون الله » والمدمرة «برقسطوت» قبل ان تتم مدة الانذار المعطاة لهما من قبل الطليان . ثم حضر عبد الله مجلسه وهو يبرق الى دمشق ان تساق خمسة طوابير من الرديف الى بيروت لتعيد الامن الى نصابه وتسترد الاسلحة والعتاد التي نهبت من مخازن الجيش ، وهكذا فقد كان الشريف عبدالله بك شاهد عيان على اهتمام سعيد باشا الصدر الاعظم في بيروت ابان الحرب الطليانية عام ١٩١٢ .

تعرف الشريف عبدالله بك الى امثال اللورد كتشنر من الساسة الانكليز الذين كانوا يديرون دفة الامبراطورية البريطانية في الشرق كما انه تعرف الى هذه الشبيبة من الزعماء الاتراك الذين كانوا يرأسون جمعية الاتحاد والترقي ثم انه اهتم بهؤلاء الساسة المخضرمين من العثمانيين الذين عاشوا في العهدين الحميدي والاتحادي امثال الصدر الاعظم سعيد باشا وهو الصدر الاعظم الذي ضربت في عهده مدينتنا بيروت من قبل الاسطول الايطالي .

والتقى الشريف عبدالله بك بالصحفي الكاتب القدير عبد العزيز الشاويش في

استانبول وهو من الشباب الذين ساندوا جمعية الاتحاد والترقي الى اقصى حدود المساندة وكان بينه وبين عبد العزيز الشاويش مشادة حول الاصلاح في الحجاز انتهت بنفور الشريف عبدالله من الصحفي المصري .

عجم عبد الله عود الساسة وهو شاب وتفهم اساليبهم وهو ما يزال طري العود فهل تفوته اليوم الاساليب الجديـــدة من الساسة الجدد سواء اكانوا شرقيين ام غربيين وقد شارف على الستين ؟

●

لعب الشريف عبد الله بك دوراً كبيراً في الثورة العربية

كانت الاسرة الهاشمية تميل الى السلام وترجو ان لا تدخل الدولة العلية العثمانية في الحرب وان لا تميل في سياستها الى ممالأة دول المحور اي المانيا وحليفاتها لان الدولة خرجت محطمة دامية الجراح من الحرب البلقانية وقد كتب امير مكة الحسين بن علي رسالة خاصة الى جلالة السلطان محمد رشاد يبين له فيها وجهة نظره ويخلص له النصيحة ويقول :

ان الاقطار العربية المترامية الاطراف كالبصرة واليمن والحجاز محاطة بالقوات البريطانية وسيصبح مركزها في غاية الخطورة اذا حاربت الدولة العثمانية انكلترا فاهلها غير مسلحين ولا منظمين ولا يستطيعون مصادمة جيوش اوروبية تحارب وفق الاصول الحديثة ثم كان يعتبر الحسين ان دخول الدولة العثمانية الحرب الى جانب المانيا مغامرة فاشلة بل مقامرة خاسرة وخيانة للامة التي أوكلت الاتحاديين أمانة الحكم .

وحينما اعلنت تركيا الحرب على انكلترا وحلفائها وبدأ الاتحـــاديون سياسة التتريك والتضييق على العرب وشعر الحجاز بضيق لا مثيل له فكر الساسة الدهاة من البريطانيين بان يمدوا اشباكهم حول الحسين بن علي أمير مكة فارسل المستر ستورس الكاتب الشرقي في دار القنصل العام البريطاني بمصر رسالة الى الشريف

عبدالله بك مع شاب مصري اسمه علي افندي البزار يقول فيها :

« الى الشريف عبدالله . بما ان الدولة العثمانية قد ضربت بصداقتها التقليدية مع بريطانيا عرض الحائط وانضمت الى صفوف اعداء بريطانيا الالمان فان بريطانيا ترى نفسها في حل من تلك التقاليد التي كانت تربطها بتركيا من القديم فهل انتم وسمو والدكم المعظم على رأيكم الاول في القيام بما يجر الى استقلال العرب استقلالاً تاماً فان كنتم وسموه على ذلك الرأي الى الآن فان بريطانيا على استعداد لامداد الحركة العربية بكل ما هي بحاجة اليه »

ثم بدأت الوسائل ترد من ستورس ومن السير هنري مكماهون وكلها تشجع امير مكة على الثورة وتعد بالمساعدة الكبرى للعرب في حربهم التحريرية ضد الاتراك وتقول بامبراطورية عربية وخلافة اسلامية هاشمية وخابرت بريطانيا الاحزاب العربية في مصر وسوريا وكانت ترسل الرسل والكتب الى الامير فيصل فقر الرأي اخيراً على وجوب اعلان الثورة العربية لان انتهاء الحرب العالمية معناه رضوخ العرب للحكم الالماني - التركي اذا انتصر المحور او رضوخ العرب للحكم البريطاني - الفرنسي اذا انتصر الحلفاء ولهذا كان لا بد للعرب من ان يغامروا ويعلنوا الثورة والتخلص من عواقب الاستكانة بانضمامهم الى الحلفاء .

وانتهز أمير مكة انقطاع موارد البحر والغلاء في الحجاز وهزيمة احمد جمال باشا في حملته على مصر - هذه الحملة المعروفة بحملة الترعة - وسلوك الترك مسلك الخشونة واتباع سياسة الدم والحديد في سوريا بدلاً من ارضاء العرب واعلان العفو عن مجرميهم السياسيين ومنح البلدان العربية نوعاً من الادارة المركزية فكتب فيصل الى جمال باشا وعرض عليه شروطاً معتدلة أكثرها تنحصر في لا مركزية واسعة وعفو عام وطلب اليه أن يجيبه في مدة اربع وعشرين ساعة ، واذا لم تنفذ تكون حالة الحرب قائمة بين الامتين التركية والعربية . وهكذا في العاشر من حزيران عام ١٩١٦ أعلنت الثورة العربية وهو اليوم التاسع من شعبان سنة ١٣٣٤ هجرية وبدأ العرب يتحملون مسؤولياتهم بانفسهم ويسعون لاستقلالهم بسلاحهم وجيوشهم فاستولت القوات الشريفة على كل الحاميات التركية بمكة .

كذلك سقطت جدة بين ايديها بعد ان ضربت المدمرات البريطانية الثكنات العسكرية وحاصر الشريف عبد الله بك الطائف وتمكن منها واستسلمت له القوات العثمانية فيها .

وكان للثورة العربية في الحجاز رد فعل هائل في الهند فسخط المسلمون في أصقاعها على بريطانيا حتى كادت تسحب كل بعثاتها لولا رجولة الشريف عبد الله بك الذي قال لمندوبي بريطانيا لورنس وستورز انه اذا لم يعد الحلفاء لامير مكة يد المساعدة بكل معنى الكلمة فانه سيصالح الترك الذين وافقوا على كل مطالب العرب . وبالفعل فان المعتمد البريطاني ارسل برقية الى امير مكة يقول له فيها : « ان مطالب جميع الجبهات سوف تأتي دون اي تأخير » فاشتد ساعد الثورة وكتب لها النجاح .

ثم اعلن استقلال البلاد العربية بأجمعها وبايعت الجموع امير مكة الحسين بن علي ملكاً على العرب في المسجد الحرام ووقف الناس يبايعونه من ضحوة النهار الى ان أذن المؤذن بالظهر أربع ساعات تامة وكان ذلك في أول محرم عام ١٣٣٥ — ١٩١٧ م واعترفت روسيا القيصرية باستقلال البلاد العربية وبملكية صاحب الجلالة الهاشمية وأبرق قيصر روسيا نقولا الثاني الى الحسين يهنئه ويحييه .

●

عبد الله لا يطيق تدخلات لورنس

نجحت قوات الثورة العربية باحتلال الحجاز كله الا يثرب المعروفة بالمدينة المنورة والتي تضم رفات الرسول الاعظم محمد بن عبد الله وكان يدافع عنها بقوة وعناد القائد فخري باشا ولكن انى لفخري باشا أن يثبت امام الجحافل العربية وقد اندفعت كلها لحصار المدينة وارسل السيد وينجت المندوب السامي البريطاني في مصر اليه هذه البرقية ويحمله فيها تبعة الدم المسفوك بعد أن هزم الاتراك هزيمة منكرة في سوريا وهذا نص البرقية :

« إن الاتراك قد هزموا وان الشام قد احتلت وان تبعة الدماء بعد الآن ستقع عليك شخصياً ان لم تسلم » .

فتأثر فخري باشا وهو الرجل المتعصب لتركيتـه والجنـدي الشجاع الذي لا يهاب الموت ولكن الامور كانت قد افلتت من يده فاضطر الى قبول الشروط العربية للتسليم وهذا نصها :

أولا - يسلم فخري باشا نفسه .

ثانياً - تسلم القوات التركية في أمكنتها وعلى الاخص القوات التى تحتـل المدينة المنورة .

ثالثاً - تسلم الاسلحة الخفيفة والثقيلة بموجب سجلاتها المحفوظة .

رابعاً - يجري التسليم فوراً .

وكان فخري باشا لا يريد تسليم نفسه وقد هدد بهدم الحجرة النبوية اذا اصروا على إخراجه عنوة ثم قال انه سيشعل النار في كل الذخيرة المخزونة في المسجد اذا استعملت القوات العربية الشدة معه ولكن دهاء الشريف عبد الله بك واحـترام فخري باشا لشخصية هذا الامير الجليل اخرج فخري باشا من الحجرة دون حادث وامر وارسل الى مصر .

وكان الكبتن لورنس يقود كتيبة من الهجانة مهمتها تخريب السكك الحديدية ونجح في اكتسابه ود العشائر حينما التحق بجيش الامير فيصل فبذل لها المال وراح يتغنى بامجـاد العرب وهو الشاب الذي يجيد لهجتهم فأحبه رجالهـــا وأنزلوه من انفسهم منزلة عالية حتى أصبحوا يسمونه بملك العرب غير المتوج وراح المبالغون في رواية الاخبار يلقبونه بصاحب الثورة العربية ويظهر أن لورنس كان يعطف على فيصل اكثر مما كان يعطف على عبد الله لأن فيصلاً كان ليناً مجامـلاً وأما عبد الله فكان لا يحب هؤلاء الاشخاص أصحاب الطباع المشمخرة المزهوة .

ولعل عبد الله لم يحب لورنس منذ ان دس هذا الاخير اليه بعضهم يقول له ان والده متحجر الفكر متمسك بآرائه وانه ليس جديراً بان يملك الحجاز وأن ولده عبد الله خير من يحكم هذا البلد المقدس ، ولكن عبد الله قال بصراحتـه المعهودة

ان والده هو سيده ومليكه وأن أخاه علياً هو ولي العهد وانه سيكون لهما مطيعاً مدى الحياة .

وكان عبد الله يكرم لورنس ويعترف بمساعدته ولكنه كما قلنا كان يكره تدخلاته ويعلنها ولعل هذا هو السبب الرئيسي الذي حرم عبد الله من عرش العراق حينما وقعت كارثة ميسلون في سوريا .

حارب الشريف عبد الله بك الاتراك وعلى رأسهم فخري باشا في الحجاز واحتك بجمهرة من الضباط الانكليز عرف قدرهم واحترم علمهم ونبوغهم وكان يجل لورنس ولكنه لم يطق تدخلاته وامتداد أنفه في كل مسألة عربية ، ثم كانت خصومته الشديدة للوهابيين التي أدت في النهاية الى خروج الاسرة الهاشمية من ديارها .

وثار في الحجاز بعض الزعماء على الحسين بن علي واعتنقوا الوهابية فأراد الحسين تأديبهم وكانت انكلترا بلسان حسين روحي افندي كاتم سر المعتمد البريطاني في جدة تنصح الى الحسين أن لا يحارب الوهابيين وأتباعهم لأنهم فئة متعصبة ونشيطة إذا هبت عليها « رياح الجنة » بذلت الارواح رخيصة في سبيلها ولأن انكلترا يهمها أن يظل زعيم الوهابيين عبدالعزيز قوياً ليظل شوكة في جانب الحسين بن علي . ولاقت قوات الاسرة الهاشمية الخسارة الفادحة حينما كانت تتلاقى مع القوات الوهابية السعودية .

وللشريف عبد الله بك رأي خاص في الوهابيين والسعوديين وبعض الرجالات من العرب لا نريد ذكر أسمائهم تأدباً فهو يعتقد اعتقاداً جازماً أن أمثال هؤلاء الرجال لم يلتفوا حول البلاط السعودي إلا لابتزاز الاموال وجمعها « باسم النهضة العربية » وأنهم كانوا السبب في منح امتيازات النفط للشركات الاميركية حتى باتت ابواب البلاد العربية مفتوحة على مصارعها وصارت « رأس جسر فيه من الاخطار على الاخلاق والدين ما يتجاوز أي خطر عسكري » .

ويتبرم عبد الله بك تبرماً حتى يصرخ « ولو عرفت وعرف من معي أن نتيجة الثورة العربية والنهضة القومية هي هذه لتبرأنا منها وممن قال بها »

وفي رأي عبد الله أن البلاد الحجازية النجدية تحكم اعتباطاً فقد تذهب الاموال للمغامرين من رجال السياسة وتمنح الامتيازات دون استشارة أصحاب الحل والعقد ودون أن يؤخذ رأي لمجلس تشريعي أو مجلس عمومي .

نحن لا نحب أن نبدي رأياً في هذا الموضوع الشائك لأن آراء عبد الله في هؤلاء الرجال ستمحصها الايام وستثبت صحتها أو عدم صحتها وأما امتيازات النفط فانا نفضل أن يقول أهل الحجاز ونجد رأيهم فيها ولكن لنا كلمة واحدة في الموضوع وهي أن احتكاك العرب بالاميركيين قد يلقحهم فيحول خمولهم الى اجتهاد وكسلهم الى عمل وجمودهم إلى حياة وإذا لم تظهر حيويتهم بعد هذا التلقيح فحسبنا الله .

●

الامير عبد الله نائب الملك في سوريا..

حارب الحسين بن علي بجانب الحلفاء واقض على الترك مضاجعهم في الحجاز وسوريا ولكنه حينما انتهت الحرب العالمية الاولى رأى الحلفاء من مصلحتهم ان تكون لفرنسا يد قوية في بلاد الشام وان يساعدوا عبد العزيز بن سعود ويعضدوا الوهابية . وقد أرادت انكلترا ان تتفاهم مع الحسين فرحل اللورد اللنبي الى جدة واجتمع الى صاحب الثورة العربية وتباحث معه في قضايا سوريا وفلسطين والعراق فلم يتفاهما مطلقاً وازداد الجفاء بينهما ومنذ ذلك الحين يمكننا ان نقول ان نجم الحسين بدأ يأفل في الديبلوماسية واخذت احلامه تضمحل .

وحاول القومندان كاترو ممثل فرنسا في الحجاز – وهو الجنرال كاترو احد رجال الحركة الديغولية وصاحب المذكرات – ان يستميل الحسين الى جانب فرنسا وان يمهد لنفوذ دولته في دمشق وكاترو في عرف الامير عبد الله سياسي ماهر وذو مكر شديد وهو الى جانب ذلك عريق في الثقافة والادب والتهذيب العالي وكان دوماً ينصح الى الاسرة الهاشمية ان تستند في سياستها من الناحية السورية

على فرنسا وحدها لانه « ليس هنالك في سوريا غير فرنسا » ولان لفرنسا « من الحقوق والتقاليد القديمة ما لا ينبغي ان ينسى » ولكن رغم كل هذه النصائح من قبل القومندان كاترو فان الحسين كان يرسل لولده فيصل في دمشق البطاريات ومدافع الميدان . وهكذا رأى الحسين وأولاده ذات يوم وحدهم في الساحة فتخلت عنهم انكلترا وبطشت فرنسا بجيوشهم في سوريا وحطمت لهم عرش فيصل على ضفاف بردى .

وكانت كارثة ميسلون وخروج فيصل من دمشق فتألم الامير عبد الله وراح يفكر في تحرير سوريا — وكانت سوريا دوماً نصب عينيه — فاستأذن والده الحسين وأحب ان يغامر وان ينوب عن الملك فيصل في زعامة القطر المناضل ضد فرنسا فتوجه من مكة الى يثرب وركب منها الخط الحديدي الى معان ووصل اليها بعد مشقة شديدة وكان ذلك في الواحد والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٢٠ وأعلن الامير عبد الله نفسه « نائب الملك في سوريا » وقوبل بحماس عظيم من اهل معان وعشائرها ، ونشر فور وصوله رسالة قال فيها :

الى كافة اخواننا السوريين : سلام لا أجد في نفسي ادنى ريب او اقل شبهة في أن ابناء الوطن السوري سيتلقون بياناتنا بقلوب ملؤها التصديق والاخلاص فليعلم أبناء سوريا ان ما اصابهم من الضياع المحزن من اعتداء رجال الاستعمار الفرنسي على وطنهم ومبادرتهم بسرعة فظيعة غريبة لهدم عرشهم في اول سعيهم لتشكيل حكومتهم التي وضعت اسسها على سياسة الولاء والصداقة لكل الامم على الاطلاق قد اثر على حواس كل عربي على وجه الارض .

وفي الوقت نفسه نعلم علم اليقين ان ابناء سوريا الكرام هم من جملة المفاخر العربية . لا يرضون بالذل ولا ينقادون الى من جاء لاهانتهم في عقر دارهم ..

ومن حيث قد توالت علينا الدعوات وصمت آذاننا الصرخات فها انا قد اتيت مع اول من اباكم نشاركم في شرف دفاعكم لطرد المعتدين عن اوطانكم بقلوب ذات حمية وسيوف عدنانية هاشمية .. ليعلم من أراد اهانتكم وابتزاز اموالكم واهانة علمكم واستصغار كبريائكم ان العرب كالجسم الواحد اذا شكا

طرف منه اشتكى كل الجسم .. ليعلم أبناء سوريا ان هؤلاء المعتدين قد عدوكم من جملة من ادخلوه تحت عار استعمارهم ووضعوهم في مصاف الزنوج والبرابرة وظنوا انكم لستم من ذوي الغيروات واصحاب الحميـــات . كيف ترضون بان تكون العاصمة الاموية مستعمرة فرنسية وها اني قد قبلت تجديد بيعـــة مليككم فيصل الاول عن الاكثرية الغالبة التي جددت تلك البيعة يدي واني سأعود ان ابقاني الله حياً الى وطني يوم نزوح عدوكم عن بلادكم وعلى هـذه اليمين المشرفة وامركم حينئذ لكم وبلادكم بين ايديكم.. اتينا لبذل المهج دونكم لا لتخريب البلاد كما يفترى علينا .. لذا ندعوكم للحياة .. »

والحق ان السوريين لم يتحمسوا كثيراً لدعوة الامير عبد الله لاعتقادهم ان فرنسا بعد كارثة ميسلون أصبحت هي صاحبة الكلمة العليا في بلاد الشام وجاءه بعض محترفي السياسة (من خدام القضية العربية) وطلبوا اليه الوف الجنيهات ليؤسسوا له في عرقهم - اقلام استخبارات - وكان صندوق الامير عبدالله خالياً فلم يجبهم الى طلبهم . لقـد علمنا التاريخ ان كل حركة لا تنبع من أغوار الامـة هي حركة فاشلة وماذا ينفع المال عند الامير عبد الله اذا لم يساند حركة التحرير التي أراد أن يقوم بها هذا العربي الكبير قلوب مخلصة ونفوس أبية تنـــدفع الى الموت اندفاع المستميت في سبيل اوطانها ؟ ورأى الامير عبـــد الله وهو الرجل الحكيم ان لا يتورط في تفاؤله بسوريا فانكمش على نفسه وأخذ يشعر ان سكان شرقي الاردن وقبائله وعشائره يهرعون اليه ويدعونه الى عمان ليقودهم نحو الحكم الصالح فاجابهم الى ذلك بعد أن مكن لامارته من قبل الحكومة العربية الملكية بسوريا بوصفه « نائباً للملك » ومن المستر تشرشل وزير المستعمرات البريطانية .

•

كيف انشأت بريطانيا حكومة شرقي الاردن

ان المملكة الاردنية الهاشمية هي جزء لا يتجزأ من سوريا وقد كانت تعرف ببلاد عجلون والسلط وعمان والكرك وكانت تابعة للحكومة الفيصلية العربية فلما حلت الكارثة بسوريا المستقلة بعد معركة ميسلون احتلتها الجيوش البريطانية في آب عام ١٩٢٠ ووعدت ان تقيم فيها حكومة عربيـــة مستقلة تحت الانتداب الانكليزي وان لاتتسرب اليها الموجات الصهيونية التي ازمعت ان تقيم من فلسطين وطناً لها ، ودخلت هذه المنطقة رسمياً تحت الحماية البريطانية بعد احتلالها والحقت ادارتها بالمندوب السامي البريطاني في فلسطين وكان يومئذ السر هربرت صموئيل ، وشكل السر هربرت صموئيل منها ثلاث مقاطعات لها ثلاث حكومات الاولى حكومة عجلون والثانية حكومة السلط وعمان والثالثة حكومة الكرك وكان لكل منها مستشار بريطاني ولكن الفوضى ضربت اطنابها في شرقي الاردن كله لتضارب الصلاحيات بين هذه الحكومات ولهذا عقد شيوخ البلاد في الثـــاني من ايلول عام ١٩٢٠ معاهدة ام قيس مع بريطانيا وكان يمثلها المستشار سمرت الذي عرف « باللورد رجلان » بعدئذ وتنص هذه المعاهدة على ما يلي :

١ – توافق بريطانيا على انشاء حكومة عربية مستقلة واحـــدة في كل شرقي الاردن ولا يمكنهـــا باية صورة ان تضم الى شرقي الاردن حوران والقنيطرة ومرجعيون فهذه مقاطعات تخص الانتداب الفرنسي .

٢ – تنظر بريطانيا بعين العطف والتقدير الى تولية امير عربي عـــلى شرقي الاردن .

٣ – يكون لشرقي الاردن مجلس عام يشرف على ادارة الحكومة .

٤ – ليس بين حكومة شرقي الاردن وحكومة فلسطين اية علاقة البتة .

٥ – تمنع الهجرة الصهيونية الى شرقي الاردن منعاً باتاً ولا تباع لليهود فيهـا ارض .

٦ – تؤلف الحكومة البريطانية جيشاً وطنياً لشرقي الاردن من اهل البلاد .

٧ - لا تنزع الحكومة البريطانية السلاح من اهالي شرقي الاردن . اما اذا شاءت الحكومة الوطنية ان تنزعه فلها ملء الحق في ذلك .

٨ - لا تسلم الحكومة البريطانية اي لاجيء سياسي استظل بظل شرقي الاردن .

٩ - التجارة حرة بين فلسطين وشرقي الاردن وستنال شرقي الاردن حقها من واردات الجمارك الفلسطينية وستحاول بريطانيا ان تكون التجارة حرة ايضاً بين شرقي الاردن والبلاد العربية المجاورة .

١٠ - تقدم الحكومة البريطانية السلاح لشرقي الاردن بثمنه .

١١ - يرجو سكان شرقي الاردن الحكومة البريطانية ان تراجع عصبة الامم بشأن انتدابها على سوريا وبعبارة ثانية ان تسعى بريطانيا سعيها كي لا تمكن فرنسا من الانتداب على البلاد السورية .

ولما وافقت بريطانيا على انشاء عرش لفيصل في العراق وتمكنت من اقناع الامير عبدالله ان يتنازل لاخيه عن حقوقه اعتزمت انشاء عرش له في هذا الجزء من سوريا المعروف اليوم بشرقي الاردن. وجاء المستر تشرشل وزير المستعمرات البريطانية خصيصاً الى القدس واتفق مع عبدالله على تأسيس حكومة عربية وطنية برئاسته في عمان وان تكون هذه الحكومة مستقلة استقلالا ادارياً وان تصغي وتسترشد باراء المندوب البريطاني الذي يقيم في عمان . ثم اكدت بريطانيا على عبدالله ان يحافظ بكل قواه على الحدود السورية الفلسطينية فلا يمكن القبائل من الاعتداء عليها ثم يكون لبريطانيا مراكز للطيران وتسعى لتحسين العلاقات بين حكومة شرقي الاردن والحكومة الفرنسية في سوريا وتمنع الهجرة الصهيونية الى امارته وألحق الانكليز في عام ١٩٢٥ العقبة ومعان بشرقي الاردن وذلك على اثر انهيار المملكة الحجازية تحت اقدام السعوديين .

وعقدت حكومة الامير عبد الله معاهدة مع بريطانيا في العشرين من شباط سنة ١٩٢٨ وكان على رأسها السيد حسن خالد أبو الهدى وقد اطلقت هذه المعاهدة يد بريطانيا في شؤون شرقي الاردن الداخلية والخارجية فلا تثبت ميزانية البلاد الا اذا وافق عليها ممثل بريطانيا كما انه يحق لبريطانيا ان تقيم جيوشاً مسلحة في

شرقي الاردن وان تجند من تشاء للدفاع عن البلاد .

ويتعهد صاحب السمو الامير عبد الله ان لا يمنح الامتيازات لاستغلال الموارد الطبيعية في شرقي الاردن الا اذا وافقت على ذلك حكومة صاحب الجلالة ملك بريطانيا، ثم لا تعلن الاحكام العرفية في البلاد او في اي جزء منها الا بمشورة بريطانيا.

والحق انه لم تنقض سنتان على تسلم الامير عبد الله زمام شرقي الاردن حتى استتب الامن واستفاد الفلاح والبدوي والتاجر من حسن النظام وحرصت الحكومة البريطانية ان لا تظهر بمظهر المتدخل في شؤون عبد الله فمكنت له بذلك الهيبة والاحترام لدى السكان .

•

تقوم المقاومة على التسلح الصحيح

اجمع الوطنيون الناقمون في سوريا وفلسطين على الانتدابين البريطاني والفرنسي ان تكون شرقي الاردن مركزاً لاعمالهم وحصناً لهم ولكن عبدالله لم يمكنهم من ذلك لاعتقاده ان تحرير البلاد العربية لايكون الا بسلوك طرق الحكمة والنظام وان العصابات خطر كبير قد تجر الويل على السكان الآمنين مهما حاول رجال هذه العصابات تبرير اعمالهم .

ويقول عبدالله ان المقاومة التي لا تقوم على العقل والتسلح الصحيح هي جريمة والشجاعة الحقيقية هي ان نعد انفسنا لنكون امة . وصرح عبدالله انه لايأذن ولا بصورة من الصور للعابثين بالامن في سوريا وفلسطين ان يستخدموا شرقي الاردن او «منطقته الآمنة» ملجأ لهم ، لانها ستجني السوء والذل من اعمالهم . واعلن للسوريين والفلسطينيين ان يتعاونوا مع انكلترا وفرنسا اللتين انتدبتا من عصبة الامم لمساعدة العرب ثم قال ان هذا التعاون لايكون الا بالاخلاص والدربة والحكمة الى ان نثق بانفسنا فنتمسك بمبادئنا المشروعة التي تصل بنا الى حقوقنا الكاملة .

وخطب عبدالله مرة في شعبه وردد هذه الفقرة :

« ان الذين يشجعون رجال العصابات او يقبلون حمايتهم في هذه المنطقة انما يخونون انفسهم وبلادهم . نحن لانريد ان نكون خطراً على غيرنا ، الدنيا بيت واحد والامم المتمدنة قد توحدت مصالحها حتى اصبحت كالعائلة الواحدة اذا اختل النظام هنا اختل هناك »

ولكن مع الاسف الشديد رغم كل هذه التصريحات التي كان ينثرها عبدالله كانت حكومة الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان لاتثق به ويعتقد رجالها ان مطامع الاسرة الهاشمية او الشريفية لن تموت في هذه البقعة من الارض .

وهكذا ظل عبدالله كما ظل سواه ممن تعاون مع فيصل على بناء الدولة السورية الاستقلالية موضعاً للشك وفي بطن القائمة السوداء !..

واخلص عبدالله ابان الحرب العالمية الثانية لانكلترا لانه كان يؤكد ان مستقبل الامة العربية جمعاء متوقف على انتصار الحلفاء وانكسار المانيا ولهذا كان من اشد الناقمين على فتنة الكيلاني التي وقعت في العراق عام ١٩٤١ وكان يقول ان سياسة الكيلاني – رشيد عالي – عرضت بلاد الرافدين الى القلاقل والفتن وقد سعى لدى الحكومة البريطانية ان لاتنتقص من استقلال العراق بعد هذه الحركة.

وحارب عبدالله الدعاية الالمانية ابان الحرب الاخيرة في الاقطار العربية لا سيما في المدارس والكليات وسائر دور العلم واصر على محطات الاذاعة في مصر وفلسطين ان تكذب محطة برلين وتوهاتها كما انه اكد على الحكومة البريطانية ان تقتل فتنة الكيلاني في مهدها وتضربها بكل قوة وباسرع وقت ممكن وشجع القيادة البريطانية ان تحتل سوريا وتطرد السلطات الفيشية منها وكان ينادي عبدالله بملء فيه أنه من الواجب على بريطانيا ان تغذي روح الصداقة العربية البريطانية وان لاتؤثر فتنة الكيلاني بالعلاقات الطيبة التي كانت تقوم بين الامة البريطانية والشعوب العربية .

والحق ان قوات الجيش العربي الاردني عملت كثيراً على سحق الفتنة الكيلانية وساهمت مساهمة فعالة في اطفائها وكان يقودها الفريق كلوب باشا واجتازت

الصحراء في مقدمة القوات الميكانيكية البريطانية ودمرت مواصلات الثورة وقطعت السكك الحديدية في العراق ، وخلاصة القول ان الجيش العربي الاردني وقف وقفة صادقة امام بريطانيا حينما كانت تقاسي الامرين في موقفها الحـــرج عام ١٩٤١ واعترف الجنرال باجت بفضل القوات الاردنية في اطفاء الثورة الكيلانية فكتب لعبدالله يقول « وقدقام جنود سموكم بدور هام في عمليات العراق وسوريا ولولا مساعدتهم في عمليات العراق لكان من الممكن ان تتخذ هذه العمليات شكلاً آخر » وهكذا نرى ان عبدالله كان مخلصاً لحليفته بريطانيا ويعتقد ان الامة العربية لاتنال استقلالها كاملاً الا اذا سلحت نفسها وتذرعت بالعقل وتفاهمت مع حليفاتها .

ولعل عبدالله لم يجازف في حرب اسرائيل مؤخراً ثقة منه ان التقسيم التي قالت به الامم المتحدة في آخر عام ١٩٤٧ لفلسطين كان خيراً من الحرب لاسيما والحرب التي اعتمدت عليها الشعوب العربية كان نوعاً من حرب الكلام والتصريحات الطنانـــة .

ويظهر أن عبد الله كان متفهماً لقوى الحكومات العربية عارفاً بطبائع حكامها خيراً من الكثيرين الذين يدعون الفهم والمعرفة ، ثم كان عبد الله متأكداً من الخطوط السياسية الكبرى التي رسمتها بريطانيا والولايات المتحـــدة في الشرق الاوسط وما رافق هذه الخطوط من مساع ودعايات وشؤون فلزم جانب السلام والدعة رغم كل الاتهامات الضخمة التي أتهمها إياه العرب وسادة العرب وزعمـــاء العرب في أيامنا الأخيرة ، وفي حرب الحكومات العربية السبع مع اسرائيل .

•

ميثاق عمان الوطني عام ١٩٢٨

تألم الاحرار الاردنيون من شدة النفوذ البريطـــاني وما يتمتع به من قوة داخل الوطن وخارجه فتأثروا جد التأثر وراحوا يعقدون الاجتماعات والمؤتمرات لعلهم يفوزون بتحقيق اماني البلاد فوضعوا لانفسهم ميثاقاً عاهـــدوا الله على

التمسك به .

وقد اجتمع ممثلو الامارة الاردنية في الخامس والعشرين من تموز عام ١٩٢٨ وأقروا ان يبذلوا النفس والنفيس للعمل على القيام بتنفيذ ميثاقهم الوطني المعروف بميثاق عمان ويتلخص في البنود التالية :

١ – ان تكون امارة شرقي الاردن دولة عربية مستقلة ذات سيادة ولها حدودها الطبيعية التي قررتها عصبة الامم او بالتالي انكلترا منذ عام ١٩٢٠ .

٢ – تحكم شرقي الاردن دولة دستورية عربية مستقلة يكون على رأسها صاحب السمو الامير عبد الله بن الحسين وأولاده من بعده .

٣ – ولا تعترف دولة شرقي الاردن بالانتداب اصلاً وانما تطلب المعونة الفنية من حليفتها بريطانيا بموجب معاهدة تعقد بينهما على اسس الاحترام المتبادل والحقوق المتبادلة دون أن يكون هناك أي مساس بالسيادة القومية .

٤ – لاتعترف دولة شرقي الاردن بالوطن الصهيوني ولا تقول بوعد بلفور الذي يخالف العهود الرسمية التي قطعت للعرب وللشريف حسين إبان الحرب العظمى – طبعاً الاولى –

٥ – ولا يكون الانتخاب للمجلس النيابي في دولة شرقي الاردن صحيحاً إلا اذا ضمن ارادة الامة وسيادتها وإذا تم انتخاب مزور أو مصطنع وفصل هؤلاء النواب الذين يأتون بوسائل التزوير بحقوق سياسية أو مالية أو تشريعية فلا قيمة لها تجاه الشعب الاردني .

٦ – يصدر التجنيد الاجباري عن حكومة اردنية دستورية مسؤولة لان التجنيد هو جزء لا يتجزأ من السيادة الوطنية .

٧ – لا تتحمل حكومة شرقي الاردن نفقات الاحتلال للجيوش البريطانية بل تعتبر هذه الاموال التي تصرفها بريطانيا العظمى على جيوشها اموالا مغتصبة من عرق العامل والفلاح والتاجر الاردنيين .

٨ – يعتبر الاردنيون ان موارد البلاد الطبيعية كافية لتنظيم موازنة حكومة

شرقي الاردن برئاسة صاحب السمو الملكي الامير عبد الله وليست الاعانة المالية التي تدفعها بريطانيا العظمى الى صندوق شرقي الاردن إلا نفقات واجبة للمحافظة على مواصلات الامبراطورية وجيوشها ثم ان بريطانيا تضع يدها على مالية شرقي الاردن وتشرف عليها إشرافاً فعلياً وهذا في الواقع حق مغتصب يتنافى والسيادة القومية المطلقة .

٩ - يقول الاردنيون الاحرار ان كل تشريع استثنائي لا ينظر الى حاجات الشعب الاردني والى منافعه العامة هو تشريع باطل .

١٠ - ولا يعترف الوطنيون بالقروض التي عقدتها الحكومة الاردنية قبل تشكيل المجلس النيابي لان هذه القروض لم تبذل في سبيل الشعب الاردني بل بذلت لمنافع الاحتلال البريطاني .

١١ - ولا يجوز للحكومة الاردنية ان تبيع الاراضي الاميرية أو تتصرف بها قبل مصادقة المجلس النيابي عليها لان الاراضي هذه قد يجوز أن يتسرب اليها النفوذ الصهيوني او يسيطر عليها .

وقد سلمت بنود هذا الميثاق الوطني الى الامير عبد الله والمعتمد البريطاني في عمان بواسطة الزعيم حسين الطراونة فلم يأبه الانكليز له لانهم كانوا يعتقدون أن بلاد شرقي الاردن لا تساس إلا بحكومة يكون معظم موظفيها من الاداريين النشيطين في نظم العدل والمال . ثم ان الشعب الاردني كان في نظر الانكليز غير قادر على تفهم الحياة النيابية الصحيحة لان الحياة العشائرية كانت متغلبة عليه ولان مسؤوليات الحكم الديمقراطي تتطلب رقياً صحيحاً من الشعب بمجموعه .

•

معاهدة انكلترا مع شرقي الاردن عام ١٩٣٤

عقدت انكلترا معاهدة تحالف وصداقة مع شرقي الاردن في الثاني من حزيران عام ١٩٣٤ وقد مثل صاحب الجلالة البريطانية اللورد بلومر المندوب السامي

الانكليزي في فلسطين ومثل صاحب السمو الملكي الامير عبد الله حاكم شرقي الاردن حسن خالد باشا ابو الهدى وبعد ان تبادل الاثنان اوراق التفويض التامة اتفقا على ما يلي :

١ – يوافق صاحب السمو الامير عبد الله على ان يكون لصاحب الجلالة البريطانية معتمد في عمان وان تجري المخابرات بين صاحب الجلالة البريطانية وجميع الدول الاخرى من الجهة الواحدة وبين حكومة شرقي الاردن من الجهة الثانية عن طريق المعتمد البريطاني وتتحمل حكومة شرقي الاردن مرتبات المعتمد البريطاني وموظفي دائرته .

٢ – يتولى التشريع والادارة في شرقي الاردن صاحب السمو الامير عبد الله بواسطة حكومة دستورية ترجع في استشاراتها الى المعتمد البريطاني .

٣ – الموظفون كلهم اردنيون ولا يعين موظف من غير الاردنيين الا بعد موافقة المعتمد البريطاني . اما الموظفون البريطانيون فلهم اتفاقات وشروط خاصة .

٤ – يسن صاحب السمو الامير القوانين في شرقي الاردن التي قد تمليها التبعات الدولية على صاحب الجلالة البريطانية .

٥ – يسترشد صاحب السمو الملكي بنصائح صاحب الجلالة البريطانية بجميع صلات شرقي الاردن الخارجية وفي الالتزامات والمصالح المالية والدولية ويتعهد باتباع سياسة تكفل الاستقرار والتنظيم في الامور الادارية والمالية في شرقي الاردن .

٦ – يتبع صاحب السمو الامير آراء صاحب الجلالة البريطانية في كل القوانين التي تمس النقد الاردني او الضرائب المفروضة او وراثة العرش الاردني او اراض يتناولها الامير او أي قانون تسنه المحاكم الوطنية للأجانب .

٧ – التبادل التجاري حر بين فلسطين وشرقي الاردن ولا تقام هناك حواجز جمركية بين البلدين . اما التعرفات الجمركية فيضعها مندوب صاحب الجلالة البريطانية . وتلقى تجارة شرقي الاردن كل التسهيلات التي تلقاها فلسطين في الموانىء الفلسطينية .

٨ – تضع بريطانيا كل ما يمكن من التسهيلات اللازمة في سبيل الاتحاد الجمركي او الاقتصادي بين شرقي الاردن وغيرها من الممالك العربية ما دام ذلك يتفق مع الواجبات الدولية لصاحب الجلالة البريطانية .

٩ – يقبل صاحب السمو الملكي الامير عبد الله القوانين والنصوص المعقودة في المواد القضائية لصيانة مصالح الاجانب التي يعليها صاحب الجلالة البريطانية ولهذا لا يؤتى باجانب امام محكمة اردنية الى ان تشرع قوانين خاصة بشأنهم .

١٠ – يحق لصاحب الجلالة البريطانية ان يحتفظ بقوات مسلحة في شرقي الاردن كما انه يحق له ان يجيش وينظم ويراقب كل القوات المسلحة التي يراها واجبة للدفاع عن البلاد ولتأييد صاحب السمو الامير في صون السلم والامن اما اذا شاء صاحب السمو الامير ان يحتفظ لحكومته بقوات عسكرية فعليه ان يأخذ موافقة صاحب الجلالة البريطانية .

١١ – تدفع شرقي الاردن مصاريف القوات العسكرية التي ترابط فيها من وارداتها الخاصة .

١٢ – تهب الخزينة البريطانية هبات كافية لحكومة شرقي الاردن لتعينها على تسديد نفقات الجيوش فيها لأن واردات شرقي الاردن لا تقوم بهذه النفقات .

١٣ – تعلن الاحكام العرفية في كل شرقي الاردن او في جزء منه بموافقة صاحب الجلالة البريطانية وتكلف القوات البريطانية بادارة الاحكام العرفية .

١٤ – يقدم صاحب السمو الملكي كل وسائل النقل البرية والجوية والبحرية للجيوش البريطانية وكل الخطوط اللاسلكية والسكك الحديدية .

١٥ – يمنح صاحب السمو الامتيازات باستثمار الموارد الطبيعية وانشاء السكك الحديدية وعقد القروض بعد أن يسترشد بآراء صاحب الجلالة البريطانية .

١٦ – لا يجوز لصاحب السمو أن يتنازل عن أية بقعة من البقاع الاردنية او يضعها تحت تصرف اية سلطة من السلطات الاجنبية .

١٧ – ان معاهدات تسليم المجرمين النافذة بين صاحب الجلالة البريطانية والدول الاجنبية تتناول بلاد شرقي الاردن .

١٨ - يعاد النظر في هذه الاتفاقية من وقت لآخر اذا قضت الظروف بذلك.

يصاغ هذا الاتفاق باللغتين الانكليزية والعربية واذا صار اختلاف في تفسير مادة من مواده يرجع للصيغة الانكليزية.

هذه هي المعاهدة التي اقامت الاحرار الاردنيين واقعدتهم لأنها في نظرهم الخاص تقيد بلادهم في الادارة والمالية والقضاء وتعطي الاجانب امتيازات لا حق لهم بها. كما انها تجعل للبريطانيين اليد العليا وتجعل للاردنيين اليد السفلى وقد وصفها بعضهم بقوله: ان بريطانيا في هذه المعاهدة قد شيدت من شرقي الاردن ترسانة عسكرية لها تحكم منها الشرق الادنى والاوسط.

●

كيف انتزع اليهود وعد بلفور من بريطانيا

تطورت الاقطار العربية تقريباً كلها التي وضعت تحت الانتداب بعد الحرب العالمية الاولى وسارت اشواطاً لا بأس بها نحو الحكم الذاتي والاستقلال فعقدت المعاهدات مع بريطانيا وفرنسا ولم يكن سيء الحظ بينها كفلسطين فانها بقيت تحكم مباشرة من الانكليز بسبب القضية الصهيونية. وقد بدأت هذه القضية حلماً تدغدغ قلوب الزعماء اليهود الذين ارادوا ان يشيدوا دولة لاسرائيل تجمع شملهم من سائر اقطار الدنيا وسعوا لها سعيهم منذ اواسط القرن التاسع عشر فحاولوا مراراً ان ينالوا مآربهم من الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني فوقفت سداً منيعاً في سبيل آمالهم ولكنها لم تمنع بعض اتقيائهم ان يهبطوا فلسطين فيقوموا بشعائر دينهم ويبكوا المجد القديم عند هيكل سليمان.

ولكن لما نشبت الحرب العالمية الاولى تقدم اليهود بقواهم المالية ونفوذهم الاقتصادي وساندوا انكلترا ضد اعدائها واشترطوا على ساستها ان ينشئوا لهم وطناً في فلسطين بعد زوال السيادة العثمانية عنها وتوصلوا بدهائهم ان ينتزعوا وعداً من اللورد بلفور وزير الخارجية البريطانية في الثاني من تشرين الثاني عام

١٩١٧ بصورة رسالة وجهت الى اللورد روتشيلد هذا نصها :

عزيزي :

« يسرني جداً ان ابلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك انها تنظر بعين الرضى والارتياح الى المشروع الذي يراد به ان ينشأ في فلسطين وطن قومي للشعب اليهودي وتفرغ خير مساعيها لادراك هذا الغرض ولكن معلوماً انه لا يسمح باجراء شيء يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التي للطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين الان او الحقوق التي يتمتع بها اليهود في البلدان الاخرى وبمركزهم السياسي فيها » .

والف اليهود بعد ان نجحوا في انتزاع وعد بلفور من انكلترا جمعيتهم الصهيونية التي كان هدفها الاول والاسمى ان تظل على اتصال مع الحكومة البريطانية بشأن تأسيس الوطن اليهودي في فلسطين .

وشرعت هذه الجمعية تهيء اللجان لتسهل عودة آلاف المهاجرين والمنكوبين من اليهود في سائر انحاء العالم الى الديار المقدسة واخذت تجمع الاموال والاعانات والهبات لانشاء المستعمرات وتنظيمها على الطراز الحديث واقامة المدارس الابتدائية والثانوية للطلاب والطالبات وبناء المستشفيات للمرضى وشراء الارض لتوفير البناء عليها وغرس الاشجار ولا سيما البرتقال في مساحات كبيرة .

وراح العلماء يبذلون الجهود الجبارة لانشاء الجامعة العبرية لتكون مركزاً عظيماً لاحياء العبرية وتراثها ونشرها بين جميع الطبقات اليهودية والاغرب من هذا كله ان الجمعية الصهيونية الفت لجنة خاصة لتدرس الوسائل والاسباب لتوثيق عرى المحبة والالفة بين اليهود المهاجرين والعرب سكان البلاد وقد وفقت هذه اللجنة في عملها الى حد بعيد .

وصال اليهود وجالوا في مؤتمر الصلح وتكلم زعيمهم الكبير الدكتور ويزمن في السابع والعشرين من شباط عام ١٩١٩ وطالب هيئة الامم ان تنشىء دولة صهيونية جمهورية في فلسطين تحت رعايتها ووصايتها وقاوم العرب الفلسطينيون فكرة الدولة الصهيونية وخضبوا الارض المقدسة بدمائهم واعلنوا الثورات العديدة

ولكن الحراب الانكليزية او حراب الانتداب البريطاني على فلسطين سدت في وجوههم المنافذ وظلت فلسطين ميداناً للاضطرابات حتى انسحبت انكلترا منها وافسحت المجال امام القوى اليهودية ان تحتل حيفا وغيرها من المدن وتنشىء دولة اسرائيل .

وارسل الفلسطينيون وفداً منهم الى لندن للاتصال بالحكومة البريطانية عام ١٩٣٠ للاعراب عن امانيهم فكانوا دائماً يتعثرون بالفشل والخيبة من جراء النفوذ الصهيوني في انكلترا، وحاولت بريطانيا ان توفق بين العرب واليهود عام ١٩٢٩ اثر الاضطرابات الفظيعة التي عمت فلسطين من اقصاها الى اقصاها فارسلت لجنة برلمانية برئاسة « والترشو » فجابت البلاد ودرست احوالها الاقتصادية واشارت في تقريرها ان فلسطين فقيرة لا يمكنها ان تستوعب كل المهاجرين اليهود الذين يتدفقون عليها دون ان تعمد بريطانيا الى تغيير جوهري في اساليب الزراعة والمؤسف ان الاهلين كانوا يقعون صرعى امام الاموال اليهودية فيبيعون اراضيهم ويتخلون عنها امام الاغراء الشديد وكان العربي يبيع ارضه ويبدد امواله وقدنسي او تناسى ان من لا ارض له يحنو عليها لا وطن له على الاطلاق والمؤسف ايضاً ان الانتداب كان يشجع بيع الاراضي العربية لليهود ، وللانتداب قصة يجب ان نقصها .

•

الدستور الفلسطيني يقوم على انشاء الوطن القومي اليهودي

منحت عصبة الامم انكلترا الانتداب على فلسطين لتسهر على مصالحها وتكفل لها الامن والحرية والعمران وكان اول مندوب سام لبريطانيا في فلسطين السر هربرت صموئيل وهو زعيم كبير من زعماء الصهيونيين وقد اعلنت الحكومة الجديدة برئاسته في اليوم الاول من تموز عام ١٩٢٠ وصرح ببلاغ رسمي انه سينفذ واجبات الانتداب دون محاباة وانه عازم على احترام حقوق العناصر والمذاهب

كلها وانه سيتخذ كل التدابير والخطوات التي تضمن انشاء وطن قومي لليهـــود دون ان تنقص من حقوق اهل فلسطين المدنية والدينية لاعتقاده ان هذه البلاد هي موضع اهتمام المسيحيين والمسلمين واليهود في جميع انحاء العـــالم على السواء ، وكانت حكومة فلسطين اول امرها تتصل بلندن مباشرة وكان موظفوها الكبار من البريطانيين وقد احتل هؤلاء بالفعل كل المناصب الرفيعة . اما المناصب الدنيا فابيحت للفلسطينيين من يهود وعرب .

والحق يقال ان الحكومة الفلسطينية انشئت على الاستقامة فكان اول شروط استخدامها للشباب والخلق القويم والاحدوثة الطيبة ووفقت بعدد من الشباب الذي لا يرتشي وينفذ القانون على الكبير والصغير والشريف والحقير فتقدمت فلسطين من هذه الناحية شوطاً لا بأس به وفاقت بحسن النظام بقية البلاد العربية .

وعين المندوب السامي عند تأسيسه لحكومة فلسطين (مجلساً للشورى) فكانت اكثريته من موظفي الحكومة واصحاب المناصب العليا وضم اليه عشرة مـــن الوجهاء يمثلون الطوائف المختلفة

وكان يجتمع هذا المجلس برئاسة المندوب السامي نفسه وتعرض عليه الميزانية السنوية ومشروعات القوانين والضرائب ليبـدي رأيه فيها ويناقشها ويسأل ما يشاء من الاسئلة او التفسيرات بشأنها وكانت انكلترا تعتقد ان هذه الخطوة في تأسيس مجلس الشورى هي من الخطوات الرشيدة نحو الحكم الذاتي .

واهتمت الحكومة الفلسطينية عند تأليفها بانشاء لجنة يرأسها بريطاني ويثق بها المسلمون والنصارى واليهود لحسم كل المنـــازعات بشأن الاملاك والاراضي الزراعية فيصان بذلك العمران وتشجع الزراعة وتخفق راية الامـــن في طول البلاد وعرضها .

واستلمت الحكومة الفلسطينية ادارة سكك الحديد وشرعت في اصلاحـها لانها كانت هدفاً للسيول ابان فصل الشتاء ومدت خطوط البرق والبريـد وشقت الطرق واخذت تنشر النور الكهربائي وتجفف المستنقعات وتغرس الغـــابات ووضعت نصب عينيها انشاء مرفأ حيفا وقد نجحت في بنائه حتى كاد يزاحم مرفأ

بيروت فاصبحت تـؤمه السفن التجارية الكبيرة ذات الحمولة الضخمة ثم كانت تشحن منه البضائع ترانزيت الى العراق وفارس وامارات الخليج .

ونشرت حكومة فلسطين بعد ان فرض انتداب بريطانيا على الديار المقدسة دستورها ويقوم على تنفيذ وعد بلفور وانشاء الوطن القومي اليهودي الصهيوني . وكان ذلك في شهر آب عام ١٩٢٥ وكان هذا الدستور يمنح المندوب السامي كل السلطات لتنفيذ الانتداب وتقسيم البلاد الى مقاطعات ادارية وجميع الحقوق للتصرف في الاراضي العامة واستثمار المعادن والمناجم على اختلاف انواعها واعطاء الامتيازات الشرعية للشركات في استخراجها وهو الذي يحق له ان يعين موظفي الحكومة .

والغى الدستور الفلسطيني مجلس الشورى او المجلس الاستشاري واستعاض عنه بالمجلس التشريعي وكانت لهذا المجلس السلطة التامة لسن القوانين اللازمـــة للامن والسلام الا انه يمنع عليـــه منعاً باتاً ان يشرع قانوناً يمس الحرية الشخصية او يقيد الحرية الدينية او يميز بين سكان فلسطين بسبب الجنس والدين واللغة وكانت لا تنفذ هذه القوانين التي يسنها هذا المجلس التشريعي الا اذا صادق عليها المندوب السامي واقرتها حكومة جلالة الملك . ويتألف المجلس التشريعي من ٢٢ عضواً منهم عشرة من الموظفين واثنا عشر من غير الموظفين ويرأس مجلسهم المندوب السامي .

واقر الدستور الفلسطيني انشاء محاكم صلح في كل قضاء وناحية كما انه اباح انشاء المحاكم المركزية في بعض الاقضية ويحق لها النظر بجميع القضايا الحقوقية الخارجة عن اختصاص محاكم الصلح كذلك انشأ محكمة للجنايات لها الصلاحيات التامة في جميع الجرائم . وامر الدستور ان تؤسس محكمة تعرف بالمحكمة العليا ويكون لها صفة المحاكم الاستئنائية ، اما المحاكم الشرعية الاسلامية التي لها الحق في رؤية الدعاوى المتعلقة بالاحوال الشخصية الخاصة بالمسلمين كالزواج والطلاق والنفقة وتصديق الوصاية كذلك المحاكم اليهودية الدينية والمحاكم المسيحية الدينية فلم يتعرض لهـــا الدستور بشيء ولم يلغ صلاحياتها .

ويقول الدستور انه يجب ان تنشر باللغة الانكليزية والعربية والعبرية جميع القوانين والاعلانات الرسمية . ويجوز استعمال هذه اللغات الثلاث في المناقشات التي تدور في المجلس التشريعي وفي دواوين الحكومة ومحاكمها .

وبعبارة مختصرة فان الدستور الفلسطيني اعترف لكل طائفة دينية بالاستقلال الذاتي لادارة شؤونها الداخلية .

•

قصة سوريا الكبرى

الملك عبد الله رجل عاقل لا تغره الظواهر وقد أفاد جداً من مصاحبته لساسة الانكليز ولدهاقينهم في الادارة وتوصل الى معرفة المحور الذي تقوم عليه السياسة البريطانية في معظم الامور وهذا المحور هو القوة اولا وأخيراً . قال عبد الله : « إن انكلترا لا تقيم لأحد وزناً إن لم يكن كفواً وانكلترا لا تصاحب الكذوب ولا الجبان ولا النوام ، وانكلترا لا تبني سياستها على العاطفة ولا على ما قدم لها من مساعدة في حلف أو حرب ما . إن انكلترا امة المثابرة والدوام ، تحترم القوي وتحب أن تضمه اليها ، وتكره التخاذل وتبتعد عنه فكونوا - ايها العرب - أقوياء حذرين اوفياء يقظين تكن معكم انكلترا وتوليكم اعتمادها »

والحق أن بريطانيا تتبع في سياستها ما نسميه بالطريقة العملية فاذا برز لها زعيم واقعي نشيط يحترم نفسه تراجعت أمامه واحترمته . وإذا قدر لها أن تقف امام زعيم جبان يكترث لمصالحه قبل أن يكترث لمصالح امته بسمت له بسمة صفراء ثم حفرت له حفرة ارقدته فيها الى الابد . وقد حاولت انكلترا أن تجد لها مخرجاً في القضية الفلسطينية يكون نوعاً ما في صالح العرب تجاه الضغط الصهيوني القوي مؤخراً فلم تجد أمامها سوى زعماء مستضعفين يناوىء بعضهم بعضاً ويحاولون ان يجروا المغانم لانفسهم ولو على الجثث المهشمة فكان ما كان من حلول الكارثة في الديار المقدسة وتشريد ما يقرب من نصف مليون عربي قضى

الكثير منهم ضحية البرد والجوع والمرض والخوف .

ولم يقبل عبد الله العرش الاردني إلا « ليعمل بالحسنى » للوحدة السورية وقد استمع الى نصائح المستر تشرشل بهذا المعنى حينما طلب اليه أن يرشح الامير فيصل للعرش العراقي ويعمل جاهداً في سبيل سوريا الكبرى والتاج السوري فقبل التبعات في شرقي الاردن ليؤلف بين الاجزاء السورية فيما بعد ويعتقد عبد الله أن سوريا وفلسطين يجب ان تشملها وحدة أو « اتحاد تعاهدي » وفق ما جاء في المؤتمر السوري الذي عقد في الثاني من تموز عام ١٩١٩ وهذا « الاتحاد التعاهدي » يبقي على الحكومات الاقليمية كما هي ويضعها في امور تعمل لربط أجزائها بعضها ببعض تحت رئاسة واحدة ، ثم ان الجامعة العربية المرتكزة اليوم على مصر والعراق تكون واهنة ان لم تتحد البلاد الشامية وتصبح - سوريا الكبرى - امراً واقعاً فلا يكون فيها تشتيت محلي لنتمكن من السير مع مصر والعراق في مضمار السياسة العربية .

ومن الواضح ان صالح مصر والعراق يقضي على المسؤولين فيهما ان يعالجوا الوحدة السورية باخلاص لتتمكن هذه الدول العربية الثلاث من حفظ السلام في هذه البقعة من المشرق بحسب الميثاق الاطلسي ، والملك عبد الله رأي خاص في لبنان فهو يترك له الحرية في الوحدة مع سوريا الكبرى ولا يمانعه من ان يحتفظ بطراز الحكومة التي يريدها ولكن حدود « لبنان الكبير » أو بعبارة اخرى « الجمهورية اللبنانية » موضوع بحث لانها من جملة الحقوق السورية التي لا ينبغي اغفالها ، وهو يزعم هذا الزعم لان لسوريا حقوقاً في الاقضية الاربعة التي الحقت بلبنان ويعتقد السوريون انها فصلت عن سوريا الوطن الام والحقت بالجمهورية اللبنانية إرضاء للشهوة الفرنسية في توسيع لبنان وإرضاء للمتطرفين اللبنانيين .

ولم تمزق الوحدة العربية بعد الحرب الكونية الاولى الا بسبب سياسة الانتداب الذي اقرته جمعية الامم ، ثم لم تمزق بعد الحرب الكونية الثانية الا بسبب الاطماع التي لعبت في رؤوس بعض زعماء البلاد العربية فقد واصلوا سياسة الانتداب التي تقول بالتفرقة ليحتفظوا بمراكزهم الزائلة وبالقابهم الهزيلة وتناسوا ان الشعوب

العربية باقية وانه من الواجب أن تحيا حياة سياسية واقتصادية مستقرة لتتمكن من السير في ركاب المدنية .

ولو رجعنا الى مبادىء الثورة العربية الاولى التي اشعلها شريف مكة الحسين ابن علي لوجدنا ان الشرط الاساسي فيها مع بريطانيا هو «تحرير الامة العربية كلها» من النير التركي ما عدا الامارات العربية التي لها صلات وثيقة مع حكومة الهند امثال امارة آل سعود في نجد وامارة الكويت وامارة البحرين وسلطنة مسقط وعمان وسلطنة حضرموت ولحج ومستعمرة عدن والنواحي الست والساحل الغربي من ولاية الشام ونعني به لبنان وقد تقرر ان تكون له الحرية التامة في مستقبله وكان ذلك بايعاز من فرنسا .

وهكذا بنيت الثورة العربية على اساس ايجاد دولة عربية واحدة لها هدف واحد وحكومة واحدة ورأس واحد من الهاشميين ولم تبن على اساس التفرقة وخلق الدويلات والرؤساء واطماع الرؤساء .

وكان بوسع الدولة العربية الموحدة ان تضم متصرفية فلسطين وولاية حلب وولاية دمشق وولاية بيروت وولايات بغداد والموصل والبصرة والحجاز من المملكة العثمانية . ويمكنك ان تفكر اية دولة قوية كانت هذه الدولة العربية بجيوشها ورجالها وثرواتها وخيراتها التي لا تنضب واية مساعدة كان بامكانها ان تقدم للديمقراطية في العالم لو ساعدتها هذه الديمقراطيات ان تقف على رجليها .

جمال باشا السفاح

اذا ذكر اسم جمال باشا أمام أي سوري او لبناني اهتز ألماً وحقداً ونعته حالاً « بالسفاح » ذلك لأن هذا الحاكم التركي والقائد العسكري الذي خضعت له البلاد العربية من القنال حتى الحجاز ابان الحرب العالمية الاولى كان مسؤولاً عن اعدام فئة مثقفة من رجالات العرب.


جمال باشا

ويعزى الى جمال باشا كثير من اعمال العنف والتعذيب والقتل والغطرسة البشعة

اما جمال باشا فيدافع عن سياسته بقوله ان الدولة العثمانية دولة الخلافة كانت مشتبكة في حرب حياة او فناء مع اعدائها الحلفاء وانه علق من علق على المشانق وقاتل من قاتل من العرب بزعامة الشريف حسين وأولاده الذين انضموا الى انكلترا لئلا تنشطر الدولة العلية الى شطرين شطر عربي وشطر تركي ينبري كل منهما لسفك دم الآخر. وهو يردد انه اتخذ كل التدابير القوية لكبح جماح المتمردين من العرب الذين غرر بهم المال حسب زعمه لانه لا يجوز في عرفه ان تطعن الدولة العلية في ظهرها واعداؤها يضيقون عليها الخناق ليقضوا عليها القضاء المبرم بل كان من الواجب على الزعماء العرب وعلى رأسهم الشريف حسين ان يتريثوا حتى تضع الحرب اوزارها ويتقدموا بمطالبهم الاصلاحية وشروطهم الاستقلالية.

ثم يذهب جمال في دعواه ان الشريف حسين هو المسؤول عن تمزيق الوحدة الاسلامية والقاء البلاد العربية غنيمة باردة في ايدي المستعمرين من البريطانيين والفرنسيين ، ولكن جمال يتغافل في زعمه عن النهضة العربية التي اخذت تتسع منذ اوائل القرن التاسع عشر والتي قاد خطواتها بسرعة محمد علي باشا وابراهيم باشا القائد الباسل ابنه وغيرهما من الكتاب ورجال الاصلاح السوريين واللبنانيين .

ويقول جمال باشا انه لو سلمنا جدلا بوجاهة المطالب العربية الاصلاحية والاستقلالية وان الحكم التركي العثماني كله مساوىء فهل يجوز للشريف حسين ان يعتقد ان الدولة العثمانية المستقلة ذات السيادة ترضى ان تسلم بشروطه دون مفاوضة معقولة ، وهل تكون المفاوضات المعقولة ابان حرب طاحنة قرر الحلفاء فيها محو تركيا من الخريطة العالمية .

ثم لو سلمت تركيا بمطالب الشريف حسين واعطت الشريف حسين الحجاز واعلنت استقلاله في هذا القطر فما هي الضمانات التي لا تجعل الولايات العثمانية الاخرى امثال ارمينيا والعراق وسوريا ان لا تنهج منهج الحجاز وتطلب بدورها الاستقلال والانفصال عن الامبراطورية العثمانية .

والحق ان الشريف حسين وهو الزعيم الاكبر للنهضة العربية كان متأكداً في قرارة نفسه ان تركيا بانضمامها الى المحور كانت تراهن على الجواد الخاسر وانه لم يبق امامه الا ان يلم شعث العرب وينال لهم من الحلفاء اكثر ما يمكن ان يناله رجل لبلاده من دول سيخفق النصر على الويتها عاجلا ام آجلا فأعلن ثورته العربية وانضم الى انكلترا .

اما ما يأخذونه على الشريف حسين انه لم يحقق للعرب امانيهم وانه هو المسؤول عما اصابهم من ارزاء ومصائب واحزان وانه لم يتخلص من النير التركي الا ليقع تحت نير اشد وادهى فهذا ضرب من الاوهام لان الاستقلال يؤخذ ولا يعطى ولان العوامل الدولية والاستعداد العربي الضعيف للاستقلال والتضحية من اجل الاستقلال ، كل هذه العوامل حالت دون نيل العرب اهدافهم بسرعة .

اما ادعاء جمال باشا ان الشريف حسين شق عصا الاسلام فهذا كلام براق لان

بيضة الاسلام في عهد الدولة العثمانية الاخيرة كانت مهترئة من الجهل والفقر والمرض والخذلان وموجة التتريك المتعصبة التي قال بها رجال الاتحاد والترقي .

وما كان الشريف حسين الا زعيما مغامراً لم ينل كل ما يرجوه ولكنه وضع اسس ما رجـاه من استقلال للعرب فاذا كان العرب امة جديرة بالاستقلال والسيادة برهنت على ذلك باتحادها وتضحياتها وتكتلها ضد الاستعمار ورجـال الاستعمار .

والحق ان تركيا كان محكوماً عليها بالاعدام منذ ان اعلنت انكلترا تحالفها مع روسيا ، ان انكلترا لم تعد لتتمشى على سياسة دزرائيلي وزيرها الاول الذي كان يتقرب من الدولة العثمانية بوصفها دولة الخلافة التي يرنو اليها المسلمون التابعون لبريطانيا بعين الحب والاحترام ولم تعد لتتقرب اليها لانها هي الدولة الوحيدة التي يمكن لانكلترا ان تعتمد عليها في جنوب شرقي اوروبا ضد مطامع الدب الروسي ، الذي طالما ود ان يجد له منفذا الى البحر الابيض المتوسط لقد انتهت صفحة حرب القرم التي وقفت انكلترا بجانبه الى تركيا لتقلم اظافر روسيا ولتمنعها من التطلع الى الهند والبحر الابيض المتوسط وبدأت صفحة بريطانية جديدة بدأها المستر غلادستون زعيم الاحرار والتي اعلنت بصراحة طرد الاتراك من اوروبا مهـما كانت النتائج ومهما كان الثمن ثم ابتلاع تركيا في آسيا وافريقيا .

وقد بدأت سلسلة من الاعتداءات على الدولة العثمانية فاستولت انكلترا على قبرص شرط ان تحافظ عـلى سلامة الامبراطورية التركية وانقضت ايطاليـا على طرابلس الغرب واحتلتها وحاربت الدول البلقانية الصغيرة «الرجل المريض» ووسعت حدودها ودافع لويد جورج عن انتصار دول البلقان بقوله المشهور : ان الحرية ينبغي توسيع حدودها . ثم حبست انكلترا عن تركيا البارجتين «السلطان عثمان» و «رشادية» بعد ان ابتاعتهما من مصانعها وهكذا شعر الاتراك انهم مسوقون بمثل هذه السياسة الى التحالف مع المحور سوقاً وهكذا مشوا معهم في الحرب العالمية الاولى فهل يلام الشريف حسين اذا اراد ان يغامر ويعلن الثورة على الترك لانقاذ العرب وانقاذ ما يمكن انقاذه من شر الاستعمار ؟

يقول جمال باشا في مذكراته ان اساطين جمعية الاتحاد والترقي التي كانت تحكم تركيا قبل الحرب العالمية قلبوا « القضية العربية » على سائر وجوهها وحاولوا التفاهم مع الشبيبة العربية وانه شخصياً كان من اكبر انصار التفاهم التركي العربي حفظاً على الوحدة العثمانية والاسلامية في الوطن ولكن الاصلاحيين السوريين واللبنانيين في عهد وزارة كامل باشا تمكنوا من عقد مؤتمر لهم في بيروت بتصريح من الوالي ادهم بك. واني وايم الحق لاذكر هاتيك الايام واذكر حماس الشباب البيروتي وكلهم ينتسب الى الاسر المعروفة واندفاعاته في تأييد حزب الائتلاف وكراهيته لحزب الاتحاد والترقي بل اني لاكاد اراهم مجتمعين في ناد لهم بباب ادريس وقد اخذ الحماس منهم مأخذه ولا احسبني مخطئاً اذا ذكرت انهم تمكنوا مرة من اقفال اسواق بيروت اظهاراً لعاطفتهم في تأييد مطالبهم الاصلاحية، والحقيقة ان الدعاية الفرنسية كانت تلعب لعبتها بين صفوفهم يومئذ، ولما تولت وزارة محمود شوكت باشا - وهو عربي بغدادي - مقاليد الحكم في الاستانة اصدرت منشوراً اكدت فيه ان للبرلمان العثماني وحده حق التشريع وان ليس لمؤتمر بيروت أن يضع قواعد الاصلاح الداخلي ولهذا لا يمكنها النظر في الامور التي قررها واني لاستطيع أن اذكر ان دعوة الاصلاحيين في بيروت ودمشق أخذت تشتد وتنمو حتى إن هيبة الحكومة العثمانية تدهورت الى الحضيض ويعرف المتقدمون في العمر انه وصلت الجرأة ببعضهم أن يكتب اسم الوالي - حازم بك - في بطاقة ويعلقها في رقاب الكلاب، وحازم بك كان والي بيروت وقد وصلت افضال القبضايات اليه بهذه الوسائل ... أما في دمشق فان الشباب المتعلم طرد مرة سكرتير الولاية العام في عهد الوالي عارف بك المارديني بحجة انه لا يفهم العرائض المكتوبة باللغة العربية وانبرت الصحافة اللبنانية السورية تحمل حملات صادقة على الحكم العثماني وتطالب بالاصلاح وكان بعض هذه الصحافة صادقاً في حملته وبعضه مأجوراً يتناول الاعانات السرية من فرنسا ليخدم مقاصدها في

سوريا ولبنان .

وطلب الاصلاحيون عقد مؤتمر لهم على الارض العثمانية فرفضت تركيا طلبهم فاضطروا بتشجيع فرنسا ان يعقدوا هذا المؤتمر في باريس وأذاعوا المناشير في طول البلاد العربية وعرضها يؤكدون فيها وجوب حضور هذا المؤتمر وارسال المندوبين اليه ولعلي لا أكون مخطئاً إذا قلت ان مندوبي بيروت الى هذا المؤتمر كان المغفور لهم السادة : احمد مختار بيهم وسليم علي سلام وأحمد حسن طباره « صاحب الاتحاد العثماني » وكان يوم وداعهم وسفرهم من بيروت الى باريس يوماً مشهوداً !

وكان من اكبر الدعاة الى عقد هذا المؤتمر السيد عبد الحميد الزهراوي وهو عين من عيون حمص والكاتب الصحفي القدير السيد عبد الغني العريسي « صاحب جريدة المفيد البيروتية » والسيد عبدالكريم الخليل رئيس النادي الادبي في الاستانة ومن ضاحية الشياح في بيروت.

وحاولت الحكومة التركية الاتحادية أن تقابل رجال المؤتمر في باريس وأن تتفاهم واياهم حول الاصلاحات الممكنة دون أن تفسح المجال للدعاوة الاجنبية في بذر بذور التفرقة بين العنصرين التركي والعربي مادة الدولة العثمانية فاوفدت أحد رجالها مدحت شكري بك فاتصل ببعضهم وتفهم مطالبهم ولكن رجال العرب الذين عقدوا المؤتمر لم تكن أهدافهم موحدة فبعضهم كان يريد فرنسا في لبنان ، وهذا في نظرهم خير من الاستقلال وكان البعض الآخر يتمنى ان يظل متمسكا بالوحدة العثمانية شرط أن ينال الاصلاحات الضرورية للبلاد العربية ، والحقيقة الناصعة التي لا مراء فيها ان العرب كانوا لا يعرفون ماذا يريدون وان الدعاوة الفرنسية نجحت في تفريقهم شيعاً .

وأراد الشيخ عبدالعزيز الشاويش أن يجتمع الشباب العرب والاتراك في داره بالاستانة ليتفاهموا على خير الطرق الاصلاحية ضناً بسلامة الوطن العثماني فاجتمع طلعت باشا وجمال باشا الى عبدالكريم الخليل على مأدبة الشيخ عبدالعزيز الشاويش ويصف جمال باشا عبد الكريم الخليل بقوله : « شاب لا يزيد عمره على الثلاثين عاماً قصير القامة أسمر اللون ذو عينين واسعتين براقتين تدلان على الذكاء والاقدام »

وتفاهم طلعت وجمال مع عبد الكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوي على مشروع اصلاحي حاز قبول المعتدلين من الاصلاحيين وهذه بنوده :

البند الاول – تسليم الاعمـــال الادارية الى العرب تنفيذاً للقانون الخاص بادارة الولايات .

البند الثاني – يكون التعليم الابتدائي والثانوي في سوريا باللغة العربية .

البند الثالث – تستعمل اللغة العربية في بعض اجراءات قانونية معينة .

البند الرابع – تضاف اللغةُ العربية لاعلانات الحضور للمحاكم كما تضاف الى الاحكام المدنية والجزائية .

البند الخامس – تكون العرائض المقدمة للسلطات الرسمية باللغة العربية .

البند السادس – يعين العرب في مجلس الاعيـــان ومجلس الدولة ومحكمة الاستئناف ومشيخة الاسلام ودار الافتاء .

وبالفعل تبنت الحكومة التركية الاتحادية هذا المشروع الاصلاحي غير انها لم تنفذه حرفياً في الولايات العربية، ولكن طموح بعض رجالات العرب الى مناصب معينة والدعاوة الاجنبية فرقت بين العنصرين العربي والتركي وكان ما كان من مأساة سوريا وثورة الحسين .

•

عزيز علي المصري يطالب بالحكم الثنائي بين العرب والترك

مشى الاستاذ عبدالحميد الزهراوي والسيد عبدالكريم الخليل خطوات طيبة في سبيل التوفيق بين العنصرين العربي والتركي حينما اقرا مشروع الاصلاح في الولايات العربية الذي تبنته الحكومة العثمانية .

وقد اصبح للاستاذ الزهراوي وللسيد الخليل بعدذاك مكانة طيبة عند الاتراك



عزيز المصري باشا



انور باشا

حتى ان الخليل كانوا يلقبونه - بالمفتش العام للجمعية اللامركزية السورية - واما الزهراوي فقد عرضت عليه تركيا ان يكون عضواً في مجلس الاعيان ولكنه رفض لانه كان يرجو ان يتبوأ منصب شيخ الاسلام .

ويظهر ان الشبيبة العربية لم تكن متكاتفة ولا متحدة في مطالبها فثار ثائر بعضهم على مشروع الاصلاح الذي قام به الزهراوي والخليل وكان على رأسهم البكباشي عزيز علي بك المصري . وقد ساء عزيز علي وهو العسكري الطموح ان يفوق نفوذ الزهراوي والخليل نفوذه في الاستانة فاعلن في صراحة مابعدها صراحة ان العرب لايقنعون بمشروع الاصلاح الذي اقرته الحكومة التركية بل يطالبون باستقلالهم الداخلي وان تكون الحكومة ثنائية بين العرب والترك كما هي ثنائية

بين النمسا والمجر وان يكون للعرب جيشهم الخاص وان تكون لغة هذا الجيش الرسمية اللغة العربية ثم ابدى رأيه الخاص بقوله : ان حصول الزهراوي والخليل على بعض المناصب السامية لقاء بعض اصلاحات تافهة فهذا يعني الخيانة ولسوف يجزى كل منهما الجزاء العادل . والغريب ان هذا الموقف الذي وقفه العرب امام الاتراك موقف التنابذ والاختلاف جعل الاتراك فيما بعد يستهزءون بهم ويضربونهم ضربتهم المشؤومة حينما قدروا عليهم اثناء الحرب العالمية الاولى .

وتخرج عزيز علي المصري من المدرسة الحربية بالاستانة عام ١٩٠٤ . وهو رفيق انور باشا وزميله في الصف وكان من اشد المتحمسين للانقلاب التركي ضد الاستبداد ومن اكبر انصار جمعية الاتحاد والترقي واشتهر في مطاردة العصابات البلقانية في مقدونيا . ولمع اسمه في طرابلس الغرب ودافع دفاعاً مجيداً مع انور باشا عن مدينة بنغازي .

وقد تأثر عزيز علي المصري ان يرى رفاقه الاتراك الذين تخرج واياهم من مدرسة واحدة والذين لايفوقونه في النبوغ العسكري يرقون المناصب العالية وهو مايزال «بكباشياً» بسيطاً في هيئة اركان الحرب .

ولنضرب على ذلك الامثال فان انورباشا عين وزيراً للحربية وغيره من الشباب التركي تقلدوا قيادة الفيالق فهاجه ان يغمر وان يشعر بانه مظلوم لانه عربي ، وتبادل مرة عزيز علي الآراء مع جمال باشا حول القضية السورية وما قد تجره من نتائج سيئة بالوحدة العثمانية وسلطة الخلافة فقال عزيز علي لجمال باشا بكبرياء .

«ان العرب لعلى حق فماذا صنعتم للعرب سوى سعيكم لافنائهم واهانتهم واحتقارهم حتى تنتظروا الود من جانبنا» .

فاجابه جمال باشا :

«ان الاتراك وعلى الاخص اتراك الاناضول ينظرون بعين الاكبار الى العرب وانه لايجوز ان يتأثر بامور شخصية لان الامر يصبح اذ ذاك فوضى وفي هذا كل الخطر على العرب والاتراك سواء بسواء .»

ونادى عزيز علي بالثورة على الاتحاديين في كل مكان وشاغب على انور باشا بصورة خاصة حتى اضطر هذا الاخير ان يقبض عليه ويتهمه باختلاس ثلاثين الف ليرة عثمانية سلمه اياها انور باشا قبل مغادرته طرابلس الغرب وهي من اموال الحكومة . والحقيقة ان عزيز علي صرفها على الجيش العثماني الذي اوكل اليه الدفاع عن طرابلس .

وكان لنبأ القبض على عزيز علي المصري والحكم باعدامه ضجة واي ضجة لدى الشباب العربي بالاستانة وقد جاءت الوفود ومعظمها من اعضاء النادي العربي الى جمال باشا وكان وزير العدل تستنهض همته لاستبدال حكم الاعدام عليه بالسجن المؤبد . واعتقد جمال باشا بصحة مايقولون لانه لايجوز لمجرد التشاحن واختلاف الرأي بين انور باشا وعزيز علي ان تعمل الاهواء عملها ويتهم شاب باختلاس اموال الدولة وهو منها بريء فيجر الى الاعدام ولذا سعى جمال باشا سعيه واستطاع انقاذ عزيز علي من الموت .

وكان مجرد الحكم عليه كافيا للقول بان في تركيا المقام الثاني للقانون امام الأهواء والغايات الشخصية .

وخسر انور باشا كثيراً من شعبيته عند العرب كما ان الهوة اصبحت سحيقة بين الترك والعرب بعد الحكم على عزيز علي واصطادت الدعاوة الاجنبية في الماء العكر فباعدت بين العنصرين وفتحت بينهما ثغرة استغلها الحلفاء ابان الحرب العالمية الاولى استغلالا طيباً .

وهكذا نجد ان جمال باشا الذي علق مثقفي واحرار السوريين واللبنانيين على المشانق كان يحاول قبل الحرب ان يقرب بين وجهات النظر التركية والعربية .

●

تركيا تبذل المستحيل لتقف بجانب انكلترا وفرنسا

سيقت تركيا الاتحادية الى الوقوف بجانب المانيا سوقاً خلال الحرب العالمية الاولى فقد حاول بعض الاقطاب من حكامها ان ينضموا الى الحلفاء ولكن هؤلاء اشترطوا لهذا الانضمام ثمناً غالياً ، ولسنا هنا في معرض التاريخ العثماني من الناحية الاوروبية الا انه يمكننا ان نقول ان الامبراطورية التركية كانت الثمرة الشهية او الغنيمة الباردة التي كان يسيل لعاب اوروبا من اجلها، ولسنا نذيع سراً اذا ذكرنا ان تركيا ارسلت احد اقطابها في عهد وزارة شوكت باشا الى لندن وهو الديبلوماسي المعروف حقي باشا لتسوية معضلات خليج البصره والمناطق السبع المختلف عليها بين اليمن العثمانية وعدن فعاد بخفي حنين وفي الوقت عينه ارسلت جاويدبك الى باريس ليعقد قرضاً مع فرنسا تثبت به تركيا قدمها في الاصلاح الداخلي والخارجي ففشل فشلاذريعاً. وغالت فرنسا في الثمن حتى انها اشترطت



جاويد بك

شروطاً اقل ما يقال فيها ان دولة مستقلة ذات سيادة لا تقبلها فقد طلبت :

اولا — ان لاتنشيء ادارة السكة الحديدية الحجازية خطوطاً جديدة في سوريا وفلسطين

ثانياً — ان تقف ادارة السكة الحجازية عن انشاء الخط من افوليح القدس وهو التابع لخط حيفا — درعا

ثالثاً — ان تمنح فرنسا امتياز سكة حديد عريضة من نابلس فيافا فالقدس

رابعاً — ان يعطى لفرنسا امتيازسكة حديد عريضة يكون احد طرفيها محطة

رياق - على خط دمشق حماه - والطرف الثاني محطة افوليح ويمر هذا الخط بشواطىء بحيرتي الحولة وطبرية

خامساً - لا يحق للحكومـــة العثمانية ان تقبل على خط حيفا - درعا اجوراً قد تزاحم الاجور على خط بيروت دمشق - حوران

سادساً - ان يبقى امتياز انشاء اي خط وشرقي دمشق - المدينة رياق حلب، لفرنسا وحدها دون غيرها

سابعاً - ان امتياز توسيع المرافىء السورية اللبنانية وهي حيفا ويافا وطرابلس هي من حق الرأسماليين الفرنسيين

ثامناً - تعفى كل الضيـــاع والمباني والممتلكات التابعة للمدارس والاديرة والارساليات الفرنسية في المملكة العثمانية من كافة انواع الضرائب

تاسعاً - تشتري تركيا سلاحها من فرنسا وهي المفضلة على غيرها من الدول

عاشراً - تستوفي فرنسا فائدة قدرها تسعة بالمائة عـــلى القرض الذي تستدينه تركيا منها ويدفع لفرنسا على قسطين .

وهكذا نرى ان بعض الدبلوماسيين الاتراك وعلى رأسهم جمال باشا ارادوا ان يتقربوا من انكلترا وفرنسا فرفضت كل من الحكومتين الانكليزية والفرنسية التقرب واشترطوا لذلك شروطاً صعبة فاضطرت تركيا امام الوعود الالمانية المغرية ان ترتمي في حضن القيصر غليوم الثاني . ومع ذلك فان تركيا تناولت قرضاً من فرنسا لانها كانت محتاجة الى المال في ذلك الوقت وبشروط جد قاسية .

ورغم كل الوسائل التي اجترحتها انكلترا لاحراج مركز تركيا الاتحـــادية وابعادها عنها فان الاتحاديين لم يعارضوا في طلب بريطانيا - بمد سكة حديد بغداد البصرة ولا في الامتيازات التي ارادوها في انشاء طرق للملاحة في نهري الدجـلة والفرات وقد منحت الدولة العثمانية عدة شركات انكليزية الحق في التنقيب عن البترول في العراق وجاءت بخبراء بريطانيين لاصلاح وزارة الداخلية وتنظيم الجمارك والاسطول ، والحقيقة التي لاجدال فيها ان الحكومة التركية الاتحادية عملت بلا انقطاع بصورة رسمية وغير رسمية لتقوية اواصر التفاهم والصداقة بينها وبين انكلترا

وفرنسا .

وعهدت تركيا كما نذكر بتنظيم الجندرمة الى موظف فرنسي كما انها وسعت نفوذه وطلبت اليه ان ينظم الجندرمة ايضاً في جبل لبنان واستخدمت في وزارة الاشغال العامة عدداً كبيراً من المهندسين الفرنسيين وفي وزارة المالية بعض الخبراء ورأت تركيا ان تغرس في شبابها الموظفين روح الخدمة والشعور بالمسؤولية والواجب فجعلت رؤساءهم من هؤلاء الموظفين الاجانب القديرين واخيراً نجحت تركيا في انشاء « جمعية الصداقة التركية الفرنسية » وكانت تعقد هذه الجمعية جلساتها بالتعاقب في استانبول وباريس وكان يرأسها في الاستانة احمد جمال باشا .

وقد بلغت الرغبة في الحكومة الاتحادية التركية في اكتساب الصداقة البريطانية الفرنسية حتى انها كادت تعهد بتنظيم الجيش العثماني الى فرنسا لو كان ذلك ممكناً ولكنه كان في الواقع مستحيلاً لان معظم الضباط الاتراك كانوا قد اتموا تعليمهم في المانيا وتمرنوا حسب الاساليب العسكرية الالمانية . ولان المانيا كانت قد ارسلت بعثة « فون ساندرس » لتنظيم الجيش .

شاءت تركيا ان تكون الى جانب انكلترا وفرنسا بخاصة ولكن اطماع روسيا وقفت حائلة دون ذلك فاستفادت المانيا من هذه الفرصة واكتسبت الديبلوماسية التركية الى صفها .

•

كانت روسيا العدوة الازلية للامبراطورية العثمانية

مسكينة الدولة العثمانية فانها خرجت من الحرب الايطالية في طرابلس الغرب ومن الحروب البلقانية منهوكة القوى وقد خسرت تقريباً كل املاكها في اوروبا ما عدا بعض الجزر التي كانت موضوع نزاع بينها وبين اليونان .

وأرادت تركيا صادقة ان تبث روحاً جديدة في الامبراطورية وان تدمل

جروحها الدامية فحاولت التقرب من انكلترا وفرنسا بشتى الطرق ولكن جهودها ذهبت عبثاً ، وكان احمد جمال باشا يرى ان يبذل كل ما في وسعه للتقريب بين فرنسا وتركيا فاغتنم فرصة الدعوة التي قدمتها له الحكومة الفرنسية لزيارة اسطولها قبيل الحرب العالمية الاولى فبحث في باريس مع مدير الشؤون السياسية في وزارة الخارجية كل المعضلات التي تبعد بين الدولتين فخاض اول ما خاض معه « مسألة الجزر » في الارخبيل التي كانت تطمع بها اليونان وقال له بصراحة انه ما دامت غاية فرنسا وانكلترا تطويق دولتي الوسط - يعني المانيا والنمسا - بحلقة حديدية فعليها ان تضم تركيا اليهما لتسد أمام المانيا الجنوب الشرقي من هذه الحلقة وهذا يضطر بلغاريا حالا - لئلا تجد نفسها في عزلة - ان تتحد مع الحلفاء .

واقترح جمال باشا ان يكون هنالك تسوية لهذه الجزر وذلك بان يمنح الارخبيل بما فيه جزر الدوديكانيز - التي ينبغي أن تردها ايطاليا الى تركيا - استقلالاً داخلياً تحت السيادة العثمانية واعفاء سكانه من الخدمة العسكرية وتخصيص كل وارداته لميزانيته الخاصة ، فاعتذرت وزارة الخارجية الفرنسية عن الجواب وعن ابداء رأيها في تحالف تركيا مع انكلترا بحجة ان عليها ان تستشير حلفاءها في هذا الموضوع وهذا يعني رفضاً مقنعاً .

ولما يئست الحكومة التركية من التحالف مع انكلترا وفرنسا رأت نفسها مضطرة أن تقبل المعاهدة الالمانية التي عرضت عليها والمهم من كل هذا ان نستنتج الحقيقة الازلية وهي ان روسيا العدوة الاولى للامبراطورية العثمانية قد وافقتها كل من انكلترا وفرنسا الى ما تطمح اليه وهو الاستيلاء على الاستانة ، وكانت روسيا بعد معاهدة برلين قد ادركت ان الاستيلاء على استانبول اصبح مستحيلاً فحولت اطماعها الى الهند فسدت انكلترا الطريق امامها فولت وجهها الى الشرق الاقصى فكان لها اليابانيون بالمرصاد ولكن لما وافقها الساسة الفرنسيون على اكتساح تركيا مشت معهم في حلفهم المشهور .

وتغيرت السياسة الانكليزية تجاه روسيا قبيل الحرب العامة الاولى لأنها كانت تنظر بعين القلق الى مشاريع المانيا الاقتصادية في خليج البصرة ولان انكلترا

كانت تريد الاستيلاء فعلاً على العراق وفلسطين ووافقت فرنسا روسيا وانكلترا على تقسيم الامبراطورية العثمانية طالما اطلق كل منهما يدها في سوريا ولبنان .

أما المانيا فانها حباً بسلامتها قبل كل شيء رغبت في ان تكون تركيا حلقة كبيرة في سلسلتها التجارية وعندها ينكسر طوق الحلفاء الحديدي حيث جنوب المانيا الشرقي يتصل بالابواب التركية. ورغبت المانيا في محالفة تركيا على اساس تحالف الند للند والمساواة في الحقوق والواجبات .

وكانت اول مزية من مزايا المعاهدة الالمانية التركية هي ان الدول البلقانية الصغيرة لن تجترىء بعد اليوم على التدخل في شؤون الدولة العثمانية طالما هي تنتمي الى مثل هذا التحالف القوي وهذا يكفل لتركيا ان تعيش بأمن وسلام مدة من الزمن .

اما المزية الثانية فهي ان الحلفاء سيفكرون كثيراً قبل الاستيلاء على املاك الامبراطورية العثمانية لان هذا معناه نشوب حرب اوروبية عامة .

واما المزية الثالثة فهي ان المانيا وضعت تحت امرة الحكومة التركية كثيراً من علمائها الاخصائيين في سائر الفنون لعلها مع الوقت تتحرر من قيود الامتيازات ولا ريب في ان المانيا وقعت معاهدتها مع تركيا على اساس المساواة في الحقوق والواجبات لشعورها بتأهب خصومها لحرب فظيعة قد تدمرها .

وحينما اعلنت المانيا الحرب على روسيا في اول آب سنة ١٩١٤ بعد حادثة سيراجيفو ومقتل ولي عهد النمسا وجدت تركيا نفسها ملزمة بحكم المعاهدة الالمانية التركية ان تخوض المعركة الى جانب المانيا في الحال . ولكن تركيا لم تكن قد عبأت جيوشها ولم يكن لديها جندي واحد في الدردنيل او الاستانة او الحدود الروسية فلو هاجمتها روسيا لسقطت الامبراطورية العثمانيه تحت اقدامها ولهذا وقفت تركيا موقف الحياد التام وشرعت في التعبئة العامة وكان هذا بعد اقناع السفارة الالمانية في استانبول. وهكذا اضطرت الدولة العثمانية ان تخوض الحرب الى جانب المحور .

وعجل في دخول تركيا الحرب ضد الحلفاء مصادرة بريطانيا للمدرعتين العثمانيتين

الكبيرتين « سلطان عثمان » و«رشادية »وكانت كل من هاتين المدرعتين تبنى في الاحواض البريطانية والتجاء « جوبن » و « برسلو » وهما المدرعتان الالمانيتان اللتان كان يطاردهما الاسطول البريطاني في البحر المتوسط الى الدردنيل لنفاذ الفحم لديها .

وكان على تركيا تجاه التجاء هاتين الدارعتين الى مياهها إما أن تنزع منها السلاح وتعتقل رجالها لتبرهن عن حيادها وإما أن تأمرهما بالخروج حالاً ولكنها اعلنت شراءها لها . وكان هـــذا الشراء صورياً كما هو معروف وثابت وسميت احداهما « ياووز » والاخرى « مديلي » وخفقت عليهما الراية العثمانية .

●

الامبراطورية العثمانية تعلن الحرب على الحلفاء

قلنا ان تركيا الاتحادية ودت من صميم قلبها ان تحتفظ بصداقتها مع انكلترا وفرنسا ولكن هاتين الدولتين رفضتا رفضاً باتاً الدخول معها في المفاوضات ضناً بصداقة روسيا ومحالفتها لها على اساس تقسيم الامبراطورية العثمانية .

اما الآن وقد مال الاتراك الاتحاديون الى المانيا وأصبحت كل من غوبن وبرسلو من القطعات البحرية التركية في الدردنيل فان انكلترا خابرت تركيا رسمياً بشأن المطالب التي ترجوها الحكومة العثمانية لتحتفظ بحيادها التام الحقيقي الى نهـــاية الحرب فبحثت هذه المطالب مع سفير انكلترا في الاستانة السير لويس ماليت وهي الشروط الاساسية التي يمكن للاتراك بموجبها أن ينضموا الى الحلفاء وتتلخص فيما يلي :

أولا – الغاء الامتيازات الاجنبية كلها .

ثانياً – إعادة الجزر التي احتلتها اليونان أثناء الحرب البلقانية التركية .

ثالثاً – حل القضية المصرية .

رابعاً – التأكيد على روسيا أن لا تتدخل في شؤون تركيا الداخلية .

خامساً ـ المعونة البريطانية الفرنسية الفعلية فيما اذا هوجمت تركيا من قبل روسيا .

أما انكلترا فقد درست هذه الشروط بامعان وأجابت أنه لا يمكنها التفكير في الغاء الامتيازات القانونية وان كل ما تستطيعه انكلترا هو أن توافق بعد اجماع حلفائها على الغاء بعض الامتيازات المالية .

وأما مسألة الجزر التي تحتلها اليونان فيجدر بتركيا أن تؤجل هذه القضية الى انتهاء الحرب العالمية . كذلك المسألة المصرية فان حلها متعـذر لانه يفتح امام انكلترا أبواباً مغلقة ثم أكدت انكلترا أن روسيا لا تفكر مطلقاً في مهاجمة تركيا ومن الواجب على الحكومة التركية مقابل الغـاء بعض الامتيازات أن لاتغلق البواغيز في وجه السفن الروسية لاي سبب كان .

وهكذا نجد أن الحلفاء لم يودوا اشراك تركيا بالحرب الى جانبها لئلا تضيع من روسيا آخر فرصة لها في الاستيلاء على الاستانة انما كان يهمها أن تمنع تركيا من القيام بامور تضر بمصلحة الحلفاء حتى تنتهي الحرب وتفوز بالنصر النهائي من ثم ترضي المطامع الروسية باعطائها الاستانة وتمنح البلاد العربية استقلالاً داخلياً يسهل سقوطها تحت حمايتها أو وصايتها . ولهذا نرى الاتراك لم يتمكنوا من الوقوف على الحياد لانهم لو لزموه وأبقوا البواغيز مفتوحـة أمام روسيا لكان في ذلك فوز أعدى أعدائهم روسيا وهذا معناه القضاء المبرم عليهم .

ولما وصلت الانباء الى الاستانة ان الاساطيـل الروسية هاجمت الاسطول التركي في البحر الاسود ـ ومن ضمنه غوبن وبوسلود ـ ثم اضطر هذا الاسطول أن يطلق نيرانه على اوديسا وسباستبول تأكد لدى الحكومة التركية أن روسيا وانكلترا وفرنسا ستشهر الحرب عليها وهذا ما وقع فعلاً .

وعقد مجلس الوزراء التركي جلسة استثنائية طلب فيها الصدر الاعظم سعيد حليم باشا الى كل وزير أن يبدي رأيه بمنتهى الصراحة بشأن دخول تركيا الحرب أو عدم دخولها ، فتكلم سليمان افندي البستاني وكان وزيراً للزراعة والتجـارة فقال : « انه عضو في جمعية السلام الدولي وهو يعارض في اشعال نيران الحرب

وهذا يرى نفسه مضطراً الى الاستقالة »

وقال « اسكان افندي » وزير البرق والبريد : « انه يكره الحرب ويبغضها ولهذا لا يستطيع التوقيع على قرار توافق فيه الحكومة العثمانية على الاشتراك في الحرب » وقدم استقالته .

وشرع مجلس الوزراء بعدئذ في كتابة القرار الذي يبين فيه وجوب الدخول في الحرب الى جانب المانيا وقد عضدته الاغلبية الساحقة في مجلسي المبعوثان والاعيان ووقعه جلالة السلطان .

وهنا بدأت تركيا فعلاً تفكر في مهاجمة قناة السويس لترغم انكلترا على إبقاء قوات كبيرة في مصر ولتترك فيها عدداً طيباً من الفرق الهندية التي كانت ترسل الى الميدان الغربي لتحطيم الجيوش الالمانية وأرادت تركيا ايضاً بهذا العمل ان تتجنب ولو لمدة من الزمن الاحتشاد العسكري العظيم الذي كانت تفكر فيه انكلترا لاحتلال الدردنيل ولهذا رأى انور باشا ان خير من يعتمد عليه في هذه القضية هو جمال باشا وزير البحرية فاستدعاه الى منزله واناط به هذه المهمة واعلمه انه منذ هذه الدقيقة عين وزيراً للبحرية وقائداً للجيش الرابع وغادر جمال باشا محطة حيدر باشا في استانبول قاصداً سوريا في الواحد والعشرين من نوفمبر عام ١٩١٥ وقد جرت له فيها حفلة وداع وخطب فيها خطابه التاريخي الذي قال فيه : « انني أقدر تماماً عظم المهمة التي القيت علي ، فان لم ادرك ما ترجوه الدولة مني وصرت انا والرجال البواسل الذين معي جثثاً هامدة بالقرب من القناة فعلى الذين يحلون محلنا ان يسيروا فوق جثثنا لتحرير مصر وديعة الاسلام من ايدي الانكليز المغتصبين »

لم يكن جمال باشا غبياً حتى يصرح بمثل هذه التصريحات وهو يعرف احوال الدولة السياسية والعسكرية والروحية ولكن هي صرخة المستميت الذي يعلم تمام العلم ان اوروبا تتربص به الدوائر فأراد ان يدافع عن كيانه حتى النفس الاخير .

الحملة العثمانية على قناة السويس

قضى جمال باشا في سوريا ولبنان ثلاثة اعوام كاملة (من كانون الاول عام ١٩١٤) وقد اشتهر هذا القائد بحادثين كبيرين الاول حملته على قناة السويس التي باءت بالفشل والثاني اعدامه لخيرة الشباب السوري - اللبناني الذي كان يعمل لاستقلال البلاد وخلع النير التركي عنها .

ويظهر ان القيادة التركية في سوريا كانت قد درست بعض الخطط الحربية وجمعت كثيراً من الاحصاءات والوثائق التي لها علاقة بالحملة العثمانية على مصر وسلمت هذه كلها لجمال باشا حين قدومه الى دمشق . واصدر جمال باشا اوامره حالا بتحصين «العريش» ووضع فيها كتيبة من البدو المتطوعين . كذلك احتل قسم من جنوده «قلعة النخل» وهي تقع وسط صحراء سيناء كما انه وضع كتيبة من المشاة في «العقبة» وامر كتيبة اخرى ان تعسكر في «بئر السبع» لتكون بمثابة سند لسائر القوات الموجودة في الصحراء . وقام جمال بعد هذا بتأليف هيئة عهد اليها تنظيم خط المواصلات من المؤخرة الى المقدمة واطلق عليها اسم « الهيئة التفتيشية لخط مواصلات الصحراء » . وانشأت هذه الهيئة المستودعات والمستشفيات في بئر السبع والاسماعيلية حيث لايبعد بعضها عن بعض اكثر من ٢٥ .. الى ٣٠ كيلومترا واوجدت فيها المياه وارسلت اليها الذخيرة والمؤونة .

واعتزم الفيلق الثامن الذي انيطت به مهمة فتح الكنانة ان يتجمع معظمه في بئر السبع ثم يزحف على قناة السويس بطريق وادي العريش اي بعيداً عن الشاطىء ثم يغطي جناحيه بشراذم صغيرة من العريش وقلعة النخل . وقد استحسن جمال باشا هذه الخطة الحكيمة لتكون جيوشه بمنجاة من مدافع الاسطول البريطاني .

ويذكر الاحياء من الموظفين الذين رافقوا هذه الحملة الابار الارتوازية التي حفرتها الحملة في خط مواصلاتها والسدود التي شيدتها لصد ما تسفي به الرياح والامطار . التي تشتد في فصل الشتاء وعلى الاخص في شهري كانون الاول وكانون الثاني من كل

عام ثم يذكرون ولاريب «نظام الجراية» وهو النظام الذي يعين المأكولات التي يجب ان لاتزيد زنتها عن كيلو غرام واحد لكل شخص بما فيها البقسماط والبلح والزيتون .

اما الماء فما كان ليسمح للجندي باكثر من نصف لتر منه في النهار.

ويقول جمال باشا في مذكراته انه بعد دراسة دقيقة وجد انه يحتاج الى ١١٠٠٠ جمل لنقل الماء والمؤونة للحملة الزاحفة على القناة ولهذا وطد العزم ان تواصل كتائب الصحراء مع بطارياتها الزحف على نقطة تبعد عن القناة نحواً من عشرين كيلو متراً ثم تشرع في مهاجمتها .

والثابت عندنا ان الحملة العثمانية التي زحفت نحو السويس كانت تتألف من الفرقة الخامسة والعشرين وخمس بطاريات من مدافع الميدان وبطاريتين من المدافع الجبلية وبطارية من مدافع هاوتزر عيار ١٥ سنتيمتراً وكتيبة فرسان واربعة كتائب من فرق الجمالة وفصيلة من متطوعي فرسان العرب عددها ١٥٠٠ وجسور عائمة تكفي لعبور ثلاث كتائب في وقت واحد وفرقة من المهندسين وعمال التلغراف ورجال الصحة والمستشفيات ومجموع ذلك كله ١٢٦٤٢ رجلا و٩٦٨ حصاناً ، و١٢٠٠٠ جملا و٣٢٨ ثوراً ، واذا اضفنا الى هذه الجيوش الفرقة الحجازية والفرقة العاشرة كان مجموع عدد الذين زحفوا الى القتال نحواً من ٢٥ الف جندي .

وكان الانكليز يقدرون عدد الحملة باربعين الف . ووجد جمال باشا صعوبات جمة في اقتناء الجمال لكن ابن السعود ساعده مساعدة فعالة واستجلبها له من اعماق نجد .

زحفت القوات العثمانية الى السويس في الرابع عشر من كانون الثاني وقد تحملت من ضروب الضنك والمشاق في وسط الرمال مايعجز القلم عن وصفه وكانت تواصل سيرها في الليل على ضوء القمر وكانت انغام الموسيقى العثمانية تردد انشودة — الراية الحمراء تخفق فوق القاهرة — بينما كان الجنود يشقون طريقهم في ذلك القفر الموحش . وكان على الجيوش العثمانية ان تواجه جيشاً منظما بلغ عدده ٣٥،٠٠٠

جندي وزعوا على طول خط القناة ما عدا ۱٥،۰۰۰ الف وزعوا في جميع المحطات الرئيسية بالقطر المصري ، وكان الجيش الانكليزي مزوداً بكل المعدات الحديثة تدعمه البوارج الضخمة والقطر المسلحة .

والمؤسف ان القيادة التركية تأخرت في الهجوم على القناة لتأخر القـــوات الزاحفة فان الشمس كانت في الافق حينما شرع العثمانيون في مد الجسور المتحركة وبدأت في عبور القناة فهبت المدفعية الانكليزية للدفاع عن نقطة العبور وحطمت جميع الجسور المتحركة العثمانية ما عدا ثلاثة عبر عليها ستمائة جندي اعتقلوا جميعاً . ولو تمكن العثمانيون من عبور القناة لاحتلوا الاسماعيلية وخلقوا من المصريين طابوراً خامساً يضرب الانكليز في مؤخرتهم وقد تبين لجمال باشا انه من المستحيل احتلال مصر بمثل هذا الاستعداد الهزيل وكان هو في الحقيقة متأكداً ان مهمته تنتهي عند افهام الانكليز انه من الواجب عليهم ان يبقوا في مصر قوات كبيرة للـــدفاع عنها وقد اشرف جمال باشا بنفسه على موقعة القناة من تل يبعد عن ضفتها الشرقية ثلاثة كيلومترات ونصف الكيلومتر ولم يكن بامكانه ان يجدد الهجوم على القناة اذ لم يبق لديه الا ثلاثة جسور عائمة وعبور القناة سباحة هو نوع من عبث الاولاد فاضطر لاصدار اوامره بالانسحاب .

وما ازال اذكر «قبضايات بيروت» بعد هذا الانسحاب الشنيع وقد مشوا وراء موكب شراعي حملوه على «كارو» زينوه بالورود والرياحين بتظاهرة كبرى امام ساحة القشلة وهم يرددون : « هيلا هلي خشينا الترعة هيلا هلي هيلا هـــلي خشينا الترعة » وضحك الناس كلهـم من الاسلوب الذي «خش» به الجيش العثماني الترعة لانهم كانوا يوما بعد يوم يرون اولادهم يهربون من جيوش الحملة ويختبئون في بيوتهـم .

●

حكم جمال باشا سوريا ولبنان بالوهم

منيت الحملة العثمانية على القنال بالفشل وكان القائد الالماني « فون كرايس » يرجو ان يموت هو ورجاله في الصحراء دون ان ينسحبوا ولكن جمال باشا تأكد من دراسة المعلومات التي وردت اليه في التقارير عن الجنود في الصفوف الامامية وموارد هم انه لا بد من الانسحاب والا فنيت الحملة عن بكرة ابيها .

وكانت هذه الحملة هي كل ما لدى الحكومة العثمانية من قوة للدفاع عن فلسطين وسوريا ولبنان امام العدو وكان من الواجب صيانة هذه القوة من خطر المغامرات الجنونية حتى نهاية الحرب على الاقل ولهذا اصدر جمال باشا اوامره بوجوب احتفاظ الجيوش العثمانية بمواقعها حتى الليل وابقاء التوامي بالمدافع بشدة مع العدو ومن ثم التقهقر رويداً رويداً الى بئر السبع .

وبينما كانت الجيوش العثمانية تتراجع الى الوراء اخذت الطائرات البريطانية تمطرها وابلاً من القنابل في القلب والجناحين .

واصدر جمال باشا امراً يومياً لقواته ابان الانسحاب قال فيه :

« ان الجنود عن بكرة ابيهم ادوا واجبهم بوطنية واخلاص . وان مشروع الهجوم كان مشروع استطلاع على القناة فحسب وذلك لمعرفة الموارد التي لدى العدو وما تحتاجه الدولة العلية العثمانية من الموارد لعبور القناة .

وبما ان القيادة قد ادركت غايتها تماماً فالاوفق ان تنسحب الجيوش العثمانية للحصول على المواد المادية اللازمة للهجوم بدلا من التعرض للخسائر. وان الشرف يقضي ان تسود خلال التقهقر روح التضحية والاخلاص التي سادت ابان الزحف لئلا يفقد الجيش شيئاً من معداته .

وهكذا رأينا مركز القيادة العامة لهذه الحملة بعد الانسحاب في بئر السبع حوال الخامس عشر من شباط سنة ١٩١٥ .

وحشدت تركيا معظم جيوشها على شواطىء الدردنيل فارسل انور باشا الرسائل المتوالية الى جمال باشا وبها يطلب ارسال النجدات من سوريا الى شبه جزيرة غاليبولي

فبعث اليه بالفرق الثامنة والعاشرة والعشرين كما انه بعث اليه بالمدافع السريعة الطلقات والرشاشات التي كانت في منطقته والغريب ان جمال باشا لم يبق في ولايات اطنه وحلب ودمشق ولبنان وفلسطين وصحراء سيناء الا اثني عشر كتيبة .

ويمكننا ان نؤكد ان جمال باشا لم يبق في هذه الولايات كلها ايضاً بطارية واحدة من المدافع السريعة الطلقات ولا فصيلة واحدة من الرشاشات . فتأمل كيف كان هذا الجبار يحكم البلاد بالوهم وكيف كان السوريون واللبنانيون والفلسطينيون يطيعون اوامره كالغنم .

والغريب ان لبنان عانى الجوع في تلك الاوقات العصيبة فكنت ترى الجياع يموتون بالعشرات على الارصفة وفي السواقي دون ان يحرك احد اللبنانيين ساكناً .

واذا ذكرنا لك ان الكتائب التي ظلت في البلاد كانت تتكون من جنود عربية سورية فلسطينية فصدقنا . ولم يكن من المقاتلين الاتراك من اطنه حتى صحراء سيناء الا كتائب متطوعي الدراويش وفصيلة المشاة من متطوعي الدوبريجة التي انشأها جمال باشا لخدمة القيادة . ومع ذلك لم يثر العرب السوريون ولم يطعنوا الاتراك من خلف رغم المشانق التي علق عليها احرار العرب في دمشق وبيروت ورغم الحرمان الهائل الذي منيت به كل المناطق العربية من الامبراطورية العثمانية

والحق ان القيادة التركية كانت جاهلة تمام الجهل كيف كان يمكنها ان تعبر القناة فقامت بهذا الاستطلاع . وقد فكر بعض العسكريين العثمانيين في ردم القناة لعرقلة البوارج الحربية البريطانية من المرور فيها وضربها بالمدافع البعيدة المدى.

ومن نتائج هذه الحملة ارجأ الانكليز مهاجمتهم للدردنيل لانهم وجدوا انفسهم مضطرين لابقاء جيش لا يقل عن مائتي الف في الديار المصرية .

وجاء في الاحصاءات التركية ان خسائر الحملة على القناة بلغت كما يلي :

	قتلى	جرحى	متغيبون
ضباط	١٤	١٥	١٥
جنود	١٧٨	٣٦٦	٧١٢

اما القيادة البريطانية فتقول ان الخسائر التركية بلغت كما يلي :

قتلى	جرحى	اسرى
١٠٠٠	٢٠٠٠	٦٠٥

وعلى كل الاحوال فيمكننا ان نقول ان هذا الاستطلاع على القناة كلف الترك كثيراً ولكنه افادهم كثيراً كما بينا .

واستعرض جمال باشا جيوش الحملة على القناة في بئر السبع ودعا قناصل الدول الحليفة والقناصل المحايدين وبعض الوجهاء السوريين ليروا باعينهم هؤلاء الجنود الذين استطاعوا اختراق الصحراء والوصول الى القناة وخوض غمار، معركة حامية بترتيب عجيب رغم نظام الجراية والمشقة الهائلة التي لاقوها . واستغرقت هذه الحملة شهرين دون ان تترك وراءها شريداً واحداً اللهم الا الذين قتلوا او اسرهم الانكليز في الضفة الغربية والغريب ان الجنود السوريين الذين كانت تتألف منهم معظم الحملة لم يخونوا بل حاربوا مع الترك جنباً الى جنب .

اذكر تماماً التحصينات التي قام بها جمال باشا في لبنان اثناء الحرب العالمية الاولى فانه حفر ما لا يقل عن اربعـــة او خمسة من الخطوط الدفاعية لصد اي اعتداء يراد به احتلال بيروت من قبل الحلفاء. كذلك أنشأ حصوناً قوية في مرسين ودورت يول وعلى طول الشاطىء الممتد من الاسكندرونة حتى حيفا ويافا.


لورانس

وصرف جمال باشا كل جهوده لتجنيد فرق جديدة عوضاً عن الفرق التي ارسلت الى الدردنيل وقد تم له ما اراد وجند الشباب العربي في سوريا وأطنه وكان بعض هـذا الشباب يحاول الفرار ويدفع كل ما يملك ليتهرب من الحيـاة العسكرية التركية البائسة وقد رأيت بأم عيني كثيراً منهم يبتلعون الادوية ليصابوا بخفقان القلب او بشلل الاعصاب او بالاصفرار الشديد في الوجوه وكانت كل هذه الحيل لا تنفع امام دهاء العسكريين العثمانيين.

ولا ريب في ان جمال باشا كان يبذل ما في وسعه للجولة الثانية للهجوم على القناة ولكن الاعمال الحربية في آب من عام ١٩١٥ بدأت تسير الى غير ما تشتهي القيادة التركية في العراق ثم ان الهيئة الالمانية لاركان الحرب لم تهتم للاستعداد البطيء الذي كان يسعى اليه جمال باشا لتحقيقه في الهجوم على القناة.

ويظهر ان جمال باشا دعا انور باشا بعد جلاء القوات الانكليزية الفرنسية عن الدردنيل الى سوريا ليرى بنفسه ما قـــام به من التأهبات في فلسطين وصحراء سيناء والمدينة المنورة وما أزال اذكر الاحتفال الباهر الذي لاقاه انور باشا في بيروت بل انني لا كاد اراهما وهما جالسان جنباً الى جنب في سيارة واحدة امام « فندق كاسمين » مركز شركة مياه بيروت اليوم والناس تصفق لهما بينما الجماهير

كانت تموت جوعا .

ومر انور باشا من خطوط المواصلات التي نظمها زميله جمال باشا ووافقه على عبور القناة وطرد القوات الانكليزية من مصر ضرب من الاوهام ولكن التمركز في الضفة الشرقية للقناة واجب .

وكانت الميول الثورية العربية بدأت تظهر من قبل الشريف حسين وحاول جمال باشا ان يكبت هذه الميول بالحسنى فكتب اليه يسترضيه ويمحضه وده وعطفه على الامير فيصل ولكن كل هذه المساعي ذهبت ادراج الرياح واصبح الترك امام ثورة واقعية في الثاني من كانون الثاني عام ١٩١٦ . وكانت هذه الثورة الضربة القاضية على حملة القناة وبدء هجوم الانكليز على الضفة الشرقية والقضاء على الحكم العثماني في فلسطين وسوريا ولبنان . والغريب ان الانكليز لم يبدأوا حملتهم على الضفة الشرقية الا بعد ان انشأوا خطوط مواصلاتهم بسكة حديدية وصلت بين مصر وفلسطين وقد ظلوا ما يقرب من العام وهم يستعدون حتى انه بامكاننا ان نقول ان كتيبة واحدة من جنودهم لم تعمل عملاً جدياً في فلسطين قبل اتمام استعداداتهم اللهم الا بعض فرق صغيرة من العسس كانت تذهب للاستطلاع الى مسافة خمسين او ستين كيلومتراً من القناة وترتد سالمة الى قواعدها ولم يجرؤ الانكليز على الهجوم الى الضفة الشرقية



جمال باشا وانور باشا

الا بعد ان وثقوا من ان الشريف حسين هو بجانبهم وان مركز الاتراك في الحجاز اصبح في كفة القدر وانهم لا بد سيضطرون الى سحب كثير من قواتهم في سوريا الى مكة والمدينة .

وكان الانكليز قد ارسلوا الاموال الطائلة الى الكولونيل لورنس والى الشريف حسين فاشترى هؤلاء جميعاً ذمم القبائل البدوية ، والقبائل البدوية لا تعرف غير المال والذهب وعلى الاخص الليرة الاسترلينية المعروفة « بأم حصان » ويؤسفنا ان نقول ان الاموال التي اغدقها الانكليز والفرنسيس على الزعماء العرب اخرت القضية العربية الاستقلالية مراحل كبيرة الى الوراء ولسنا الآن في معرض هذا البحث الذي يحتاج الى مجلدات ولا تنقصنا الامثال الكثيرة وقد امرنا الله بالستر لا سيما و كثير من هؤلاء الزعماء ما يزال حياً .

وحينما شعر الالمان ان الارض تميد بالاتراك في سوريا وفلسطين والحجاز ارسلوا لهم في اوائل نيسان عام ١٩١٦ بعض الطائرات وكانت تحمل رقم ٣٠٠ ونزلت كلها في بئر السبع ثم اتبعوها ببطاريات من المدفعية النمسوية القوية .

والحق ان هذه الطائرات كانت تساعد الاتراك في استكشافاتهم للاستحكامات والخطوط الحديدية التي كان يمدها الانكليز عبر الصحراء . واضطر الاتراك لما تفاقمت ثورة الشريف ان ينظموا قوة مؤلفة من خمسة عشر كتيبة من المشاة ومثلها من المدفعية الجبلية واوكل امر القيادة الى القائد فخري باشا الذي دافع عن مراكزه العسكرية مدة ثلاث سنوات . وهكذا لاح في الافق افول الهلال العثماني عن الشرق العربي .

●

انتصار الاتراك في معركة غزه

ثبت فخري باشا قائد القوات التركية بالمدينة للدفاع عنها مدة ثلاث سنوات رغم كل العناصر المعادية التي كانت تحيط به والذي يدعو الى الاعجاب

حقاً ان حامية المدينة التي انقطعت صلاتها تماماً بالقوات العثمانية بعد سقوط معان بيد الامير فيصل عام ١٩١٨ ثابرت على المقاومة وامكنها الاحتفاظ بمدينة الرسول الى ما بعد توقيع الهدنة بثلاثة اشهر . وقد انيط بقوات فخري باشا حماية الخط الحديدي من يثرب الى معان وهذا خط يقارب طوله الف كيلومتر لكن ثورة القبائل البدوية وامتدادها خربت المواصلات واقفلتها بين دمشق والمدينة وبين دمشق وصحراء سيناء وكان على الترك ان يقدموا التضحيات الهائلة لتموين جيوشهم في الحجاز وفلسطين .

وعزز الانكليز حامياتهم في القنطرة وسندوا جناحهم الايسر الى البحر وزحفوا الى آبار رمانه ورأى الترك ان يصدوهم بقوة يقودها القائد الالماني فون كربس وكان جمال باشا قد اوصاه ان لا يضع الحملة في مركز خطر وان لا يجابه بها الانكليز مجابهة مكشوفة لانها القوة العثمانية الوحيدة التي يمكن بها الدفاع عن فلسطين .

وكانت تتألف الحملة التركية من عشرة آلاف رجل تعززها كتيبة من الرشاشات والبطاريات الالمانية والنمساوية وبعض المدافع المضادة للطائرات . وبدأ الترك هجومهم ضد الانكليز في السادس عشر من تموز عام ١٩١٦ ولكنه انتهى بفشلهم واضطرارهم الى الانسحاب الى العريش خان يونس اي الى حدود فلسطين — سيناء القديمة .

وهال جمال باشا واركان حربه نشاط الانكليز في مد خطوط السكة الحديدية عبر القناة الى الضفة الشرقية فقرروا ان ينسحبوا بقواتهم ايضاً من خان يونس الى خط عرف باسم « خط غزة — تل الشريعة — بئر السبع » وامروا فون كربس بالدفاع عنه وقال لنا الثقاة ان الانكليز كانوا يمدون خطوطهم الحديدية بسرعة مدهشة حتى انهم كانوا ينشئون ما يقرب من الكيلومترين في اليوم الواحد.

ولما رأى جمال باشا اشتعال الثورة في الحجاز وقيام البدو بشق عصا الطاعة وانهيار النفوذ التركي في جبل الدروز عزم على مغادرة مركز القيادة في دمشق والتنقل مع الجيش ولم يعين له مركزاً ثابتاً .

قلنا ان الاتراك انسحبوا بعد الخامس عشر من آذار سنة ١٩١٧ الى خط غزة — تل الشريعة — بئر السبع وقد صمموا على الدفاع عنه دفاع المستميت . واراد السيد « تشارلس دوبيل » والقائد « ماري » القائد العام البريطاني لقوات البحر الابيض المتوسط اختراق هذا الخط واحتلال غزة فقامت الفرقة الثالثة والخمسون الانكليزية وعددها ١٢،٠٠٠ جندي في ليل ٢٥-٢٦ آذار عام ١٩١٧ وحاصرت غزة وعطلت جميع المواصلات معها ولكن بسالة الحامية العربية — التركية في المدينة نفسها جعلت رجالها تقاوم الهجمات البريطانية اربعاً وعشرين ساعة . وكانت هذه الحامية تتألف من ٣٥٠٠ جندي وقد قاتلت من اجل كل شبر حتى ان بعض التلال اخذت ثم استردت اكثر من ثلاث مرات .

وجاءت الامدادات من الشريعة وبئر السبع الى الحامية التركية في غزه فاحس البريطانيون بثقل الدفاع التركي فنكصوا على اعقابهم وسادت الفوضى صفوفهم وارتبكوا يتقهقرون الى الوراء وبفضل هذا الدفاع المجيد الذي سجلته حامية غزه اضطرت القوات الانكليزية ان تمكث امام خط غزه — تل الشريعة — بئر السبع ثمانية اشهر بكاملها . وقد كان العثمانيون والالمان يموتون ميتة الابطال بجانب مدافعهم وخسروا في معركة غزه ١٠ قتلى من الضباط و١٢ جريحاً و١٤ مفقوداً اما الخسارة في الجنود فكانت ٢٧٦ قتيلا و٧٤٤ جريحاً و٥٧١ مفقوداً . اما القوات البريطانية فقد خسرت حسب تقاريرها ٤٠٠٠ قتيل .

وكان من رأي القائد الالماني فون كريس متابعة الهجوم على البريطانيين لانحلال معنوياتهم ولكن جمال باشا مانعه لانه كان يعتقد ان نتائج هذا الهجوم مجهولة وقد يخسر الترك جيشهم به وليس لديهم غيره للدفاع عن فلسطين وسوريا .

وقد اعتزم جمال باشا الابتعاد بجيشه عن هذه المغامرات والاحتفاظ به في خط غزه الشريعة — السبع والدفاع عن جبهته حتى الموت مهما كان الثمن . ومزية هذا الخط الكبرى هي استحالة الالتفاف به لان الجناح الايمن كان يستند الى البحر بينما الجناح الايسر يستند الى الصحراء .

وما دام الاتراك يتمسكون بهذا الخط فانهم يرابطون في الارض الخصبة من

فلسطين بينما الانكليز يرابطون في الصحراء ثم ان الصمود التركي في هذا الخط يمنع الانكليز من الاتصال بالجبهة العربية الثائرة .

وكان لا بد للانكليز من ان يستأنفوا هجماتهم بعد معركة غزة فاضطر الاتراك ان يحصنوا خطهم تحصيناً لا بأس به .

•

ارادجمال باشا الدفاع عن فلسطين واراد انور باشا استرداد بغداد

كان لابد للانكليز بعد اندحارهم في معركة غزة الاولى ان يعيدوا الكرة عليها فعززوا قواتهم واصبح لديهم جيش عرمرم من المشاة والخيالة وقد بدأوا هجومهم في السابع عشر من نيسان ١٩١٧ واستعملوا فيه الدبابات لاول مرة ، واشترك الاسطول فامطر غزة وابلا من القنابل ويمكننا ان نقول ان القوات الانكليزية كانت ضعفي القوات العثمانية او تزيد وكانت المعركة عنيفة جداً استمرت من السابع عشر حتى التاسع عشر من نيسان ولم يتمكن الانكليز خلالها من اختراق الخطوط التركية وانما نكصوا على اعقابهم الى خطوطهم الاولى تاركين وراءهم عدداً كبيراً من القتلى والجرحى قدر بسبعة آلاف .

وكان من نتائج هزيمتهم في غزة استبدالهم القائد « ماري » بالقائد المجرب اليقظ الحكيم « اللنبي » الذي اشتهر بحزمه وعزمه في الميدان الغربي وقضى « اللنبي » الربيع والصيف من عام ١٩١٧ في الاستعداد حتى قيل يومئذ انه لن يهاجم الخطوط التركية قبل ان يكون لديه اربعة جنود مقابل كل جندي عثماني .

وكانت الكبرياء والعناد الانكليزيان في كف القدر عند المشرقيين بعد فشل بريطانيا في الدردنيل وغزة فكان عليها ان لا تهزم بعد الآن اذا ارادت ان تتبوأ مكانة محترمة في بلاد اعتادت ان تخضع للقوة . ولم يخامر جمال باشا اية ريبة باستعداد انكلترا الهائل لغزو فلسطين وسوريا فحاول كل جهده ان يعزز الجبهة وارسل الى القيادة العليا في استانبول التقارير المطولة بعدد الفرق المطلوبة تحسباً

للطوارىء ولكن القيادة العليا كانت في واد وجمال باشا كان في واد آخر فالقيادة العليا وعلى رأسها انور باشا كانت تفكر في استرداد بغداد بدلاً من تعزيز الجبهة



الجنرال اللنبي



الجنرال فون فلكنهاين

الفلسطينية وطلبت الى القائد الالماني « فون فالكنهين » ان يقوم برحلة تفتيشية عن طريق حلب ووادي الفرات والموصل ليدرس هذه القضية .

وكان بامكان الدولة العثمانية ان تنقل بعض فرقها من ولاياتها الشرقية خصوصاً بعد الثورة الروسية وبعد ان تمكن القائد مصطفى كمال باشا - ابو الثورة التركية - من تحرير تفليس وموش من قبضة الروس الى فلسطين كذلك كان بامكانها ان تستخدم جيوشها المرابطة في الاستانة وازمير بعد هزيمة رومانيا الشنيعة واخفاق الانكليز في الدردنيل .

كان الاتراك العقـــلاء فهموا انهم بعد هزيمتهم في العراق وضياع بغداد منهم نهائياً واضطرارهم الى التقهقر نحو كركوك وهيت وجب عليهم ان يشدوا ازر

الجبهة الفلسطينية اذ كانت هي النقطة الضعيفة في الموقع المهم من الامبراطورية العثمانية .

ولكن انور باشا الرجل المغامر كان ينوي استرداد بغداد وتأليف جيش يطلق عليه « جيش الصاعقة » بقيادة القائد الالماني « فون فالكنهين » للقيام بمشروعه الخيالي . ودعا انور باشا كبار القواد الاتراك الى مؤتمر في حلب لبحث مشروعه وكان بينهم عزت باشا قائد جيوش القوقاس وخليل باشا قائد الجيش السادس ومصطفى كمال باشا قائد الجيش الثاني فانتهز هذه الفرصة جمال باشا وكان من جملة اعضاء المؤتمر واشار الى اهمية الجبهة الفلسطينية واقترح ان تحشد الجيوش في حلب بدلاً من الاهتمام باسترداد بغداد وصد كل تقدم تقوم به الجيوش الانكليزية في الدجلة والفرات وارغام الحلفاء على العدول عن احتلال الاسكندرونة وبعد هذا كله الصمود على الاقل في الجبهة الفلسطينية هذه الجبهة المحفوفة بالمخاطر والتي يتوقف على مصيرها كيان الدولة العثمانية باسرها .

ولما كان انور باشا لم يهتم لتحذير جمال باشا بشأن الجبهة الفلسطينية فقد اضطر جمال ان يبرق الى الصدارة العظمى البرقية التالية المشهورة :

« في نفس الوقت الذي نحاول فيه استرداد بغداد اخشى ان نرى انفسنا في القريب العاجل مضطرين الى الدفاع عن القدس بل عن حلب نفسها » فلم ينل جمال باشا جواباً مرضياً .

وكانت خطة جمال باشا تتلخص في العدول عن حملة بغداد وحشد الجيوش الصاعقة في الجبهة الفلسطينية ودمشق وحماه وحلب والوقوف موقف الدفاع امام غزة .

ويقول جمال باشا في مذكراته انه كان على يقين تام انه لو لم يبحث مطلقاً في فكرة وهمية كفكرة استرداد بغداد لتمكن الترك من الدفاع عن خط غزة بئر السبع عدة اعوام ولكانت سوريا ولبنان وفلسطين جزءاً من الامبراطورية العثمانية يوم توقيع الهدنة .

مسكين جمال باشا انه يتكلم كرجل عسكري لم يضع نصب عينيه مطامع

الحلفاء في المشرق ولم يحسب حساب النهضة العربية المتوثبة التي كانت تغذيها عوامل عديدة ثم لعله نسي او تناسى ما جنته يداه في دمشق وبيروت .

ترى هل كانت تبقى سوريا عثمانية بعد الهدنة ؟!

•

جمال باشا يخطب في دمشق

شجعت فرنسا الحركة الاستقلالية العربية على انواعها في سوريا فكانت تمد الجماعات التي ارادت لبنان مستقلاً او تحت حمايتها، بالاموال وكانت تدغدغ طلاب الاصلاح بالاحلام الذهبية والمهم انها كانت تعمل بكل الوسائل على هدم النفوذ العثماني في المشرق وكانت قنصلياتها في دمشق وبيروت الوكر لسياستها . كذلك كانت مدارسها وارسالياتها ، وكان شعار هذه المؤسسات « لكل انسان وطنان الوطن الذي يحيا فيه وفرنسا » وحينما اعلنت الحرب العالمية الاولى ومشت تركيا في صفوف المحور انتهز الولاة العثمانيون الفرصة واشهرهم خلوصي بك والي دمشق وفتشوا القنصليات الفرنسية فعثروا فيها على وثائق عديدة تثبت ان بعض الشباب العربي اراد الثورة على الحكم العثماني والعمل على استقلال البلاد العربية بارشاد فرنسا وحمايتها . ورأت تركيا ان لا تتخذ اي اجراء ضدهم بادىء الامر لعلها تجذبهم لصفوفها ولان الحرب العالمية الاولى التي جرت نفسها اليها كانت بالنسبة لها مسألة حياة او موت .

ثم خاف الاتراك ان يستغل الحلفاء ولا سيما انكلترا وفرنسا اي حكم قضائي ضد هذه الحفنة من الشباب العربي في مصر والهند والمغرب فيقال ان المتطرفين منهم قد ركبوا رؤوسهم وتملكتهم سورة الانتقام والاحقاد وارادوا ان يفرضوا « الطورانية » على الشعوب العثمانية . والطورانية تعني تتريك هذه الشعوب .

وكانت الحكومة الاتحادية ترجو ان لا تتفكك عرى الوحدة الاسلامية في

نضالها الشديد ضد الحلفاء فلاذت بالصمت وراح جمال باشا دكتاتور سوريا التركي اذ ذاك يجتمع الى كبار السوريين واللبنانيين من العرب ويغمرهم بجوائزه واحسانه ويظهر لهم من العطف والبشاشة ما جعلهم يطمئنون اليه ونذكر ان جمال باشا اجتمع الى الزعيم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر والى الاستاذ عبد الغني العريسي صاحب جريدة المفيد البيروتية واحد اعضاء المؤتمر العربي في باريس والى محمد كرد علي العالم المعروف صاحب جريدة المقتبس الدمشقية والى السيد عبد الكريم الخليل ، وقد اقسموا له ان يماشوا الحكومة وان يعضدوها في سياستها التي ترمي الى تحرير العالم الاسلامي من النير الاجنبي .

ورأى الزعماء الاصلاحيون ان يقيموا حفلة تكريمية لجمال باشا في دمشق يظهرون بها تعلقهم بالدولة العثمانية وكان هذا بعد وصوله مباشرة من استانبول فالقى كثيرون فيها خطباً حماسية تفيض بالحب والاحترام للحكومة الاتحادية واعلنوا عن شغفهم بالعلم والمعرفة وافتخارهم بالامجاد العربية القديمة وقد انشدوا كلهم النشيد المعروف – نحن جند الله شبان البلاد – باصوات جهورية قوية اضطرب لها جمال حتى انه قال لبعض اخصائه : « ويلهم ان المكان ليكاد يزلزل بنا وتهبط سقوفه فوق رؤوسنا » وقد اجابهم جمال باشا بخطاب بليغ اظهر به عطفه الكبير على السوريين العرب وقال انني احب الشعب العربي واجله كيف لا وتجمعنا به الجامعة الدينية والرابطة العثمانية ثم ان لغته هي لغة الدين الحنيف بل لغة القرآن الكريم .

ان برنامجنا الذي عقدنا العزم على تنفيذه لاصلاح الحال عند الشعب العربي لاوسع بكثير مما قد يخطر ببال احد منكم ثم اننا لسنا من الذين يتوجسون شراً من بقاء العنصرين العربي والتركي متحدين وتابعين لخليفة واحد مع انفصال احدهما عن الاخر كشعبين متحالفين ولكن يجب قبل كل شيء ان نضيق الخناق على الخونة الذين يعملون لمصلحة العدو وان نطردهم وثقوا ان تنظيم الحركة التركية في استانبول والجهات الاخرى الآهلة بالعنصر التركي ليست ضد المطامع العربية والاصلاح العربي وانما هي لبعث الروح الوطنية وخلق جيش يدافع عن الحدود

واني لاؤكد لكم ان الاماني التركية والاماني العربية لا تتعارضان مطلقاً ولربما كانت جهود العرب والاتراك بعضها متمم لبعض والمهم ان لا تصغوا الى دعاوة العدو واكاذيبه فما وسائله الا للتحكم في مصيركم واستعبادكم . انني اناشد الشبيبة التركية والعربية ان لا تتخاذل ولا تتنازع لانها دعامة الاسلام .

ثم اني اتوجه الى العنصرين العربي والتركي برجائي الحار وهو ان يحبا بعضهما البعض ويحترما بعضهما البعض لان عواقب التفرقة هي فناؤكم وفناؤنا جميعاً .

وقد اثرت خطبة جمال باشا في الدمشقيين فساروا بتظاهرات كبيرة في الشوارع ايدت سياسته وراحوا يسقطون الحكومتين الفرنسية والانكليزية عدوتي الوطن .

والحق ان سياسة جمال باشا كانت في اول عهدها بسوريا سياسة لين ومكر ولكنها انقلبت بعدئذ الى سياسة طغيان وجبروت . ولعل اصدق كلمة سمعتها من شاب عربي كان برتبة ضابط صغير – كوجوك ضابط – حضر الحفلة التكريمية لجمال باشا فقال :

« والله بعد ان انشدت الجماهير نشيد (نحن جند الله شبان البلاد) وجدنا انفسنا نحن الضباط العرب مبعثرين في كل بقعة من البقاع العثمانية من الصحراء حتى رومانيا وغاليسيا »

•

جمال باشا وموارنة لبنان

احب جمال باشا ان يسير على سياسة التسامح والتآلف بين الشعبين العربي والتركي ليثبت قدميه في سوريا وليجعل الناس تطمئن الى اعماله . وقد كتب الى الامراء والزعماء والرؤساء الروحيين في العراق ونجد واليمن يستصرخ وجدانهم وضمائرهم ان يتحدوا مع الدولة قلبا وقالبا لصد الاعداء ، فجاءته الردود منهم وكلهم يؤكد فيها اخلاصه ومودته للخلافة ، ويقول جمال باشا في مذكراته

بهذا الشأن - اما كتب الشريف حسين الي فكانت مبهمة غامضة - وهذا ما جعل جمال باشا يحسب في سره للشريف حسين حساباً كبيراً ويحذر منه ولكن كل حذر جمال لم ينفع امام دهاء الشرفاء ومن ورائهم الساسة الانكليز .

واراد جمال باشا ان يبرهن عن احترامه وحبه للسكان العرب فاصدر اوامره أن لاتستولي الدولة على شيء من الحاصلات او البضائع في منطقة الجيش الرابع الابعد ان تدفع الثمن عداً ونقداً ونفذ المسؤولون اوامره بادىء ذي بدء بصورة حسنة ولكنهم في النهاية كانوا يصادرون الاموال لقاء وثيقة لاقيمة لها واعلم تماماً ان بعض لجان المصادرة كانت لاترحم احداً واثرى الكثيرون من اعضائها من هذا السبيل الشائك .

وراح جمال باشا يقرب اليه الزعماء العرب الاصلاحيين امثال عبدالكريم الخليل لينال ثقتهم وليظهرهم امام شيعهم بمظهر الوجهاء المسموعي الكلمة عنـــد الدولة العلية ... واننا لا نزال نذكر ان جمال باشا ذهب بنفسه الى رأس بعلبك ليشهد التظاهرات التكريمية التي اقامها له عبدالكريم الخليل في هذه المنطقة .

وراح بعض المتزلفين يحرضون جمال باشا على اعتقال الوجهاء المسيحيين مـن اللبنانيين وتعطيل حقوقهم التي كانوا يتمتعون بها منذ عام ١٨٦٠ ومصادرة اموالهم واملاكهم وتجريدهم من السلاح وقد اشاعوا حينئذ ان لدى المسيحيين في الجبل مالا يقل عن خمسين الف بندقية ولكن جمال باشا ابى ان يسلك هذا السبيل خيفة ان يؤخذ البريء بذنب المجرم وخيفة ان يدفع ضعاف الايمان بالدولة العثمانية الى العصيان والتمرد .

واصدر منشوراً الى اللبنانيين يؤكد لهم فيه ان جميع امتيازاتهم القديمة ستظل محترمة وانهم في حرز حريز وان يد الاذى لن تمتد اليهم وبعث هذا المنشور روح الطمأنينة الى قلوب الموارنة بصورة خاصة حتى ان البطريرك حويك ارسل وفداً الى جمال باشا يشكره على صنيعه ويقول له انه لن ينسى جميله على الاطـــلاق ولكن جمال باشا نسي وعوده بعدئـــذ وراح يعامل البطريرك معاملة سيئة ويجوع اللبنانيين ويقطع عنهم المؤن وينفي رجالاتهم ويزجهم في السجون ويعدم كثيراً

منهم على الشبهة .

وقام جمال باشا بفرض الاقامة الجبرية على بعض من حامت حولهم الريبة او من كان له اتصالات معروفة بفرنسا او انكلترا وكانت مدينة القدس في اول الامر مركز سكناهم اثناء الحملة العثمانية على مصر وتكفلت خزينة الجيش دفع نفقاتهم كما ان المنفيين كانوا يتمتعون بحريتهم التامة ، ولم ينشىء جمال باشا المعتقلات كما فعل غيره ولم يضع الناس المشبوهين ضمن اطارات من الشريط الشائك ولم يجبر الكثيرين منهم إن يناموا في غرفة واحدة يأكلون ويشربون وينامون فيها .

وفسر بعض العامة من الجهلة ان الخليفة العثماني اذا اعلن الجهـــاد على فرنسا وانكلترا فانما يعلنه ايضاً على مواطنينا المسيحيين ، فاصدر جمال باشا منشوراً وزعه في طول البلاد وعرضها وبه يفسر معنى الجهاد وقد قال فيه : « ان الحرب الدينية انما اعلنها خليفة المسلمين ضد الانكليز والفرنسيين والروسيين فحسب لانهم اعداء الملة فالحرب لا علاقة لها الا باولئك الذين يشهرون السلاح بوجوهنا ، اذن فكل من تحدثه نفسه باساءة مواطنينا المسيحيين الذين تربطنا واياهم رابطة الوطن المشترك والمصالح المشتركة يعاقب عقاباً صارما ، وهكذا قضى جمال باشا على فتن طائفية مريعة كان بامكانه ان يشعلها ويحرق الاخضر واليابس بسببها .

والحق ان جمال باشا سلك سبل التسامح في سوريا لان تركيا كانت تجابه هجمات فظيعة في الدردنيل وقد اضطرت لان ترسل كل فرقها في سوريا لصد الجيوش الانكليزية الفرنسية التي كانت ترجو ان تحتل العاصمة العثمانية .

ولحقت فصائل المدفعية والرشاشات بهذه الفرق حتى انه لم يبق لدى جمال باشا سوى فرقتين من العرب وكتيبة من متطوعي الدراويش . ولو نشبت ثورة في سوريا او في لبنان لما كان بامكان تركيا قمعها لانه لم يكن لديها القوات اللازمة .

ثم لو حاول الحلفاء انزال قسم من جيوشهم في بيروت او الساحل السوري لوجدت الدولة العلية نفسها في موقف حرج جداً يدعو الى اليأس . والغريب ان الجنود العربيـــة هي التي حافظت على النفوذ التركي في المشرق ابان هذه الايام العصيبة ويعد هذا هو العامل الاساسي الذي جعل جمال باشا يسلك في اوائـــل حكمه سلوك الرحمة ثم ينقلب بعدئذ الى وحش مفترس .

اناطت الحكومة التركية الى جمال باشا امر المحافظة على الامن والسكينة في المنطقة الممتدة من جبل طوروس الى الحجاز ثم طلبت اليه ان يهتم في سوريا بصورة خاصة لئلا ينزل العدو في سواحلها ويحتلها احتلالاً عسكرياً . وكان جمال باشا يداري الاصلاحيين العرب ويقدمهم في الاحتفالات العامة حتى انه لم يكن لينفك عن ملازمة عبد الكريم الخليل الزعيم الشيعي المعروف .



الشهيد عبد الكريم الخليل

وكان عبد الكريم على اتصال مستمر باللامركزيين في القاهرة وكان جمال يعلم هذا كله من هذا الشاب ويغمره مع ذلك باحسانه وكرمه ، ويظهر ان الزعيم كامل بك الاسعد احد نواب بيروت في البرلمان العثماني قد هاله ان يرى عبد الكريم الخليل مقدماً عند جمال باشا فجاء الى مفتي الجيش الرابع الشيخ اسعد الشقيري واخبره ان عبد الكريم الخليل ورضا الصلح يحيكان المؤامرات في صيدا وصور وجبل عامل للقيام بثورة مسلحة ضد الدولة العلية وانهما يمكنان بذلك الاعداء اي الجيوش البريطانية من النزول في هذه المنطقة المنعزلة وقد كانت بالفعل خالية من القوات العثمانية اللهم الا من شرذمة صغيرة من الجندرمة .

وكنا دوماً نشاهد مدرعات الانكليز والفرنسيس تجوب شواطئنا ولطالما انزلت بعض الرجال الذين كانوا يتصلون بكثير من الزعماء الموالين للحلفاء في موانىء البترون وجبيل وجونيه وصيدا وصور ، بل ان هؤلاء الرجال كانوا دوماً يدبرون المؤامرات لتحطيم الخطوط التلغرافية وغيرها من المنشآت العسكرية ويتناولون

اخبار الدولة في كل مركز له اهمية ستراتيجية .

واخذت الجمعيات اللامركزية والاصلاحية العربية في القاهرة ترسل المناشير الى سوريا وكلها تحرض الاهالي على الثورة والانقضاض على الدولة العثمانية في هذا الصراع العالمي وتطلب اليهم ان يتأهبوا للذود عن استقلالهم المنشود حتى ان احد المناشير كتب فيه بعضهم يسأل هذه الاسئلة الحرجة الى الاصلاحيين وهاك هي :

اولاً – كم لديكم من القوات التي تمكنكم اذا دعت الضرورة بدء التمرد العام ؟

ثانياً – أفي استطاعتكم امدادنا بالاموال وجمع الاكتتابات التي يمكنكم شخصياً استعمالها عند الضرورة . وكم عدد الاموال الممكن جمعها ؟

ثالثاً – أمن المستطاع ايجاد ملجأ حصين لاعواننا السريين الذين يناط بهم البدء في التمرد والذين سنساعدهم بكل ما لدينا من الوسائل ؟

رابعاً – أمن الممكن ارسال رجل ثقة الينا يمثل احزابكم للذهاب الى جهة معينة لانتظار تعليماتنا ؟

خامساً – واذا لم تجدوا ذلك الثقة لارساله الينا أفترون من اللازم ان نبعث اليكم من يبلغكم تعليماتنا ؟

وختم المنشور بهذه الكلمات : « ان كل دقيقة تضيع سدى معناها فقد روح عربية فالبدار البدار فلقد حان وقت التضحية » وجن جنون جمال باشا امام هذه البوادر الداعية الى الثورة لا سيما وكان قد درس الوثائق التي وجدها في القنصلية الفرنسية في دمشق وكلها تظهر ان فرنسا كانت تعطف عطفاً خاصاً على حركة اللامركزية في سوريا وتمد بعض رجالها بالاموال والمرتبات والمساعدات المادية فامر بالقاء القبض على شباب العرب ووجهائهم واحالهم الى المحاكم العسكرية ثم اعدمهم في قافلتين دون ان ينال موافقة الخليفة . ويقول جمال باشا انه لجأ الى وسائل العنف والشدة لانه لم يكن لديه اذ ذاك في سوريا جندي تركي واحد لا سيا وقد كانت معركة الدردنيل في اوجها . واطلع جمال باشا على محاضر المحكمة

العسكرية بنفسه وايدها .

وأحدثت هذه الاحكام المريعة ذعراً كبيراً في نفوس الاهلين وجعلت المنافقين منهم يتوددون الى جمال ويشكرونه على عمله الاجرامي ، وجاهد الامير فيصل اشد الجهاد امام جمال ليعفو عن شباب العرب وكان دوماً يرجوه ان يعفو عنهم ويغتفر لهم زلاتهم ودعاه مرة قبيل تنفيذ الاعدام بهم الى « القابون » وهي ضاحية جميلة من ضواحي دمشق ليتناول الغداء مع اركان حربه على مائدته وبعـــد الفراغ من الطعام التمس فيصل من جمال ان لا يخيب رجاءه في الصفح عن هؤلاء المواطنين الذين صدرت بحقهم احكام الاعدام في عاليه فاجابه جمال : « لو تعلم عظم الجريمة التي ارتكبوها لأسفت أشد الاسف على توسطك للصفح عنهم . »

ولم ييأس فيصل في سبيل الصفح عنهم فتوسل الى الشيخ بـدر الدين الحسني محدث الشام ووالد الشيخ تاج الدين الحسني ان يقول كلمة رقيقة في هذا الموضوع الشائك لجمال لعل قلبه يلين فيعفو عنهم .

ولكن الشيخ بدر الدين بدلا من ان يشير الى وجوب الصفح عنهم لانهم خيرة الشباب العربي تكلم بصفة اجمالية عن الدسائس التي تهدد سلامة الدولة العلية حامية الاسلام واستشهد بالآية الكريمة : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً ان يقتلوا او يصلبوا او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف او ينفوا من الارض »

فابتسم جمال باشا ابتسامة صفراء وتشبث باعدامهم .

كيف بدأ الشريف حسين ثورته على الدولة العثمانية

اعدم جمال باشا الشباب الاصلاحي العربي في دمشق وبيروت وهو يعتقد تمام الاعتقاد ان هذه الجماعة كانت تسعى للوقيعة بالدولة العثمانية وتود القضاء عليها وايجاد الفتنة بين المسلمين .

وقد كانت عظة الشيخ بدر الدين محدث الشام بوجوب عقاب المجرمين بلسماً لجراح جمال وعلى الاخص حينما اورد له الآيات والاحاديث التي تنص على ذلك وروي لنا ان الشيخ بدر الدين قال لجمال باشا ان رسول الله نهى عن الشفاعة في الحدود وضرب له الامثال ..

وفي الحديث ان اسامة بن زيد كلم محمداً صلى الله عليه وسلم في امرأة اذنبت فاجابه محمد : « اتشفع في حد من حدود الله والله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها . »

وهكذا تسلح جمال باشا بمثل هذه العظات وراح يعدم هؤلاء الشباب قبل ان تصدر الارادة الشاهانية باعدامهم.

والمؤلم في مأساة هؤلاء الشباب الذين اعدموا في دمشق وبيروت ان الكثير من الاعيان والوجهاء جاءوا الى جمال – بعد الاعدام بثلاث ساعات – يشكرونه على عمله وينزلون اللعنة على هؤلاء المجرمين ... حتى ان احدهم قال له : « لقد احققت الحق . ليكلأك الله بعنايته » وبدلاً من ان ينعزل الاعيان عن جمال باشا ويظهروا له ان عمله غير شرعي وان هؤلاء الشبان لا يستحقون مثل هذه العقوبة القاسية اقدموا كلهم ينافقون له ويؤيدونه فاستأسد وراح يضرب السوريين واللبنانيين بقدميه وحاول ان يجوع المساكين منهم . وكان جمال يقول دائماً : « ليس لهذه البلاد التي سممتها الدعايات الاجنبية لا سيما الدعاية الفرنسية الا البطش والقمع وانزال اشد العقوبات بكل من يحاول الثورة على الدولة وكان بالفعل يعاقب على الشبهة دون استئذان المراجع العليا في استانبول . ولم يقدم جمال باشا على سياسة الشدة الا بعد ان سانده على اتباعها كل من انور باشا وزير الحربية

وطلعت باشا وزير الداخلية .

كان الشريف حسين قد بيت الثورة على الترك بعد الاتفاقات التي عقدها مع مكماهون وكان دوماً يشير على الحكومة العثمانية بوجوب الاعتراف باستقلاله بالحجاز من « تبوك الى مكة » وجعل الامارة وراثية في نسله ولطالما اشترط على جمال باشا ان يسلك سياسة الصفح والتسامح مع الشباب الاصلاحي العربي ثم كان ابنه الامير علي يتداخل في سلطات والي المدينة ويدعي لنفسه حقوق الامامة في يثرب فثارت ثائرة جمال باشا من سلوكه وعاتب فيصلاً في ذلك عتاباً مراً حتى انه قال له « اذا كنتم تريدون الثورة فالجأوا حالا الى السلاح وعندئذ يصبح كل منا عدواً للاخر » فاعتذر فيصل وأكد انه وجميع افراد اسرته الخدمة الاوفياء لصاحب الجلالة الخليفة .

وكان جمال يود القاء القبض على فيصل وارسال فرقة تركية للقضاء على الشريف حسين ولكن نعومة فيصل وحسن سلوكه منعا جمال باشا من هذه التدابير ثم لم يكن لدى جمال البراهين الكافية لاعتقال الاسرة الهاشمية . والغريب ان الدولة العثمانية كانت قد وضعت بين يدي الشريف حسين ما لا يقل عن خمسين الف ليرة ذهبية لتجهيز فرقة من المتطوعين لحملة القناة فاستعملها كلها للثورة على الاتراك .

واستأذن فيصل بعدئذ جمال باشا في السفر الى الحجاز ليكون على رأس المتطوعين العرب وليمحو كل اثر لسوء التفاهم الذي نجم بين والده واخيه والحكام الاتراك في المدينة فاذن له .

ثم ارسل فخري باشا القائد التركي المشهور اوامره ان يحتاط للطوارىء وان يكون على حذر من ثورة الشريف حسين وصدق حدس جمال باشا فان فخري باشا لم يكد يصل للمدينة حتى تسلم من الشريف علي ثلاثة كتب الاول للصدر الاعظم والثاني لجمال والثالث لفخري باشا : وقد قال في كتابه لفخري باشا :

« بناء على الاوامر الصادرة من والدي سيوقف نقل المتطوعين الى فلسطين ولهذا عقدت النية على العودة بالمجاهدين الى مكة بدلا من ضياع الوقت هنا واني آسف

لاضطراري الى الرحيل دون ان اودعك فالرجاء قبول عذري » والحق ان هذه الكتب كانت النذير باعلان الثورة العربية لان علي بن الحسين بدأ بالهجوم ليعطل المواصلات بين سوريا والمدينة حالا بعد هذه الكتب .

اما الكتاب الذي ارسل لجمال باشا فكان يتضمن عـــدم استطاعة الشريف حسين بالاشتراك في الحملة على القناة الى ان تعترف الحكومة العثمانية باستقلاله .

واما الكتاب الذي ارسل للصدر الاعظم فكان عبارة عن انـــذار لقطع العلاقات مع استانبول لان انور باشا كان قاسياً في لهجته مع الشريف حسين بشأن مطاليبه الاستقلالية ابان الحرب التي تخوضهـــا الدولة وهي حرب حياة او بمات لها .

والحق ان الشريف حسين كان ينتحل المعاذير للثورة لانه كان قـــد اتفق نهائياً مع انكلترا على العصيان وتمت المراسلات بينه وبين مندوبي الانكليز في القاهرة بهذا الشأن .

وهكذا انتهت مأساة الاصلاحيين في سوريا بثورة الحسين بن علي او بثورة العرب على الاتراك .

ثار الشريف حسين على الدولة العثمانية وأعلن للملأ العربي والاسلامي منشوراً برر فيه عمله لئلا يتهم بالخيانة ويقال انه طعن الخلافة في ظهرها وهي تحارب من اجل كيانها وقد ذكر انه منذ ان تولت جمعية الاتحاد والترقي مقاليد الامور في الامبراطورية ساءت الادارة في كل ولاية من ولاياتها حتى استولت دول الاستعمار على القسم الاكبر من ممتلكاتها وحل البؤس بالسكان وعم الفقر الاهالي واضطر الحجازيون ان يبيعوا دورهم ليتزودوا باللقمة .

والغريب ان الشريف حسين برر ثورته بقوله ان الخلافة العثمانيـــة اهملت الشريعة الاسلامية فاقترحت صحيفة «اجتهاد» التي كانت تصدر في الاستانة انقلابا في حقوق الوراثة الاسلامية بحيث تصبح حقوق النساء مساوية لحقوق الرجال ثم ردد قوله المشهور : «هل يجوز ان يفطر جند الخليفة في رمضان وهم مرابطون في مكة ودمشق ويثرب وحاب ? ثم اين سلطات الخلافة التي منحتها الشريعة للخليفة فقد

بوح الخفاء واصبحت الامبراطورية كلها بايدي حفنة من الرجال هم انور وجمال وطلعت . ثم ينقم الشريف حسين على صحيفة « اجتهاد » ومحرريها واصحابها فيقول : « ان هؤلاء جميعاً لا يذكرون النبي في كتاباتهم بلهجة تنم عن التبجيل والاحترام اللائقين بمقامه الكبير » وبعد ان يعدد الشريف حسين هذه الاسباب الشكلية لثورته يرجع ويتألم لاعدام الشباب المصلح في دمشق وبيروت ويقسم ان ينتقم لهم لان جمالا لم يحترمه ولم يقدره قدره حينما طلب اليه ان يصفح عنهم ويغفر لهم زلاتهم ويذكر في منشوره بالخير الامير عمر الجزائري والامير عارف الشهابي وشفيق المؤيد العظم وشكري العسلي وعبد الوهاب الانكليزي وتوفيق البساط وعبد الحميد الزهراوي وعبد الغني العريسي وغيرهم .

ويدعي الشريف حسين ان جمال باشا اعدم هؤلاء الشباب كلهم ونفى اقاربهم واصدقاءهم وصادر ممتلكاتهم .

والحقيقة التي لا غبار عليها ان الشريف حسين كان ينتهز الفرصة للانفصال عن الجسم العثماني واعلان استقلاله وتأسيس دولة عربية كبرى على انقاض الامبراطورية العثمانية وتحرير العرب من السلطات التركية فلاحت له الحرب العالمية الاولى ووعود الانكليز فكانت مراسلات مكماهون .. الحسين وكانت الضائقة الاقتصادية في الحجاز فاعلن الثورة ووطد علاقاته بالقبائل العربية المجاورة له .

ومنذ ان اصبح الشريف حسين اماماً في الحجاز كان يفكر في الاستقلال وعرف الترك مقاصده ولكنهم لم يجرؤا على مجابهته لانهم ارادوا ان يتفاهموا مع العرب باساليب المصالحة ولكنهم لم يوفقوا اليها لتدخل اوروبا في امورهم ولو ارادت تركيا خلع الشريف حسين لكان عليها ان تسفك دماً ذكياً وان تثير قلاقل هي في غنى عنها .

أراد الشريف حسين ان ينتقم من الدولة العثمانية الاتحادية لاعدامها الشباب العربي الاصلاحي رغم ان قسماً كبيراً منهم كان يلح على فرنسا ان تحتل سوريا ولبنان لان « الطبيعة اختارتها لحمايتها » فآل المطران وعلى رأسهم ندرة باشا المطران كان دوماً على اتصال مباشر مع القنصلية الفرنسية في دمشق وكان يرجو

لو ان فرنسا تبذل نفوذها لادماج بعلبك والبقاع بلبنان ليتخلصا من النفوذ التركي وقد كتب ندرة باشا المطران الى القنصلية الفرنسية بدمشق يقول : « اننا نفتقر لتحقيق هذه الغاية الى مساعدة الحكومة الفرنسية وحمايتها وانا لنعرف كيف نحقق غايتنا اذا فكرت الدولة العلية في مقاومتنا بالسلاح » .

وكتب بعضهم الى قنصل فرنسا العام في سوريا المسيو كوجيت يقول « تأكدوا يا سيدي اننا نعتبر فرنسا الحامية الطبيعية لنا بل ان فرنسا هي وطننا الثاني » . وكانت سياسة فرنسا ترمي دائماً الى خلق المتاعب للدولة العثمانية ولهذا كانت دائماً على اتصال مباشر مع بعض الشباب اللبناني المتحمس كالسادة بيير طراد والدكتور ايوب ثابت والسيد هاني والسيد تويني وكان هم هؤلاء ان ينادوا : « هلمي يا فرنسا الينا فان تركيا تبث روح التعصب في بلادنا وانها تحملنا من الضرائب فوق ما نطيق وانها تحملنا على الهجرة من اوطاننا لكثرة المظالم ، ان تركيا بعد خسارتها لاملاكها في اوروبا ستعمد الى فرض الضرائب على الولايات العثمانية الاسيوية ومن جملتها ولاية بيروت وولاية دمشق وسترهق الشعوب العثمانية بالمظالم . وانباتاً للواقع نقول ان الاوهام كانت تسيطر على عقول الكثيرين من هذا الشباب المتحمس ولكن شيئاً من هذا لم يتم .

واما سلاح التعصب فلا ريب في انه كان اداة فظيعة بيد الترك . وكان اقوى سلاح عندهم ونقول هنا امام التاريخ ان العرب مسلمين ومسيحيين كانوا متآلفين متحابين في بيروت ولبنان ولم تستطع الدولة العثمانية ان تفصم عرى اتحادهم. واما هجرة الشباب العربي الى الاميركتين وغيرهما فلم تقف الدولة في وجهها مطلقاً . ولهذا لا يسعنا الا ان نشهد بان الشرق العربي قبيل الحرب العالمية الاولى كان ضحية الدعاوة الاجنبية ولا سيما لبنان وسوريا فانهما تأثرتا بالدعاوة الفرنسية خاصة وقد ظن السوريون واللبنانيون ان فرنسا ستجلب لهم المن والسلوى وانهم لن يدفعوا من الضرائب ما كانوا يدفعونها لتركيا وتناسوا ان التنظيم الحكومي الاوروبي الحديث يكلف الاهلين كثيراً .

هذه هي الاسباب السريعة الظاهرة التي كشفها الشريف حسين للملأ العربي

والعالم الاسلامي ليبرر بها ثورته والحقيقة التي لا مراء فيها انه كان طموحاً يود تأسيس دولة عربية شامخة البنيان فلجأ الى الحلفاء وعلى رأسهم انكلترا وقد كان بينه وبينها بعدئذ ما صنع الحداد فعاش في أواخر حياته منفياً في قبرص .

•

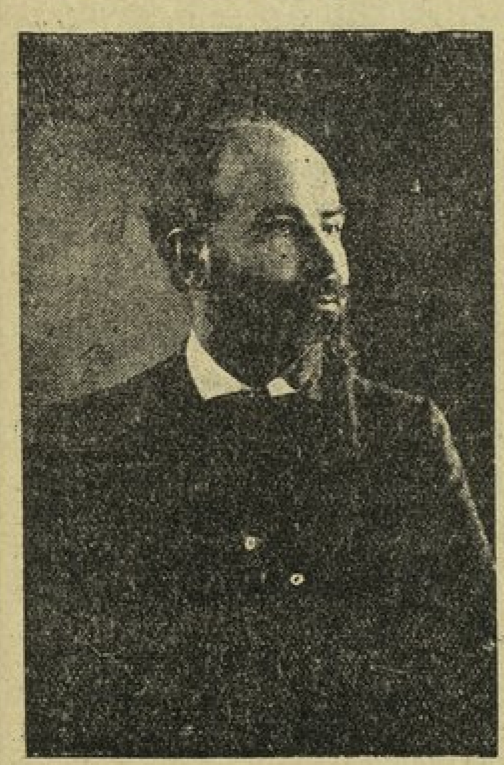
الاصلاحيون على انواع

كان الشباب الاصلاحي العربي ينقسم على وجه العموم الى قسمين قسم يرى وجوب الاصلاح في سورية على اسس اللامركزية وبمعونة الدولة العثمانية لئلا يكون لاوروبا اي تدخل او مراقبة على الاطلاق وقسم على رأسه صفوة المسيحيين في بيروت ولبنان يرى ان الاصلاح لن يتم او يتحقق بعضه الا اذا احتلت فرنسا سورية برمتها وجعلت ولاية بيروت مستقلة لها صبغة خاصة وتحت الوصاية او الحماية الفرنسية او ادماج بيروت بمتصرفية لبنان . وقد وقع بعضهم العرائض للحكومة الفرنسية بهذا الشأن واشهرهم السادة ميشال التويني ويوسف الهاني وبياترو طراد والدكتور ايوب ثابت ورزق الله ارقش وخليل زينيه .

ويظهر ان دعوة الاصلاح كان يغذيها السوريون واللبنانيون القاطنون في القاهرة وكان بعضهم يعتقد بانشاء دولة سورية مستقلة استقلالا ذاتياً برئاسة امير من امراء المسلمين وكان كثير منهم يرشح لهذه الامارة زعيم اسرة آل العظم شفيق بك المؤيد العظم وهي اسرة حكمت حماه ودمشق مراراً باسم السلطان العثماني ومازال بعض اعضائها يحنون الى حكم سوريا واعتلاء اكبر المراكز فيها وكان غيرهم يقول ان السوريين لن يعترفوا بامارة سوري عليهم لانهم متساوون في الدرجة وليس بينهم اسرة تستحق ان تنجب اميراً ولهذا يجب ان تتجه في انتخاب امير لها من الاسرة العلوية المحمدية المصرية . وقد اجمع بعضهم على ترشيح الامير يوسف كمال صاحب القصر المشهور اليوم على رابية في سوق الغرب وهو رجل واسع الثروة

ويفضل فرنسا على انكلترا . وكان المسلمون السوريون في القاهرة يفضلون الحماية الانكليزية على الحماية الفرنسية لبلادهم . واما المسيحيون فانهم كانوا يرغبون في الحماية الفرنسية .

وصلت هذه الحقائق التي ذكرناها والتي نقلت عن وثائق رسمية من القنصلية الفرنسية في دمشق الى ايدي الحكام الترك وعلى رأسهم جمال باشا وقد عرف الشريف حسين عنها الشيء الكثير وعرف ايضاً ان لبنان المسيحي متمسك بفرنسا وان فرنسا نفسها لن تترك سوريا مهما كان الثمن وان انكلترا لها مطامع في العراق وفلسطين وان الصهيونية تبذل نفوذها لانشاء وطن لها ولا بد ان نذكر هنا للتاريخ ان السير هنري مكماهون صرح للشريف حسين في مراسلاته المشهورة - مراسلات حسين - مكماهون - ان بعض المناطق في سوريا ولبنان - ولا سيما الشواطىء - لا يمكن اعتبارها عربية محضة لان انكلترا لم تجد مناصاً من احترام المطامع الفرنسية في سورية والخضوع للمطامع الصهيونية في فلسطين وكان فيصل متأكداً ان انكلترا وفرنسا لن تتركا الغنائم في الشرق العربي لابيه وامرته بالسهولة التي ظنها بعضهم من ضعاف الاحلام في السياسة .



شكري غانم

وحارب شكري غانم الاديب اللبناني المتفرنس نفوذ الاسرة الهاشمية في سورية وكتب عدة

مقالات بهذا الشأن في صحيفة « الفيجارو » عام ١٩١٩ وعـد فيصلاً وحسينا اجنبيين عن سورية وقال انهما لا يحق لهما تمثيل دمشق حتى ولا ابداء الرأي بشأن استقلالها وهاك كلماته بالحرف الواحد بشأن مراسلات الحسين - مكماهون : « أيمكن اتخاذ سلسلة خطابات سرية تعقبها اجتماعات تكميلية ذريعة للمطالبة بحقوق قانونية ثابتة ؟ وهل مجرد اصدار صك بهذه الطريقة وبهذا الثمن الفـادح وباسم شخص ثالث - يعني سورية - يجهل جهلاً تاماً ما جاء فيه وليس هو مديناً لاحد يمكننا ان نصبح دائنين فعلاً ؟ » ثم يسخر من الحجاز واهله ويردد : «ليت شعري ماذا عسى ان يجود به الحجاز مع شدة افتقـاره المزمن الى التثقيف العقلي على سورية الفتية »؟

واتهم شكري غانم الامير فيصلاً حينما كان يجاهد في اوروبا لانتزاع الاستقلال السوري من مؤتمر الصلح بتمويه الحقائق والسعي في بذر نيران الثورة والاغتيال قال : « ان اقصى غرض الامير ومعاونيه بعد وصولهم لسورية ان يحولوا دون ظهورهم بمظهر اصحاب المبادىء الكاذبة . فبدرة المال المصحوبة بالوعود والتظاهر بالثراء والقوة ودس الدسائس ضد فرنسا الحليفة والوعيد والقتل كل ذلك جرب بلا انقطاع فقد قبض فيصل على كثير من وجهاء بعلبك لا لجريمة سوى التصويت لفرنسا ... اذا كانت سورية تطلب فيصلاً حقاً فلمـاذا يلجأ الى ارتكاب المحرمات على سائر انواعها والمساومة والرشوة والفساد والارهاب والاجرام »

واصبح الامير فيصل مصيبة من المصائب تنزل على امثـال شكري غانم ومصيبة لا يستحقها امثاله من المتمدنين . ان وجوده في سورية يعني غلبـة « الوحشية » على « المدنية » وان تمزيق سورية اي اعطاء دمشق وحلب وحمص وحماه (المدن الاربع) وخلعها من النفوذ الفرنسي والسيطرة الاستعمارية وتسليمها لفيصل الحجازي امر لا يستسيغه منطق ولا عقل . وهكذا وجدت الاسرة الهاشمية نفسها امام حرب قوية لا هوادة فيها من بقايا شباب الاصلاح في بيروت ولبنان وقد ارتمى معظم هؤلاء بين يدي فرنسا يمجدونها ويمجدون احتلالها لوطنهم . ولعلنا لا نخطىء اذا قلنا دون رهبـة ان فرنسا وجدت في دمشق ايضاً بقايا شباب

الاصلاح من دعاة الامبراطورية العربية يسجدون على قدميها في سبيل منصب او وظيفة او ابتسامة رضى من شاويش صغير. وكان على فيصل ان يتفهم الامور بذكاء وان يتحمل في سبيل الاستقلال العربي من فرنسا وانكلترا واشياعهما ما لم يتحمله من الاتراك وعلى رأسهم جمال .

•

جمعية النهضة اللبنانية

اختلف الشباب العربي في نزعته الاصلاحية فجمعية النهضة اللبنانية التي اسست في جبل لبنان والتي كانت تعتمد في دعوتها الى تمهيد السبيل امام فرنسا لاحتلال سورية ولبنان على السواء كانت ذات فروع عديدة اهمها فرع باريس وفرع القاهرة وفرع نيويورك. وكان مؤسسو هذه الجمعية هم آل الخازن وكانوا يرعونها في الجبل بنفوذهم وباموال فرنسا . اما في بيروت (الولاية) فكان من اعضائها البارزين الصحافي خليل زينيه والمحامي المعروف مراسل صحيفة التيمس اليوم الاستاذ دعيبس المر والاستاذ يوسف الغلبوني وهو معلم في مدرسة اليسوعيين . واما في القاهرة فكان السيد اسكندر عمون رئيسها وداود عمون من اعضائها وكان آل عمون ينفخون فيها روح الحياة وكانت الجالية اللبنانية تعضدها وتغذيها بالاموال . وكان يرأس فرع باريس الكاتب شكري غانم والصحافي خيرالله خيرالله وهو احد كتبة جريدة الطان في قسمها الشرقي والكونت جريصاتي وغيرهم . اما حامل لوائها في الولايات المتحدة فكان نعوم مكرزل ، صاحب جريدة الهدى المعروفة .

وبدأت هذه الجمعية الدعوة للنفوذ الفرنسي في جبل لبنان كما انها سعت السعي الحثيث لالحاق مدينة بيروت بلبنان وضم البقاع اليه ايضاً وجاء خير الله خير الله مراراً الى الجبل قبيل الحرب العامة الاولى وجال في قراه داعياً سكانه الى الالتفاف حول فرنسا. وحاولت هذه الجمعية ان تشتري الصحافة البيروتية فادخلت سعيد عقل وهو صحفي لبق في عداد المحررين في جريدة الاتحاد العثماني فاصبحت

تنطق بلسانها وصرت تلمس بين سطورها النزعة الفرنسية وقد برهنت محكمة عاليه العرفية ان نظارة الخارجية الفرنسية كانت ارصدت بعض الاموال لشراء الصحافة فنجحت في استمالة المغفور له الشيخ احمد حسن طباره صاحب الاتحاد العثماني وقد كلفته هذه الاعانة حياته . ولعل اكبر من صال وجال بين مكاتب الصحف قبيل الحرب العالمية الاولى في سبيل فرنسا هو السيد رزق الله ارقش فكان يتظاهر للاصلاح ويعمل مع الاصلاحيين ثم يخدم جمعية النهضة اللبنانية ومبادءها . وكنت ترى نفوذه بارزاً في جريدة الاحوال وجريدة النصير وجريدة الثبات وجريدة زحله الفتاة وكان يتعهد هذه الصحف بتعاليمه وباموال القنصلية الفرنسية في بيروت . ولو كانت نزعة هذه الصحف لبنانية بحتة لاثنينا عليها ولكنها كانت تؤمن بفرنسا ايمانها بلبنان وكانت تتناول من صندوق الاموال السرية الفرنسية مايحركها للدعاوة لفرنسا في بلادنا .

واغرت جمعية النهضة اللبنانية رجال بيروت الاصلاحيين ان يقولوا بقولها وان يضموا بيروت الى لبنان وكان اشهر الدعاة الذين عرفوا كيف يتصيدون رجال الاصلاح في بيروت هم السادة رزق الله ارقش وجورج رزق الله وخليل زينيه . والحقيقة التي لا مراء فيها ان الاصلاحيين البيروتيين كانوا يرجون اصلاح البلاد العربية في جميع مؤسساتها الادارية وتعزيز اللغة العربية وحكم البلاد حكماً ذاتياً ولم يكونوا من دعاة الاحتلال الفرنسي او الاحتلال الاجنبي على اطلاقه كما كان رجال النهضة اللبنانية .

اما جمعية الاصلاح فقدظهرت في بيروت وكانت ترغب اصلاحاً جدياً في دوائر الحكومة المختلفة كدوائر الجمارك العامة والبلدية والبوليس وغيرها وكان رجال النهضة اللبنانية يحرضون جمعية الاصلاح على ادخال الاجانب مفتشين ومستشارين في هذه الدوائر وان يمنحوهم حقوقاً لا يجوز لدولة ذات سيادة ان تعترف بها . واهتمت الحكومة العثمانية بمطالب الاصلاحيين وقبلت ان تتبنى برامجهم وقد ادرجت لوائحهم الاصلاحية في جريدة بيروت الرسمية وهذا ما قالته جريدة بيروت الرسمية بالحرف الواحد بتاريخ الاول من كانون الاول سنة ٣٣٨ تركية : « بناء على

العرض الواقع من قبل والي ولاية بيروت الى مقام الصدارة العظمى بلزوم ايجاد اصلاحات فعلية بالولاية ضمن توسيع الصلاحية المحلية بصورة تضمن الرفاهية والعمران ورد الجواب من الصدارة العظمى بعد المفاوضة بالمسألة في مجلس النظار فكان فيه ان لا بد من اتخاذ التدابير والمقررات الاصلاحية بما يعود لولاية بيروت ولا بد من اجرائها اثناء التشبث بالاصلاحات العائدة لجميع الولايات العثمانية المقرر لدى الدولة اجراؤها ومع هذا فقد صدر الامر باجراء المذكرات من الان في مجلس الولاية العمومي بما يتعلق بالاصلاحات المقتضية وتنظيم اللوائح القانونية وتهيئتها وعند افتتاح مجلس الامة لابد ان يجهر مبعوثو الولاية بالاحتياجات المحلية الحقيقية »

وكانت الحكومة العثمانية ترجو صادقة ان تقوم باصلاحات جمة فتولي السوريين كثيراً من المناصب وتعطي رجالات العرب حقوقاً متنوعة في ادارة الدولة ولكن الدول الاجنبية كانت تحوك الدسائس الداخلية في جميع انحاء المملكة وتتآمر خارجياً على سلخ املاكها في اوروبا وافريقيا والمشرق . وكانت الدولة العثمانية ترى ان هؤلاء الاصلاحيين المخلصين يطلبون منها اصلاحات ليس في مقدورها القيام بها طالما هي في حرب متصلة مع الاجانب ولكن ماذا تفعل الدولة العثمانية وماذا يفعل الاصلاحيون ودسائس القنصليات الاجنبية تشتري وتبيع الذمم الرخيصة في انحاء المملكة تحت ستار الامتيازات . وحرضت الدعاوة الفرنسية «وكان واسطة عقدها رجال النهضة اللبنانية » حزب الاصلاح البيروتي على اقفال مدينة بيروت فاقفلت المدينة وتمادى بعضهم في المشاغبة حتى اضطر والي بيروت الى اطلاق سراح رزق الله ارقش وخليل زينيه وجرجي رزق الله وكان قد اعتقلهم لثبوت تهم المشاغبة عليهم . وعلى كل لم يكن اشتراك هؤلاء السادة في حركة الاصلاح حباً بالاصلاح بل بدافع الشغب ليكون لفرنسا سبيل للتدخل في بيروت ولبنان .

وكاد البيروتيون يقتنعون انه اذا كانت الدولة لا يمكنها تبني برامج الاصلاح في مدينتهم فلتضم بيروت الى متصرفية جبل لبنان وقد نادى بهذا الرأي شكري غانم رئيس جمعية النهضة اللبنانية في باريس وخير الله خير الله احد محرري صحيفة الطان . واراد امثال هؤلاء الشباب ان يعجلوا في احتلال فرنسا لسوريا ولكن

الحرب العامة الاولى كانت على الابواب فتأخرت امانيهم من عام ١٩١٢ الى عام ١٩١٨ .

•

الجمعيات التي عملت على هدم الكيان العثماني

حاربت الحكومة العثمانية الاتحادية الشباب العربي الذي رأى ان لا حياة لامته وبلاده الا بالاستقلال والالتجاء الى دول اجنبية تساعده على اقتناص هذا الاستقلال . وكانت الحكومة العثمانية قبيل الحرب العالمية الاولى سائرة الى مصيرها المحتوم من الانحلال والفناء لان اوروبا قررت فيما بينها تقسيمها وابتلاعها. وقد قبضت حكومة جمال باشا في سورية ولبنان على من قدرت عليه من اعضاء جمعيات « الاخاء العربي » و « المنتدى الادبي » و « الجمعية القحطانية » و « جمعية العهد » و « الجمعية الثورية العربية » و « النهضة اللبنانية » و « الجمعية الاصلاحية » و « الجمعية اللامركزية » واتهمتهم بالخيانة العظمى وقررت محاكمتهم على اساس الوثائق والاوراق التي تثبت ادانتهم بنظرها والتي وجدت في منازل قنصلي فرنسا في بيروت ودمشق . ثم زادت على هذه الوثائق الاعترافات الخطية التي كتبها بعض المتهمين والمخابرات التي جرت بين فرنسا وانكلترا وبينهم . أسست هذه الجمعيات بعد اعلان الدستور العثماني وبالطرق القانونية وكانت مقاصدها علمية واجتماعية وسياسية وكلها تهدف حسب مناهجها لخير العرب ورقيهم وساندت هذه الجمعيات اموال العرب في المهاجر الاميركية كما ان كثيراً من الوطنيين في سورية والعراق ومصر كانوا يمدونها بالاعانات الشهرية والسنوية . وانقلبت هذه الجمعيات قبيل الحرب العالمية الاولى الى حزب كبير عرف بحزب اللامركزية الذي نما وازدهر في مصر وكان هذا الحزب يعمل سراً لتأسيس خلافة عربية في القاهرة فتنقلب « الخديوية » الى « خلافة » تحت الحماية الانكليزية . ثم كان اللامركزيون يعملون بوحي السياسة الى تقسيم سورية كلها الى ثلاثة اقسام قسم فلسطيني يمتد من حيفا

الى السويس ويكون تحت السيطرة البريطانية - ولم يفكر اللامركزيون وقتئذ بالصهيونية واسرائيل وهذا دليل كبير على قصر نظرهم - وقسم سوري يمتد من حيفا الى الاسكندرونه في الشمال ويضم مدن حمص وحماه وحلب ودمشق ويكون تحت الحماية الفرنسية ويحكمه امير مسلم وقسم يسمى جبل لبنان شرط ان توسع حدوده فتلحق به بيروت والبقاع . وكانت غاية اللامركزيين انفصال البلاد العربية عن جسم الدولة العثمانية دون ان يتأكدوا من النتائج التي تنجم عن هذا الانفصال أو يؤدي بالفعل الى حماية واحتلال اجنبيين. ثم كانت غاية اللامركزيين البعيدة بث روح القومية العربية عند شبابهم حتى يتمكن العرب من الاستقلال.

وكانت فرنسا تعرف حق المعرفة « واثبتت هذه الحقيقة رسائل المندوب السياسي الفرنسي في القاهرة الى حكومته » ان مسيحيي سوريا لا يعارضون الحماية الفرنسية على سوريا ولبنان ولا يقاومونها بل يرحبون بها وهم متفقون ومجمعون على هذا الامر . واما المسلمون فانهم منقسمون فبعض كبرائهم يفضلون الحماية البريطانية وبعضهم لا يستنكر الحماية الفرنسية . وهذه الآراء التي ادلى بها المندوب السياسي الفرنسي في مصر لحكومته كانت مستمدة من الجالية اللبنانية السورية في القاهرة . ولاريب في ان آراء الحماية والاحتلال وتقسيم النفوذ البريطاني الفرنسي لبلادنا كان من وحي الدعاية الاجنبية وبأصابع بعض المأجورين من الوطنيين الذين يظنون ان التجارة في مقدرات البلاد هي امر فيه منافع كبيرة . والحق ان بعض الوطنيين خدموا الاجانب عن عقيدة ولعلهم عرفوا اليوم معاني الاستعمار واساليبه ومعاني العبودية ونتائجها . وأما البعض الآخر فانهم اندفعوا مع الاستعمار كرهاً بالدولة العثمانية وبمظالمها .

والمهم ان نتعرف الآن الى الجمعيات العربية التي عملت في سبيل تهديم الدولة العثمانية من الداخل لينال العرب استقلالهم ولعل أول جمعية عرفناها هي جمعية « الاخاء العربي » وقد اسست عقب اعلان الدستور وكان أهم من عمل في سبيل هذه الجمعية شفيق بك المؤيد العظم نائب دمشق وندره المطران من زعماء بعلبك وعبد الكريم الخليل وعبد الوهاب الانكليزي فانهم احتفلوا بتدشين ناديها في

« بك اوغلي » باستنبول وخطب إذ ذاك كل من شفيق بك المؤيد العظم وندره المطران وقالا إنهما ينشآن هذه الجمعية لتحافظ على حقوق العرب وتنهض بمستواهم الثقافي والاجتماعي والسياسي .

وعطف على هذه الجمعية رجالات العرب امثال حقي العظم وعبد الحميد الزهراوي ورضا الصلح وحسين حيدر والشيخ رشيد رضا صاحب مجلة المنار ورفيق العظم المؤرخ وعبد الغني العريسي صاحب جريدة المفيد في بيروت . وكان لسان حال هذه الجمعية صحيفة « الاخاء العثماني » وكان يشرف على ادارتها وتحريرها شفيق بك المؤيد العظم وقد صدرت في عاصمة الخلافة . وقامت لهذه الجمعية فروع في القطرين السوري والعراقي واصبح لهـا اعضاء عديدون يمدونها بالاموال والاعانات . واخذت صحيفة الاخاء العربي تشجع فكرة الاستقلال العربي وتحارب الطورانية المتطرفة التي تقول بتتريك العناصر العثمانية وكانت لا تتورع ان تذكر الضعف والشيخوخة السياسية التي منيت بها الدولة العلية وتكتب المقالات بعناوين « الترك والعرب » وهي مقالات نارية وكلها ضد الحكومة . وجارتها في هـذا المضمار الصحف العربية التي كانت تصدر في مصر والمهاجر الاميركية وسورية ولبنان امثال المفيد والاتحاد العثماني والاحوال والحرية والمهذب والاهرام والمقطم والمؤيد والنهضة والهدى والحمراء ، ولا ريب في ان كل من يقرأ هذه المقالات كان يتأكد ان الدولة العثمانية دولة عاجزة هرمة ستلاقي حتفها انْ عاجلا وانْ آجلا . ولما تمادت هذه الجمعية وصحيفتها في غلوها اضطرت الدولة ان تقفلها وتقفل صحيفتها وجميع فروعها في انحاء المملكة . وكان بعض اعضائها من الوصوليين اذ انهم حينما اسندت اليهم بعض المناصب صاروا اشد من الترك تعصباً « للعثمانية » .

●

المنتدى الادبي في الاستانة

أخذت الدولة العثمانية على الشباب الاستقلالي العربي الذي اعدمته في دمشق وبيروت في عامي ١٩١٥ و ١٩١٦ انتسابه للمنتدى الادبي في الاستانة . وقام المنتدى الادبي في الاساس على انه دار للطلبة العرب في عاصمة الخلافة يبيتون فيه ويمضون في ردهاته اوقات فراغهم ويطالعون الكتب المفيدة ويستمدون المعلومات الهامة من المحاضرات العلمية التي كانت تلقى على منابره . وكان يقع هذا المنتدى في محلة « بارمق قبو » وقد اسسه السيد عبد الكريم الخليل وكان شاباً مليء الحركة نشيطاً لا يفتر عن العمل فقام مع بعض زملائه بتمثيل رواية صلاح الدين الايوبي وجمع من ريعها ستين ليرة عثمانيـة ساعدته على تأثيث ناديه ودفع ايجاره السنوي . ووهب عزة هولو باشا العابد منحة كبيرة قدرها مائة وخمسون ليرة عثمانية لهذا المنتدى . وشرعت الهيئة الادارية لهـذا المنتدى تدرس اللغات التركية واللغات الاجنبية لاعضائه اول الامر لكنهـا انحرفت في النهاية عن هذه المقاصد وراحت تبث فيهم الروح الاستقلالية العربية ووجوب الانفصال عن الدولة العثمانية . وترأس المنتدى السيد عبد الكريم الخليل بفضل نشاطه ونفوذ خليل باشا وزير الاوقاف والسيد عبد الحميد الزهراوي وكان المنتدى الادبي مركز الفكرة الاستقلالية والنهضة العلمية العربية وقد حاضر فيه خيرة المتعلمين امثال الشيخ رشيد رضا صاحب المنار في القاهرة والشيخ عبد الحميد الزهراوي منشيء صحيفة « الحضارة » في الاستانـة والقائد عزيز علي المصري ونـدره المطران وسليم بك الجزائرلي وكان الشاعر الحمصي رفيق رزق سلوم يلهب المشاعر بقصائده الحماسية التي كانت تتغنى بالامجاد العربية والحكم العربي القديم .

وشجعت في المنتدى الادبي فكرة فصل سورية عن الامبراطورية العثمانية وقد فاوض شفيق المؤيد العظم سفير فرنسا في الاستانة بهذا الشأن وطلب الى الحكومة الفرنسية ان تكون لهم خير نصير كما ان القائد عزيز علي المصري كان يبث في رجالات العرب الذين كانوا يخدمون في الجيش العثماني روح الثورة والتمرد على

الحكومة . وطالما بحث الشباب في المنتدى الابحاث الشيقة عن القومية العربية وكانوا دائماً يصلون الى النتيجة المحتومة وهي ، ان نفراً ضئيلاً من الاتراك يحكمون هذه الامة العربية المنتشرة في المشرق ، ويحكمونها ظلماً وعدواناً .

وكان لهذا المنتدى شعبة عرفت بشعبة الدعاية والنشر ومهمتها تشويق الشباب وعلى الاخص الطلاب العرب الذين يهبطون الاستانة للدرس في الانخراط اعضاء بهذا المنتدى وكان على رأس هذه الشعبة عبدالكريم الخليل وسيف الدين الخطيب. وكانت هذه الشعبة توزع المناشير الثورية التي كانت تطبع في القاهرة او في مطبعة صحيفة المفيد في بيروت بين الشبيبة العربية بصورة حاذقة وخفية . وحضت هذه الشعبة اعضاء المنتدى على الاشتراك في صحيفة الحضارة التي كان يصدرها عبد الحميد الزهراوي في الاستانة ومجلة المنار التي كان ينشئها محمد رشيد رضا في القاهرة وكانت تصل الى هذا المنتدى كل الصحف والمجلات التي كان يصدرها المفكرون العرب في المهاجر الاميركية وكلها كانت تضرب على وتر اليقظة العربية والاستقلال العربي . اما لسان حال المنتدى الادبي فكانت مجلة « المنتدى » وفيهـــا كنت تقرأ بعض القصائد والمقالات التي تحض العرب على مجاراة الامم الحيـة باسلوب مبهم . وكانت ترد الى المنتدى نشرات حررها المتطرفون من الشباب العربي وكلها تحرض على قتل المتنفذين من الحكام الاتراك والثورة على الدولة . وكان يشرف على مجلة المنتدى الادبي السيدان عزة الاعظمي وعاصم بسيسو ، ولم يتورع هذان الشابان من ان يجمعا اعضاء المنتدى ليقرآ عليهم هذه النشرات الحماسية . والحقيقة التي لا مراء فيها ان المنتدى الادبي في الاستانة وجمعية الاصلاح في بـــيروت وقعتا بصورة مباشرة تحت تأثير رجال اللامركزية امثـال السادة رفيق العظم وحقي العظم والشيخ رشيد رضا فكان عبد الكريم الخليل دائماً يذهب الى مصر ويتلقى الوحي من هذه الادمغة التي ذكرناها كما ان هؤلاء الجماعة كانت ترسل سيف الدين الخطيب الى بيروت ليكون على صلة مستديمة مع الاصلاحيين وكان هم رجال اللامركزية ان يجعلوا حياة الاتحاديين الاتراك في جحيم مستديم فلا تستقيم لهم الامور وقـد حاربوا الدولة في الداخل حرباً لا هوادة فيها حتى انه ليمكننا ان نقول ان فرنسا

وانكلترا لم تحاربا الامبراطورية العثمانية كما حاربها اللامركزيون .

وعمر هذا المنتدى اكثر مما عمرت جمعية الاخاء العربي ولكنه في النهاية حل نفسه بنفسه لانه لم ينتظم حسابه ابداً ولان بعض الاعضاء كانوا مدينين له ... ولعل رجال المنتدى الادبي خافوا في النهاية ان يظلوا بين فكي الدولة اثناء الحرب العالمية الاولى فانتثر عقدهم وذهب اعضاؤه الى اوطانهم وقد قبض جمال باشا في سورية على بعضهم واتهمهم بالتآمر على سلامة الوطن العثماني واعدمهم بعد محاكمة سنأتي على تفاصيلها .

وحاول رجال المنتدى الادبي ان يبثوا الفكرة الاستقلالية في دمشق ولكن دمشق كانت تغط في نومها وتمشي وراء الاتحاديين ولم تتململ نحو العروبة والاستقلال الا في العهد الفيصلي وثبت في النهاية ان المنتدى الادبي كان يحيا بالنفوذ المادي والادبي الذي كان يتمتع به آل العظم وطالب باشا النقيب نائب البصرة وعزيز علي المصري البكباشي في الجيش وآل المطران من بعلبك ورشدي الشمعة من دمشق .

•

الجمعية القحطانية وجمعية العهد

الف الشباب العربي الذي كان يهدف الى الانفصال عن جسم الامبراطورية العثمانية كثيراً من الجمعيات كالاخاء العربي والمنتدى الادبي وقد حاول بعض من كانوا اعضاء في هاتين المؤسستين ان ينشئوا جمعية سرية تضم اكبر عدد ممكن من الاعضاء واطلقوا عليها اسم الجمعية القحطانية وكان يجوز لكل عضو من اعضائها ان يدخل عضواً غيره دون ان يستأذن المركز الاساسي الرئيسي للجمعية وكانت علامة التعارف بين القحطانيين - « بضغط احد الاصابع على يد المسلم عليه وبوضع الاصبعين اصبع الشهادة والاصبع الوسطى في المجالس على الذراع الايسر واخفاء بقية الاصابع » - وكان اذا التقى احد الاعضاء الكبار مع عضو آخر لا يقل عنه

قدراً افتتحا الحديث بعد تبادل اشارات الاصابع بتهجية كلمة « هلال » فاذا قال الاول « هاء » قال الثاني « لام » ثم اعقبه الاول « بألف » ثم مضى الثاني ينطق « بلام » . وكانت تهجية كلمة « ابي بكر » مفتاحاً آخر للتعارف . وكانت هذه الجمعية السرية تبث الدعاية في طول البلاد العثمانية وعرضها عن ضعف الدولة والفوضى الادارية الناشبة في جهازها وكانت ترجو مخلصة ان يكون تأثيرها في الدرجة الاولى على العسكريين العرب من رجال الجيش .

وقامت هذه الجمعية بعد اعلان الحرية بسنة واحدة كان من مؤسسيها خليل باشا حماده وعبدالحميد الزهراوي وعزيز علي المصري – وكان من اركان حرب الدولة العلية – والبكباشي سليم الجزائري وانضم اليهم فيما بعد حقي العظم وعزة الجندي وحاول زعماء الجمعية القحطانية ان يهيئوا لها خلايا في بيروت ودمشق تضم كل خلية من الخلايا عشرة اعضاء يكون عليها رئيس ثم يجتمع هؤلاء الرؤساء الى رئيس اعلى يكون المعتمد الاول لدى الجمعية. وانبثق من هذه الجمعية القحطانية ثلاث جمعيات كان المحرك الاقوى في تأسيسها عزيز علي المصري وكان اولها جمعية العهد التي كانت تهدف الى جمع العسكريين العرب من رجال الجيش العثماني في بوتقة واحدة. وكانت لا تضم بين اعضائها غير الضباط وكانت تسعى دوماً لان يعين هؤلاء الضباط في بلاد عربية حتى يسهل عليها رفع علم الثورة على الدولة ذلك لان القوة التنفيذية العسكرية كانت بيد هذه الشبيبة من العسكريين. واتفق الحزب اللامركزي مع جمعية العهد على استعجال الثورة ضد الاتراك ومن ثمة اتفق الفريقان فكانا يداً واحدة .

ولبست جمعية العهد ثوباً جديداً حينما اتحدت مع اللامركزية في القاهرة فسمى اعضاؤها انفسهم برجال الجمعية الثورية العربية وقد وضع لها هذا الاسم عزيز علي المصري بعد ان هبط مصر بعد العفو عنه من تهمة الخيانة التي وجهتها اليه الحكومة الاتحادية بلسان انور باشا زميله في المدرسة العسكرية وفي حرب طرابلس الغرب ضد الطليان .

والحق ان عزيز علي رجع من استانبول وهو يشعر ان الاتراك لم ينصفوه رغم خدماته للدولة ولم يقدروه قدره فاصبح انور باشا زميله ناظراً للحربية وحرموه

وهو العربي من المراتب العالية بعد ان خدمهم عشرين عاماً في مختلف الجبهات فتأجج قلبه بالحقد عليهم وراح يغذي الجمعية الثورية العربية بكل ما في نفسه من ضغينة عليهم ولا سيا بعد ان حكموه بالاعدام ولم يفلت من ايديهم الا تحت طائلة الضغط الاجنبي الشديد. وصادف هواه هوى في نفس اللامركزيين في القاهرة امثال حقي العظم وفؤاد الخطيب والشيخ رشيد رضا وغيرهم فاتحدت مقاصدهم جميعاً واعلنوا ان لا حياة لهم الا بالانفصال عن الترك الطورانيين وراح رجال الثورة العربية واللامركزية يتخذون القاهرة وكراً لبث دعايتهم ضد الدولة العثمانية فقالوا ان هذه الدولة اصبحت ذليلة مهانة امام الروس والطليان ودول البلقان فقد كسرت جيوشها امام جيوشهم وهي مع الاسف الشديد لا تقدر الا ان تعبث بارواح العرب فتجرد عليهم السلاح وتبعث بالضباط السوريين والعراقيين الى التهلكة في محاربة الادريسي وابن السعود والامام يحيى. واصدر رجال الثورة العربية منشوراً قالوا فيه: «ايها الضباط العرب يا من وشحتم انفسكم لسلوك مسلك تضحية النفس من اجل البلاد. ليس العدو في الخارج بل هو في الداخل»... ويجب ان تعلموا مكانكم في نظر هذه الحكومة ويجب ان تعتقدوا انه لا حكومة لكم بل انتم في وسط اعداء وهذه الدولة ليست دولتكم».

وحرضت جمعية اللامركزية جماعة الثورة العربية الشباب على قتل الاتحاديين واغتيال الولاة وتجريد المسدسات في وجوه الترك «لان حياة المجموع لا بد له من موت بعض الافراد» ثم اعلنت لهم في ظروف عديدة ان العرب في نظر الطورانيين كقطيع من الماشية يجزون صوفها ويشربون لبنها ويأكلون لحمها. وبلاد العرب هي في عقيدتهم مزرعة ورثوها عن آبائهم وسكانها عبيد اذلاء لهم وطالما حركت فيهم الهمم فذكرت لهم ان الارمن نالوا استقلالهم الاداري على قلتهم رغم انف الدولة التركية وانهم واصلون حتما الى ادارة شؤونهم وحكم انفسهم بانفسهم واما العرب فهم سيظلون عبيداً لسلالات جنكيز وهولاكو وتيمورلنك وان اموالهم تنفق على قصور الاستانة وما فيها من انواع البذخ والترف والخمور والموبقات. وحضت اللامركزية العرب مسلمين ونصارى على الاتحاد والوئام لانهم يقطنون ارضاً واحدة

ويتخاطبون بلغة واحدة ثم نشرت ان الفدائيين من اللامركزيين سيقتلون كل من يقاوم الاصلاح على مبدأ الاستقلال التام وتأليف دولة عربية لامركزية وسيبدؤن عملهم بازالة وجوه بعض الثعالب من المتزلفين العرب الذين يعيشون رهن اشارة الغلمان الاتراك السفاكين .

تبلورت اخيراً كل آراء ومبادىء الجمعيات العربية السرية والعلنية منها على طلب الاستقلال التام الا ان الكثير من اعضاء هذه الجمعيات كان يعتقد ان المساعدة الاجنبية والحماية الاجنبية والاحتلال الاجنبي واجبة كلها فاختلفت النزعات وراح بعضهم يعمل لحساب انجلترا او لحساب فرنسا فاعدمت تركيا بيد جمال باشا من وقع في شراكها وافلت من افلت واصبح من الحكام والسياسيين الذين يشار اليهم بالبنان في الدول العربية الحديثة وسبحان مقسم الحظوظ .

جمعية الاتحاد والترقي ≠ جمعية الحرية والائتلاف (الاتحاديون) مالت الى العرب تنادي الى الاصلاح على اسس اللامركزية (الاصلاحيون)

•

المؤتمر العربي في باريس

ايار ١٩١٢

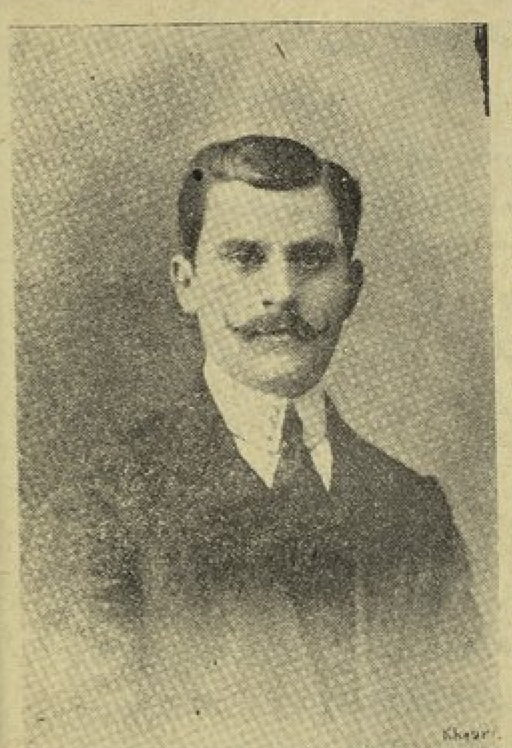
حكمت الامبراطورية العثمانية بعد اعلان الدستور عام ١٩٠٨ جمعية الاتحاد والترقي وكانت تنافسها في انتزاع السلطان جمعية الحرية والائتلاف وقد مالت هذه الجمعية الاخيرة الى العرب لتنال منهم المساعدة والقوة فشجعت احزابهم على التنادي الى الاصلاح على اسس اللامركزية وأسست جمعيات للاصلاح في بيروت والبصرة . وكان الاصلاحيون يعتقدون ان غلمان الترك وهم الاتحاديون قد أضاعوا من الدولة بلغاريا والبوسنة والهرسك وطرابلس الغرب وبنغازي وسلانيك وانهم اغرقوا الخزينة العامة بديون مريعة عواقبها الافلاس المحتم . ثم اتفقوا مع انكلترا على تسليمها مسقط والبحرين



عبدالحميد الزهراوي

ومنحها امتيازات عديدة في العراق . ثم ان الاصلاحيين يرون ان بلادهم العربية

ستصبح نهباً مشاعاً للاجانب ولاصحاب القصور في الاستانة فقرروا ان تصرف اموال الجباية التي تجمعها الدولة من بلادهم على مرافق بلادهم وان لا تبيح للدول الغربية امتيازات جديدة في اقطارهم قد تعرضها للاحتلال وتقضي على الثروة الوطنية . وكان الاصلاحيون يجاهرون انهم لا يرجون من وراء الاصلاح الا ان يظلوا عثمانيين تظلهم الراية العثمانية وترعاهم دولة الخلافة العظمى وانهم يربأون باوطانهم واعراضهم واموالهم ان تصبح نهباً مقسماً بين الاجانب . وراح الاصلاحيون يخاطبون رجال الجيش العثماني ويقولون ان الجنود البواسل الذين اخذوا على أنفسهم حماية الاوطان سيكونون من ورائهم في مطالبهم المشروعة وان سيوفهم لن تكون عليهم بل على الاجانب



عبد الغني العريسي

الذين يريدون السوء بهذا الوطن والمؤلم أن طالب باشا النقيب زعيم البصرة وأحد أركان الاصلاحيين كان اول من خضع للانكليز حينما هاجمت جيوشهم العراق في الحرب العالمية الاولى كذلك فعل بعض إصلاحيي بيروت فقد كانوا خدام الاحتلال الفرنسي عام ١٩٢٠ .

وامتدت اصابع رجال اللامركزية في مصر الى الاصلاحيين في مختلف البلاد العربية العثمانية وكان اللامركزيون يعتقدون تمام الاعتقاد ان الدولة العثمانية مصيرها الانحلال بعد الحرب البلقانية ولذا أرادوا أن يلموا شملهم لعلهم يجعلون من سورية

امارة تظلها اما الحماية البريطانية واما الحماية الفرنسية . وراح اللامركزيون يساندون الائتلافيين منافسي رجال الاتحاد والترقي لعلهم يفوزون بامانيهم لان الائتلافيين كانوا اقرب الى التفاهم على تقسيم الامبراطورية العثمانية من الاتحاديين.

وبذل الائتلافيون جهوداً جبارة لفتح فروع لحزبهم في سورية ، وكان عبدالكريم الخليل وشكري العسلي وعبد الحميد الزهراوي ويوسف مخيبر وسليمان حيدر من اكابر صنائعهم .



الشيخ احمد حسن طباره

ورأى الاصلاحيون أن يشددوا على الحكومة الاتحادية في تنفيذ مطالبهم فأبت لانها كانت في حال بائسة من جراء الحرب البلقانية فصمموا أن يعقدوا مؤتمراً لهم في باريس وقد شجعتهم على القيام بهذه الخطوة الجريئة وزارة الخارجية الفرنسية فقال وزير خارجيتها في حفل عام « انا المحامي عن سورية » وتنادى الشباب العربي المقيم في باريس ومعظمه من الطلاب النابهين والزعماء الكبار امثال شكري غانم وجميل مردم بك وعبد الغني العريسي وشارل دباس وندره المطران ومحمد المحمصاني وعوني عبد الهادي وتوفيق الناطور للدعوة الى هذا المؤتمر والفوا منهم لجنة للعمل على انجاحه ، وأقاموا عبد الغني العريسي سكرتيراً له وكان يقيم في ١٧ شارع كلود برنارد بباريس . وزرت هذا الشارع والفنادق التي كان يعيش فيها

الإصلاحيون يصممون على عقد المؤتمر العربي في باريس ١٩١٢

هؤلاء الطلاب فاذا هو شارع للطلبة الاغراب واذا فنادقه توفر لساكنيها حاجاتهم الضرورية فحسب .

ووجهت هذه اللجنة بياناً قالت فيه انها ترجو ان يبحث المؤتمر العربي في باريس التدابير الواجب اتخاذها لوقاية (الارض المترعة بدماء الآباء العظام ورفات الاجداد الاباة) وانقاذها من الاحتلال الاجنبي والاستبداد وبحث مطالب البلاد الاصلاحية على قواعد اللامركزية . ووجهت اللجنة الدعوة لعقد هذا المؤتمر في ايار عام ١٩١٣ وحضره كثير من وفود المهاجرين العرب في اميركا الشمالية والجنوبية واوروبا ومصر . واني ما أزال اذكر وفدنا البيروتي الذي ذهب ليمثل الاصلاحيين في هذا الثغر وكان من اعضائه السادة : احمد مختار بيهم وسليم علي سلام والشيخ احمد حسن طباره



احمد مختار بيهم

والوداع الحافل الذي ودعت به بيروت هؤلاء الكرام . وكانت تتمثل في هذا المؤتمر الامة العربية – ذات الوجود الحي الذي لا ينحل والمقام العزيز الذي لا يُنال – وكان من أجل غايات المؤتمر مصارحة الدولة العثمانية ان اللامركزية هي « قاعدة حياة العرب » وان على الدولة أن تشارك العرب في الادارة العامة والدفاع والسياسة الخارجية والمالية . وأما في داخلية بلادهم فهم شركاء انفسهم .
وبحث المؤتمر في جلساته المتعددة .

١ – الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال .

٢ – حقوق العرب في المملكة العثمانية .

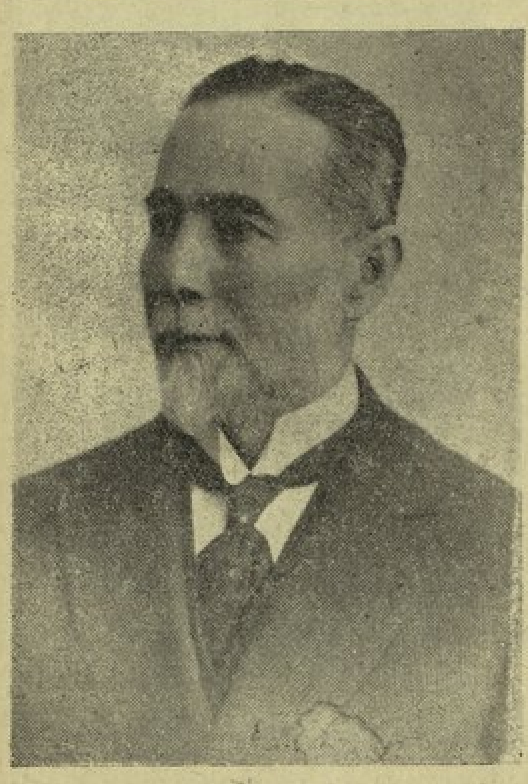
٣ – ضرورة الاصلاح على قاعدة اللامركزية .

وتشعبت الابحاث في المؤتمر وتدخلت الاصابع الاجنبية فيه وبدأت المفاضلة

بين الحماية الانكليزية والحماية الفرنسية على سورية تلعب دورها السيء، وأخـذ الاتراك يعدون الشباب العربي بالاصلاح لعلهم بذلك يقضون على المؤتمر، وما تزال كلمة المغفور له احمد مختار بيهم ترن في الآذان حينما صرح معلناً انـه لا يبحث في الحمايات الاجنبية وانما يرجو اصلاحاً داخلياً تزدهر به البلاد وانه لن ينفصل عن الامبراطورية العثمانية وهذا ما أنقذ عنقه وعنق المرحوم السيد سليم علي سلام من اعواد المشنقة في محاكمة الديوان العرفي بعاليه. وذهب كثير الى المؤتمر ولكن قبل أن يحضروه أخذوا التعليمات اللازمة من السفارات والقنصليات الفرنسية، وهذا ما جعل للمؤتمر صبغة — غير استقلالية صريحة — وهذا ما حدا بالسيد احمد مختار بيهم ان يلقي كلمته المشهورة في المؤتمر امـام الفرنسيين من موظفي وزارة الخارجية والصحافة قال:

« انا نحترم فرنسا والفرنسيين ولكننـا لا نرضى ان يحتلوا بلادنا ويكونوا أسيادنا بل اننا نرغب في ان يعاضدوننا لاصلاح ادارتنا الداخلية شرط أن نظل عثمانيين. ولتتأكد فرنسا ان السوريين لن يفتحوا صدورهم لفرنسا كما قيل لكم ».

وأغضب تصريح احمد مختار بيهم جماعة النهضة اللبنانية، وكل من كان يسعى للحماية والاحتلال الاجنبيين، ومنذ ذلك الحين سعت فرنسا لقتل



سليم علي سلام

الحركة الاصلاحية في البلاد العربية العثمانية ولم تعد لتثق بالاصلاحيين منذ ان احتلت بلادنا عام ١٩١٨ .

ونفذت تركيا بعض وعودها بالاصلاح فعينت كثيراً من العرب في الوظائف الرئيسية وفتحت مدرستين ثانويتين في بيروت ودمشق عرف كل منهما باسم المكتب السلطاني ورشحت بعض كبار اللامركزيين للوزارة ولعضوية الاعيان . وهكذا انفض المؤتمر عن نتيجتين :

الاولى – غضب الاجانب وبصورة خاصة فرنسا على الاصلاحيين . والثانية انقسام العرب على بعضهم البعض لانه لم يكن بعضهم ذي وجه استقلالي صحيح .

●

تبلبل الآراء عند الاحزاب العربية

عمل شفيق بك المؤيد « المستحيل » في دمشق لنشر مبادىء اللامركزية والمبادىء الاصلاحية التي يدين بها الحزب الاصلاحي في بيروت ففشل . كذلك قام شكري بك القوتلي وعبدالوهاب الانكليزي باجتماعات عدة دعيا اليها الشباب الشامي فلم يجدا من يعاضدهما لأن الشام كانت عثمانية وبهم رجالها ان ينالوا المناصب في الدولة . وكان من رأي شكري بك العسلي ان تنضم سوريا باكملها لمصر تحت التاج الخديوي فقد خطب مرة في القاهرة امام تمثال ابراهيم باشا الفاتح المصري العظيم وقال : « ان ابراهيم باشا يشير دائماً الى بلاد الشام ويذكرنا ان مصر والشام اخوان تربطهما روابط اللغة والدم والدين والتاريخ » ويمكننا اذن ان نتأكد ان دمشق لم تكن ارضاً خصبة لاحلام شفيق المؤيد العظم ولا لآراء العسلي والانجليزي واشباعهما .

وكان شفيق المؤيد العظم من الرجال الطموحين فقد عمل قبل كل شيء ليكون امير سوريا وكانت له مخابرات بهذا الشأن مع فرنسا وكان يسنده في

آماله الكبار رفيق بك العظم وحقي بك العظم وتجلى لنا طموحه يوم طمع في رئاسة المؤتمر العربي في باريس .

والمؤسف ان الاطماع الشخصيـــة كانت وما تزال دومـــاً العثرة في سبيل الاهداف القومية ولهذا حينما ذهب المؤتمرون الى باريس كان الاصلاحيون يهدفون الى اصلاحات داخلية ولايريدون الاحتلال الاجنبي او الانفصال عـــن الجسم العثماني وكان على رأسهم احمد مختار بك بيهم الشاب الذكي الذي لم تعرف بيروت من يضاهيه في نضجه وجرأته واندفاعه .

اما اللامركزيون وكان يقودهم شفيق المؤيد العظم والشيخ رشيد رضا فيغلب على الظن انهم كانوا يعملون لأن تكون سوريا امارة مسلمة وكان شفيق المؤيد العظم يريد الامارة لنفسه تحت الحماية الفرنسية والشيخ رشيد رضا يكره العظم ويود ان تكون الحماية والنفوذ لانجلترا في سوريا وهكذا كان الزعيمان يرتاب الواحد منهما بالآخر ولا يثق به وأما وفد النهضة اللبنانية وكان يقوده اسكندر عمون وايوب ثابت وخليل زينيه وشكري غانم وخير الله خير الله فكان جل همهم ان تضم بيروت الى جبل لبنان وان تظللها فرنسا برايتها مهما كان الثمن . وتضاربت آراء العرب ما بين الاستقلال والحمـــاية ثم تضاربت الحماية بين ان تكون



اسكندر عمون المحامي

انجليزية او فرنسية ولبث المؤتمرون العرب يعقدون جلسات متوالية في ستة ايام دون ان يصلوا الى نتيجة .

وانتهزت تركيا هذه البلبلة بالآراء فبعثت مدحت شكري بك مندوبها الى باريس تقدم الوعود الجمة بالاصلاح فانقاد اليه قسم كبير من اعضاء المؤتمر وقفلوا معه راجعين الى استانبول واقيمت في دار الخلافة حفلة عظيمة على شرفهم في فندق « طوقتليان » المشهور خطب فيها الخطباء وقد ذكروا ماتعانيـــه مصر من هول الاستعمار البريطاني وماتئن منه الجزائر وتونس من فظائع الاستعمار الفرنسي واوصوا ان ينضم العرب كلهم متحدين متفانين في خدمة الراية العثمانية والدولة العلية . وخرج اللامركزيون من مؤتمر باريس آسفين من النتائج التي توصلوا اليها كذلك كان اعضاء النهضة اللبنانية . واما الاصلاحيون فقد املوا بعض الخير . والثابت عندنا ان فرنسا لعنت ساعة المؤتمر وامرت قناصلهـــا في سوريه ان يتظاهروا بمساعدة الحركة الاصلاحية ويعملوا في الخفاء على قتلها .

وقامت قيامة اللامركزية في مصر بعد فشل مؤتمر العرب في باريس وراحت الجمعية الثورية العربية التي يرأسها عزيز عـــلي تنشر المناشير اللاهبة وتقول ان الدولة العثمانية دولة الاتحاديين ارسلت وزير ماليتها سمسار الترك جاويد بـك الى اوروبا ليطرح البلاد العربية بالمزاد العلني ويبيع مرافقها ومناجمها وامتيازاتها وان هؤلاء الاتراك يسهلون اسباب احتلال للاجانـــب وانهم لاينفقون درهماً واحداً من الضرائب التي تجبى من العرب على بلاد العرب ثم ها ان طلعت بك وزير الداخلية يجيش الجيوش العربية لقتال العرب في العراق واليمن . وحضت الجمعية الثوريه العربيه اهل بيروت وأهل دمشق على تأسيس العصابات للتنكيـل بولاة الترك والتحصن بالجبل الاشم جبل لبنان فهو بجير من يلجأ اليه وان الواجب يقضي على العرب ان يمتنعوا عن دفع الضرائب وان يشتروا بها السلاح لقتال المجرمين الظالمين . وراحت في النهاية تردد انه ليس للعرب اية جامعة تجمعهم مع الترك وان العرب يجب ان لا يكونوا اعضاء في الرابطـــة العثمانية وكانت دوما تختم مناشيرها بالبيت المعروف :

لايسلم الشرف الرفيع من الاذى

حتى يراق على جوانبه الدم

دافعت الدولة العثمانية عن نفسها واستكتبت انصارها البرقيات التي تستنكر هذه المزاعم وتقول ان مقاصد اللامركزيين هو تأمين النفوذ الاجنبي في المملكة وخيانة الحكومة والشعب . وراحت الشعوب العربية والعثمانية تنظر بعين الغفلة الى هذه المناورات وهي لاتكاد تحس ان شيئاً ما يجب ان ينال اهتمامها فقد كانت غارقة في فقرها وجهلها .

•

فشلت اللامركزية لاعتمادها على الامراء

كان الفشل الذي منيت به اللامركزية في مؤتمر باريس وعند الاصلاحيين في بيروت اكبر حافز لها على تأسيس فروع لحزبها في المدن السورية والعراقية . وقد قامت اللامركزية بانشاء شُعَبٍ لها في حماه وحمص وبعلبك وجنين ونابلس والبقاع والموصل وبغداد والبصرة . أما في بيروت فكانت الهمة مبذولة لتأليف فرع للامركزية في هذه المدينة التجارية ذات الاهواء والميول المتضاربة وكل ما نعرفه تماماً ان عدد الذين سُجلوا اعضاء في هذا الحزب رسمياً لم يبلغ عددهم الخمسة هم السادة مصطفى سميسمة ونور القاضي وعبد القادر الخرسا ومحمد المحمصاني ومحمود المحمصاني . وكان الشاعر عمر حمد من الداعين للاستقلال العربي وقد نظم القصائد الحماسية في هذا المعنى ولكننا لم نتأكد من انتسابه لحزب اللامركزية . انما كان يميل الى اعضائه وتربطه بهم رابطة الصداقة والمودة . وكان هم حزب اللامركزية ان تكون تشكيلاته سرية وعسكرية لتصبح بيـــده القوى العاملة البطاشة في اليوم العصيب وكان زعماؤه يعتقدون ان العواطف والقصائد لا تبني الامم ولا تشيد الممالك وان الجماهير لا تمشي الا مع القوة وانها تتأثر بعوامل عديدة وانه لا يعتمد عليها في الازمات . وخاف اللامركزيون محترفي السياسة هؤلاء الذين يميلون

مع كل مائل ويصطادون في الماء العكر لمنافعهم الخاصة وقد قسموا الناس الى اقسام فمنهم المخلص الرزين ، والمخلص الذي لا يعرف التكتم والمخلص الذي تقتضي مصلحته الاخلاص وكانوا دائماً يكتبون الى رؤساء فروعهم ان ينشطوا للسير الى الامام بحيطة وحذر وانتباه لتكون زمام المبادرة والقيادة في ايديهم وان يستغلوا العواطف الحماسية في الاوقات المناسبة والاحوال الموافقة . وكتب احدهم يفسر اقوالنا بتصريح ارسله لفرع من فروعهم فقال : « وشأننا لا يفرق ابداً من شأن المتصدي للحرب فالجانب الذي يكون الجيش فيه ذا قواد يطيعهم جندهم يغلب الجانب الذي يقاتل فيه الجند فوضى دون قيادة ودون غاية معينة . والتيار العام صار الآن غير كاف لاتمام الواجب المحتم علينا فينبغي الاستيلاء عليه وجعله تحت سلطتنا بواسطة القوى المختلفة التي توجد في داخله . ويجب دائماً ان نكون منتبهين لكل الذين يعملون في قضيتنا فنحصر عدد الجمعيات الموجودة ونبحث عن اهل الزعامة فيها ونؤسس صلة تعارف معهم بل ونوحد اعمالنا واعمالهم باية طريقة سواء من حيث يشعرون او من حيث لا يشعرون »

وكانت تعتمد فروع اللامركزية في مصاريفها على الاموال التي كانت ترد لها من المركز الاساسي في القاهرة وعلى المرتبات الشهرية التي كانت تتقاضاها من الاعضاء ومن التبرعات والهبات التي كان يرسلها بعضهم الى الصندوق في مختلف الفروع وكتب رئيس اللجنة العليا للحزب اللامركزي في القاهرة السيد رفيق العظم الى الفروع رسالة يوصيها بها تنظيم مالية الفرع والزام كل عضو بدفع مرتب شهري والسعي بنشر مبادىء الحزب وان يؤدي كل عضو يمين الاخلاص للعمل بمبادىء الحزب حرفياً . ومن يتتبع نشاط حزب اللامركزية في سورية يرى انه كان للسيد محمود المحمصاني القدح المعلى في هذا السبيل . فقد ظاهره مظاهرة غريبة حتى هناه الحزب على جهوده الجبارة في نشر مبادئه .

وفكرت الجمعية اللامركزية بالعلم العربي فقررت بادىء ذي بدء ان تكون الوانه خضراء وسوداء وبيضاء رمزاً للعهود العربية الماضية وكنت ترى بعض الشباب في بيروت يضعون هذه الشارات في عروات ستراتهم وكان

لحمد ومحمود المحمصاني رأي محترم في تثبيت هذه الالوان شعاراً للعلم العربي وقد ايدهما في ذلك آل العظم ولا سيما رفيق بك المؤرخ المعروف .

وحاول اللامركزيون ان يقنعوا الشاعر خليل المطران شاعر القطرين ان ينظم لهم - النشيد الوطني العربي - فكان يعدهم ويتهرب منهم - لان قنابله طويلة - بحسب عرفهم ولا نعلم ان احداً نظم هذا النشيد قبيل الحرب العالمية الاولى وراحت الوفود اللامركزية تبذل مساعيها في اليمن وعسير والمحمرة ومسقط ونجد فذهب عزة الجندي الى الادريسي واقنعه بمناصرة الحزب على تأسيس دولة عربية . كذلك فعل طالب النقيب فانه خابر ابن السعود في هذا الموضوع وكان لرشيد رضا محادثات مع امراء المحمرة ومسقط واتفق معهم على بعض الامور يوم ذهب الى الهند ولكن الثابت الاكيد ان هذه الزعامات العشائرية لم تفد الحركة العربية بقليل او كثير في ذلك الزمن واذا كان الاستقلال العربي لا ينبع من اغوار الشعوب العربية في سوريا ولبنان والعراق ومصر فان هذا الاستقلال لا يتبلور عن حقيقته ابداً وان اعتماد الامة العربية على الامارات العشائرية هو كاعتمادها على السراب لان امكانياتها تهيء لها اسباب المساعدة . وهنا كانت خطيئة اللامركزيين فان اعتمادهم على الادريسي وابن الرشيد وابن الصباح كان نوعاً من العاطفة التي لا قيمة لها يوم وقعت الواقعة ولم يتفهم عقليـــة الامارات العشائرية الا السياسة الانجليزية وام الحصان الانجليزية الذهبية . وهاك مثلاً عـــلى هذه العاطفة التي تبلورت شعراً من شاب متحمس كعمر حمد فانه نادى الامراء وقال انهم عزه ومجده .

هيا بنــا	هيا بنــا
يا ابن الرشيد	انت العميــد
ابن الوليـد	يــا عزنــا
فتى العراق	هــو الوثاق
انت المراد	يــا عزنا
هيا بنــا	هيا بنــا
ابن الرشيد	يــا عزنا

وهكذا وقع اللامركزيون في الخطيئة التي تحاشوا الوقوع فيها حسب تعاليمهم .

•

الصحافة العربية والزعماء العرب في خدمة الاجانب

خرجت الدولة العثمانية من الحرب البلقانية والايطالية خائرة القوى دامية الجراح وقد حاولت ان تنفذ بعض الاصلاحات في الولايات العربية ولكن اوروبا من جهة والجمعيات التي كانت تكره الحكم التركي من جهة ثانية عرقلت لها خططها . وكانت تباشير الحرب العالمية الاولى بدأت تلوح في الافق فاتفقت الجمعية اللامركزية مع جمعية النهضة اللبنانية على العمل سوية لازاحة الكابوس العثماني عن سورية ولبنان وأن يمدوا يد المساعدة للحلفاء وثبت لنا ان رجال اللامركزية والنهضة اللبنانية راجعوا القنصل الفرنسي بهذا الشأن في القاهرة فوعدهم وعداً اكيداً أن تكون لهم فرنسا بمالها وسلاحها وجنودها ودوارعها وكان صلة الوصل بين اللامركزية والنهضة اللبنانية السيد اسكندر عمون واشترطت فرنسا لمساعدة الجمعيتين اشتعال الثورة في سوريا وأكدت انها ستبعث ضباطاً من جيوشها لقيادة الحركة التحريرية . وكان اللامركزيون يعلنون في القاهرة ان الدولة العثمانية اذا دخلت غمار الحرب العالمية ضد الحلفاء فانها لن تخرج منها سليمة ابداً وقد تكون هذه الحرب السبب الاخير في نهاية اجلها لان روسيا كانت مندفعة اندفاعاً لا مثيل له في حل المسائل الشرقية وتقسيم الميراث العثماني الى مناطق نفوذ ، ولهذا صار من الواجب على كل عربي ان يفكر في استقلال بلاده وان يحرص على هذا الاستقلال بالاتفاق مع فرنسا وانكلترا .

ورأى رجال النهضة اللبنانية ان تبدأ الثورة ضد الاتراك في سوريا بمدينة زحله وان تكون مركزاً رئيسياً لحركاتهم وبدأت حملة كبيرة من الدعاية ضد الاتراك بجريدة « الاهرام » وكان رجلها الاوحد داود بركات رئيس تحرير الاهرام

وكانت هذه الصحيفة اللبنانية المتمصرة تتناول خمسة آلاف جنيه اعانة سنوية من الحكومة الفرنسية .

ومما لا ريب فيه ان جماعة النهضة اللبنانية لم يقوموا بحركة ما ابان الحرب العالمية لا في زحله ولا في غيرها . وهنا جاء دور انكلترا فانها لما تأكدت ان فرنسا تدفع رجال النهضة اللبنانية الى العمل لحسابها استدعت آل العظم وعلى رأسهم رفيق العظم والسيد رشيد رضا وطلبت اليهم بكل صراحة ان تكون الدعوة في سورية للاسد البريطاني واستعانت عليهم باصحاب « المقطم » . والمقطم صحيفة لبنانية متمصرة اشتهرت بممالأة الانكليز وكانت تتناول من الاعانات البريطانية اضعاف ما كانت تتناوله الاهرام من فرنسا . والمؤسف ان الشباب العربي الذي كان يطرق ابواب السفارات البريطانية والفرنسية في سبيل الاستقلال كان لا يفرق بين الاستقلال وبين املاء جيوبه من الجنيهات والفرنكات حتى ان هذه السفارات كانت عبارة عن مصرف مالي لهذا الشباب . والحق ان مساعي اللامركزيين ورجال النهضة اللبنانية - رغم الامجاد التاريخية العربية التي كانوا يرددونها نثراً وشعراً - اسفرت عن احتلال البلاد العربية من انكلترا وفرنسا ثم اسفرت ان هؤلاء الشباب لم يكونوا الا صنائع للاحتلال وآلات في النهاية للتضييق على الاستقلال .

وعرف الحلفاء ان يحملوا حملات صادقة على الحكومة العثمانية وانبروا يبثون دعايتهم في صحف مصر والمهاجر الاميركية العربية ويقولون بها ان على العرب ان يتيقظوا وأن يمشوا في صفوفهم ليحافظوا على حقوقهم وانهم لم يعلنوا الحرب على تركيا الا لتحرير العرب . ثم كانت الدعاية تصور الجيوش العثمانية بصورة العاجز الضعيف الجائع ولطالما اظهرت هزائم الترك في البصرة وبغداد وجناق‌قلعة على ابشع ما يكون من الاحوال .

وراحت جمعية اللامركزية ترسل صرخاتها الى الأمة العربية وتبدؤها دائماً بتحيتها وتحية الراية العربية فتقول « سلاماً ايتها الأمة سلام بر امين يظلله في (سواد) الليل (بياض) الضمير و (خضرة) الامل اليقين ثم ترجع فتذكر

العرب ان الدولة العثمانية دولة قضت عليها اوروبا ان تكون مستعبدة في قضائها اذ هي فقدت استقلال هذا القضاء، ومستعبدة في اقتصادها فلا تستطيع ان تفرض ضريبة الا بارادة غيرها ومستعبدة في الحرب فـــلا يمكنها تنظيم جيشها كما تشاء ومستعبدة في البحر فلا تجد وسيلة لتعزيز اسطولها ومستعبدة في سياستها الخارجية فهي تبع لغيرها ومستعبدة في المال ان شاءت الدول الاوروبية احياءها اقرضتها وان لم تشأ أعلنت افلاسها ولذلك فالدولة التركية دولة اسمية مصطنعة لا تملك من نفسها امراً وهي زائلة حتما. وقالت اللامركزية انه من الواجب المحتم ان يحرر العرب انفسهم من القيد التركي كما انقذ البلقانيون انفسهم من عتوها وجبروتها وراحوا ينافسون العالم في مضمار الحضارة والرقي.

واظهرت اللامركزية انها تتألم من الدولة العثمانية لانها فرطت في حقوق البلاد فمنحت فرنسا كثيراً من الامتيازات في سورية كما انها باعت ينابيع البترول العربية لانكلترا والغريب ان اللامركزية التي كانت ترسل هذه الصرخات الداوية كانت تتسكع على ابواب الانكليز والفرنسيس ثم تسكع رجالها وركعوا على اقدامهم امام القوة الانكليزية الفرنسية في سوريا والعراق حينما اقتسمت الدولتـــان العظيمتان الانتداب على المشرق.

ثم كانت الصرخات اللامركزية للأمة تنتهي بوجوب الاستعداد ليوم الكفاح والخلاص من النير التركي فتردد ان رجال العرب اللامركزيين قادمون الى يوم الجلاد فعلى كل عربي ان يهيء نفسه للموت في سبيل الحيـاة فقد كفى العرب ما عانوه من الظلم والاضطهاد والسجن والتعذيب وكفى البلاد العربية ما تحملته من الخراب والبوار والدمار.

وبعد فما تمزقت الدولة العثمانية وأطل الاحتلال الانكليزي الفرنسي على البلاد العربية حتى وجد العرب ورثة الدولة العثمانية من المعضلات ما وجده الاتراك قبلاً مع اوروبا. ورأوا ان ليل الجهاد ما يزال طويلاً وان معركة التحرر الصحيح ما تزال بعيدة.

حاولت فرنسا وانكلترا توجيه العرب الى التعلق بهما

لعبت فرنسا دوراً هاماً بين السوريين واللبنانيين قبيل الحرب العالمية الاولى فقد اسست بعثاتها التبشيرية المدارس والمستشفيات في بيروت وقرى لبنان وراحت تبث حب فرنسا والوطن الفرنسي في نفوس الطلاب. وما ازال اذكر وقد كنت تلميذاً في مدرسة الفرير عام ١٩١٣ خطاب الموسيو موريس بارس عضو الاكاديمية الفرنسية فقال بعد ان شكر رجال فرنسا المنتشرين في هذا المشرق على مايقومون به من الاعمال الانسانية والثقافية: « ان الثقافة قد جمعت بيننا وبين السوريين حتى بتنا نشعر ان المسافات التي تفصلنا عنهم قد اضمحلت بتمامها » . والغريب ان بعض هذه البعثات التبشيرية التي لا يسمح لها ان تزاول اعمالها في الوطن الفرنسي كاليسوعية والفرير تتناول من الحكومة الفرنسية الاعانات المالية الكبيرة لانها تقوم بواجب الدعاية لفرنسا ويمكننا ان نقول ان الشباب الذي تخرج من المدارس اليسوعية والفرير قبيل الحرب العالمية الاولى كان يكره من صميم قلبه الدولة العلية العثمانية وحكامها وولاتها ويتمنى زوالها. وعرفت فرنسا ان تقتنص قلوب المسلمين البيروتيين فانهم كانوا يلجأون الى مستشفياتها انتجاعاً للصحة والعافية لان الدولة العثمانية كانت مهملة ومقصرة في هذه الشؤون الصحية حتى انها مع الاسف لم تشيد مستشفى واحداً في بيروت كلها للفقراء. وانشأت انكلترا بواسطة بعثاتها التبشيريه ايضاً مدارس صغيرة في القرى اللبنانية وكان معظم معلميها من المسيحيين الوطنيين الذين تعلقوا بالبروتستانية واهملوا الكثلكة . وكانت هذه البعثات تعمل بصمت وهدوء لنشر النفوذ البريطاني .

واظهر سكان جبل لبنان تعلقهم بفرنسا واعلنوه وامعنوا في هذا الاعلان حتى انه لما زار السيد كايو وزير مالية فرنسا سورية قبيل الحرب العالمية الاولى تجرأ احد الخطباء اللبنانيين وقال: « نحن ننتظر من فرنسا تحريرنا وخلاصنا » والغريب ان الدولة العثمانية لم تؤنب احداً من هؤلاء الذين كانوا يتظاهرون لفرنسا كأنما الامر لا يعنيها وكأنما هؤلاء الخطباء كانوا يخطبون في الصين. وكان كل ذلك نتيجة

لضعفها وتهرباً من نتائج لا تريد ان تستعجلها .

ورأت فرنسا ان يزور مولاي عبد الحفيظ سلطان مراكش القطر السوري قبيل الحرب العالمية الاولى ايضاً وان يبث الدعوة لفرنسا بين السوريين فقال مرة من خطاب له في بعلبك : « ان الامم الصغيرة لايمكن ان تعيش وحدهاوهي مضطرة ان تطلب حماية دولة كبيرة لتأمين حياتها . ان فرنسا تحب مراكش وتحترمها ولهذا نحن نتوجه بحبنا لفرنسا وللفرنسيين » وحملت فرنسا على الدولة العثمانية وقالت انها تحاول تتريك العرب وكانت في كل المناسبات تستغل هذه الدعاية الى ابعد حدود الاستغلال . لعمري كيف سمحت فرنسا لنفسها بمثل هذه الحملة من الدعاية وهي التي كانت تعلن بيننا نحن الطلاب في المدارس الفرنسية : « لكل امرىء وطنان وطنه وفرنسا » وكانت ترجو ان تفرنسنا وان نرى الجمال والفن والعلم من خلال المنظار الفرنسي .

واستغلت فرنسا الصحافة العربيـــة في بيروت فكانت تدفع لبعضها اعانات شهرية وكانت تستكتب دعاتها ماتريده وكان يهمها في الدرجة الاولى اظهار الدولة العثمانية امام شعوبها بمظهر العاجز الذي لا بد ان يلفظ انفاسه الاخيرة ان عاجلاً او آجلاً . اما الصحافة في مصر فكانت دوماً تبحث عن عظمة انكلترا وقوتهـــا وثروتها وما قامت به من اعمال عمرانية وتمدينية في الهند ومصر واخلاص الامبراطورية البريطانية للاسلام والمسلمين وكان القصد من هذه المباحث توجيه الشعوب العربية نحو حب بريطانيا . ولعل اللعبة الشيقة التي لعبها الدعاة الانكليز هي لعبة الخلافة فكانوا دائماً يقولون ويكتبون انها يجب ان تكون للعرب وان الاتراك اغتصبوها وكان بطل هذه اللعبة السيد رشيد رضا وطالما توجه الى الهنود والعرب بوجوب نقل الخلافة الى اهلها ومستحقيها . وبرهنت الايام بعدئذ ان لعبة الخلافة لم تكن ذات اهمية قصوى عند المسلمين وانما استغلتها بريطانيا لمصالحها . وقد ضرب مصطفى كمال باشا باعث تركيا الجديدة بالخلافة عرض الحائط والغاها وقال لمن يشاء من الطامعين بها ان يتناولها .

وكادت انكلترا تضرب النفوذ الفرنسي ضربة قصوى في سوريا قبيل الحرب

العالمية الاولى فانها اقنعت تركيا ان تعين عمر طوسون باشا والياً لسورية ولكن عمر طوسون رفض هذه الولاية ولم يحب التدخل في امور قطر شقيق كما انه لم يحب ان يستشعر ان لانكلترا جميلا عليه في هذه الولاية. وهكذا نرى انحرب الاعصاب كانت على اشدها بين فرنسا وانكلترا بشأن الاستيلاء على سوريا وان اللامركزيين لم يكونوا الا « كأحجار الداما » تتنقلهم الايدي الاجنبية من مكان الى مكان .

•

« التركية » قبل « العثمانية »

قابل العرب في جميع اقطارهم اعلان الدستور العثماني بحماسة لامثيل لها وتناسوا من اجله قوميتهم وتنادوا الى دعم الدولة العلية وانضموا اليها قلباً وقالباً اعتقاداً منهم ان « العثمانية » هي الرابطة الكبرى في الامبراطورية فلم يعد فيها اتراك وعرب واكراد والبان بل اصبحت كل هذه الشعوب وحدة تجمع بينها « العثمانية » وتساويها في الحقوق والواجبات . ترى ماذا حدث بعد الدستور حتى انقلبت حياة « الاخاء والحرية والمساواة » الى انشقاق وتفرقة واستياء ؟؟ وكيف لم تستطع جمعية الاتحاد والترقي الانتفاع بقوة الشعوب التي تتألف منها الامبراطورية العثمانية وتجعل منها حصناً هائلاً في تأييد الدستور الذي يضمن الحريات . الجواب سهل وبسيط فان الاتحاديين عندما صبغوا انفسهم بالصبغة الجنسية واظهروا عصبيتهم وتمسكهم « بالتركية » دون « العثمانية » تنبهت الاعصاب الحساسة في العثمانيين كافة وعادت تجري في دمائهم روح القومية وراحت اوروبا تغذيها وتنفخ في نارها فهبت على الدولة العلية ريح التنافر والشقاق واصبحت عرضة لخطر الزوال . ان هذا الخطأ الذي صدر من جمعية الاتحاد والترقي وتمسكها بمبدأ السيادة التركية لسائر العناصر العثمانية واستعمالها سياسة الشدة والعنف مع العرب وغير العرب ادى الى اضطراب الامبراطورية . وكان العرب جميعاً يعتقدون ان جمعية الاتحاد والترقي هي حامية الحرية والقانون والمعول الذي يهدم اركان الاستبداد ولكن

لما رأوا الحكومة الاتحادية ترجو ان تحكم العثمانيين بالقوة وتعقد القروض مع اوروبا لتضرب بها العناصر غير التركية أساءوا الظن بها ومشوا وراء خيالاتهم المثلى بالاستقلال وقد دعمت هذه الخيالات الدول الاوروبية لاطماعها الاستعمارية .

وبدأت جمعية الاتحاد والترقي وهي التي كانت تحكم الامبراطورية باضطهاد العرب فضربت بذلك اول معول في اساس الوحدة العثمانية ولو كان لنا ان نحصي الاخطاء التي ارتكبها الاتحاديون ضد العرب لقلنا انها تنحصر فيما يلي :

١ ـ اقصاء الموظفين العرب عن وزارتي الداخلية والخارجية بحكم قانون التنسيق .

٢ ـ اهمال جمعية الاتحاد والترقي للعرب في دعوتها للتأليف بين العناصر العثمانية وعدم ادخال اي عربي عضواً في اللجنة المركزية للجمعية .

٣ ـ تحويل جمعية الاتحاد والترقي من جمعية عثمانية الى جمعية تركية بحتة .

٤ ـ انتزاع وزارة الاوقاف من وزير عربي واسنادها الى وزير تركي وهكذا لم يبق اي عضو عربي في الوزارة .

٥ ـ استبدال الولاة والمتصرفين والقضاة العرب بولاة ومتصرفين وقضاة من الترك لاسيما في سورية والعراق .

٦ ـ معارضة جمعية الاتحاد والترقي لكل مشروع علمي او ادبي في المناطق العربية من الامبراطورية العثمانية .

٧ ـ مناهضة الاتحاديين للغة العربية حتى ان سفير الدولة في واشنطن نشر اعلاناً على العثمانيين المقيمين في الولايات المتحدة قال فيه انه « يحظر على اي منهم ان يخاطب السفارة العثمانية بغير اللغة التركية »

وكان المخلصون من الترك والعرب من اعضاء جمعية الاتحاد والترقي يودون مخلصين في اواخر عام ١٩٠٩ ان يحسموا كل هذه الخلافات بين العنصرين ولكن مع الاسف تدخل المتطرفين من الاتراك بهذا الموضوع نفر العرب وجعلهم يبتعدون عن دولة الخلافة .

وأسفر الاتحاديون عن وجوههم واماطوا اللثام عن غاياتهم فعدلوا برنامج

جميعهم واعلنوا على رؤوس الاشهاد «تركيتهم الخالصة» فانفصل عنهم حينئذ كثير من الاعضاء الترك والعرب والارمن والكرد وجاهروا بمقاومتهم لها وانشأوا «جمعية الحرية والائتلاف» وكانت غايتها منح الولايات العثمانية الاستقلال الاداري وادارة شؤون الامبراطورية على اساس اللامركزية .

وتخبطت الدولة العثمانية بحرب البلقان والحرب الطرابلسية فكادت تشرف على الهلاك ورأى الزعماء العرب ان الخطر عليها اسرع مما كانوا يخشون خصوصاً وان الاطماع الاوروبية برزت للعيان بشكل واضح . فقد عجزت الدولة العثمانية ان تحتفظ «بالروملي» وهو حصن الاستانة امام البلقان فكيف بها اذا هوجمت البلاد العربية وليس فيها قلاع ولا سلاح ؟ . انها لن تقدر على الدفاع عنها مطلقاً . ومن هنا نبذت فكرة اللامركزية لان ذلك ادعى الى عمران الولايات العثمانية واستعدادها للدفاع عن نفسها فالف حزب اللامركزية في القاهرة واسست جمعية الاصلاح البيروتية وقوامها نخبة من اعيان السوريين واللبنانيين والمنتدى الادبي في استانبول واعضاؤه من شباب وطلاب العرب في عاصمة الخلافة وجمعية البصره الاصلاحية وكان يرأسها الزعيم العربي طالب النقيب .

ولو درسنا قوانين الحزب اللامركزي في القاهرة وجمعية الاصلاح في بيروت لتبين لنا ان منشيء هاتين المؤسستين كانوا يهدفون الى غايات طيبة وهي انقاذ ما يمكن انقاذه من البلاد العربية الخاضعة للامبراطورية العثمانية من النير الاجنبي .

●

حزب اللامركزية

عثرنا على قانون حزب اللامركزية وقد رأينا ان ننشره ليعلم الملأ العربي ان الشباب العربي الذي علق على المشانق بتهمة اللامركزية لم يكن خائناً لامته وبلاده كما نعته جمال باشا في بلاغاته التي اصدرها عقب تنفيذ الاعدام بل كان مؤمناً بعقيدته التي تقول ان عمران البلاد والدفاع عنها لا يكونان الا باتباع

اللامركزية الحق وهذا هو قانون اللامركزية العثماني بنصه :

المادة الاولى – الف حزب سياسي باسم اللامركزية الادارية العثماني .

المادة الثانية – القصد من تأليف هذا الحزب بيان محسنات الادارة اللامركزية في السلطنة العثمانية للشعب العثماني المؤلف من عناصر ذات اجناس ولغات وأديان وعادات مختلفة والمطالبة بكل الوسائل المشروعة بحكومة تؤسس على قواعد اللامركزية الادارية في جميع ولايات الدولة العثمانية .

المادة الثالثة – ليس هذا الحزب خفياً وليس فيه ما يعد من الاسرار فهو ينشر مقصده المبني على المطالبة باللامركزية الواسعة جهراً وعلانية دون الخشية من احد لاعتقاده يقيناً ان الدولة لا تبقى في العالم السياسي الا اذا بنيت حكومتها على اساس اللامركزية الادارية .

المادة الرابعة – ان الدخول في حزب اللامركزية مباح لكل عثماني بلغ العشرين من العمر شرط ان يكون اولاً من المتمتعين بجميع الحقوق المدنية . ثانياً : غير محكوم عليه بحكم مخل بالشرف . ثالثاً : غير مشتهر بسوء السيرة . رابعاً : ان يقبل القواعد المبينه في برنامج الحزب .

المادة الخامسة – يكفي لمن يريد الدخول في الحزب ان يكون دليله احد اعضاء الحزب مع موافقة لجنة الادارة المحلية على ذلك ولا يجوز قبول عضو مادام من حزب يخالف هذا الحزب في المبدأ والغاية .

المادة السادسة – للمنتمي الى الحزب ان يستقيل من عضويته في اي وقت شاء .

المادة السابعة – على العضو ان يدفع الى الفرع المسجل فيه اسمه مرتباً شهرياً اقله قرشان ويقبل الحزب التبرعات ويعفي الفقراء من المرتب .

المادة الثامنة – لا يقيد الحزب اعضاءه بشيء غير قواعد البرنامج السياسي الذي وضع لاجله .

المادة التاسعة – على النواب – المبعوثين – المنتمين الى الحزب ان يسعوا بكل ما في وسعهم لتنفيذ قواعد برنامج الحزب في المجلس .

المادة العاشرة – لا يسوغ لاحد من المنتمين الى الحزب مراجعة الحكومة باسم الحزب من تلقاء انفسهم واذا ثبت على احد الاعضاء مثل هذا السلوك محا اسمه من سجل الحزب .

المادة الحادية عشرة – ان مركز الحزب العام في مصر القاهرة ويجوز لكل بلد او قرية اجتمع فيها عشرة من اهلها على مبدأ اللامركزية الادارية ان يؤسسوا فرعاً له ويخبروا المركز العام بذلك .

المادة الثانية عشرة – تتألف اللجنة العليا للحزب من ٢٠ عضواً ينتخب منهم رئيس ونائب رئيس وسكرتير ومساعدان له وامين للصندوق ويجوز لهذه اللجنة ان تضم اليها من ترى فيه فائدة للحزب .

المادة الثالثة عشرة – اذ غاب الرئيس ونائبه يرأس الجلسة احد اعضائها .

المادة الرابعة عشرة – كل فرع من فروع الحزب يتبع المادتين ١٢ و ١٣ في تأليف لجنته الادارية وانتخاب الرئيس والسكرتير وامين الصندوق .

المادة الخامسة عشرة – يعقد كل فرع مؤتمراً فرعياً محلياً في شهر حزيران من كل سنة يحضره جميع اعضاء الفرع وتعقد اللجنة العليا مؤتمراً حزبياً عاماً في مصر القاهرة في شهر تشرين الثاني من كل سنة يحضره اعضاء اللجنة العليا وافراد الحزب في المركز العام ومندوبون ترسلهم اللجان الفرعية .

المادة السادسة عشرة – يرسل كل فرع للمؤتمر مندوبا من قبله .

المادة السابعة عشرة – تنتخب كل لجنة ادارية رئيسها وسكرتيرها وامين صندوقها من اعضائها بالاقتراع السري وتعرف المركز العام في القاهرة بنتيجة الاقتراع .

المادة الثامنة عشرة – على اللجان الادارية الفرعية ان تسعى بكل الوسائل المشروعة لنشر مبادىء الحزب وتعميمها بين الناس وتكثير افراد المحازبين والاجتهاد في سبيل انتخاب نواب لمجلس المبعوثين وللمجالس العمومية والادارية والبلدية من الاكفاء الذين هم على مبدأ الحزب .

المادة التاسعة عشرة – اللجنة العليا تضع تعديل القوانين واللوائح للحكومة

اللامركزية وتسعى مع سائر اللجان والافراد الى اقناع الشعب والحكومة بها.

المادة العشرون - على اللجان الادارية الفرعية ان تتخذ دفاتر لقيد قراراتها واسما الاعضاء وموظفي فروع الحزب وامواله .

المادة الحادية والعشرون - تجتمع اللجان كلما قضت الحال بدعوة من الرئيس او نائبه . والعضو الذي لا يحضر الاجتماع اربع مرات متواليات من غير عذر يعد مستقيلاً من عضوية اللجنة .

المادة الثانية والعشرون - على السكرتير وامين الصندوق في كل لجنة ان يقدما الى تلك اللجنة في آخر كل سنة كشفاً ببيان ايرادات الفرع ونفقاته عن تلك السنة وعلى كل لجنة ان ترسل صورة عن هذا الكشف الى اللجنة العليا .

المادة الثالثة والعشرون - لا تعد مذاكرات اللجان قانونية الا اذا اجتمع نصف اعضائها على الاقل واذا كررت الدعوة اكتفي بمن حضر .

المادة الرابعة والعشرون - للجنة كل فرع الحرية التامة في اعمالها الاما قيدتها به قرارات اللجنة العليا او المؤتمر العام .

المادة الخامسة والعشرون - على لجان الفروع ان ترسل الى اللجنة العليا كل ثلاثة اشهر كشفاً يحوي اسماء الذين دخلوا خلال هـــذه المدة في الحزب واسماء الخارجين منه وسبب خروجهم والمنتقلين من مكان الى مكان وكشفاً آخر يحوي بيان اعمالها في المدة المذكورة .

المادة السادسة والعشرون - على اللجنة العليا ان تراقب سير اعمـــال لجان الفروع وحسن تنفيذ قوانين الحزب .

المادة السابعة العشرون - على اللجنة العليا ان تهيء لائحة عامة عن الحزب وأحواله بناء على ما يرد عليها من اللوائح والكشوف من لجان الفروع وترفعها الى المؤتمر العام .

المادة الثامنة والعشرون - تجتمع الجمعيات العمومية والمؤتمر العام في مواعيدها المقررة حسب المادة (١٥) ويرأسها في كل مكان رئيس اللجنة الادارية واما المؤتمر العام فينعقد برئاسة اللجنة العليا .

المادة التاسعة والعشرون - تنظر كل جمعية عمومية في نتيجة الحسابات وفي بيان لجنة الادارة عن اعمالها في السنة الماضية وتصادق على الحسابات الختامية وتقرر ما يجب العمل به في السنة المقبلة وتنتخب نصف اعضاء مجلس الادارة وتفض بعد انتهاء عملها .

المادة الثلاثون - على سكرتير كل لجنة ادارية ان يقوم بضبط المحاضر ومقررات الجمعية العمومية . وعلى سكرتير اللجنة العليا ومساعديه ان يقوموا بضبط أعمال المؤتمر العام .

المادة الحادية والثلاثون - من خصائص المؤتمر العام الاطلاع على بيان اللجنة العليا من أعمال الحزب في السنة الماضية ورؤية حساباتها والتصديق عليها والمذاكرة في كل ما يرفع اليه عن اعمال السنة المقبلة وتقريرها .

المادة الثانية والثلاثون - كل تغيير وتبديل في برنامج الحزب الاساسي من حقوق المؤتمر العام ولا يتم ذلك إلا بطلب تحريري من اللجنة العليا او لجنة من لجان الفروع ويعمل بغالبية الآراء .

المادة الثالثة والثلاثون - على اللجنة العليا ولجان الفروع تنفيذ ما يقرره المؤتمر العام لكل منهما فيما يخصه

ان دراستك للقانون الاساسي لحزب اللامركزية يدل دلالة واضحة على حسن النظام الاداري والمالي الذي كان يهدف اليه ثم ان هذا الحزب كان يدعو علانية الشعوب العربية الى تعضيده لتنال المناطق العربية استقلالها الاداري وتنعم بالمساعدة الفعلية من وارداتها حتى يتم عمرانها وتدريبها العسكري .

●

مبادىء الجمعية الاصلاحية

ماهي المبادىء التي كانت تعتنقها الجمعية الاصلاحية في بيروت ؟ وماهي الاهداف التي كان يهتم بها زعماء بيروت امثال احمدمختار بيهم وسليم علي سلام والشيخ احمد حسن طباره وغيرهم من رجالاتنا ؟ لقد راجعنا بعض الوثائق فوجدنا ان الاصلاحيين كانوا يعتقدون ان المادة الاساسية التي يجب ان يستند عليها هي ان الحكومة العثمانيـــة حكومة دستورية نيابية قبل كل شيء ثم كانوايرون ان تقسم ادارة ولاية بيروت الى قسمين قسم يشتمل على الاعمال المتعلقة بكيان السلطنة وشؤونها الاساسية كالمسائل الخارجية والعسكرية والجمارك والبرق والبريد والتشريع العام ووضع المكوس وهذه الامور كلها تقررها الحكومة اللامركزية في الاستانة .وقسم يشتمل على الاعمال المحلية المتعلقة بشؤون الولاية الداخلية وهي من اختصاص مجلس الولاية العمومي .

وكان الاصلاحيون يؤكدون انه يجب ان تكون لوالي ولاية بيروت صفتان قانونيتان : الاولى تمثيل الحكومة المركزية وبهذه الصفة ينفذ قراراتها والثانية تمثيل حكومة الولاية التي يرأسها وبهذه الصفة ينفذ قرارات المجلس العمومـــي في بيروت .

واما الوالي فتنحصر صلاحياته في تنفيذ قرارات المجلس العمومي والاطلاع على لوائح المشاريع التي تعدها لجان هذا المجلس لابداء آرائه وملاحظاته ثم تعيين المتصرفين والقائمقامين والمديرين بعد ان يعرض اسماءهم على الحكومة المركزية ويوافق على تعيينهم المجلس العمومي . ويحق للوالي ان يدعو المجلس العمومي في مواعيده المعينة للاجتماع . ويؤلف المجلس العمومي من ثلاثين عضوا ينتخب نصفهم من المسلمين والنصف الآخر من غير المسلمين لمدة اربع سنوات وهم ينتخبون منهم رئيساً لهم بالاقتراع السري وتنحصر وظائف هذا المجلس في جميع اعمال الولاية الداخلية وهو يبحث كل الاقتراحات التي يعرضها الوالي اولجان المجلس عليه ويضع الانظمة الداخلية للولاية التي لاتمس ولا بصورة الانظمـــة الاساسية في السلطنة

العثمانية ويعقد القروض التي لاتتجاوز قيمتها نصف واردات الولاية واما القروض التي تتجاوز هذا المبلغ فيجب ان تصادق عليها الحكومة المركزية في استانبول .
ويعطي هذا المجلس الرخص لتأليف شركات مساهمة «انونيم» عثمانية للمشاريع العامة النافعة للتجارة والصناعة والزراعة وسائر الشؤون العمرانية ضمن الولاية شرط ان لاتتضمن اي امتياز لان كل مشروع يتضمن امتيازاً وجب ان تصادق عليه الحكومة المركزية ويقرر رواتب موظفي ومستشاري الدوائر التي هي بادارة حكومة الولاية وبعبارة اخرى يقرر ميزانية حكومة الولاية ويحق له استجواب الوالي والاستيضاح منه عن تنفيذ القرارات التي يوافق عليها كما انه يحـــق له ان يطلب عزله من الاستانة اذا اقتضى الامر ، وقرارات هذا المجلس نافذة قطعاً اذا لم يعترض عليها الوالي خلال اسبوع من تاريخ تبليغه اياها واذا ارجع الوالي هذه القرارات للمجلس معترضاً يعيد المجلس النظر في دراستها واذا اصر المجلس على قراراته باكثرية ثلثي الاصوات تكتسب هذه القرارات الصفة القطعية وعـــلى الوالي تنفيذها .

واشترط الاصلاحيون ان يعرف والي الولاية اللغة العربية كذلك حتموا على قاضي الشرع والدفتردار ومدير المـــالية - باشمدير الرسومات - ومدير البرق والبريد - باشمدير البوسطة والتلغراف - وقومندان الجندرمة وضباطها معرفة اللغة العربية ايضاً لانهم يحملون المسئوليات في بلاد عربية لا يعرف اهلها التركية وحتم الاصلاحيون ان يكون الموظفون في ولاية بيروت من سكانها ولا يجري تعيينهم الا بعد امتحان . ويمتحن طالبو المناصب امام لجنة مؤلفة من مستشار ورئيس الديوان الذي يطلبون الدخول فيه وتقدم لجنة الامتحان اسم اثنين من الممتازين في الامتحان الى المجلس العمومي وبعد مصادقتها يعرضان على الوالي فيعين احدهما ثم يسجل في ملاك الوزارة التي ينتسب اليها .

والغريب ان والي الولاية يكون معرضاً للعزل اذا قرر المجلس العمومي ذلك باكثرية ثلثي مجموع اعضائه وهكذا تجبر الحكومة المركزية ان تعين خلفه في مدة اربعين يوماً .

وطالب الاصلاحيون ان تعين حكومة الاستانة المركزية مستشارين من الاجانب شرط ان يعرفوا احدى اللغات الثلاث العربية او التركية او الفرنسوية في المالية والبرق والبريد والجمرك والجاندرمه وان يكون هنالك مفتش اجنبي لكل لواء من الوية الولاية يخول حقوق التفتيش في اية دائرة من الدوائر ويكون مرجعه المسئول مستشار مركز الولاية . ثم طالب الاصلاحيون ان تمتد اصابع المستشارين الاجانب الى مجلس الولاية العمومي والعدلية والنافعة والمعارف والبلدية والبوليس وان يلبس هؤلاء المستشارون الشعار العثماني في اوقات العمل . وقد رغب الاصلاحيون في ان تكون مدة الاستشارة والتفتيش خمس عشرة سنة ويمكن تجديدها .

وقالت الجمعية الاصلاحية ان واردات ولاية بيروت على نوعين احدهما يعود برمته الى مركز السلطنة وهو واردات الجمارك والبرق والبريد والبدلات العسكرية والآخر وهو عدا ما ذكر من الواردات يعود برمته الى الولاية ثم ان الاملاك الاميرية الداخلة ضمن الولاية تسلم للمجلس العمومي وتكون برمتها ملكاً للولاية .

واهتم الاصلاحيون بالاوقاف فقالوا انها يجب ان تسلم الى الطوائف لاستثمارها في اعمال الخير والعبادة كما انهم حتموا ان تكون البلديات مستقلة ولها ملء الحق ان تضع الرسوم بعد ان يصادق عليها المجلس العمومي دون مراجعة الحكومة المركزية .

واجمع الاصلاحيون ان تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية في جميع المعاملات داخل الولاية كما انهم اصروا ان تكون لغة رسمية في المناقشات والخطابة كاللغة التركية في مجلسي النواب والاعيان .

اما الخدمة العسكرية فتقضى أيام السلم في الولاية وتكون مدتها سنتين .

هذه هي الآراء التي اوقف عليها الاصلاحيون جهودهم والتي مات في سبيلها شبابهم .

الدولة العثمانية تحارب المؤتمر العربي في باريس

حاول الاتحاديون اصحاب الحكم والسلطان في البلاد العثمانية أن يعرقلوا عقد المؤتمر العربي في باريس وتوسلوا لمنعه بكل الوسائل فلم يفلحوا . فقد رجوا الحكومة الفرنسية ان ترغب الى الشباب العربي ان لا يعقد المؤتمر في عاصمتها فرفضت لأن فرنسا لا تقدر بموجب دستورها ان تقف في وجه أحرار العرب اذا كانوا يعالجون قضية حيوية كقضية اللامركزية في البلاد العثمانية لا سيما وقد كان رسلها ينفخون في نار هذه اللامركزية لتمتد اصابعها الى المشرق. ثم راح الاتحاديون يضربون على نغمة الجامعة الاسلامية وحرضوا الشيخ عبد العزيز الشاويش ان يكون الداعية الأول لها لعلهم يلقون الشقاق بين العرب وفيهم المسلمون والمسيحيون وكان بيت عبد العزيز الشاويش في الاستانة مقر هذه الدعوة وكان يحج اليه الالوف من كل الاقطار العثمانية . ورغم كل هذه المساعي التي بذلها الشيخ عبد العزيز الشاويش فان دعوته الى الجامعة الاسلامية لم تؤت ثمرها المطلوب . واوعزت الحكومة الاتحادية الى صنائعها من العرب وجواسيسها ان يقاوموا المؤتمر ويرسلوا البرقيات التي تحمل الوف التواقيع احتجاجاً على عقده وهاك مثلا نص برقية ارسلت من دمشق الى الاستانة وهي مذيلة باسماء بعض الاجلاء والاشراف وارباب الزهد والتقى : « ان الذين يرسلون الاحتجاجات - اي المؤتمرين في باريس - ليسوا من العرب في شيء ولا صفة لهم ولا شأن فقد طلبوا من الحكومة اموالاً لم ينالوها فهبوا الآن يعادونها وهم عبارة عن فتيان بلا عقل ولا ادب ولا اخلاق » . وهاك نص برقية اخرى شديدة اللهجة وتتهجم على الاصلاحيين تهجماً شديداً : « ان القائمين بفكرة الاصلاح في سورية فئة من المشردين الفارين من وجه الحكومة السنية فجميع اهل سورية مسلمين ومسيحيين يكذبون افتراآتهم ويظهرون للحكومة امتنانهم وسرورهم من طرز الادارة الحاضرة التي أعلت شأن الدولة ورفعت منار الدين » . وهكذا نجد الاتحاديين يتوكأون في محاربة الاصلاح على سياسة البرقيات والاحتجاجات وهي سياسة ما تزال لها قيمتها في الشرق العربي

مع الأسف الشديد . وما تزال هذه السياسة سلاح بعض محترفي السياسة عندنا في لبنان وهي تقوم على الدس الرخيص وشراء الذمم .

ورأى المتطرفون من الاتحاديين وكانت لسان حالهم صحيفة « تصوير افكار » ان يفتحوا البلاد العربية مجدداً ، ويقيموا فيها سياسة النار والحديد ويشردوا الاحرار من السوريين والعراقيين في مجاهل الأناضول لعلهم بذلك يقضون على الفكرة القومية واخذ كبار المسئولين في جمعية الاتحاد والترقي يلوحون بخلع الشريف حسين عن امارة الحجاز لأنه كان قوي الشكيمة ويجب ان يحكم بلاده حكماً مباشراً . الا ان النواب العرب في مجلس المبعوثان اقروا انهم لايعترفون بغير الشريف حسين اميراً على مكة ورئيساً دينياً للمسلمين لأنه خلاصة بيت الرسول صلى الله عليه وسلم وقد ابرقوا اليه يقولون « ان اجماعهم على هذا هو بالنيابة عن اهل البلاد التي يمثلونها وهم يجهرون بها عند الحاجة » . وعزم الاتحاديون ان يقفلوا المنتدى الادبي في الاستانة وكان لولبه السيد عبد الكريم الخليل والكلية العثمانية في بيروت التي يرأسها الشيخ احمد عباس الأزهري والتي كانت تخرج كل عام حفنة من الشباب العربي المثقف وشددت الخناق على الصحافة المصرية والاجنبية وكادت تمنعها من الدخول الى الامبراطورية العثمانية ولكن هذه المساعي كلها فشلت امام المعارضة العربية في مجلس المبعوثان .

وفكر الاتحاديون باغتيال الزعماء العرب امثال طالب بك النقيب الزعيم العراقي الكبير وكادوا يهمون به ولكنه نجا لحذره ورأوا ان يحاربوا السيد الادريسي وغيره من امراء العرب ولكنهم اختلفوا في المنهاج الذي يريدون ان يضعوه فلم يتمكنوا من تنفيذ خططهم .

ولما فشلت الحكومة الاتحادية في وقف المؤتمر العربي في باريس رأت ان تغير أساليبها وتتظاهر بالميل الى العرب فأوفدت مدحت شكري بك سكرتير جمعية الاتحاد والترقي الى باريس للاتفاق مع زعماء المؤتمر العربي الذي يمثل معظم الاحزاب العربية والجاليات السورية واللبنانية في الولايات المتحدة والارجنتين والبرازيل والمكسيك واوروبا . ونجح مدحت شكري بك في مهمته وابرم بعض

لاتفاقات مع الزعماء العرب الا ان الحكومة الاتحادية نكلت في النهاية عن قسم كبير منها .

ورضي بعض الاصلاحيين ان ينالوا بعض الامتيازات في بلادهم كما انهم اعربوا عن ولائهم للعرش العثماني وجاء وفد منهم الى استانبول وكان يتألف من سليم علي سلام واحمد مختار بيهم والشيخ احمد طباره وذلك بعد ان حضروا مؤتمر باريس وقد اولمت لهم جمعية الاتحاد والترقي وليمة شائقة تبودلت فيها العاطفة الحارة لاتفاق الترك والعرب وتأثر طلعت بك حتى هتف : « لتحي بيروت وليحيى اهالي بيروت اصحاب الغيرة والحمية » . فأجابه الشيخ احمد طباره : « حيا الله هذا الجمع الشريف واحياه وبارك في هذا الاتفاق وانماه . اننا نشأنا تحت ظل الهلال العثماني ونريد ان نعيش تحت ظله ونموت تحت ظله . »

وشاء القدر ان يموت كثير من الشباب الاصلاحي تحت ظل المشانق العثمانية في وقت كان فيه الهلال العثماني يميل الى الغروب عن سماء المشرق وفي طليعتهم احمد حسن طباره : ذلك لان الحكومة الاتحادية كانت تبطن لهم الشر وان تظاهرت للعرب بالاخلاص والخير .

●

محو الصبغة الاسلامية من دولة آل عثمان

ليست الثورة الكمالية في تركيا الا وليدة الطورانية او « الاتحادية المتطرفة » وهذه الطورانية كانت تسعى للقضاء على القوميات والعنصرية في الامبراطورية العثمانية لا سيما القومية العربية . وقد أنشأ الاتحاديون « جمعية ترك اوجاغي » اي « طائفة الترك او العائلة التركية » وكانت غايتها محو الصبغة الاسلامية من المملكة وهدم دعائم الاسلام لان في هدم الاسلام قتل للقومية العربية وتتريك سائر العناصر التي تعيش تحت السيطرة العثمانية . وكان مركز هذه الجمعية في الاستانة عاصمة الخلافة وميزانيتها من مخصصات وزارتي الاوقاف والداخلية ، وكانت

مشيخة الاسلام تعطف عليها وتزودها بقسم كبير من وارداتها وكانت منتشرة في الاناضول والقوقاس ومكدونية وتألفت هذه الجمعية من لجان اربع اطلق على الاولى منها اسم « تورك يوردي » اي المملكة التركية » ومهمتها بعث الثقافة والادب التركيان وتطهير اللغة التركية من الكلمات العربية وتحويلها الى لغة مغولية نقية وتصنيف كتب التدريس بها و كتابتها بحروف لاتينية حتى لا يبقى بينها وبين العربية لغة الاسلام اية صلة من الصلات . واعتنت هذه اللجنة بالتاريخ التركي القديم الذي يقول ان الترك هم أعظم امة اخرجت للناس وقد اختارتها العنايه الالهية لتسود الامم ونشروا الاناشيد الحماسية التي تمجد الطورانية بين الشباب والطلاب وكانت تحارب كل كاتب تركي أو غير تركي لا يرى رأيهم ولا يعتقد باعتقادهم وتتهمه بانه بريء من الدم التركي النقي الصافي .

اما اللجنة الثانية فكانت تسمى « ترك درنكي » أي ثبات الترك ومهمتها بث الفكرة القومية عند الاتراك وكان اعضاء هذه اللجنة من غلاة الاتحاديين وأشدهم كرهاً للعناصر غير التركية في الامبراطورية العثمانية وكانوا يظهرون تعصبهم الاعمى علناً حتى بات العرب والارمن والالبان والاكراد يتخوفون منهم . والحقيقة ان نشاطهم الممزوج بشيء كثير من الغرور الفاضح عجل في القضاء على الدولة .

وكانت تتألف اللجنة الثالثة المعروفة باسم « ترك بلكيشي » أي «العلم التركي» من العلماء وكبار الكتاب ومهمتها ترجمة الكتب العلمية الى اللغة التركية القديمة الصافية ثم نشرها بين الاتراك في تركستان والقوقاس ثم بث فكرة القومية بين سكان هاتين المقاطعتين وربطهم بالوطن الام تركيا الاتحادية .

اما اللجنة الرابعة فكانت تعرف بـ « ترك كوجي » أي « القوة التركية » وغايتها تربية الاتراك تربية رياضية عالية والعناية باجسامهم وصحتهم عموماً وبث الدعوة للالعاب على انواعها من مصارعة وملاكمة وسباحة وركض وقفز بين الطلاب والشباب التركي . وكانت هذه اللجنة تستقدم الاخصائيين من اوروبا في هذه الالعاب وتعينهم في مدارس الدولة والنوادي العامة وتغري الرياضيين

بالجوائز الثمينة .

وأعلنت جمعية « ترك اوجاغي » انها تشترط أن يكون العضو فيها تركياً لحماً ودماً وأن يدفع لامانة صندوقها مرتباً شهرياً ويتعهد ببذل ماله وحياته ونشاطه لاعلاء شأن الامة التركية وبسط سيادتها على العناصر العثمانية والامم الاخرى وان يغير العضو فيها اسمه ولقبه باسم ولقب طوراني فمن كان اسمه أنور اصبح يعرف باسم « ايشلداق » أي انور بالتركية القديمة ، وصارت اسماء تيمور واوغوز وجنكيز اسماء شهيرة لاعضاء ترك اوجاغي .

وحرّمت أندية ترك اوجاغي دخولها على غير الاتراك وكان واجباً على كل من يدخلها اليها ان يبرز بطاقة عضويته وعليها صورته الفوتوغرافية وترجمت هذه الجمعية القرآن الكريم الى التركية القديمة . كذلك خطب الجمعة والادعية الدينية وراحت تدعو الى نزع اسماء الصحابة – ابي بكر وعمر وعثمان وعلي – عن جدران المساجد لان وجود اسماء هؤلاء الرجال الكبار العرب يضعف الفكرة القومية عند الترك ويقوي عندهم الفكرة الدينية الاسلامية . والحقيقة ان دعوة ترك اوجاغي تغلغلت في صميم الشباب التركي حتى ان معظم المدارس الرشدية والاعدادية الملكية والعسكرية كانت تخضع لها وتتمشى بحسب برامجها وسياستها .

وأدخل الاتحاديون وكلهم ينتسب الى جمعية ترك اوجاغي في برامج المعاهد العالية لاسيما المعهد الحربي ومدرسة اركان الحرب دراسة التاريخ الطوراني لتمكين الفكرة التركية في نفوس الطلاب وعهدت الى كبار الاساتذة القاء المحاضرات في مواضيع القومية والثقافة والآداب التركية واوجبت على جميع التلاميذ في المدارس الابتدائية والاعدادية والعالية دراسة كتاب « ترك يوردي » اي كتاب « المملكة التركية » وكتاب « ترك قليجي » اي « السيف التركي » .

وقد يذكر طلاب المدارس الحربية في عهد الحكومة الاتحادية كيف كانوا يجتمعون في ساحاتها ويستلون سيوفهم وينشدون بالتركية ما معناه بالعربية :

« لقد تموجت اعلام جنكيز خان في جو المجد والشرف وارشدتنا اعلام آيت خان الى نهج هذا الطريق المجيد في الحرب » .

ويذكر بعض رواد المساجد في استانبول الدعاء الديني الذي الفه جماعة ترك اوجاغي وتعريبه : «ايها الاله القادر على كل شيء انعم على الترك بالصحة والعافية وأحسن اليهم بذنب ابيض - اله الاتراك الاقدمين - واشملهم برعاية مولانا السلطان الاعظم وانت يا مملكة طوران الجميلة المحبوبة ارشدينا الى الطريق المؤدية اليك لأن جدنا اوغوز الكبير ينادينا .»

«ايها الاله القادر على كل شيء انر طريق طوران امامنا واجعل امتنا كالورد الناضر واهدنا الصراط المستقيم .»

وهكذا مشى الترك في طريق القومية التركية الصافية وبيتوا لبقية العناصر في الامبراطورية العثمانية عداء مراً اظهروه حينما استولوا على الأمور ابان الحرب العالميـــة الاولى .

•

مبادىء ترك اوجاغي

اعلن الاتحاديون جهاراً بواسطة جمعيتهم المشهورة «ترك اوجاغي» مبـدأهم الاساسي في حكم البلاد العثمانية وهو الاهتمام بالرابطة القومية وصبغ سائر العناصر الخاضعة لهم بالصبغة التركية البحتة ثم محاربة العصبية الدينية الاسلامية محاربـة لاهوادة فيها ولا رحمة . وكان الاتحاديون يرجون ان يهدموا «الاسلامية» من عقول الشباب والطلاب في استانبول وتراقية والاناضول والقوقاس وتركستان وعهدوا الى المشايخ من اعضائها بالقاء المحاضرات في المدارس والخطب الدينيـة في المساجد وكلها تحض على اعتناق القومية التركية واقتباس الجديد من اوروبا وكره الاسلام والعرب لأنهما يمثلان في نظرهم عقلية قديمة بالية روحها التواكل وتقديس القديم . ولو قرأنا الكتب التي طبعتها جمعية الاتحاد والترقي ككتاب - قوم جديد - وهو مجموعة الخطب التي القاها الاستاذ عبيد الله الافغاني في جامع ايا صوفيا - وكتاب تاريخ المستقبل - لجلال نوري بك و «صوك كتاب»

ومجلة اجتهاد المعروفة لعرفت ان جماعـــة الاتحاديين كانوا يكرهون تقديس الصحابة كالخلفاء الراشدين وغيرهم من الائمة وكم يأسف الاستاذ عبيد الله في كتابه « قوم جديد » ان ينقش الترك اسماء الخلفاء الصحابة العرب في جدران الجوامع ثم لايذكرون اسماً من اسماء الخلفاء الترك الفاتحـــين بالاحترام والتبجيل ويتألم اشـــد الالم ان يصبح عبد القادر الكيلاني والشيخ البدوي حتى منكر ونكير – وهما من الملائكة الموكلين بعذاب اكبر – من اصحاب الشفاعـة عند الله ثم يسخر من الترك الذين يتعلقون باذيال الخضر ويهملون سلطاناً فاتحاً قوي الشوكة كحضرة محمد الفاتح . ويقول كتاب قوم جديد بوجوب هدم التكايا المنتشرة في العاصمة وتعطيلها واستعمال نفقاتها في سبيل الجيش الذي يدافع عن الوطن ثم يردد ان الايمان بالله هو في الاشتراك بالجهاد لا بالصلاة والحج وترديد آيات الله مئة الف مرة باليوم الواحد .

ويتطرق الى الاتحاديين فينعتهم بالمجاهدين ويذكر ان من لا يوآزر حضرات جمال وجاويد ورؤوف وانور وطلعت الذين هم في الحقيقـة اولياء الله صلى الله عليهم وسلم يكون من المرتدين .

وقال كتاب قوم جديد ان من الواجب ان تكون خطب الجمعة والاعياد في المساجد باللغة التركية ليتفهمها الشعب التركي بدلاً من ان يستمع الى خطب عربية لايدرك منها كلمة واحدة تغذي روحه .

اما جلال نوري بك صاحب كتاب « تاريخ المستقبل » فهو يرى ان يُرحـل السوريون واللبنانيون واليمنيون والعراقيون عن اوطانهم العربية وان تحول هذه البلاد الى مستعمرات تركية وان تكون اللغة الطورانية لغة الاسلام ثم هو يشير الى القومية العربية التي اخذ الجيل الجديد من الشباب العربي يشعر بهـــا ووجوب محاربتها بكل الوسائل قبل ان تنمو وتهدد الاتحاديين بنكبة عظيمة .

وكانت صحيفة « طنين » تردد بلسان الكاتب احمد شريف بك ان العرب العثمانيين يعتنون بلغتهم وآدابها ويهملون التركية حتى انهم يجهلونها جهـــلا تاماً كأنهم ليسوا تحت السيطرة التركية ولهذا وجب على حكومة الباب العالي ان

تنسي العرب لغتهم وتجبرهم على تعلم التركية واذا اهمل هذا الواجب فهذا يعني ان العرب سيعملون لانشاء دولة عربية على انقاض الدولة العثمانية وسيرجعون الى التغني بامجادهم الماضية وتاريخهم الكبير .

هذه هي بالحقيقة آراء الاتحاديين بالعرب والمسألة العربية وهي تتلخص بكلمة واحدة – استئصال العروبة – فاضطر العرب ان يدافعوا عن انفسهم ويجمعوا كلمتهم ويلموا شعثهم ولكن الاتحاديين كانوا لهم بالمرصاد ينتهزون الفرص للوقيعة بالنهضة العربية وزعمائها .

وجاءت الفرصة الذهبية للترك حينما اعلنت الحرب الاوروبية في اوائل آب عـــام ١٩١٤ فقرروا ان ينفذوا خططهم المرسومة بشأن القضية العربية ويحققوا آمالهم فيها . وبدأوا يمكرون بالزعماء العرب فقربوهم وعينوهم في المراكز السامية حتى يطمئنوا اليهم ولا يزال الكثيرون منا يذكرون ان الاتحاديين عينوا في بدء الحرب العالمية الاولى الفريق زكي باشا الحلبي – وهو من كبار العسكريين العرب – قائداً عاماً عـــلى الجيوش العثمانية المرابطة في سوريا وجعلوا معظم اعوانه من الضباط العرب سوريين وعراقيين وتظاهروا بالاخلاص للشباب العربي واعلنوا ان الامة العثمانية في محنة وان من الواجب ان يكون العرب والترك يداً واحدة في الدفاع عن الكيان العثماني امام العدو المشترك . وشد العرب ازر الترك وأيدوهم بكل الوسائل التي يملكون وخاض جنودهم الحرب وابلوا في المعارك البلاء الحسن والغوا جمعياتهم واحزابهم السياسية وتناسوا مبادىء الاصلاح واللامركزية ودفعوا من الاعانات الحربية للخزينة العامة اضعاف مـــا دفعه الترك . وقد وجه السيد رشيد رضا صاحب جريدة المنار الاسلامية واحـــد اركان حزب اللامركزية في القاهرة رسالة الى السوريين قال فيها : « اشكر لكم مـــا اظهرتموه من النجدة والهمة في الاخلاص والطاعة للدولة وبذل الانفس والاموال والثمرات لها والكف عن طلب الاصلاح منها وتقديركم الحال الحاضرة قدرها حتى انكم ساويتم في هذا ارقى امم الارض التي سكتت عن جميع مطالبها ومنازعاتها الداخلية » وكتب الزعيم احمد مختار بيهم وهو مفكر من كبار مفكري الاصلاحيين حينما تراءى له ان

الدولة العثمانية ستعلن الحرب على الحلفاء الى احد اصدقائه : « وقد الغينا احزابنا السياسية وتناسينا اختلافاتنا الداخلية لأن المصلحة المشتركة تقضي بذلك وسوف يرى اخواننا الترك ولا سيما الاتحاديين من اعمالنا في هذه الحرب ما يظهر لهم عظم اخلاصنا للعرش العثماني وتفانينا في خدمة الوطن المشترك » .

واظهر العرب من الاخلاص للدولة العثمانية في بدء الحرب ما جعلهم مضرباً للمثل وقد ظلوا كذلك درعاً للدولة في المال والرجال حتى عين جمال باشا قائداً عاماً في سورية خلفاً للفريق زكي باشا الحلبي فكان الرجل الذي اشتهر بسياسة التقتيل وسفك الدماء .

●

اخلص العرب عامة للوحدة العربية التركية

غلبت على الاتحاديين النعرة الجنسية والاستئثار بالسلطان ولكنهم تظاهروا بالميل للأصلاحيين واتبعوا سياسة اللين والمكر والتسويف مع الزعماء العرب . ولهذا عينوا في اواخر كانون الاول من عام ١٩١٣ السادة عبد الحميد الزهراوي وعبد الرحمن اليوسف ومحمد بيهم ويوسف سرسق ومحي الدين النقيب واحمد الكخيا اعضاء في مجلس الأعيان العثماني . وقد وقع هذا التعيين لا سيما تعيين الزهراوي بمنصب في الاعيان على الشبيبة الاصلاحية وقوع الصاعقة وتبرأت منه ولكن الزهراوي لم يقبل هذا المركز الا ليساعد الحكومة الاتحادية على تنفيذ الاصلاح بسرعة ولأن انتظام مثل هذا الرجل الكبير في سلك الاعيان يساعده على ان يفعل في المجلس ما لا يقدر على فعله خارجه « اذ يكون له من الكلمة النافذة والقوة على الاقناع في الجمعية الاتحادية ما يبلغ به العرب المطالب التي يرمون اليها » ولا ريب ان من اهم الأسباب التي جعلت عبد الحميد الزهراوي يقبل منصب الاعيان هو رغبته في اظهار الوحدة العربية التركية امام الأجانب الطامعين في احتلال سوريا ولبنان والعراق وهذا منتهى الأخلاص ومع ذلك

فقد امتدت اصابع جمال باشا حول عنق هذا الرجل البريء وخنقته بحبل المشنقة غـــدراً وظلماً .

وتؤلف الاتحاديون الى الشبيبة العربيـــة في استانبول فكانوا يكثرون من التردد على المنتدى الادبي ويخطبون فيه لا سيما طلعت وانور وجمال حتى ان طلعت قال مرّة من خطبة القاها بذكرى المولد النبوي الشريف . « اذا فرّ العرب منا فاننا نتمسك بهم ونلتزمهم ونضمهم الى صدورنا ونصافحهم مصافحة الأخ لأخيه » وقد اقتنع الزعماء العرب باخلاص الاتحاديين وشعر الترك انهم بامكانهم بهـذه الاساليب ان يماطلوا في تنفيذ الاصلاح وان يقتلوا الفكرة القومية العربيـة وان ينكلوا بالاقوياء من هؤلاء الزعماء وقد بدءوا فعلاً بالضابط العربي الكبير عزيز علي المصري .

والغريب ان الاتحاديين اخذوا يلفقون التهم الباطلة التي لا تستند الى حقائق راهنة وبدأوا يوجهونها الى الشباب العربي فقالوا في محاكمة عزيز علي المصري انه سعى وهو في طرابلس الغرب الى بث الفكرة العربية بين الاهلين وانه اراد ان يؤسس دولة عربية مستقلة في ربوعها ويتولى شؤونها وقالوا ايضاً ان عزيز علي اتفق مع امام اليمن السيد يحيى حميد الدين ان يضم بلاده الى مصر وبنغازي وتأليف مملكة عربية من هذه المقاطعات ثم أشاعوا ان عزيز علي قبض من ايطاليا مبالغ طائلة لقاء تسليمها طرابلس الغرب . والحقيقة ان الاتحاديين كانوا يرجون من وراء اعتقال عزيز علي قتله بطريقة من الطرق وارهاب الزعماء العرب الباقين .

وكانت الحكومة الاتحادية اتفقت مع الاستاذ عبد الحميد الزهراوي عضو مجلس الاعيان ان يكون للعرب في مجلس المبعوثان سبعون نائباً ولكنها الغت هـــذا الاتفاق ساعة التنفيذ وسعت لتعيينهم تعييناً الا في بيروت والبصرة وبعض ولاية الشام . ويدهشك ان تعلم ان عدد نواب العرب عام ١٩١٤ لم يبلغ الخمسين وكان بينهم عدد من الاتراك صنائع الاتحاديين فالموصل كان نائبها تركياً . كذلك كان نواب الحديدة في اليمن اتراكاً . ووضعت الحكومة الاتحادية النواب العرب تحت المراقبة الشديدة ولكن هؤلاء النواب أسمعوا اصواتهم للعالم اجمع في مجلس

المبعوثان وكان بينهم الجريئون الذين شكوا من الرشوة والجهل والفقر فاسمع مثلاً مندوب البصرة سليمان فيضي بك يقول من خطاب له القاه في الحادي عشر من تموز عام ١٩١٤ اثناء المناقشة في ميزانية وزارة العدلية : «حينما يسمع المرء اسم نظارة العدلية يتصور منبع العدل والقانون ديدناً وطريقاً في حين ان المكان الذي تصورناه منبع العدل لا يخالف القوانين العادية فقط بل القانون الاساسي عينه لا سيما في البلاد العربية».

وقال نائب بيروت سليم علي سلام ينتقد وزارة المعارف العمومية «ان الذين يدرسون اللغـــة العربية في بلادنا ليست معارفهم بها باكثر من معارف العوام واصول الامتحان عندها الشفاعة والالتماس والانتساب الى رجل كبير»، وحمل حملة شعواء على وزير المعارف فذكر انه هضم حقوق الشباب العربي حينما ارسل مئات من الطلبة الاتراك على نفقـــة الامة الى اوروبا ولم يرسل واحداً بالمائة من الطلاب العرب. وقـد اهتاج بعض النواب الاتحاديين وصاحوا في وجه نائب بيروت السيد سلام وصرخوا : «لا تفرق بين الترك والعرب» فأجابهم بجرأة لا مثيل لها : «اننا اخوان في السراء والضراء في وجه الاجنبي ولكننا كالاخوة ايضاً نتحاسب في كل شيء بمسائلنا الخصوصية» وقامت الضجة في المجلس واشتد الجدل ورغب النواب الاتحاديون في اكراه السيد سلام على النزول عن منبر الخطابه فأبى حتى عطل الرئيس الجلسة رسمياً لان امثال هذه الخطب — تخدش الاذهان —

أخلص الزعماء العرب للعرش العثماني وللوحدة التركية العربية لا سيما الزعيم الزهراوي فقابلهم الاتحاديون بسياسة الحنث بالعهود والتنكيل والاحتقار. كذلك فعل امراء العرب فانهم لم يقطعوا الصلة مع الاستانه حباً بالاسلام وحفظاً لكيانهم العثماني فالامام يحيى وابن السعود وطالب النقيب ظلوا موالين للدولة العلية حتى الساعة الاخيره. اما الشريف حسين فانه ظـــل متظاهراً بالمحافظة — على ولاء الاتحاديين حتى شعر ان كيانه اصبح في كف القدر.

وأسفر الاتحاديون عن وجه الظلم والجبروت ابان الحرب العامة وراحوا يفتكون بالشباب العربي وبرجالات العرب لسبب ولغير سبب حتى اهلكوا العثمانيين ومحوا الامبراطورية العثمانية من الوجود.

جمال باشا ينفذ خطة الاتحاديين في سورية

وقع انتخاب الاتحاديين على جمال باشا لتنفيذ خطتهم بشأن القضية العربية بعد أن نشبت الحرب العالمية الاولى وقررت تركيا خوض غمارها . وكان جمال باشا جريئاً في سفك الدماء يتقن طرق القتل والاغتيال وله ماض معروف في تدبير المذبحة الارمنية في أطنه بعد اعلان الدستور ثم هو كان المنظم الاول للفدائيين في جمعية الاتحاد والترقي ويذكر الكثيرون انه ادخل العشرات الى السجون وفتك بعدد كبير من اعداء الاتحاديين عقب اغتيال المغفور له محمود شوكت باشا. والغريب ان هذا الرجل حينما استلم القيادة العامـــة في سوريا تقرب الى العرب وزعمائهم فكان احرار السوريين والعراقيين يده اليمنى ثم كان يستشيرهم وينفذ رغائبهم فاخلصوا له والاغرب من هذا انـــه اقنع الكثيرين منهم بقبول مناصب عالية في الاناضول وأبعد كبار الضباط العرب عن سوريا والعراق . ولما تم له كل هذا قلب ظهر المجن للعروبة والاصلاحيين واللامركزيين فنصب المشانق في دمشق وبيروت لهم وكان اول من شنق صديقه عقد التفاهم بين العرب والترك عبدالكريم الخليل وراح يتبع سياسة النفي والابعاد وتجويع اللبنانيين . وصبغ فظائعه هذه بصبغة قانونية فالف مجلساً عرفياً بعاليه كانت مهمته التوقيع على مقررات جمعية الاتحاد والترقي في الاستانة وتنفيذها . وبنى المجلس العرفي احكام الاعدام على امرين اولهما الانتساب الى جمعية عربية استقلالية او شبه استقلالية تستمد المساعدة من الدول الاجنبية وثانيهما وثائق عزوها الى بعض الزعماء وهي رسائل ينتهي تاريخها الى ما قبل الحرب الاوروبية الاولى باعوام وانتحل جمال باشا عذراً مؤلماً في اعدام الكثيرين من الشباب الابرياء الا وهو المحاسبة على ما في النفوس والمعاقبة على ما في النيات كقوله عن بعضهم انهم ينتسبون الى جمعيات غاياتها سلخ سورية والعراق عن السلطنة العثمانية وجعلهما امارة مستقلة فاستحقوا عقوبة الموت ولم يأت بدليل حسي واحد يدل على ادنى عمل عدائي ظهر من احدهم يبرر اعدامه .

والحقيقة التي لا مراء فيها ان نقمة جمال باشا على العرب في سوريا كانت ترمي

الى تنفيذ خطة الاتحاديين القائلة بالاستئثار بالسلطة كافة ومطاردة جميع الاحزاب والجمعيات التي كانت تقف في وجوههم رغم الدستور الصوري الذي اعلن في المملكة العثمانية وتتريك العرب وصبغهم بالصبغة التركية لأن العرب شعروا منذ ان تسلمت الحكومة الاتحادية زمام الاحكام ان كيانهم وجنسيتهم ولغتهم في خطر فهبوا يدافعون عن انفسهم بالوسائل الدستورية والطرق القانونية .

والغريب ان جمال باشا اعدم بعض الشباب الذين لا علاقة لهم البتة بالاحزاب العربية وكان ذنبهم الأوحد نبوغهم ومعارضتهم للاتحاديين معارضة شديدة لما كانوا اعضاء في مجلس المبعوثان ومناقشتهم لهم في القروض التي استدانوها باسم الدولة ولم تنتفع منها الدولة بشيء يذكر واذا ذكرنا ان شفيق بك المؤيد العظم اعدم لانه اهان طلعت بك وزير الداخلية فقل ان في هذا الخبر الشيء الكثير من الحقيقة واذا قلنا ان سليم بك الجزائري البكباشي اركان حرب وعبد الوهاب الانجليزي كانا بعيدين عن سوريا ولا دخل لهما في السياسة العربية فقولنا جد صادق.

وبلغ من جنون جمال باشا بتتريك العرب وقتل نهضتهم انه امر بتهديم ضريح المغفور له الامير عبد القادر الجزائري في دمشق واستخراج رفاته وذرها في الهواء لان الامير عبد القادر يمثل في نظره قائداً من قواد النهضة العربية الذين دافعوا عن استقلال بلادهم مدة لا تقل عن خمس عشرة سنة ولانه اصبح حتى عند الذين حاربهم وسفك دماءهم بطلاً من ابطال التاريخ . والمضحك في وسائل التتريك التي اتخذها جمال واعوانه انهم حطموا اللوحات المنصوبة على المحلات والمخازن بالشوارع في بيروت ودمشق لانها مكتوبة باللغة العربية واوجبوا على اصحابها استبدالها بلوحات مكتوبة بالتركية حتى انهم أمروا الاطباء بنزع لوحاتهم لتغيير حرف واحد هو الفارق بين التركية والعربية وهو حرف الكاف من كلمة دكتور واستبداله بحرف القاف ليكون هكذا دوقتور .

وبعد فان جمال باشا ساق كثيراً من الاسر العربية نساءها واطفالها الى الاناضول فاقفرت البيوت من اهلها وانتهكت حرماتها ولم يخش طلعت بك وزير الداخلية من ان يصرح على رؤوس الاشهاد في تبرير موقف الاتحاديين من مذابحهم بقوله :

« انا ذبحنا المجرمين نساء وشيوخاً واطفالاً مخافة ان يكونوا في المستقبل عضواً فاسداً في جسم الدولة العثمانية » .

واتبع جمال باشا في لبنان وبيروت سياسة التجويع فكنت ترى الناس ابان الحرب العالمية الاولى أصحاب وجوه شاحبة قاتمة مصفرة وأجسام هزيلة وقد ارتفعت الاسعار وزادت أضعافاً مضاعفة وأقفل الناس محلاتهم وانقطع القمح وغيره من الحبوب . وكان الخبز نادراً حتى الخبز الاسود الذي تعاف النفوس رؤيته وهبطت أسعار الاملاك والعقارات حتى أن بعضهم كان يشتري عقاراً ثميناً بكيسين أو ثلاثة من الدقيق . أما القرى الواقعة بين بيروت وطرابلس فكانت أشبه شيء بالاطلال وقد مات معظم سكانها واما من عاش منهم فكانوا خائري القوى وقد زقت أجسامهم حتى اصبحوا كالاموات ويحزنني ان اسجل انني رأيت الكثير من الاطفال البيروتيين يتنافسون على قشرة من البرتقال والموز ليقتاتوا بها . وراحت الحكومة الاتحادية تقطع الغابات في لبنان وولايتي بيروت والشام لنفاد الفحم عندها وكانت مصيبة قطع الاشجار من اكبر المصائب التي حلت بالديار السورية اللبنانية . ولما اشتدت وطأة الفقر والجوع داهمت الناس الحميات واشهرها حمى التيفوس فكانوا يموتون بالمئات لخلو البلاد من الاطباء والادوية .

والثابت لدينا ان الكثيرين أصابهم الهول من المشانق والسجون والمنافي والحميات والجوع . ان كل هذه العوامل القاسية تألبت مع جمال باشا على تنفيذ سياسة الاتحاديين في سوريا ولبنان .

•

جمال باشا يعدم الشهداء

ان كل عربي ليأسف من صميم قلبـــه على الارواح التي ازهقت في سبيل الاستقلال العربي ، وانّ كل عربي ليتألم على الشباب الواعي المثقف الذي كان يحن الى الحريه ويسعى لها ثم استغلت فرنسا وانجلترا جهوده وطعنته طعنة نجلاء فسلمته تسليم اليد الى الجلاد الطاغية احمد جمال باشا قائد الجيش الرابع في سورية . وقد يكون لجمال عذره اذ كان يخاف الحركة الاستقلالية العربية ويخشى ان تنهار الدولة العثمانية في بـــلاد العرب كما انهارت في البلقان ومصر وطرابلس الغرب ولكنّ جمالاً لو نظر الى المستقبل نظرة العاقل لاتخذ سياسة التسامح مبدأ له ولقام يدعو فعلاً الى اصلاح الادارة التركية في سورية والعراق بدلاً من اتباع سياسة البطش والقوة . انـ جمال باشا كان بطبعه دموياً سفاكاً فاختار اهون الطرق لدرء الخطر عن الكيان العثماني فأعدم هذا الشباب البريء في نظرنا ونشر الاسباب والوثائق التي استند اليهـا ديوان الحرب العرفي في عاليه لأعدامه وكلها اسباب واهيـــة لان تركيا كانت كلها تحت السيطرة الاجنبية سواء أكانت روسية او بريطانية او فرنسية ولهـــذا لم يكن من الغريب علينا ان يلجأ هذا الشاب الى الاجانب لان اكبر رأس تركي كان يلجأ اليهم ويطلب مساعدتهم ورضاهم . ثم اين كانت عيون الامن العـام العثماني قبل الحرب العامة . انها كانت سلعة تباع وتشرى في سوق الدعاوة الاجنبية . ولو لم تسع جمعية الاتحاد والترقي الى اعتناق مذهب الطورانية او تتريك العناصر غير التركية لما لمست رد الفعل عند العرب ولما استمع هـذا الشباب العربي الواعي المندفع الى الدعايات الاجنبية التي كانت تتظاهر انها للحرية وللاستقلال وللانسانية وهي في الحقيقة كانت تعمل للاستعمار والتغلب على الشعوب الضعيفة . ولن ننكر ان بعض شبابنا كانوا يعملون لمصالحهم الخاصة ولمناصب عالية كانوا يرجون ان ينالوها ولكن هذه الاسباب كلها لم تكن

كافية لازهاق ارواحهم :

وها اني اورد لك اسماء الذين اعدموا واشهرهم السيد عبد الحميد الزهراوي احد مؤسسي المنتدى الادبي ورئيس المؤتمر العربي في باريس واحد زعماء الجمعية اللامركزية وعضو مجلس الاعيان في الدولة العثمانية . وشفيق بك المؤيد العظم صاحب اليد الطولى في تأليف جمعية الاخاء العربي واحد المرشحين لامارة سورية والرجل اللامركزي القوي ومن دعاة فرنسا الظاهرين وشكري بك العسلي عضو اللامركزية والمتحمس لفصل سورية عن جسم الامبراطورية العثمانية والحاقها بمصر وصاحب الخطاب المشهور امام تمثال ابراهيم باشا والذى يقول فيه ان يد ابراهيم دوماً تشير الى سورية . وقد اظهر نشاطاً ملموساً في تأسيس اللامركزية بدمشق . والسيد عبد الغني العريسي البيروتي وخريج باريس والصحافي الممتاز الذي انشأ المفيد وفتى العرب والذي كان يحلم بامبراطورية عربية واحد اعضاء اللامركزية . والسيد سيف الدين الخطيب رفيق عبد الكريم الخليل في ادارة المنتدى الادبي في الاستانة وعضو اللامركزية في مصر والداعي الى انفصال العرب عن الاتراك . والاخوان محمد ومحمود المحمصاني من اسرة المحمصاني البيروتية وعضوا جمعية اللامركزية في بيروت ومن مؤسسي فروعها في هذه المدينة .



شكري بك العسلي



سيف الدين الخطيب



محمد المحمصاني

وكان محمد يرى أن لا حياة للعرب الا بالانفصال عن الادارة العثمانية البالية الظالمة والسيد صالح حيدر معتمد اللامركزيه في بعلبك وأحد مؤسسي تشكيلاتها



عبد الحميد الزهراوي



عبد الغني العريسي



محمود المحمصاني



صالح حيدر



عمر حمد



نايف تللو



سليم الجزائري



امين لطفي



عبد القادر الخرسا

السرية . والسيد عبد الوهاب الانكليزي أحد دعاة اللامركزية الذين كانوا يأملون ان يثوروا ضد الحكومة العثمانية في نفس دمشق . والسيد رفيق رزق سلوم الشاعر الرقيق ومن كبار الدعاة للاستقلال العربي ولامركزي عميق . والسيد عمر حمد احد طلاب الكلية العثمانية وعضو اللامركزية والشاعر المتحمس الذي يكره الترك لانهم أبادوا الامجاد العربية وصاحب النشيد

عبدالوهاب الانكليزي

المشهور : « يا ابن السعود يا عزنا » . والسيد عارف الشهابي واسطة الحزب اللامركزي في القاهرة لدى الشباب البيروتي . والسيد عبد الكريم الخليل اليد القوية النشيطة في المنتدى الادبي واللامركزي المعروف وشريك رضا بك الصلح في الحركة الثورية التي كانا قد ازمعا القيام بها في صور والاستاذ الشيخ احمد حسن طباره الصحافي



الامير عارف الشهابي



الشيخ احمد حسن طباره

صاحب الاتحاد العثماني الذي وقع على مشروع تأسيس امارة مستقلة في سورية واحد الاصلاحيين الذين اعتمدوا على فرنسا في جهادهم ولامركزي كبير ويد من يدي رزق الله ارقش الذي كان يدعو مع اعضاء جمعية النهضة اللبنانية الى ضم بيروت الى جبل لبنان تحت الحماية الفرنسية . وكانت صحيفته ملتقى بل ومركزاً لاقلام سعيد عقل وغيره من الذين كانوا يحاربون الكيان العثماني في السر والعلن . والامير عمر الجزائري وكان يتناول راتباً شهرياً من القنصل الفرنسي في دمشق ويرجو ان تكون سورية حصة فرنسا من التراث العثماني وهو الذي كان يقدم الشباب امثال شكري العسلي وغيره الى موظفي فرنسا في قنصلية دمشق . والسيد علي الارمنازي صاحب جريدة « نهر العاصي » ومعتمد اللامركزية في حماه

والسيد حافظ السعيد وجيه من وجهاء يافا وزعيم اللامركزية فيها . والسيد محمود العجم من اسرة نجا العجم البيروتية واحد اعضاء اللامركزية الا انه لم يبد نشاطاً ملحوظاً . والسيد نايف تللو معتمد اللامركزية في البقاع والسيد محمد مسلم عابدين معتمد اللامركزية في اللاذقية وأحد المعجبين بحقي بك العظم والسيد سعيد الكرمي معتمد اللامركزية في بني صعب والسيد سليم الاحمد عبد الهادي معتمد اللامركزية في جنين والامير سليم الجزائري من رجال الجيش واحد مؤسسي جمعية الضباط العرب وصاحب الاناشيد المشهورة في تمجيد العروبة وكراهية الترك والسيد امين لطفي عسكري كبير ورئيس جمعية العهد في حلب والسيد عبد القادر الخرسا احد اعضاء اللامركزية في فرع بيروت ، والسيد رشدي الشمعة صاحب المحاضرات المشهورة التي تعلن سافرة وجوب انفصال العرب عن الترك وعضو عامل من اعضاء اللامركزية والسيد محمد الشنطي



جورج حداد



رشدي الشمعة

عضو لامركزي نشيط والسيد جورج حداد من انصار الاستقلال اللبناني وعضو في جمعية النهضة اللبنانية والسيد سعيد عقل المحرر في صحيفة الاتحاد العثماني والداعي الى تأسيس وطن عربي كبير يضم كل الاقطار العربية والرجل الذي كان يعمل بايحاء رزق الله ارقش اللبناني الصميم . والسيد باترو باولي صحفي كبير وداعية



سعيد عقل



باترو باولي

نشيط عمل من اجل لبنان والعروبة والسيد علي النشاشيبي المعروف ببيطر علي

لامركزي همام وكان عضواً في الجمعية الثورية العربية التي كانوا يطلقون عليها اسم الجمعية القحطانية والسيد نوري القاضي من اسرة القاضي البيروتية كان عضواً في جمعية اللامركزية ولكنه كان عضواً على الهامش والسيد توفيق البساط داعية المنتدى الادبي في سورية ولامركزي اشتغل في توزيع المنشورات السرية الاستقلالية وهرب من الجيش العثماني ولم يحب ان يخدم تحت لوائه . والسيد جلال البخاري رفيق توفيق البساط واستقلالي متحمس للعروبة .

ونفذ حكم الاعدام بهؤلاء جميعاً شنقاً وكانوا كلهم دون استثناء من الشجعان الذين لاقوا ربهم بهدوء وسكينة واطمئنان واذعنوا لقضاء الله وقدره واستسلموا لمشيئته . واما الذين حوكموا غيابياً وحكم عليهم بالموت فهم رفيق العظم وحقي العظم والشيخ رشيد رضا وداود بركات وفارس نمر والدكتور شبلي شميل والشاعر خليل المطران

جلال البخاري

وشيخ الصحافة اليوم في لبنان ابراهيم النجار وجورج عبد المسيح وجبرائيل آصف ونجيب عازوري والفرد عازوري وجورج بحري والأمير خليل ابي اللمع وخليل بولاد وهنري حبيب بولاد ونجيب البستاني وامين البستاني ويوسف البستاني وفيليب شما ونجيب قطان ونجيب فريصاتي وجورج دوماني وجورج فريصاتي وكميل اده وميشال لطف الله والدكتور يوسف كحيل والشيخ يوسف الخازن والدكتور خليل مشاقــه ويوسف سمعان الصيدناوي والفونس زينيه وفؤاد الخطيب وقسطنطين يني ورزق الله ارقش وسليم ثابت وعزة العابد وشكري غانم وعزيز علي المصري وغيرهم وكان هؤلاء كلهم يرجون ان تنفصل الأمة العربية عن الامة التركية ومنهم من كان يسعى وراء الاستقلال الناجز او وراء الحماية الانكليزية او الفرنسية او وراء ضم سورية الى مصر تحت التــاج الخديوي والحاصل انه كان لكل منهم رأي واجتهاد والمهم انهم لم يتفقوا على امر ثابت معين وهدف رئيسي منظم .

●

الف جمال باشا الديوان العرفي في عاليه لمحاكمة المتهمين بالاصلاح واللامركزية وقد تمشى على سياسة اعدام النابهين والاكفاء والاذكياء والعاملين من الشباب العربي الذين وقعوا في قبضة الاتراك والمؤسف حسب الثابت من الروايات ان حكم الاعدام في قضية الشهداء - الذين علقوا على اعواد المشانق في السادس من ايار عام ١٩١٦ - عدل اربع مرات فكان كل مرة يكتب اسماء بعضهم ويشطب اسماء بعضهم من قائمة المحكومين ولم تتخذ القائمة شكلها النهائي الا في الخامس من ايار اي قبل يوم التنفيذ باربع وعشرين ساعة . وكان هـذا التعديل في اسماء المحكومين يأتي رأساً من جمال باشا .

واستعمل الديوان العرفي وسائل التعذيب والضرب الشديد ومـع ذلك فلم ينطق السيد عبد الكريم الخليل بكلمة تدين احداً . كذلك كتم السيد عمر حمد اسرار الاصلاحيين ولم يتفوه ببنت شفة . اما السادة عبد الغني العريسي وسيف الدين الخطيب ورفيق رزق سلوم فانهم افضوا بمعلومات عامـة يعرفها ابن الشارع في بيروت عن جمعيتي الاصلاح واللامركزية وقـد قام تحقيق الديوان العرفي على الاوراق التي جمعت من القنصليات الفرنسية في دمشق وبيروت ورسائل حقي العظم التي كان يكتبها بسبب ودون سبب الى اصدقائه في سوريا ولبنان والواقع ان جمال باشا الدموي لم يكن يرمي من وراء الديوان العرفي التحقيق العادل النزيه البريء وانما كان يهدف الى التخلص من الشبيبة العربية الطموحة الى الحرية والاستقلال والاصلاح واذا كان انتصار الدولة العثمانية في الدردنيل قـد عجل باعدام القافلة الاولى من الشهداء فان انتصارها في كوت العمارة بالعراق قد اهاب بها الى اعدام القافلة الثانية التي كانت تتألف من كبار رجال الفكر والقـلم والزعامـة .

ويحزنك ان تعلم ان الديوان العرفي حكم بالاعدام على شباب لم يحاكموا مطلقاً بل وجهت اليهم بعض الاسئلة واكتفى الديوان بها واعدمهم وهـذا يدلنا دلالة

واضحة ان جمال باشا الدموي كان يستعمل الديوان العرفي آلة في يديه لاعدام الشبيبة العربية وللتنكيل بجماعة الاصلاح واللامركزية . والغريب ان الديوان العرفي لم يجد وثيقة واحدة تدين الزعيم الجليل رئيس المؤتمر العربي بباريس السيد عبد الحميد الزهراوي « وقد كان قبل اعدامه عضواً في مجلس الاعيان العثماني » الا برقية وردته من حزب اللامركزية تسمح له بقبول العضوية في الاعيان وهو لم يمثل امام قضاته ابداً بل اعدم شهيداً . اما عبد الكريم الخليل فقد ذهب ضحية لرواية رواها احدهم وهي ان عبد الكريم الخليل ورضا الصلح كانا يهيئان ثورة في الطيبة من جبل عامل .

وقد اثبتت الايام ان الثورة لم تكن الا في مخيلة صاحبها وان الرواية لم يكن لها من اساس الا منافسة محلية على الزعامة فتمسك جمال باشا بهذه الرواية وجعل من الحبة قبة فاعدم عبد الكريم الخليل لحيويته ورجولته ونشاطه الكبير في حقلي الاصلاح واللامركزية وكانت حجة جمال باشا في اعدام الشهداء هي الحجة التقليدية التي يرجع اليها رجال الحرب دوماً في حالات الازمة وهي ان الدولة العثمانية كانت في حرب عامة فاصلة وليس بمقدوره ان يتسامح مع رجال اصحاب نفوذ كهؤلاء ولهذا تخلص منهم باعدامهم حتى يفسح للدولة حرية العمل وهذا منتهى التعسف في الاحكام .

ولو درسنا احوال الشهداء دراسة علمية صادقة لما وجدنا ان واحداً منهم تجرأ وطالب بسلخ بلاده عن الامبراطورية العثمانية بل كانوا ينادون بالاصلاح واللامركزية وما كانت محاكمتهم في الديوان العرفي بعاليه الا محاكمة صورية وما كانت غايتها الا تبرير اعدامهم امام الرأي العام العربي والعالم الاوروبي .

وحاولت ان ابذل جهد المستطاع لاعلم الحقيقة عن شهدائنا في ساعاتهم الاخيرة فتبين لي ان جمال باشا امر الديوان العرفي ان يعدم القافلة الاولى في العشرين من آب عام ١٩١٥ وكانت تتألف من احد عشر شهيداً . وقد اخرجوا من سجن عاليه واركبوا عربات تجرها الخيول ويخفرها الجند المسلح وجيء بهم من طريق جسر الباشا الى طريق نهر بيروت ولم تمر عرباتهم بساحة البرج لئلا يروا مشانقهم

منصوبة في الساحة التي عرفت باسمهم بعد اعدامهم .

وسد الترك منافذ الطرق المؤدية الى البرج وفرقوا فيها كتائب الجند وهم بالسلاح الكامل ومنعوا الاهلين من المرور حتى الصباح .

وذهب الترك بالقافلة الى دائرة البوليس رأساً وهناك جمعوهم في غرفة واحدة وطوقوها بقوة كبيرة من الجند وابلغوهم حكم الاعدام وطلبوا اليهم كتابة وصاياهم وحملوا لهم الورق والحبر والاقلام ليخطوا كلماتهم الاخيرة وهي كلمات القلوب والعواطف والوصايا وقد تركت وديعة عند البوليس لتسلم بعد ساعات للامر المنكوبة .

وعند الساعة الرابعة بدىء باخراج المحكومين اثنين اثنين من دائرة البوليس والذهاب بهم الى ساحة الاعدام بين صفوف الجند المسلح من المشاة والخيالة . وكان يمثل الحكومة العثمانية في هذه المأساة رضا باشا قائد فرقة عاليه واعضاء الديوان العرفي ومدير البوليس محي الدين بك وكان اول من صعد سلم المشنقة السيد عبد الكريم الخليل وكان ثابت الجنان حاضر الذهن فالتفت الى رضا باشا وقال له هل يجيز قانونكم ان يقول رجل ارادته الاخيرة قبل موته فأومأ : نعم فقال عبد الكريم « يا ابناء بلادي اننا امة تسعى للاستقلال والتحرر من نير الترك ويا ارض وطني املي الى كل عربي مأساتنا وقولي لهم اننا عشنا في سبيل الاستقلال ونموت في سبيل الاستقلال » وخفت الصوت لان الكرسي كان هوى من تحت قدميه .

وتعانق الاخوان محمد ومحمود المحمصاني قبل ان يكبلا بالحديد وشجع الواحد منهما الآخر على تقبل الموت وصعدا معاً الى منصة الاعدام وماتا سوية وقال محمد قبل ان يلفظ انفاسه الاخيرة : « يشهد الله اني لم اخن وطني وانما خدمت بلادي اني أموت شهيداً ولتحي امتي العربية » . وهكذا ازهقت ارواح هؤلاء الابرياء وهم عبد الكريم الخليل ومحمد المحمصاني ومحمود المحمصاني وعبدالقادر الخرسا وصالح حيدر ونور القاضي وعلي الارمنازي وسليم الاحمد عبد الهادي ومحمود العجم ونايف تللو ومسلم عابدين قبل ان تشرق الشمس وحملت الجثث الى رمال الصنائع على طنابر

وقد رأيتها بام عيني وحفر لكل جثة حفرة . اما الاخوان المحمصانيان فقد ضمتهما حفرة واحدة . وظلت قوة من البوليس تحرس هذه الحفر مدة من الزمن .

اما القافلة الثانية من الشهداء التي اعدمت في السادس من ايار عام ١٩١٦ فكانت تتألف من عمر حمد وعبد الغني العريسي والامير عارف الشهابي ومحمد الشنطي وسيف الدين الخطيب وتوفيق البساط والشيخ احمد طباره والامير سليم الجزائري وسعيد عقل وباترو باولي وجرجي الحداد وامين لطفي وجلال البخاري « وعلي الحاج عمر النشاشيبي وقد امرت الحكومة ان لا يسهر احد من الاهلين في مقاهي البرج بعد الساعة العاشرة .

وبدأت معاول الجند ترن رنيناً على بلاط البرج في الليل البهيم لتثبيت اعواد المشانق وسدت فرق الجند منافذ الطرقات التي تؤدي الى ساحة الشهداء وجاءت بهم بعد ان كتب البعض وصاياهم ولم يرض البعض الآخر ان يكتب شيئاً وكان هؤلاء الشباب وقد نقلوا بالسيارات من عاليه الى بيروت ينشدون الاناشيد الوطنية العربية والاهازيج القومية وكان يثير حماسهم الشهيد عمر حمد فانه لم يفتر عن النشيد حتى وصل الى بيروت ، والتفت الشهيد امين لطفي الى مأموري البوليس وقال : « واسفاه يعدموننا دون ان يحاكمونا » وقال الامير سليم الجزائري . « هذا جزاء من يلبس الثوب العسكري في الجيش العثماني » اما امين لطفي فقال احب يا ابناء وطني ان اعظكم عظة صغيرة قبل الموت : « خدمنا الدولة العثمانية بارواحنا وها هي تأتي بنا من الخنادق لتضع الحبل في اعناقنا علموا اولادكم صنع الحمص والفول ولا تدخلوهم في خدمة الدولة التي لا تعترف بالجميل » .

وبينا كان البوليس يلبس الشهداء القمصان البيضاء كان عمر حمد يجمع رفاقه وينشد معهم النشيد الخالد :

نحن ابنـــاء الاولى شادوا مجداً وعــلا

وكان من العبث اسكاته فقد اصابته نوبة من الحماس كانت كافية لان تجعل كل فرد من افراد البوليس يطأطيء الهام امام هـذا الشاب الشجاع . اما عبد الغني العريسي فكان دائماً يردد : « اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمداً رسول الله

واشهد ان الخلافة للعرب ان شاء الله».

وفي هدأة الليل وبين صهيل الخيل وقرقعة السلاح اقتيد اول من اقتيد سعيد عقل وباترو باولي وجرجي الحداد الى المشنقة فصرخ رفاقهم الباقون «خذونا كلنا سوية الى المشنقة» ما احلى الموت في سبيل الاستقلال والحرية» واخذ الطبيب يفحص اجسامهم لئلا تكون بهم علة لان القانون لا يجيز اعدام المرضى فصرخ باترو باولي «كان الاولى بكم ان تحاكمونا بعدل بدلاً من ان تفحصوا اجسادنا» واما سعيد عقل فقال على منصة المشنقة: «غفر الله لمن ظلمني واسأل ان يكون دمي شرفاً لبلادي واولادي واسرتي» ثم جاء الجلادون بعبد الغني العريسي وعمر حمد والامير عارف الشهابي وهم كلهم من طلبة الكلية العثمانية وقد احبوا ان يموتوا سوية.

وخطب عمر وهو على منصة المشنقة بالافرنسية: «بلغ يا رضا باشا حكومتك الظالمة انهذه الاعمال نهايتها الخراب» ثم التفت وقال بالعربية: «اموت شجاعاً شلت يمينك يا جمال وليحيي العرب» وقبل ان يتم كلمته هوى الكرسي من تحته قبل ان تتمكن الحبلة من عنقه فوقع الى الارض وسال دمه بغزارة ثم حملوه ووخزوه بالسيوف وعلقوه. فتألم عبد الغني العريسي ان يعامل عمر حمد وهو في دقائقه الاخيرة مثل هذه المعاملة البربرية فصرخ: «ان الانسانية ستنتقم منكم. بلغوا جمال باشا ان الدول لا تبنى على غير الجماجم وان جماجمنا ستكون اساساً لاستقلال بلادنا». اما توفيق البساط فقد مشى الى الموت وهو يقول: «مرحباً بارجوحة الشرف، مرحباً بارجوحة الابطال».

وشاء رضا باشا ان يخلص الضابطين سليم الجزائري وامين لطفي وهما زميلان من زملائه العسكريين فحاول ان يتصل بجمال باشا وفخري باشا بالتلفون فكان الجواب دائماً «اولماز» «غير ممكن» ومشى الضابطان بثيابهما العسكرية الى المشنقة وكانت انوار الصباح بدأت تشرق على الساحة التي علق على اعوادها قبلهما اثنا عشر شهيداً، ونقلت جثث القافلة الثانية من الشهداء الى المدافن التي حملت اليها جثث القافلة الاولى الى رمل الصنائع اجمل احياء بيروت اليوم.

هذه مأساة يمكنك ايها العربي ان تفخر بها لان ابطالك لم يموتوا جبناء بل كانوا يستهزئون بالظلم والظالمين ، رحم الله الضحايا والهم القائمين على الامر ان يشيدوا لهم تمثالاً من الحق والحرية والعدالة والاصلاح في البلاد التي احبوها حتى الموت .

•

شهداء العرب في ساحة المرجة بدمشق

في الساعة التي اعدم فيها شهداء القافلة الثانية في بيروت شهدت ساحة المرجة في دمشق مصرع سبعة من كبار السوريين العرب وهم السادة عبد الحميد الزهراوي وشفيق المؤيد العظم والامير عمر الجزائري وشكري العسلي وعبد الوهاب الانكليزي ورشدي الشمعة ورفيق رزق سلوم وقد ذكر لنا شاهد عيان ان هؤلاء الرجال تأكدوا ان جمال باشا لن يعفو عنهم وانه منفذ بهم حكم الاعدام حتما وحملوا بالقطار من عاليه الى دمشق وسيقوا الى ثكنة البرامكة مكبلين بالحديد تحرسهم قوة كبيرة من الجند وهنالك طلب اليهم ان يكتبوا وصاياهم . ونصب الترك المشانق امام التذكار الحميدي في ساحة المرجة وطلبوا الى صاحب فندق « زهرة دمشق » ان يسلط الانوار على هذه البقعة امعاناً في التشفي والنكاية حتى كادت تكون شعلة من نور ثم احضر احد المشايخ يشجعهم على اقتبال الموت فاستدناه منه السيد عبد الوهاب الانكليزي ورفسه برجله وقال له : « اذهب الى سيدك وقل له اننا لسنا بحاجة لمن يعرفنا بالموت ، نحن اهله .

وألبسوا الشهداء القمصان البيضاء وكتبوا على صدورها خلاصة الاحكام ، وتقدم شفيق المؤيد الى المشنقة بشجاعة وطلب ان لا يعلقوا الحبل برقبته قبل ان يقول كلمته الاخيرة ، وقد ذكر فيها انهم سعوا للاصلاح حتى لا تتدهور البلاد العربية وبالتالي الامبراطورية العثمانية ثم قرأ الفاتحة ومات شجاعاً . أما السيد عبد الحميد الزهراوي فقال ساعة اعدامه كلمته المشهورة : « لينتقم الله من الظالم

المظلوم ، ثم هوى لما ازيح الكرسي من تحته وانقطع الحبل به فرفع اليه ثانية وشدوه من رجليه شداً قوياً فاختلج وقضى الرجل الذي كان يمثل الفضيلة والعلم والاخلاق في سوريا العربية .

وردد شكري العسلي في دقيقته الاخيرة الآية الكريمة « ولا تحسبن الله بغافل عما يعمل الظالمون » اما عبد الوهاب الانكليزي فقد شتم الترك والاتحاديين حتى طارت روحه الى بارئها . وكان شاعر حمص الرقيق رفيق رزق سلوم هادئاً مطمئناً واستقبل الموت وهو يقول : « مساكين هؤلاء الظلام » .

ويروي بعضهم ان رشدي الشمعة رأى كريمته المريضة وطفله الصغير وزوجه في محطة رياق وقد حملهم القطار من دمشق الى حماه منفيين وكان السيد رشدي اذ ذاك محمولاً في القطار من عاليه الى ساحة المرجة ليعدم فيها . ولمحه اذ ذاك طفله الصغير فصرخ « بابا بابا » ومدت الابنة المريضة يدها تشير الى والدها فرأته يبتسم لهما ويرسل للاسرة كلها قبلة في الهواء . وكانت الصدمة قوية على الابنة المريضة فماتت في نفس الليلة التي اعدم بها والدها . وهذه مأساة لا تنسى .

اما الامير عمر الجزائري فالتفت الى جلاديه وصرخ « ان موتنا سيكلف الدولة كثيراً » وقال شكري العسلي « ان لنا رباً ينتقم من الظالمين » .

ولبست دمشق أثواب الحزن على شهدائها وما كنت ترى في بيوتها الا الدموع تتفجر من الاعين وبثت الحكومة عيونها في كل مكان حتى تقبض على كل من تسوله نفسه الانتقام للشهداء فلم يتحرك احد ووجم القوم وكأنهم اصيبوا بالذهول ويعتب بعضهم على الدمشقيين تنكيلهم بالاتراك حين انسحابهم عام ١٩١٨ ولكن الذين يعرفون تمام المعرفة ان هؤلاء فتكوا بوجهاء دمشق وشبابها ولم يرحموهم يتشد ويخفف من غلوائه .

قاد جمال باشا القافلة الاولى ثم القافلة الثانية من الشهداء الى الموت وهو يدرك تمام الادراك ان العرب السوريين كانوا مخلصين جد الاخلاص للدولة العثمانية فاشترك شبابهم في الحملة على مصر وقاسوا من آلام المشاق وضروب العذاب ما لا يعرفه الا الذين شاهدوا بأم العين انواع الضنك الذي تحملوه . وكان الجنود العرب مسئولين عن

تموين الحملة المصرية فقاموا بواجبهم خير قيام ومع ذلك فقـــد ركب جمال رأسه وفتح ثغرة كبيرة بين الترك والعرب واعدم هذا الشباب المفكر .

والغريب ان العرب في سورية ولبنان لاذوا بالصبر والسكينة رغم تجويعهم ايضاً واني ما ازال اذكر اسواق بيروت وقد تلاشت فيهـا الحركة وماتت فيها الحياة التجارية . وهل أنسى الاطفال والنساء في بيروت وقد ارتموا على الارض وهم يصيحون – جوعانين جوعانين – وكنا نطلب الخبز فـلا نجد الا الاصناف الرديئة منه ولعلي لا انسى مطلقاً قيام المغفور له والدي مع صلاة الفجر ليذهب الى الفرن ويتناول لأسرتنا الارغفة الزرقاء اللون ولعلي لا انسي هؤلاء الاطفال وهم يتنافسون على قشرة الموز والبرتقال والبطيخ او يجتمعون مع الكلاب على القمامات ذات الروائح النتنة . ورقت اجسام النـــاس حتى اصبحت كالاشباح وكانت تتورم ارجل بعضهم وتغور عيونهم ويموتون جوعاً وخوراً .

وشاء القدر ان يغزو الجراد بلادنا عام ١٩١٥ ويلتهم الانتاج الزراعي فيخيم الضيق عليها وترتفع الاسعار ارتفاعاً جنونياً . ولعلّ هذه الاحوال السيئة كلها ساعدت جمال باشا ان يقوم بتنفيذ فكرته الجهنمية فيعدم زهرة الشباب السوري اللبناني دون ان يلقي معارضة من احد .

مسكينة بلادنا اصيبت بثلاث ضربات مجتمعة اثناء الحرب العالمية الاولى : اعدام الشهداء والجراد والتجويع وظلت صابرة . ان الصبر واحتمال المر في دمها .

●

الشهيد عبد الغني العريسي يمثل الاصلاحيين العرب

وقعت بين يدينا وصية الاستاذ عبد الغني العريسي صاحب جريدة المفيـــد البيروتية واحد شبابنا المثقفين وهو كاتب بليغ اشترك في المؤتمر العربي بباريس وزار الاستانة مع زعيم بيروت مختار بك بيهم قبيـــل الحرب العمومية الاولى واجتمع الى زعماء الاتحاديين وقد حاولوا ان يستميلوه الى جانبهم وان يقنعوه

بصواب آرائهم وحسن سياستهم فوالاهم ولكنهم بطشوا به حينما قبضوا عليه بجوار مدائن صالح واعدموه مع من اعدموا من اخوانه المخلصين .

ويظهر لك من وصية السيد العريسي انه كان يؤمن ايماناً صادقـاً بالقومية العربية والاتحاد المكين بين طوائف الوطن ثم كان يكره الاقليمية فاقرأ ما خطته انامله وهو بين براثن الموت: « اعلموا ان اخوانكم هنا يقدمون ارواحهم ويضحون نفوسهم في سبيل القومية فلا تضنوا انتم بالاتحـاد والاتفاق . التمس منكم ان لا تفترقوا فرقـاً وطوائف فاليوم لا مسيحي ولا مسلم ولا يهودي ولا درزي ولا وثني بل الجميع عرب وفي العرب وللعرب . ولا لبناني ولا بيروتي ولا شامي ولا حلبي ولا حمصي ولا حموي فخط بيروت هو خط لبنان وخط الشام وحلب وفلسطين والعراق والحجاز واليمن ادعوكم ايها الاخوان المحبوبون اينما كنتم وحينما اجتمع منكم عشرة ان تبادروا الى تأليف جمعيات باسم سورية تتعارفون بها وتتفاهمون وتكرسون بما رزقكم الله من خيراته وبركاته ونعمه وامواله لأجل سورية الجديدة لاجـل سورية المستقلة » . ليت عبد الغني العريسي يعيش ليرى العرب شيعاً وطوائف واقليميين يتقاتلون على منافع اقتصادية بسيطة زائلة لاقيمة لها امام الفكرة الازلية الاولى التي وهب لها هؤلاء الشهداء ارواحهم وعنيت بها فكرة الوطن العربي الكبير المستقل .

وحذّر عبدالغني العريسي مواطنيه العرب من الاتراك الاتحاديين وعلى راسهم حسب تعبيره جمال باشا الجاسوس الاكبر فهم في نظره ابنـاء جنكيز المغولي واحفاد تيمورلنك الوحش الضاري الذين أقروا افناء الشعب السوري برمته حتى الاطفال وكذلك اقروا محو الشعب العراقي ولكن هؤلاء الاتراك اقصر يداً في العراق بما هم في سورية ، وقال عبد الغني العريسي ان جمال باشا سيحاول ان يفني من يقف في طريقه من الشباب اما عن طريق المشنقة او طريق الجوع واما من كتب له عمر في سجل القدر فانه سينفى الى الاناضول حيث ينصهر في بوتقة الطورانية ويصبح تركياً بعد قليل من الزمن . وقد صدق حدس عبدالغني العريسي فقد اعمل جمال باشا حبال المشنقة في كثير من الرقاب كما انه نفى الكثير من

الاسر السورية واللبنانية الى مجاهل الاناضول حتى خلت بعض القرى من سكانها وكان في نيته ان يستبدل بالسكان العرب بعض المهاجرين من الاكراد والاتراك ويمثل المأساة التي مثلها بالشعب الارمني من قبل .

ويحذر عبد الغني العريسي الشباب العربي من جمال باشا اذ انه يصرح علناً ان هذا الرجل قد يتظاهر بالميول العربية ولكنه خداع « فاياكم والوقوع في حبائل مكره » وجمال باشا يريد بهذا الاسلوب ان يتفهم الى دخائل السوريين ومهما يكن سيفه وتكن مشنقته واحكامه الجائرة ومنكراته الفظيعة فانها الباعث على دعوتنا واعظم منشط لنا في جهادنا » وسندعوكم ايها الشباب الى التحفظ والتعقل والروية والتفكير .

ولا ييأس عبد الغني العريسي وهو في سجنه بل يؤكد ان سورية ستكون في طليعة المبشرين بدين الاستقلال العربي وانها ستجود في سبيله بألوف الشهداء وقد بذلت سورية دماء زكية في هذا السبيل منذ ان وطىء الانتداب ارض البلاد بخيله ورجله حتى تم الجلاء عام ١٩٤٥ .

وترى عبد الغني العريسي يحيي ابنـــاء وطنه وهو على شفير الموت بقوله : « يا بني يعرب ويا سلالة قحطان يا نسل الاكارم ويا خلف الاشاوس الصيد الذين دوخوا العالم بعزمهم وملكوا الدنيا بعدلهم » ثم يدعوهم الى الاتحـــاد والتعاضد والوئام والالتفاف حول الزعماء المخلصين لان الحرية والاستقلال هما الغاية الـــتي تأبى العار والدنس والموت والذل . وهو يقول انه يبذل روحه وهي كل ما يملك في هذا السبيل فهل هناك شهيد كريم كهذا الشهيد واخوانه ؟ وكانت كلماتـــه الاخيرة — « وحدوا جمعياتكم ، وحدوا افكاركم ، وحدوا آراءكم ، وفقوا بين مشاربكم واذواقكم ومساعيكم » —

ويحذر عبدالغني العريسي السوريين ويذكر لهم ان الاتراك حاولوا وسيحاولون قتل اللغة العربية وتتريك العرب ثم هم يتوخون بعد ذلك اجـــلاء السكان عن بيوتهم ومزارعهم حتى يفقد كل سوري عاطفته القومية .

وحسب عبد الغني العريسي وامثاله من الشباب الشهداء انهم بذلوا دماءهم في

سبيل الامة والبلاد والقومية العربية هذه الغايات النبيلة التي تريد ضحايا كثيرة. ان الاستقلال لا يصان بالكلام ولا بالانهزامية واليأس بل بالعمل المتواصل الذي لا يهاب الموت.

رحم الله عبد الغني واخوانه اصحاب الشعلة المقدسة الذين يرقدون في الرمال وجعلنا نقدر عملهم قدره باقتفائنا اثارهم حتى نصون الاستقلال العربي من كل اعتداء اجنبي.

●

الحكومة الاتحادية تنكل عن تنفيذ الاصلاح

رأت الحكومة الاتحادية ان تعين بعض الزعماء العرب اعضاء في مجلس الأعيان لعلها توفق الى المباحثات معهم بشأن الاصلاح في الولايات العربية فاستصدرت مرسوماً في الرابع من كانون الثاني عام ١٩١٤ بتعيين كل من عبد الحميد الزهراوي وعبد الرحمن اليوسف ومحمد بيهم ويوسف سرسق ومحي الدين النقيب واحمد الكخيا اعضاء في مجلس الاعيان العثماني. وكانت الشبيبة العربية تعتقد ان الاتحاديين انما عمدوا الى هذه الوسيلة ليرفضوا كل اصلاح ويقفوا على الفكرة الاصلاحية من الأساس بمختلف الطرق. وكانت النقمة على اشدها على الاستاذ الزهراوي وكادت تتبرأ منه ولكنه برر موقفه وقال انه مستعد لتقديم استقالته من هذا المنصب ولكن حزب اللامركزية سانده واصر عليه وقال: «ان عبد الحميد الزهراوي يفعل في المجلس بشأن الاصلاح ما لا يقدر على فعله خارج المجلس اذ تكون له الكلمة النافذة والقوة على الاقناع في الجمعية الاتحادية ما يبلغ به ابناء العرب المطالب التي يرمون اليها» ولا ريب في ان عبد الحميد الزهراوي قبل عضوية الاعيان رغبة منه في انقاذ الولايات العربية من اطماع الاجانب والظهور بمظهر المتعاون المخلص مع الترك ولكن جمال باشا لم ينفذ بصره الى هذه النقطة الحساسة عند محاكمة الشهداء العرب في عاليه فعد عبد الحميد

واخوانه من الخونة .

واحتجت جمعية الاتحاد السوري في نيويورك وغيرها من الجمعيات اللبنانية في المهجر على تعيين بعض اعضاء اللجان الاصلاحية في المناصب المختلفة ولا سيما في عضوية الاعيان وختمت احتجاجها قائلة : « لا يجوز قبول الوظائف حسبما تقرر في مؤتمر باريس العربي قبل تنفيذ اللائحة الاصلاحية لاسيما البند القائل بوجوب تعيين المستشارين الاجانب في المصالح الحكومية العثمانية » .

ورأى اللامركزيون في مصر ان يردوا على جمعيات المهجر بقولهم انهم لم يقبلوا بتعيين الزهراوي عضواً في الاعيان الا لان الحكومة العثمانية ارادت ان تضع اللوائح الاصلاحية موضع التنفيذ وعلى الأخص في معضلات التعليم باللغة العربية والجندية والموظفين العرب والزهراوي خير واسطة لدوام التفاهم بين اللامركزيين والحكومة العثمانية وقال اللامركزيون : « على اننا ما دمنا طلاب اصلاح لا طلاب عنت او وظائف فلا نرى من حسن الرأي ان تطلبنا الحكومة للتفاهم وتلين لنا القول وتعترف لنا بكثير من الحقوق ونبتعد عنها .. » ولكن المؤسف ان الاتحاديين لم يكونوا مخلصين مع العرب في تحقيق الاصلاح فاضطر الاصلاحيون اللامركزيون وغيرهم ان يستمعوا للدعاية الاجنبية في تقسيم الامبراطورية العثمانية وقد درست الحكومة الاتحادية نهجاً لقتل الحركة الاصلاحية - اللامركزية فبدأت قبل كل شيء باقصاء العسكريين العرب عن بلادهم وتوزيعهم في تراقيا والاناضول ثم اصدرت امرها في اوائل عام ١٩١٤ بالغاء الاحزاب العربية كلها وتاليف شعبة سياسية خاصة في وزارة الداخلية همها الاول مراقبة الشؤون العربية والقضاء على دعاة الانفصال واقصاء كل عربي يعمل ضد الاتراك واستمالة كل عربي يمكن استمالته لحزب الاتحاديين ومقاومة الحركة الاصلاحية في بيروت والقاهرة وباريس واعداد منهاج لتتريك العرب والامراء في تنفيذه وتعزيز نفوذ جمعية الاتحاد والترقي في الولايات العربية وتشويق الجماهير في الانتساب الى عضويتها .

ونكلت جمعية الاتحاد والترقي والحكومة المنبثقة عنها عن الاتفاقات التي

كانت قد عقدتها مع زعماء الحركة اللامركزية بشأن عدد النواب العرب في مجلس المبعوثان – وكانت الحكومة الاتحادية قد اتفقت مع زعماء اللامركزية ان يكون عددهم سبعين – فألغت الاتفاق وجعلت عددهم حوالي الخمسين وعينتهم تعييناً الا في بيروت والبصرة وقسم من ولاية الشام وكان معظمهم من صنائع الاتحاديين .

واشتدت الحكومة الاتحادية في مراقبة الاصلاحيين وكمت افواههم وبالغت في تحديهم حتى كادت ان لاتتعرف الى نواب البصرة لولا خوفها من زعيم العراق السيد طالب النقيب . وكانت الحكومة وعدت ان تكون العربية لغة المحاكم في سوريا والعراق ولكنها مع الاسف لم تف بوعدها وظلت لغة المحاكم في العراق وسوريا اللغة التركية مع ان واحداً في المئة من السكان لايفهم هذه اللغة في القطرين .

وشكا مبعوث بيروت السيد سليم علي سلام من احوال المعارف في خطاب له القاه في الرابع عشر من تموز عام ١٩١٤ عند المناقشة في ميزانية المعارف فقال : « تكتفي وزارة المعارف ان تذكر ان عندها مدارس اعدادية ومدارس سلطانية ولكن ليتها تبحث احوالها واحوال مديريها واساتذتها . انها تعين لتدريس اللغة العربية الشريفة اناساً جهلة ليست معارفهم باكثر من معارف العوام بل هي تعين احياناً مدراء لهـــا تبرأ الادارة الى الله منهم. تحدث الوزارة وظيفة في المعارف فتعد لها من تشاء وتتبع هواها . انهـــا لا تتبع اية قاعدة اللهم الا قاعدة الشفاعة والالتماس والانتساب الى رجل كبير . هـــذه الاسباب كلها جعلت مدارسنا في الانحطاط الذي تعرفونه . فالمدرسة السلطانية تأسست في بيروت منذ ثلاثين عاماً ولا يبلغ عدد طلابها مئتي طالب بينما عدد الطلبة في الكلية الاميركية الف ومئة طالب وفي الكلية اليسوعية سبعمائة طـــالب وفي الفرير سبعمائة ايضاً . ولعلكم تقولون ان الثقة بمدارس الاجانب هي التي سببت هذا الاقبال عليها نعم انها الثقة ولكن الثقة لا تكتسب من غير جد وعمل . ولولا رغبة الاهلين في الانتظام بسلك الوظائف لما دخل احد من ابنائنا مدارس الدولة أرأيتم حتى الآن متخرجاً من مدارس الحكومة يتعاطى التجارة او الصناعة او الزراعة . كلا ثم كلا فان جميع الذين

يتعاطونها هم من خريجي المدارس الاجنبية او الاهلية . ويحزنني ان ابلغكم ان مدارسنا الرسمية باتت معامل لصنع الموظفين مع ان المدارس لم تنشأ الا لكي تخرج للوطن رجالاً يعيشون بكدهم وجدهم ، رجالاً ينمونه بثمرة عقولهم تلك حال مدارس الصبيان في بلادنا العربية . اما مدارس البنات فماذا اقول فيها . ماذا تريدون مني ان اقول يا نواب الامة . انها لفي الدرك الاسفل ...

المرأة قوام الحياة وركن الهيئة الاجتماعية فما دامت منحطة فالامة تظل منحطة ايضاً . ان مدرسة البنات العثمانية في بيروت لم تتخرج فيها منذ انشائها الى الآن تلميذة واحدة جديرة بالاحترام العلمي بخلاف مدارس البنات الاجنبية التي يتخرج منها كل سنة عدد كبير من الفتيات الراقيات ... ويحزننا جداً ان تهمل وزارة المعارف واجباتها في سورية حيث المصلحة السياسية تقضي عليها بمنافسة الاجانب »

والحق ان مبعوث بيروت السيد سليم علي سلام وضع النقاط على الحروف ووصف الحال السيئة التي وصلت اليها مدارس الدولة الرسمية في البلاد العربية وقد شهد لي كثيرون من كبرائنا انهم تعلموا العربية بالتركية وكان هذا غاية الفضيحة في اساليب التربية . وقام النواب الاتحاديون يجادلونه ويرغبون اليه النزول عن منبر الخطابة ولكنه استمر في كلامه حتى عطل رئيس المجلس الجلسة موقتاً . وهكذا نرى ان الدولة نكلت عن جميع انواع الاصلاح حتى في التربية والتعليم وضربت بالاماني العربية عرض الحائط وهي اماني معقولة لو اخلص في تنفيذها الاتحاديون لكان لهم غير هذا الشأن مع الامة العربية .

وكان سليم علي سلام مثال البيروتي العربي الناهض فوضع اسس النهضة المرأة المسلمة العربية مع زميله احمد مختار بيهم والى هذين الزعيمين الكبيرين يرجع الفضل في تنشئة السيدة عنبرة سلام الخالدي الاديبة الرقيقة والشاعرة الملهمة والسيدات من آل المحمصاني والغريب وبيهم وغيرهن من الشابات التي تفتخر بهن النهضة العربية على هذا الشاطىء . وقد ترأس السيد سليم علي سلام جمعية المقاصد الخيرية فبث في اعضائها ومعلميها روح التجدد والتقدم والتحرر من عبودية الاجيال .

لم يعجب الاتحاديون امثال سليم علي سلام واحمد مختار بيهم من الذين اخلصوا

للامبراطورية العثمانية فركبوا رؤوسهم وكان ما كان من النتائج المؤلمة التي ادت الى زوال دولة الخلافة .

•

لايكتب الخير من جيل ألف الذل

تبين للزهراوي ان الأصلاح في الولايات العربية أمر صعب ليس بلوغه بالامر اليسير لأن العرب السوريين والعراقيين غير مؤمنين جميعاً به ولأن الطبقة العاملة والتجار والزراع لاتعيره اية اهمية ثم ان الشيبة تنقصها الخبرة والمرونة والشجاعة وهم «اي الشباب لايليقون للسياسة ولا تليق لهم» واما اصحاب الاغراض كالموظفين المتقاعدين فمثلهم كمثل العجائز لايرضون عن شيء ولا يستطيعون القيام بشيء . واما اصحاب المراكز فجل غايتهم من الاصلاح ان يحتفظوا بكراسيهم واولئك الذين يرجون من الاصلاح صيداً فهم لايرون به الا وسيلة لبلوغ وظيفة فان حظوا بها فقد جاء الاصلاح وان امتنعت عنهم فقد مات الاصلاح . ولهذا كان الزهراوي متشائماً من حال العرب عموماً وكان دائماً يقول انه لايكتب الخير من جيل ألف الذل واعتاد الاستجداء . والمؤسف ان بعضهم لايفهمونك ولا يريدون ان يفهموك ولا يساعدونك ولا يريدون ان يساعدوا .

وآمن الزهراوي ايماناً شديداً بان من الواجب عليه ان يوجه الاتحاديين نحو الاصلاح لأن الاتحاديين هم رجال الدولة وأولو الأمر فيها وان بعضهم يظهر له النيات الحسنة ويتسلحون بعزيمة الشباب ويعترفون انهم اخطأوا نحو العرب ويرجون ان يجددوا روح النهضة في كل انحاء الامبراطورية العثمانية وهو لهذا مؤمن بنياتهم واقوالهم ويود ان يرى اقوالهم اعمالاً ويشترك في الحكم معهم – والاشتراك معهم خير من تركهم وحدهم – وتألم الزهراوي ألماً شديداً من تفرق الكلمة وتفهم العرب للاصلاح تفهماً غريباً وكيف انه قضى الايام ساهراً في باريس حتى تمكن من جمع الشباب العربي «ولفق المؤتمر تلفيقاً» واسمع عبد

الحميد الزهراوي يقول بكلماته : « لم يوشف السيدان خليل زينيه وايوب ثابت من فكرة الجامعة العربية قطرة واحدة حتى ولا من الجامعـــة السورية وكان همهما لبنان وبيروت لاشريك لهما » وهكذا نرى ان امثال السيدين زينيه وثابت كانوا يفهمون من الاصلاح لبنان وفرنسا والحماية الفرنسية حتى انهم لم يفهموا فكرة الاتحاد مع سورية فكيف بالوحدة العربية ؟ ؟ واعتقد الزهراوي ان رجال الاصلاح قلة واهل الأصـــلاح في نظره هم من المخلصين الذين جمعوا بين صدق النظر وصدق العمـل وكثرت تجاربهم وصحت عزيمتهم وشهد لهم ماضيهم وامتزجت روحهم بحب النظام الذي يحبه الله وكره الفساد الذي يكرهه الله وبقوا مخلصين للرابطة العثمانيـة لاسيما حينما يواجه العرب امرين فظيعين : جهل الامة وسباتها وجشع اوروبا .

ان عبد الحميد الزهراوي كان يمثل في نظرنا العضو المخلص في حزب اللامركزية وكان صنوه في هذا الاخلاص رجل الاصـلاح في بيروت السيد احمد مختار بيهم فقد اعلن هذا الرجل امام الغرب : صحافته وسفراءه في مؤتمر باريس انه هنا في هذا المؤتمر للاصلاح لا للحماية ولا للنفوذ الاجنبي كائناً ما كان ويعترف الكثيرون معنا ان احمد مختار بيهم كان ألمع شاب من شباب بيروت في السياسة والحصافة والكياسة وتفهم الاصلاح نهضـة عامة في جميع المرافق ولو عاش لكان لبيروت شأن غير هذا الشأن في الحكومة اللبنانية .

واوقف احمد مختار بيهم نشاط حزب الاصلاح حينما خاضت الدولة العثمانيـة الحرب العالمية الاولى وقال انه يجب أن نفنى اليوم في خدمـــة الوطن المشترك وان نكون يداً واحدة لانقاذ الدولة من عواقب الحرب الاوروبيـة وان نظهر كل ما عندنا من وطنية في هذه الازمة الشديدة . وتناسى العرب كل اختلافاتهم مع الترك وانضموا اليهم وحاربوا في جميع الجبهـــات في العراق والدردنيل والجبهة المصرية والقوقاس ومات منهم الالوف دفاعاً عن الوطن العثماني وتبرعوا بالاموال الكثيرة ومد امراؤهم يد المساعدة الى الدولة فارسلوا اليها ما تحتاجه من الجمال وشدوا ازرها في ميادين القتال .

ولكن المؤسف ان الغلاة من الاتراك وهم الطورانيون وعلى رأسهم احمد جمال باشا وحسين جاهد صاحب «جريدة طنين» واحمد رضا بك رئيس مجلس النواب اخذوا بسياسة التنكيل فحملوا الحكومة الاتحادية على اعدام هذه الفئة من الشباب العربي الذي كان يرجو اصلاحاً حقيقياً لبلاده. وان خسارة رجل كعبد الحميد الزهراوي تعد خسارة فادحة في عالم عربي ينقصه زعيم عاقل موجه للخير كعبد الحميد.

ويؤلمك ان تجد بعض المفكرين العرب كانوا يماثلون الاتراك في غرورهم وسياستهم الدموية ومقاومة الاصلاح الصحيح وقد رأينا كثيراً منهم - وقد طالت اعمارهم - خداماً للمستعمرين بعد زوال الدولة العثمانية ولسنا نسميهم فقد يعرفهم العرب وقد يذكرهم غيرنا وانا لله وانا اليه لراجعون.

●

فكرة المؤتمر العربي بباريس

أراد جمال باشا ان يركز اتهاماته في الابحاث التي درست في مؤتمر باريس العربي الذي عقد في حزيران عام ١٩١٣. والحق ان هذه الابحاث على علاتها لم تكن تهدف الا للاصلاح في الولايات العربية وحفظ الحقوق العربية في حكم الامبراطورية العثمانية ونشأت فكرة المؤتمر من بعض الشباب الراقي الذي كان يؤم الجامعات الافرنسية للتحصيل ومن بعض افراد الجالية اللبنانية التي كانت تعيش في باريس وكانت لجنة هذا المؤتمر تتألف من السادة عوني عبد الهادي وندره المطران وعبد الغني العريسي وشكري غانم وجميل معلوف ومحمد المحمصاني وشارل دباس وجميل مردم بك وقد ارادت هذه الحفنة من الشباب ان يكون العرب دعاة الاصلاح ودعاة اللامركزية واقعيين فيسجلوا حبراً على ورق مطاليبهم ثم يلاحقونها في الاستانة واوروبا ويرفعون اصواتهم عالياً لئلا تصاب سوريا والعراق بما اصيبت به الولايات العثمانية في البلقان من تشتت وانهيار

وليوقفوا الاستعمار الاجنبي عند حده لا سيما وكانت طلائعه تنـــذر بهبوب العاصفة ونشرت هذه الحفنة من الشباب منشوراً دعت به الامة العربية لان توفد وفودها لهذا المؤتمر وحثتها به على التضامن والاتحاد حتى تصبح قوة لها اهميتها في الاحداث المقبلة وختمت منشورها بهذه الجملة : « وهنالك ينشق اليقين فيطل على هذه الامة فجر الحياة من بين اتساق الغسق وركام الظلمات . وسـلام على من تلقى هذا النور فما اغشاه ومن عرف واجبه فأداه » ولما انتشرت دعوة الشباب العربي في باريس اندفعت الجماهير العربية للانتصار لها سراً وعلانية وقاومتها الحكومة العثمانية فحملت بعض اشياعهـــا وجلهم من الموظفين على معاكستها وارسال البرقيات الى مقر الحكومة في الاستانة احتجاجاً عليها ومهما يكن من امر فان فكرة المؤتمر نجحت ولم يخرج عقلاؤه عن الخطة التي رسمت له - وهي طلب الحياة للولايات العربية حتى تحيا الدولة العثمانية بذلك وتقوى - وبوسعنا ان نقول ان مؤتمر باريس العربي كان اول مؤتمر جمع رجالات العرب من مصر وسوريا والعراق والمهاجر الاميركية للمشاورة والمباحثة في مستقبلهم ومستقبل بلادهم وهو الدليل الاقوى الذي يؤكد لنا انه كان عند العرب بعض الحيويـة التي تطلب البقاء وتتذرع الى الانطلاق من ربقة الجهل والسبات العميق .

واحببنا ان ندرس وفود المؤتمر واسماء الشخصيات الكبيرة التي امت باريس فوجدنا ان اللجنة العليا لحزب اللامركزية في القاهرة اوفدت السيد عبد الحميد الزهراوي مبعوث حماه سابقاً وصاحب جريدة الحضـارة في استانبول والسيد اسكندر عمون المحامي في القطر المصري ووكيل رئيس لجنة حزب اللامركزية ورئيس جمعية الاتحاد اللبناني . اما الجمعية الاصلاحية في بيروت فقد اوفدت عنها السادة سليم افندي علي سلام من اعيان بيروت وسراتها وعضو مجلس الادارة فيها واحد اعضاء الجمعية الاصلاحية المرموقين والسيد احمد مختار بيهم زعيم الشباب في بيروت دون منازع والرجل المشتعل غيرة على مصالح قومه وصاحب الحجة القوية الذي اشتهر بفصاحته واتقانه للغة الفرنسية اتقاناً يحسد عليه ومن اسرة لها في ميدان الخير والعلم جولات موفقة والشيخ احمد حسن طباره صاحب جريدة

الاتحاد العثماني وجريدة الاصلاح واحد اعضاء جمعية الاصلاح والاستاذ خليل زينيه صاحب صحيفة الثبات وعضو الجمعية الاصلاحية والدكتور ايوب ثابت من اعيان الجبل اللبناني وكاتم اسرار الجمعية الاصلاحية والسيد البر سرسق من اكبر اغنياء بيروت وعضو الجمعية الاصلاحية . وقد عرفنا ان البر سرسق اعتذر في آخر ساعة عن حضور المؤتمر ولم يتمكن من المجيء اليه ، اما العراق فقد مثله السيد توفيق السويدي وهو من اسرة بغدادية معروفة وكان طالباً من طـــلاب الحقوق في باريس والسيد سليمان عنبر من كبار التجـــار في فرنسا وكان مندوبو الجالية العربية في باريس السادة شكري غانم وهو اديب كبير معروف ومؤلف عنترة والسيد عبد الغني العريسي صاحب جريدة المفيد اليوميــة البيروتية ونده بك جبيب المطران من اعيان بعلبك والسيد عوني عبد الهادي من اعيان نابلس وخريج المدرسة الملكية في الاستانة ومن طلاب كلية الحقوق في باريس والسيد شارل دباس – اول رئيس شرعي للجمهورية اللبنانية – والسيد خير الله خير الله الصحفي والمحرر في جريدة الطان والسيد جميــــل مردم بك من اعيان دمشق وطالب حقوق في فرنسا والسيد محمد المحمصاني وجيه من وجهاء بيروت وخريج كلية الحقوق في باريس وناب عن الجالية العربية في القسطنطينية السيد عبدالكريم الخليل رئيس المنتدى الادبي وخريج المدرسة الملكية ومدرسة الحقوق العثمانية وجاء خصيصاً الى باريس من بعلبك عينان جليلان من اسرة آل حيـــدر وهما السيد محمد حيدر والسيد ابراهيم حيـــدر . ومثل المهاجرين العرب في الولايات المتحدة الاميركيــة السيد نجيب دياب صاحب جريدة مرآة الغرب اليومية في نيويورك وعضو جمعيــة الاتحاد السوري والسيد نعوم مكرزل صاحب جريدة الهدى في نيويورك وعضو جمعية النهضة اللبنانية والسيد الياس مقصود من افاضل المهاجرين بالولايات المتحدة الاميركية وعضو جمعية الاتحاد السوري والسيد عباس البجاني من المهاجرين للمكسيك .

هذه هي الوفود العربية وهذه هي اسماء الشخصيات الكبيرة التي امت باريس لتفكر وتباحث بالاساليب العلمية الجدية لنهضة العرب . وقـد كان كثير من

اعضاء هذه الوفود مختلفين في نظرياتهم الاصلاحية وكاد الرئيس الزهراوي ييأس من تباين افكارهم ولكنه طاولهم وجمع شملهم بصبره وحكمته وبعد نظره وشخصيته التي توحي الحب والاحترام وكان الزهراوي شيخاً معمماً ورأساً من اكبر الرؤوس العربية التي تفهمت المدنية الغربية واحبت ان تعب منها حتى ينفض الشرق عنه سباته العميق .

●

الاستاذ الزهراوي رئيس المؤتمر العربي

كان عبد الحميد الزهراوي يضع نصب عينيه في جهاده امرين : الاول اشراك الامة العربية في ادارة الامبراطورية العثمانية ، والثاني حكم العرب لبلادهم على طريقة اللامركزية لانهم عنصر كبير له لغته وتاريخه وميوله ومصالحه ثم له حقوق اهملها الاتراك ولهذا يجب على مؤتمر باريس أن يبحث وقاية الاستقلال والحياة الوطنية العامة ثم اجراء الاصلاح .

وقال عبد الحميد الزهراوي ان العرب امة متسامحة يمشي مسلموها ومسيحيوها يداً واحدة في سبيل المطالب القومية وهي ليست متعصبة كما يصورها الاجانب وليست ضيقة الافق كما يحاول أن ينعتها بعض المستعمرين ويبرهن على ذلك ان اعضاء المؤتمر من المسيحيين لا يقل مطلقاً عن عدد اعضائه من المسلمين . وصرح السيد الزهراوي ان العرب اختاروا باريس مقراً لمؤتمرهم حتى يتمتعوا بالحرية التامة في بحوثهم وليضعوا اساس تفاهم جديد بين الشرق والغرب : تفاهم يقوم على العلم والمعرفة .

وسئل السيد الزهراوي من قبل الصحافة الفرنسية لماذا لم يعقد المؤتمر العربي في احدى الولايات العثمانية ثم الا يظن ان حكومة استانبول تتأثر من انعقاد هذا المؤتمر في الخارج ؟ فأجاب بصراحته التامة : « اننا نريد ان نكون احراراً في آرائنا وعقائدنا وبعيدين عن الجاسوسية ورجالها . اما ان تتألم الدولة منا لعقدنا

المؤتمر في الخارج فلا يحق لها ذلك لاننا لم نطلب ولن نطلب الانفصال عنها بل نحن والاتراك نؤلف هذه الامبراطورية وعلينا ان نقوم باصلاحها وحمايتها على اسس يعرف كل منا فيها حقوقه وواجباته. ترى ألا يحق لنا ان نطلب بقوة ان تكون لغتنا العربية لغة رسمية كاللغة التركية يرافع بها امام القضاء وتدرس العلوم بها في مدارس المعارف ؟ ان الحكومة التركية تضن علينا حتى بهذه النعمة الصغيرة ...

وسئل السيد الزهراوي فيما اذا كان يؤيد الرابطة العثمانية بسبب الرابطة الاسلامية التي تجمع بين الترك والعرب فقال ان الرابطة الدينية قد عجزت دائماً عن ايجاد الوحدة السياسية وان العرب يتمسكون بالوحدة السياسية مع الترك رغبة منهم في « ايجاد مجموع عثماني قوي يرتقي فيه مجموعنا العربي وأملاً بقيام حكومة رشيدة تكون لنا مشاركة في امورها والدولة العثمانية هي التي تقدر ان تحقق رغباتنا اذا هي عملت بلوازم الاصلاح الذي نصر على تحقيقه . اما اذا هي ظلت بعيدة عن ذلك فاني اصرح كما صرحت مراراً : ان خطتنا معها تتغير حينئذ تمام التغير . »

وكانت الصحافة الاوروبية تعتقد ان العرب المسلمين يكرهون اوروبا ويمقتون مدنيتها ولا يألفون نظمها الديموقراطية واساليبها العلمية الجديدة في معالجة الامور فصرح السيد عبد الحميد الزهراوي ان المدنية الاوروبية العصرية هي التي انتشلتنا من جهلنا وسباتنا العميق وانها تدفع بنا نحو الرقي والحضارة وانه قد حان الوقت لأن نتخذ منها نبراساً لحياتنا الجديدة وان عاطفة التآخي والمحبة بين العرب واوروبا سيكون اساسها العوامل الانسانية الرفيعة .

وعقد المؤتمر العربي جلساته في قاعة الجمعية الجغرافية بشارع سان جرمين وكانت اولى هذه الجلسات في ١٨ حزيران عام ١٩١٣ . وقد افتتحت الجلسة الاولى الساعة الثالثة من مساء يوم الاربعاء (١٨ حزيران ١٩١٣) وحضرها وفود المؤتمر وكثير من افراد الجالية العربية في باريس ومندوبو الصحف الفرنسية والاجنبية وحينما انتظم عقد المؤتمر قام السيد ندره المطران عضو اللجنة التحضيرية وارتجل كلمة شكر وترحيب باعضاء الوفود الذين تجشموا مشاق السفر من الاماكن البعيدة

حتى يشتركوا فيه ثم بوشر بانتخاب اللجنة الادارية للمؤتمر ففاز بالرئاسة السيد عبد الحميد الزهراوي وبنيابة الرئاسة السيد شكري غانم ثم انتخب كل من السيد سليم علي سلام واسكندر عمون والشيخ احمد طباره وندره المطران اعضاء في اللجنة الادارية وسموا – وكلاء - وفاز كل من السادة عبد الغني العريسي ومحمد المحمصاني وعوني عبد الهادي وجميل مردم بك بوظيفة كاتب عربي - او سكرتير عربي – والسيد شارل دباس بوظيفة كاتب فرنسي .

وقام الرئيس الزهراوي في وسط عاصفة من الحماسة والتصفيق وقال انه يجب على العرب ان يكونوا اصحاب تربية سياسية تشجعهم ان لايفقدوا روح المراقبة على حكوماتهم لانهم اذا فقدوا هذه الروح اصبحوا لايبالون بالشقاء وقد يستعين كثير منهم على مداواة شقائهم بالتوصل الى نِعَم يستدرونها من الحكومة بالرشوة وهؤلاء نطلق عليهم اذناب الحكومة وهي تستعين بهم على اماتة الشعور بالحياة واذا وصلت اية امة من الامم الى هذا الانحطاط المريع فلا يبقى من معنى لتربيتها السياسية ولا ينبغي للعقلاء حينئذ ان يشتغلوا بالعبث في طلب الحياة لجسم سكت نبضه سكوتاً قطعياً . وتابع الزهراوي كلامه فقال ان العرب قد ألفوا الترك وهؤلاء قد ألفوا العرب وامتزج الفريقان امتزاجاً عظيماً مضت عليه قرون ولكن كما مزجت بينهم السياسة فرقت بينهم السياسة ايضاً لاحتكار الترك الحكم في الامبراطورية وتحملهم وحدهم اعباء الحكم والمسئولية ومن الواجب ان يشترك العنصران في هذه المسئولية العظيمة مسئولية الحكم . ومن الواجب ان نبث هذه الفكرة وان نتعصب لها وان تكون اساس تربيتنا السياسية لئلا يطحننا الانقسام وتهلكنا التفرقة وتضيع المصلحة العامة ويبتلعنا الاستعمار . اننا لانريد ان ننضم الى اية دولة اوروبية ولا ان نكون تبعاً لها وانما نريد اصلاحاً تاماً شاملاً يخلصنا من سوء الادارة وغول الرشوة ان الاصلاح لايكون الا بمواجهة الحقائق اما السياسة التي تعتمد على الكذب في اولها وآخرها فهي سياسة رخيصة لاقيمة لها ولا تبعث على الحب والاحترام .

هذه كانت كلمة الزهراوي وهي كلمة رجل مخلص انوف حر احب اصلاح الدولة فكافأه جمال بالموت على الاعواد .

عبد الغني العريسي في مؤتمر باريس

السيد عبد الغني العريسي بيروتي صميم ومن اسرة كريمة وشاب طموح درس الصحافة والآداب في جامعة السوربون واصدر صحيفة المفيد اليومية في بيروت ومن اصحاب فكرة المؤتمر العربي في باريس وسكرتير اللجنتين الادارية والتحضيرية فيه . وهو كاتب فذ وخطيب محلق يمتلىء حماسة وغيرة على امته العربية وكان يتألم لآلامها في مقالاته ويحاول دائماً ان ينفخ فيها روح النهضة . والحق انه كان احد الخطباء الذين وجهوا المؤتمر العربي وجهة قومية فقد أبان في جلسة المؤتمر الثانية المنعقدة في العشرين من حزيران ١٩١٣ ان للعرب حق الجماعة فهم امــة جمعتهم وحدة اللغة ووحدة الدم ووحدة التاريخ والعادات والآمال والاماني والمطامح السياسية ثم انهم امة حافظت على خصائصها وميزاتها عبر القرون رغم مـا انتابها من الامتصاص السياسي والتسخير الاستعماري والذوبان العنصري. وليس الأتراك ان يدعوا حكم الامة العربية « بحق الفتح » كما قد يجوز ان يثبت لهم هذا الحق في بلاد البلقان وانما كان العرب شركاء العثمانيين فهم قاعدة هــذه الدولة لا أسرى مسخرون وقد فسر الاستاذ عبد الغني العريسي كلامه هذا بقوله : « آلينا عــلى انفسنا ان نحافظ في هذه المملكة على مكانتنا ، على جنسيتنا ، على مساواتنا ، فلا ارض بعد اليوم تستعمر ولا امة تسخر فانما نحن الرعاة لا الرعية » .

وبرهن الاستاذ العريسي ان الامة العربية لهــا حق الجنسية وحق الوجود السياسي ولها اذن بالتالي حقوق في (١) السلطنة و(٢) بالقوة التشريعية و(٣) بالقوة الاجرائية . أما ارتباط العرب بالسلطنة فلا مجال للتفكير فيه طالما الدستور هو المهيمن على سائر العناصر العثمانية ولهذا فلا تتطرق للعرب فكرة الانفصال عن الدولة او عن هذه السلطنة طالما تحتفظ بحقوق العرب كاملة غير منقوصة واما اذا حاولت هذه السلطنة ببعض الوسائل ان لا تضمن حقوق العرب فان ارتباطنا بها يكون ضعيفاً والعكس بالعكس . واما من حيث القوة التشريعية التي تتألف من مجلس الاعيان ومجلس النواب فان حقوق العرب في هذين المجلسين مغموطة الى حد كبير

فلو امعنا النظر في مجلس الاعيان لوجدنا انه لا يمثل العرب العثمانيين فيه اكثر من خمسة اعضاء والعرب يؤلفون على اقل تقدير نصف سكان الامبراطورية العثمانية — وقد كان عدد العرب في نظره لا يقل عن ثلاثة عشر مليوناً — ثم اذا قلنا ان حق الجماعات قائم على القاعدة الانسانية المشهورة — لا قانون دون تمثيل — فان القوانين التي يسنها مجلس الاعيان وهو قسم من الهيئة التشريعية لا يستوفي الشروط من حيث الحق والعدل طالما العرب لا رأي لهم فيه بل رأيهم موكول الى غيرهم. واما مجلس النواب فان اعضاءنا فيه الذين يمثلون العرب هم في الحقيقة معينون لان انتخاب النواب هو في ايدي من احتكروا السلطات واستلموا الادارة ولهـذا نقول ونصرح على رؤوس الاشهاد ان حقنا نحن العرب في الانتخاب والتمثيل هو حق مغموط غير مصان كما ان النسبة العددية في زيادة نوابنا مهانة وغير محترمة. ولهذا قال الاستاذ عبد الغني العريسي بوجوب الاحصاء العام في المملكة العثمانية وبوجوب قيام انتخابات حرة بعيدة عن التزييف والمداخلة.

وشكا صاحب المفيد من عبث الترك في القوة الاجرائية او التنفيذية فان الحكومة العثمانية او الوزارة العثمانية لا يكون فيها عادة من الوزراء العرب الا عدد ضئيل او هي تحرم منهم على الاطلاق وهي في نظره لا تمثل العناصر العثمانية كلها بل جزءاً منها وهي في علم الحقوق لا تكون وطنية الا اذا مثلت كل ابناء الوطن ولا تكون شرعية الا اذا جمعت فيهـا ارادة المجتمع ولذا طالب الاستاذ عبدالغني العريسي قسط العرب المشروع في كل وزارة عثمانية حتى لا تكون غريبة عنهم ولا يكونوا غرباء عنها ودلل على ذلك بقوله: «رأينا كثيراً من المعاهدات الدولية قد جرت على ايدي رجال دولتنا وفيها ما فيها من الغبن للبلاد العربية ... ولهذا لا يسع العرب بعد اليوم الا ان يروا بأم اعينهم ويديروا مع رجال الاستانة مصير بلادهم لأن البلاد العربية يجب ان لا تكون بعد اليوم سداً للمطامع الاجنبية عن بلاد أخرى».

وكان الاستاذ عبـد الغني العريسي جريئاً حينما اعلن ان رجال الاستانة يحتكرون المناصب وانهم يضنون على العرب ان يكون منهم والٍ واحد بينما في

المملكة ثلاثون ولاية .. وتناول المشاريع العامـــة فقال ان واردات الدولة والقروض التي تعقد مع اوروبا معظمها ان لم يكن كلها تصرف على استانبول وتهمل البلاد العربية من الاصلاحات الضرورية كشق الطرقات وغيرها . وتألم عبد الغني العريسي ألماً شديداً للغة العربية في الدولة فذكر انها مهملة وانها ليست لغة رسمية في صلب القانون الاساسي وختم كلامه ان يكون للعرب الحق كل الحق في الشراكة العثمانية ، الشراكة في القوة التشريعية والقوة الاجرائية والادارات العامة على اطلاقها ثم طالب ان تصرف اموال الجباية العربيـــة على المعارف والنافعة في نفس البلاد العربية وان توسع صلاحيات المجالس العمومية فتقر حرية الاجتماع وحرية الصحافة ودعا امته الى الوقوف امام هـــذه المطالب المشروعة بثبات وشجاعة لانه يجب ان تحيا ويجب ان لا تموت .

وكان لخطبة الاستاذ العريسي دوي كبير فأيد المطالب التي اثارها الرئيس الزهراوي والسيدان احمد مختار بيهم وشارل دباس . وقال الاخيران ان رجال الاستانة يظنون ان هذه النهضة العربية يمكن اخفات اصواتهـــا ببضعة مناصب لبضعة اشخاص ولهذا يجب ان نقرر رفض كل وظيفة تعرض على رجالنا قبـــل تنفيذ الاصلاح وان نربط هنا كانا بعهد الشرف على تنفيذ ذلك . ولم يقر المؤتمر رأيه في مسألة قبول المناصب بل ترك الباب مفتوحاً لبحثها .

كانت هذه الخطبة الجريئة التي فاه بهـــا الاستاذ عبد الغني العريسي في مؤتمر باريس والتي فتح بها اعين العرب على حقوقهم السبب الرئيسي في اعدامه . وقد حقد الاتراك الاتحاديون عليه فلم ينسوها له .

قال لي اخي محي الدين ان الاستاذ العريسي كان شجاعاً في آرائه منذ ان كان معلماً صغيراً في مدرسة عين المريسة وانه ما يزال يذكره وقد تحمر بحماره وركب فرسه وقد جاء الى باحة المدرسة ليلقي على الطلاب دروسه .

النهضة الاستقلالية تقوم على دعامة التآخي بين المسلمين والمسيحيين

في التاريخ العربي حقيقة يجب ان نفهمها على علاتها وهي ان النهضة الاستقلالية لا تقوم الا على دعامة الاتحاد بين المسلمين والمسيحيين، اتحاداً وثيق العرى متين الاسس . وقد وجه المؤتمر العربي في باريس الى هذه الناحية الجليلة الشاب البعلبكي السيد ندره المطران فقال في خطاب له ان التضامن العربي بين المسلم والمسيحي قديم وأصيل وان رابطة الجنسية بينهما لا انفصام لها على الاطلاق وهي اقوى من الرابطة الدينية وضرب الامثال على ذلك فذكر انه لما قدم ابو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد بجيوش العرب المسلمين الى الشام وجدوا حراساً على ابوابها قبائل الغساسنة وهي قبائل عربيـة نصرانية يتقدمها مليكها المسيحي جبلة بن الأيهم . ان هذه القبائل بدلاً من قتال المسلمين والوقوف في وجههم عطفت عليهم عطف الأخ على اخيه فنبذت الرابطتين الدينية والسياسية اللتين كانتا تقضيان عليها موالاة بيزنطية وخطبت ود العرب ومهدت لهم السبيل لفتح البلاد .

وهكذا تجلت العصبية العربية وهي الفضيلة الطيبة التي تؤهلنا للحياة وما زال الولاء بين العرب المسلمين والعرب المسيحيين على أتمه منذ عهد عمر بن الخطاب حتى الحروب الصليبية واذ ذاك بدأت موجة من التعصب تغمر المسلمين لما لاقاه هؤلاء من عنت الافرنج باسم النصرانية مدة لا تقل عن مئتي عام . وقد كان النصارى دائماً في المشرق مزرعة الاجانب من الطامعين في بلادنا وحجة يحتجون بها للتوصل الى مطامعهم الاستعمارية والحق ان النصارى الذين يحسون بالشعور العربي كانوا يتألمون اشد الالم من هذه الاوضاع الشاذة لأنهم كانوا حريصين ان يعيشوا واخوانهم المسلمين عيشة الاخوة الصادقة تربطهم واياهم رابطة العروبة . ورغم كل الحوادث التي اوغرت القلوب على التعصب نفخر ان نقول ان المذابح لم تقع بين المسلمين والمسيحيين الا حينما هيأ اسبابها الاجانب واشهرها مذبحة عام ١٨٦٠ وكان ذلك باغراء الحكومة التركية وغير الحكومة التركية من الطامعين في احتلال سورية . وانصافاً للعرب نردد ه ان ما لم يفعله العرب في الف ومائتي سنة فعلته

الحكومة التركية عشرين مرة في أقل من نصف قرن ، وها نحن العرب مسلمين ومسيحيين نجتمع والاتحاد رائدنا لنبحث مشاكلنا الخاصة بإخلاص .

وصرح السيد ندره المطران ان العرب مسلمهم ومسيحيهم يريد دوماً الارتباط بالدولة العثمانية ولا يود الانفصال عنها لانها « أسلم عاقبة من سواها » ولأننا بذلك لنصون انفسنا من شرور الاستعمار . ذلك لان الافرنج اقدر منا في تجارب الحياة والعلوم والتجارة والصناعة واذا دخلوا بلادنا وقعنـــا في ايديهم ضحايا رخيصة يتصرفون بها كما يشاؤون . اما الاتراك فانهم رغم السنين التي وجدوا بها بيننـــا فانهم لم يتملكوا شبراً واحداً من اراضينا بل تركوا للعرب اراضيهم واملاكهم وما نحن العرب الا طلاب اصلاح فيتهموننا ان كنا من المسلمين بتأسيس دولة عربية وان كنا من المسيحيين بالعمل للاجانب والدسائس الاجنبية . ان الامـة العربية مسلمة وغير مسلمة متضامنة في طلب الاصلاح وتنفر من كل حركة يراد بها التدخل الاجنبي او انفصام العرى بينها وبين الدولة العثمانية . وحمل السيد ندره المطران على الشباب العربي الذي يتزلف لفرنسا او لانجلترا بكتاباتـــه ويمهد للسيادة الاجنبية على المشرق ويقول عنهم « انهم ادنياء » ثم ينادي ان « سوريا للسوريين » والسوريون رجال اقدام واعمال ولهم في مشارق الارض ومغاربهـا البيوتات التجارية والجاليات الراقية وخليق ان يعاملوا معاملة الاحرار .

وقام السيد خليل صليبا وأيد السيد ندره المطران وقال : « وأنا ايضاً اعلن اني لا اريد ان يحكمني اجنبي يدل علي بعظمته ولا أرضى ان يحقق عـــلى رأسي علم غير علمي » .

وتبعـــه السيد نجيب دياب صاحب صحيفة « مرآة الغرب » اليومية التي تصدر في نيويورك وقال : « ان اماني المهاجرين هي اصـــلاح وطن فارقوه على الرغم منهم وهم يطالبون بهذا الاصلاح تحت راية الهلال وهم يتمنون البقاء في حضن العثمانيـة شرط أن تحفظ حقوق اخوانهم المتخلفين في الوطن وان تكون اعراضهم مصونة وأموالهم في مـــأمن وتجارتهم في رواج وصحافتهم مطلقة واقلام كتابهم غير مقيدة ... ومتى أصبحت الحكومة العثمانية

تقدر العالم والعامل والكاتب والمزارع والصحافي والتاجر عدنا الى الوطن العزيز ثم التفت السيد نجيب دياب الى اعضاء المؤتمر وقال انتم ايها السادة عائدون الى الشرق بعد ان تقوموا بواجب رسالتكم فاحملوا تحياتنا القلبية الى الوطن وبلغوه ان اولئك النازحين لا يعقون امهم الحنون سوريا وانهم يحنون اليها ولا ينسون لها عهداً وان هؤلاء المهاجرين وان كان معظمهم من لبنـــان فهم يرعون الجوار ويذكرون العهود فما سوريا الا امنا الحنون وما لبنان الا فؤاد سوريا فهـــل تبعدون الام عن فؤادها او تنزعون فؤادها منها ؟!

وطالب السيد نجيب دياب باسم المهـــاجرين باللامركزية تعيين المستشارين الاجانب في الدوائر الكبرى الحكومية لتستفيد البلاد من خبرتهم وعلومهم وأعلن ان جمعية الاتحاد السوري في نيويورك وفروعها العديدة في الولايات المتحدة تؤيد مؤتمر باريس العربي وما يقوم به من اصلاح شامل .

وهكذا نجد ان فكرة التضامن والمحبة والالفـة كانت سائدة بين رجـــال الاصلاح واللامركزية من مسلمين ومسيحيين وانهم كانوا يشجبون التدخل الاجنبي ويؤيدون الامبراطورية العثمانية ولا يسعون للانفصال عنها . والمؤسف ان جمال باشا لم يتفهم هذه الحقائق فأعدم شاباً نبيلاً كندره المطران كان ممتلئاً اخلاصاً وحماسة للاصلاح والعثمانية .

ان جمال باشا لم يتفهم مقاصد العرب الطيبة بل ماشى شهوة الدم التي كانت تتغلب عليه فأعدم من اعدم دون روية وتبصر .

الشيخ احمد حسن طباره في مؤتمر باريس

الشيخ احمد حسن طباره شاب مهذب ومنشىء بليغ وصحافي لامع ومن اسرة كبيرة لها منزلتها في بيروت وصاحب جريدتي الاتحاد العثماني والاصلاح وعضو جمعية الاصلاح في مؤتمر باريس العربي أعدمه جمال باشا لانه كان من انصار اللامركزية ولم تشفع به شفاعة الشيخ اسعد الشقيري وغيره من العلماء عنده.

تكلم في الجلسة الثالثة من المؤتمر (٢١ حزيران عام ١٩١٣) عن «الهجرة من سوريا والى سوريا» فاتى على ذكر جغرافية سوريا وعدد سكانها في العهدين الروماني والعربي ووصف ازدهارها ثم تألم لحالها في العهد العثماني الاخير فقال: «فيا عجباً هل تبدلت الارض غير الارض وهل طرأ على سماء سوريا شيء خارق للعادة حتى باتت تضيق على الثلاثة ملايين؟ ام ان السوري المتفاني في محبة بلاده قد انقلب حبه لها قلى وبغضاً حتى هجرها؟ كلا ثم كلا ان الارض لم تتغير ولم تتبدل ولم تزد ولم تنقص ولكن العدل يفسحها والحيف يضيقها» وبرهن ان السبب الرئيسي للهجرة من سوريا «هو ضيق العيش الناشىء عن سوء الادارة والناتج عن الحيف» ووصف السوريين بانهم رجال يمتازون نشاطاً ومتقدون ذكاء وانهم اهل للحكم الذاتي وانه لو قدر لهم حياة سياسية مستقيمة لكان لهم في عالم الرقي ما يدهش الالباب ثم قال اننا نطالب بالاصلاح لنبقى لسان الدولة الناطق وقلبها الخافق ودرعها المتين وحصنها الحصين واعرب عن اخلاصه للسلطنة العثمانية وردد: «نحن قوم ولدتنا امهاتنا عثمانيين ونشأنا عثمانيين ونريد ان نبقى عثمانيين ولا نرضى عن دولتنا العثمانية بديلاً وان في الاصلاح حياتنا وحياتها ولسنا من الذين يبغون الانفصال عنها.

ولم يخف الاستاذ طباره ان يهاجر غير العرب الى سوريا لاعتقاده ان العرب يدمجون ولا يندمجون ويحيلون ولا يستحيلون ولهم في لطافة اللغة وكرم الضيافة اكبر شافع واعظم نصير ولهذا لا يرى بأساً من المهاجرة الى بلادنا اذا كان لها نظام خاص.

وتطرق الى الاصلاح فقال انه حق من حقوقنا وهو صوت ارتفع من بيروت فرددت صداه الامة العربية ولا يمكن لنا الرجوع عنه لان فيه حياتنا وبدونه مماتنا ولهذا يجب على الحكومة الاتحادية حكومة المركز ان تبادر الى الاصلاح الجديد على قاعدة الاشتراك بالحكم وعلى طريقة اللامركزية كل ولاية بحسب استعدادها وحاجياتها واثنى على المهاجرين الذين ضربوا في ارض الله الواسعة ووصلوا بنشاطهم الى القمم العليا من المجد والثروة .

وقام الفنان خليل صليبا وهو احد المهاجرين ومن قرية بطلون اللبنانية ونادى بوجوب اصلاح البلاد واثنى على المهاجرين وقال انهم يكابدون من الشوق لاوطانهم ما لا يعرفه الا اولئك الذين يغيبون عن مسقط رؤوسهم وخطب بالحرف الواحد : « انا ايها السادة من ضيعة في لبنان تدعى بطلون وليس فيها اكثر من عشرين او ثلاثين بيتاً وانا كلما سافرت ورحلت وتنقلت في تلك البلاد المتمدنة العظيمة تذكرت ضيعتي وناديت في نفسي « الله يعمرك يا بطلون ... ان المستقبل سوف يبرهن على اننا ان لبسنا القبعة فان الفؤاد فينا سوري وسيظل سورياً ... على انه وان لم يكن الآن في بلادنا غير المعاقل والمشاهد الطبيعية فحسبنا الان ذلك وما غنى سويسرا الا من ضيوفها الغرباء وليس غنى مصر الا من سواحلها ولو ساد النظام في بيروت واستتب الامن لأقبلت علينا وفود السائحين من كل الاقطار وكان لنا بذلك الكفاية ولبثنا مرتاحين » .

لعمري كان الفنان صليبا ينظر بعين الغيب الى مستقبل الاصطياف والاشتاء في لبنان واهميته ولهذا كان يعلق على الاصلاح الذي يقوم على الامن والنظام كل آماله وهو من هذه الناحية يدعو الحكومة اللبنانية الحاضرة الى تنمية موارد هذين الينبوعين الفياضين بالخير . والحقيقة التي لا جدال فيها ان الفنان المهاجر صليباً كان يمثل هذا القلب اللبناني الطيب الذي يحب بلاده حباً يقارب العبادة . والمؤسف ان المهاجرين على اطلاقهم بعد زوال الدولة العثمانية واعلان الانتداب الافرنسي على سورية ولبنان وقيام الحكومتين السورية واللبنانية المستقلتين تعلقوا باوطانهم الجديدة واقاموا فيها وطلبوا لاولادهم جنسية البلاد التي

هاجروا اليها .

دعا الاستاذ طباره الى الاصلاح وابان ما للسوريين من مواهب عالية ثم بث الفنان صليبا حنان المهاجرين الى الوطن وتبعهما المحامي اسكندر عمون احد مندوبي اللجنة العليا لحزب اللامركزية في المؤتمر فدرس اضرار المركزية وقال ان حكمها يحصر ادارة امور الأمة في قوم قليلين ويقصي عنها سائر ابنائها واشار ان معشر العثمانيين هم في اشد الحاجة الى الحكم اللامركزي لأن الامة العثمانية مكونة من عناصر متباينة في اصولها ولغاتها وتاريخها واخلاقها وحاجاتها والمؤسف ان الحكم المركزي يحصر السلطة في عنصر واحد من عناصر الامة فيصبح اذ ذاك موقف هذا العنصر تجاه سائر العناصر موقف الخصم الغالب مع الخصم المغلوب على امره . لذلك نرى معاملة الهيئة الحاكمة للهيئة المحكومة مبنية على الريب والحذر ونرى الثقة مفقودة من الجانبين ثم اشار الاستاذ عمون ان للدول الاوروبية مصالح في بلادنا وديوناً على مواردنا وهي لن تجعل مصالحها واموالها في خطر وهو يومىء بهذا الى الاحتلال الاوروبي لاقطارنا العربية ثم ردد في صراحة ما بعدها صراحة ان العرب لا يريدون الانفصال عن الاتراك وهم لا يميلون لفئة منهم دون أخرى وانما يريدون الاصلاح والاصلاح وحده ولن يكون هذا الاصلاح الا اذا استبدل النظام المركزي بنظام لامركزي يكون بموجبه لأهل كل ولاية الكلمة العليا في ادارة شؤونهم الداخلية ويكون لمجموع الامة العثمانية سلطة عليا نيابية قائمة على نسبة صحيحة لادارة الشؤون العامة . ومعنى هذا ان العرب يريدون حكومة عثمانية يتساوى فيها جميع العثمانيين في الحقوق والواجبات وان كان لا بد لهذا النظام من شهداء فكلنا مستعد للشهادة .

وخطب الاستاذ شارل دباس والسيد سليم علي سلام وايدا اللامركزية التي فسرها الاستاذ عمون المحامي وطلبا الاستعانة بالمستشارين الاخصائيين في الادارة واكدا ان ليس في معارف الاجانب ما يخشى منه على الجامعة السورية .

وهكذا نرى ان العرب السوريين مقيمين ومهاجرين كانوا يطمعون بالنظام اللامركزي وبالاستعانة بمعارف الاجانب والاخلاص التام للعرش العثماني .

الاستاذ شارل دباس المحامي عضو المؤتمر العربي في باريس - والرئيس الاول للجمهورية اللبنانية في عهد الانتداب الافرنسي - رجل متزن التفكير بعيد عن العصبية والطائفية اشتهر بحب بلاده حباً املاه عليه الاخلاص لهذا الوطن العربي خطب في الجلسة الاخيرة للمؤتمر خطاباً رائعاً بالافرنسية بدأه بقوله انـــه كان يرغب لو تداول الاصلاحيون واللامركزيون من العرب مع حكومتهم العثمانية وجهاً لوجه في كل القضايا التي يرجون بحثهـــا ومناقشتها لان في ذلك مصلحتنا ومصلحتها بل المؤسف ان الرجال الذين يسيطرون على دفة الحكم يسلكون معنا سبيلا فيه الرفض لمطالبنا بـل انهم لا يريدون ان يسمعوا لنا رأيا ولا نغالي اذا اعلنا ان فيهم بعض المتطرفين الذين يرجون تكوين مستقبلنا بشكل يخالف امانينا.

ثم سرد تاريخ الجمعية الاصلاحية في بيروت فقال انه في ٣١ كانون الثاني عام ١٩١٣ عقد الاصلاحيون البيروتيون جلستهم العامة الثالثة في دار المجلس البلدي وكان عددهم ستة وثمانين عضوا وقد انتخبوا كلهم انتخاباً قانونيا من قبل المجالس الملية لجميع الطوائف وصدقوا على لائحة اصلاحية مؤلفـة من خمسة عشر مادة فما كان من الحكومة الاتحادية الا ان حلت الجمعيـــة العمومية الاصلاحية واقفلت ناديها فأضربت بيروت كلها واوقفت متاجرها ومصارفها واسواقها ورفعت عرائض الاحتجاج الى الباب العالي على هـذا التصرف الشاذ وصدرت جرائد بيروت في اليوم التالي وليس فيها من الاخبار الا مصادرة الجمعية واما الصفحات الاخرى فكانت كلها بيضاء وكان هذا اسمى انواع الاحتجاج الذي عرفته بيروت في ذلك العهد . وراحت الحكومة الاتحادية تستعمل سياسة الشدة والقسوة مع الاحرار حتى خيل للعقلاء ان البلاد تعيش دون دستور وان الحكم المطلق هو المسيطر عليها.

والغريب ان الحكومة الاتحادية تنبثق عن مجلس نيابي ولكن هذا المجلس لا يفقه معنى المعارضة الحية لان اعضاءه يصلون اليه بقوة الحكومة لا بقوة الشعب.

والمهم ان نبحث اليوم عن الوسائل التي تمكننا من الحياة مع حكومة جامدة

رجعية ولنثق اوروبا ان حركتنا الاصلاحية لا تعبث بمصالحها وفي رأينا ان الحكومة العثمانية لا بد لها من سلوك واحـــد من طريقين : فاما ان تشرك كل العناصر العثمانية في ادارة المملكة حتى لا تتحمل هـذه العناصر النتائج الفظيعة لأخطاء غيرها واما ان تمكن كل ولاية من ادارة شؤونها الداخلية واما اذا رأت الدولة العليه ان لا تجاري امم الدنيا في الاخذ باسباب الرقي والاصلاح فتكون قد رضيت لنفسها ولنا الاضمحلال .

أما الاصلاح الحقيقي فانه لا يكون باصلاح ملفق مرقع يرضي بعض اصحاب المطامع في الداخل وبعض الدول ذات المطامع الاستعمارية في الخارج . وهـذا الاسلوب من الاصلاح الملفق اسكت الشعوب العثمانية لامد قصير واسكت اوروبا لبعض الوقت وضمدت جروح المملكة العثمانية على قـذى ولكن لتنتكس على ابشع الصور فيما بعد ولكن اليوم فامراض الامة كثيرة واطماع الدول ظاهرة والاخطار محدقة بنا وهي تكاد تدق على الابواب .

ويظن البعض ان المناصب تسكت الأصلاحيين وتكم افواههم الا فيعلم الجميع بصراحة تامة اننا سنكافح بعنف وشدة الى ان تلج بلادنا طريق الحياة والنور . وكان لخطاب الاستاذ شارل دباس وقع شديد على النفوس لاتزانه وحسن بيانه .

وقام بعد الاستاذ شارل دباس الاديب اللبناني الكبير شكري غانم نائب رئيس المؤتمر ومؤلف كتاب عنترة بالأفرنسية فالقى كلمة كلها عاطفة نحو سوريا بدأها بقوله : كم تنتعش نفوسنا ان نرى سورية الحبيبة عائدة الينا بعد ان حرمنا من العودة اليها . الا اننا نحب الدولة العثمانية لان فيها ذكرى الماضي . نحبها لكي نحيا واياها حيـاة الحرية والعدل وان فرنسا لن تثبط من هممنا ولن تضعف من عزيمة امتنا التي تسعى وراء محو الاختلافات الجنسية والمذهبية . ان مصلحي العرب - والعرب فطروا على الألفة وعزة النفس - لم ينبسوا ببنة شفة عما قاسوه في بلادهم من الجور والاضطهاد والقتل بل تسامحوا مع الترك منـذ ان القى الترك على انفسهم المسئولية في الحكم .

يا ابناء وطني يا ابناء السلالة العربية المجيدة يا من فرقت الحكومات التركية

بينكم في الأمس ثم جمعت بينكم المصائب اليوم انه ليتحد معكم جيران تجمعكم وأياهم لغة واحدة وصوالح واحدة انهم اخوانكم اللبنانيون الذين يحبون ان يؤازروكم في عملكم ويأسفون على تلك الاغلاط والجرائم التي كانت سبباً في انحطاط الدولة العثمانية . اننا يجب أن ننهض نحن بانفسنا لان اوروبا لا يمكن ان تكون سورية اكثر من السوريين واذا كنا لا ننتظر سلامنا الا من اوروبا فقولوا علينا السلام ...

والغريب ان شكري غانم الذي ذكر امجاد العرب كان حرباً على العرب وعلى فيصل حينما أسس دولته في سورية وكان من اكبر الذين آزروا فرنسا ومهدوا لانتدابها وكان فيصل وامرته في نظره من البدو الذين لا خير فيهم . ثم ان شكري غانم كان يعلن لبنانيته ثم يمزجها في سوريته ثم يمجد العرب ولعل له بعض العذر لان اللبنانية والسورية والعروبة لم تتبلور كلها كما شاءت السياسة ان تبلورها بعد ذاك ضمن حكومات وحدود واعلام وسدود اقتصادية .

•

قرارات المؤتمر العربي في باريس

عقد المؤتمر العربي في باريس عدة جلسات استمع بها الى اساطين العرب في السياسة والزعامة والصحافة في الوطن والمهجر وخرج منها بقررات هامة وهذه هي :

القرار الاول : ان الاصلاحات الحقيقية واجبة وضرورية للملكة العثمانية ويجب ان تنفذ بوجه السرعة .

القرار الثاني : من المهم ان يكون مضموناً للعرب التمتع بحقوقهم السياسية وذلك بان يشتركوا في الادارة المركزية للمملكة اشتراكاً فعلياً .

القرار الثالث : يجب ان تنشأ في كل ولاية عربية ادارة لا مركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها .

القرار الرابع : كانت ولاية بيروت قدمت مطالبها بلائحة خاصة صودق عليها

في الواحد والثلاثين من كانون الثاني عام ١٩١٣ باجماع الآراء وهي قائمة على مبدأين اساسيين وهما : توسيع سلطة المجالس العمومية وتعيين مستشارين اجانب فالمؤتمر يطلب تنفيذ وتطبيق هذين الطلبين .

القرار الخامس : اللغة العربية يجب ان تكون معتبرة في مجلس النواب العثماني ويجب ان يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية .

القرار السادس : تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية الا في الظروف والاحيان التي تدعو للاستثناء الأقصى .

القرار السابع : يتمنى المؤتمر من الحكومة السنية العثمانية ان تكفل لمتصرفية لبنان وسائل تحسين ماليتها .

القرار الثامن : يصادق المؤتمر ويظهر ميله لمطالب الأرمن العثمانيين القائمة على اللامركزية .

القرار التاسع : تبلغ هذه القرارات للحكومة العثمانية السنية .

القرار العاشر : تبلغ ايضاً هذه القرارات للحكومات المتحابة مع الدولة العثمانية .

القرار الحادي عشر : يشكر المؤتمر الحكومة الفرنسوية شكراً جزيلاً لترحابها الكريم بضيوفها .

ثم صادق المؤتمر على ملاحق ثلاثة لقرارات المؤتمر وهاك هي :

الملحق الاول : اذا لم تنفذ القرارات التي صادق عليها هذا المؤتمر فالاعضاء المنتمون الى لجان الاصلاح العربية يمتنعون عن قبول اي منصب كان في الحكومة العثمانية الا بموافقة خاصة من الجمعيات المنتمين اليها .

الملحق الثاني : تكون هذه القرارات برنامجاً سياسياً للعرب العثمانيين ولا يمكن مساعدة اي مرشح في الانتخابات التشريعية الا اذا تعهد من قبل بتأييد هذا البرنامج وطلب تنفيذه .

الملحق الثالث : المؤتمر يشكر مهاجري العرب على وطنيتهم في مؤازرتهم له ويرسل لهم تحياته بواسطة مندوبيهم .

وقام وفد من المؤتمر مؤلف من السادة : عبد الحميد الزهراوي رئيساً وشكري غانم نائباً للرئيس ومن اسكندر عمون واحمد مختار بيهم وسليم علي سلام والشيخ احمد حسن طباره وخليل زينية اعضاء وزاروا وزارة الخارجية الافرنسية ووزيرها المسيو بيشون وكان ذلك في الثلاثين من حزيران عام ١٩١٣ وكان يقدم اعضاء المؤتمر العربي الى الوزير الفرنسي السيد شكري غانم وقد خطب السيد عبد الحميد الزهراوي في حضرة الوزير وشكره على حفاوة فرنسا بالمؤتمر ورجاله وقال اننا نعتقد ان فرنسا واوروبا تمدان لنا يد المعونة في تحقيق الاصلاح الذي وعدتنا الدولة العثمانية باجرائه وان الاتحاد والاخاء المستحكمين بين المسلمين والمسيحيين من جهة وبين السوريين واللبنانيين من جهة ثانية هما اعظم برهان على ارتقائنا وكفاءتنا لادارة اعمالنا مع استعانتنا بتجاريب اوروبا واستظلالنا بظلال الراية العثمانية فأجابه المسيو بيشون وزير الخارجية الفرنسية ان فرنسا تشعر بعاطفة الصداقة نحو الدولة العثمانية وهي تحب الخير للسوريين وانني اثني ثناء عاطراً على التعقل والاعتدال اللذين اظهرهما اعضاء المؤتمر في مطالبهم الاصلاحية وان فرنسا تتطوع ان تكون وكيلة سوريا لدى اوروبا وانها تفعل ذلك خدمة للعثمانية لا ضدها .

وزار وفد المؤتمر بعد زيارته لوزارة الخارجية الفرنسية السفارة العثمانية وقدم لها الكتاب التالي مع نسخة من قرارات المؤتمر وهاك هو :

يا صاحب الدولة :

انفاذاً للقرار الصادر من المؤتمر العربي يوم ٢١ حزيران سنة ١٩١٣ نتشرف بان نرسل لدولتكم مع كتابنا هذا نسخة من القرارات التي صادق عليها هـذا المؤتمر راجين ان تتفضلوا باطلاع الحكومة عليها واقبلوا فائق احترامنا .

الرئيس	نائب الرئيس	السكرتير
عبد الحميد الزهراوي	شكري غانم	شارل دباس

وكان السفير العثماني رفعت باشا من رجال الاتراك الذين يعتقدون بالاصلاح وقد اشار على رجال المؤتمر بالعطف على الدولة واستعمال وسائل اللين معها بالنظر لما تلاقيه من العنت والاضطهاد في حروبها المتتالية وبالنظر للخسارة الهائلة التي

منيت بها . وساعد اعضاء المؤتمر العربي في السفارة العثمانية بباريس مواطننا البيروتي السكرتير الفرد سرسق فقد عرف السفير باعضاء المؤتمر فرداً فرداً وكان لهم خير معوان وخير نصير .

•

الكولونيل لورنس الملك العربي غير المتوج الذي ساعد على اشعال الثورة العربية

من هو لورنس ؟ من هو هذا الرجل الغامض الذي لعب دوراً هاماً في اشعال الثورة العربية ؟ من هو هذا الانكليزي الضئيل الجسم الذي كانوا يطلقون عليه لقب الملك العربي غير المتوج ؟ من هو هذا البطل المغامر الذي لم تعرف انكلترا له مثيلاً منذ عهد الملكة اليصابات ؟ نحن لا نعرف عنه شيئاً قبل الحرب العالمية الاولى ، الآ انه كان طالباً للاثار في معاهد اليسوعيين بفرنسا وخريجاً لجامعة اكسفورد وقد ابدى مهارة فائقة في دراسة المدنيات القديمة التي نشأت على ضفتي الفرات ودجلة واستعداداً طيباً لان يضع اطروحته في الجامعة عن فنون البناء في العهد الصليبي فكان عضواً في البعثة البريطانيـــة التي رحلت الى المشرق ولم تظهر اطروحته التي كان يتوقع لهـــا اساتذته اهمية علمية خالصة نظراً لذكائه وتتبعه للاثار بعناية ودراسة فيها الكثير من التعمق والمعرفة الواسعة . ونراه قبيل الحرب العظمى يبحث مع زملاء له عن مدينة الحثيين القديمة « كركميش » ثم نجده في الشرق العربي يرتاد اقاصيه ويعيش بين قبائله يتعلم لهجاتهم الواحـــدة اثر الاخرى ويعيش بينهم وكأنه واحد منهم وكان لجمعيـــة « ارتياد فلسطين » الفضل الاكبر في تمويله واعانته على الاسفار ووقف على شؤون البادية العربية في العراق وسوريا وألمّ بطبائع سكانها . وكاد لورنس يمـــوت في الصحاري فلاقى الكثير من الاخطار وتعرض لالام الجوع والعطش والقتل مراراً ولكنه نجـــا بفضل شجاعته ومغامراته . ولما اندلعت نار الحرب العالمية الاولى كان لورنس في السادســـة والعشرين من عمره وكان يعيش في القاهرة والحق ان لورنس تعرف

تحت ستار البحث عن الآثار الى كل الجمعيات الثورية العربية في سورية والعراق والى معظم رجالاتها وزعماء القبائل في ارجاء البلاد قاصيها ودانيها وهذا ما هوّن عليه مهمته التي انتدبته اليها حكومته بريطانيا العظمى .

وثبت لنا ان لورنس وامثاله من العلماء الانكليز كانوا يعملون من اجل البترول والسياسة البترولية التي كانت تعتمد عليها بريطانيا في توطيد دعائمها تحت ستار الآثار ودراسة المدنيات القديمة وكانت بريطانيا تشم رائحة البترول في العراق وترى ان تستولي على آباره وتسد نقصها من مادة الذهب الاسود ولهذا راحت تعمل للاستيلاء على الشرق العربي وعلى العراق بصورة خاصة فبدأ النزاع قوياً بين انكلترا والمانيا وكاد النفوذ الانكليزي والرأسمال البريطاني يهددان بالصميم حينما رأت المانيا ان تنشىء سكة حديد القسطنطينية - بغداد البصرة . واذنت الحكومة العثمانية للكولونيل لورنس ان ينقب عن الآثار في العراق ولكنه في الحق كان هو ومعاونوه يقلبون طبقات الارض للتفتيش عن البترول. وحوال عام ١٩١٣ كان لورنس من جملة العلماء الذين انتدبهم اللورد كتشنر لدراسة جغرافية فلسطين وسيناء وكانت مهمتهم عسكرية بحتة وكانوا في الظاهر من علماء الآثار واشتغل لورنس بتحضير خريطة فلسطين كاملة في الاشهر الاولى من الحرب وكانت كل غاية الحكومة البريطانية ان تستفيد من بترول المشرق وان تحرك العرب ضد الاتراك وان تثير فيهم روح التمرد . وقد استغلت بريطانيا النهضة العربية لمصالحها وساهمت في اشعال الثورة العربية وكانت الفتنة بين الشريف حسين ورجال تركيا الاتحادية والحقيقة التي لا مراء فيها ان كل نقطة من البترول كانت تساوي نقطة من الدم في ذلك العهد لان البترول هو « عصب الحرب » في انتقال الجيوش على البواخر والطائرات والسيارات .

ونجحت بريطانيا في سياستها حينما اهدت الى العرب الكولونيل لورنس . وكان هذا الرجل نابغة فانتقل بين القبائل وكان يخاطب كل قبيلة بلهجتها الخاصة ويبث دعايته ضد الترك وينثر ذهب انكلترا على زعمائها ويمدها بالاسلحة . وتعهدت بريطانيا ان تفي بوعودها الاستقلاليه للشريف حسين ووضعت بعض التحفظات

بشأن لبنان والعراق لأن العراق ينبوع البترول ولبنان منفذه الى البحر المتوسط ثم كانت المعاهدة البريطانية الفرنسية التي اقتسمت النفوذ في البلاد العربية وعلى رأسها معاهدة سايكس – بيكو التي انكرها لورنس واستنكرها .

وكانت مهمة الكولونل لورنس اثناء الحرب نسف القطارات التي تصل دمشق بالمدينة المنورة والتي كانت تحمل الى الجيوش العثمانية الذخائر والمؤن . وقد نجح في مهمته الى الغاية التي ليس بعدها غاية حتى دخلت الحلفاء والكتائب العربية التي يقودها الأمير فيصل الى دمشق دخول الظافرين المحررين ويقول لورنس انه عشية دخول الانجليز الى مدينة معاوية سمع المؤذنين ينادون : « الله اكبر » ورأى المسلمين يدخلون المساجد مطمئنين ولهم الثقة التامة بوعود الحلفاء ولكنه شعر بحزن اليم لأن ثقة المؤمنين لم تكن في موضعها ولأنه رأى نفسه اقرب الى البادية منه الى انجلترا .. ولا ريب ان لورنس قد اصيب بصدمة قوية حينما رأى فرنسا تستولي على سورية ويطرد فيصل من دمشق طرداً معيباً بعد معركة ميسلون كذلك احاطت به الخيبة عندما رأي فرنسا تقاسم بريطانيا في البترول والظاهر ان لورنس كان يرجو لفيصل الذي احبه كثيراً مصيراً غير هذا المصير وكان يود لو ان العرب اتيحت لهم الفرص ليحكموا انفسهم بانفسهم ويعزون رده للأوسمة التي انعمت بها بريطانيا عليه لهذه الاسباب . ومهما يكن من امر فان العرب احبوا لورنس وبادلهم هو هذا الحب وشدهم بدهائه الى العجلة البريطانية . وكان المستر تشرشل يثق به ويعتمد على آرائه في تسوية القضايا العربية والّف لورنس قبيل وفاته كتابه المشهور – اعمدة الحكمة السبعة – وهو يبحث في حوادث الثورة العربية واسرارها وقدّر نوري السعيد وهو قائد عربي تَعمِلَ مع لورنس كثيراً كتابه كما قدر شخصيته وكان دوماً يقول – كم نحن بحاجة الى رجل كلورنس يساعدنا على حلّ المعضلات التي نتخبط بها في العراق بل كم نحن بحاجة الى مثل هذا الرجل الذي كان يثق الثقة التامة بالعرب .

وتيسر للورنس ان يفهم الروح العربية فبذل جهده لتكوين جيش الثورة وامداده بالمال والسلاح والمؤسف ان غيره من البريطانيين لم يتفهم هذه الروح

ولم يسبر اغوارها ففشل مع العرب . وقد تكون فاتت لورنس بعض الحقائق في كتابه وهذا ليس بالأمر العجيب لأنه لم تتح له الفرص للاطلاع عليها .

ولم يفهم فيصلاً تماماً ويحترم نياته الشخصية و كفاءته الديبلوماسية والادارية والحربية رجل بريطاني كلورنس ولهذا وقف الى جانبه في كل الملمات وكان له الصديق الصادق والأخ العزيز .

وكان لورنس جماعة للكتب فاقتنى مكتبة ثمينة تحوي كتباً نادرة وعاش في بيته ببانج فورست وهي ضاحية من ضواحي لندن تبعد عنها نحواً من عشرة اميال . وانعمت عليه جامعة اكسفورد بلقب العضوية في كلية « اول صولز » وهي عضوية لا ينالها الا اصحاب الصفات العلمية النادرة وهؤلاء لا يزيدون عن العشرين ولهم مؤلفات جليلة في العلوم والآداب والتاريخ وكتب معظم فصول كتابه في هذه الكلية .

وعاش لورنس في جو مشبع بالصوفية الحالمة التي تعمل للمثل العليا ولذا عدّ من الشخصيات الغريبة وكان يكره المسكرات ويأنف التدخين ورفض ان يحمل الاوسمة وينال الرتب العسكرية العالية وان يرفع الى صفوف الاشراف ولطالما حلم ان يقتني سيارة رولز رويس ذات اطارات متينة وبنزين لا ينفد .

ويروى ان في حياته امرأة وتكهن الكثيرون عنها ... ترى من هي ؟ قد يكشفها الزمن ويميط المؤرخون اللثام عنها .

•

صحابة لورانس في تقويض الامبراطورية العثمانية

حاول الأنجليز ان يقوضوا اركان الامبراطورية العثمانية فهيئوا لذلك عصبة من الشباب المغامرين الذين كانوا يعتمدون على الجنرال كلايتون رئيس مصلحة الاستخبارات في القطر المصري . وامتاز كلايتون بالنظر البعيد وهدوء الاعصاب والشجاعة وكان يتحمل مسؤلياته كاملة فلا يتهرب منها ويترك لمعاونيه الحرية في

تصريف الشؤون على الوجه الاكمل وكانت آثاره بارزة في كل المشاريع البريطانية في المشرق اما المستر ستورز فكان الانجليزي اللبق الذي عرف ان يستثمر كل الجهود التي بذلها سواه . كذلك كان جورج لويد الذي اصبح المندوب السامي البريطاني بعد الحرب فقد كان يوحي الى لورنس الثقة والامل في اعماله . أما سايكس فكان صاحب نظريات صعبة التحقيق ولم يكن عنده الصبر الكافي لوضعها في حيز العمل . واشتغل كورنواليس وغيره في القضية العربية . وكان هؤلاء كلهم يعملون للاتفاق مع شريف مكة على تدمير الحكومة العثمانية ورجالها الاتحاديين . وكانت خبرة هذه العصبة من الشباب الانجليزي المغامر هي التي جعلت الشريف حسين يثق بوعود بريطانيا الكلامية ويحسبها عهوداً

وراحت هذه العصبة من الانجليز وعلى رأسها لورانس تفتش عن زعيم قوي الشخصية يتزعم الثورة العربية وله من شبابه وعقله وحسن تدبيره وسيطرته على القبائل ما يؤهله للعمل في انشاء امبراطورية عربية تخلص لانجلترا . وقد اجتمع لورنس بالاميرعبد الله بن الحسين في جدة فرآه رجلاً طيباً لا تفارق الابتسامة محياه . وقال لورنس ان الامير عبد الله لا يتصنع ولا يتكلف وهو يحب المباسطة والمزاح وينتقي كلماته وحججه وبراهينه في احاديثه وهو عاقل ومفكر وداهية ولكنه ليس بالزعيم الذي يمكنه ان يشعل القلوب بحماسه اللاهب . ويجوز ان تظهر مواهب عبد الله ابان السلم . أما في الحرب فليس هو بالرجل الذي يتمكن ان يقوم بالانقلابات .

وللورنس رأي خاص في فيصل فيقول انه حينما اجتمع به في الحجاز شعر انه امام شخصية جذابة يجوز ان يكون لها فعل السحر على الثورة ورجال الثورة واماني الثورة . انه وجد به ضالته المنشودة ، ولعل لورنس تفحص فيصلا تفحص الاخصائي بعلم الآثار فوجده اثراً عزيزاً نادراً صحيحاً لا يفرط به ، وادرك لورنس من النظرة الاولى انه امام زعيم العرب الامثل ، هذا الزعيم الهادىء المفكر الذي كان يبدو اكبر من الواقع سناً بالنظر لما كان يلاقيه من هول المعارك وقلة الذخائر والمؤن . وكان فيصل قد اكتسب من محيطه التركي كثيراً من النعومة

واللباقة والخبرة السياسية كما ان خدماته في الجيش العثماني جعلته يتفهم الكثير من الخطط العسكرية والسياسة الاوروبية . والمزية العظمى التي امتاز بها فيصل هي دراسته للرجال والحكم عليهم حكماً صحيحاً ، وكان حذراً يخاف ان يصل الى ابعد من الواقع لئلا تتبعثر جهوده ويفشل فشلا مريعاً . وهكذا يمكننا ان نقول ان لورنس منذ اجتماعه الاول بفيصل وجد فيه الزعيم الذي يستطيع ان يسيطر على الموقف ويوجه الثورة الى مثلها العليا ، وقد اقنع لورنس زملاءه من هذه العصبة الانجليزية بزعامة فيصل وقال انه عثر على الرجل العربي القوي الذي يمكن لانجلترا ان تتعاون معه .

واثر فيصل على الجماعات الثائرة التي التفت حوله وكان بينهم السوري والعراقي والحجازي وما كان احدهم ليجرؤ ان يبحث فيما اذا كان الحجاز سيحكم سوريا او سوريا ستحكم الحجاز بل كانت غايتهم كما قال فيصل « نجاح الثورة » وأما المسائل الفرعية فيصار الى تسويتها فيما بعد . وكان السوريون والعراقيون من رجال الثورة يعتقدون انهم يحاربون في صفوف فيصل لانه سيحرر اوطانهم ولأن العلم العربي علم الثورة سيخفق في سماء دمشق وبغداد . وكان الايمان يغمر جيش الثورة وكان رجاله يحاربون الاشهر تلو الاشهر دون تذمر وكان الجندي العربي لا يتناول اكثر من ليرتين انجليزيتين في الشهر الواحد وهذا دليل قاطع لا يقبل الشك ان العربي كان يحارب من اجل استقلاله لا من اجل فائدة مادية مرجوة . وأثبت الجندي العربي انه مغامر بارع ومهاجم سريع لا يهاب الموت ولا يخشاه .

وما كاد لورنس يتأكد من عظمة فيصل وزعامته حتى برح الحجاز الى القاهرة واطلع المسؤولين الانكليز على أحوال الجزيرة العربية . وكان المسؤولون امثال وينغت وكلايتون والجنرال موراي قد اعجبوا تمام الاعجاب بتقرير لورنس عن جيش الثورة وفيصل فتفهموا احوال القوات العربية في الحجاز وحاجاتها المادية والروحية واخذوا بعدما حدثهم لورنس عن تأثراته الشخصية في الحجاز يمدون يد المساعدة للثورة ولا يتأخرون عن البذل والانفاق في سبيلها .

واصدر كلايتون اوامره الى لورنس للعودة الى الحجاز وان يرافق فيصلا

وان واجبه بعد اليوم تفهم حاجات فيصل وجيش الثورة . وجعل لورنس مقره « ينبع » التي أصبحت المركز الهام لتموين الجيوش العربية . وكان لورنس قبل ان يبرح القاهرة الى الحجاز نظم الادارة العربية لدى القوات البريطانيـــة . وهكذا اصبح لورنس قريباً من فيصل ورفيقه في جهاده .

•

الثورة السورية الملاهبة

كيف بدأت الثورة السورية وكيف اشتعلت حتى كادت تعم سوريا بأسرها عام ١٩٢٥ . ثم من نفخ فيها حتى جن جنون الفرنسيين فقصفوا دمشق بالقنابل ودمروا دورها الاثرية واعدموا السوري على الشبهة . هذه اسئلة وجيهة جديرة بالاجابة والدراسة .

لو درس المسئولون من الفرنسيين نمو القومية العربية وتطورها لما وقعوا في الاخطاء التي وقع فيها الترك قبلهم فالعرب عموماً والسوريون خصوصاً كانوا قبل ظهور جمعيـــة الاتحاد والترقي في الامبراطورية العثمانية متكاتفين مع الترك ومتمسكين بالرابطة الاسلامية لا يهتمون بالقومية بل ينظرون الى سائر العناصر التي تحكمها الدولة العلية نظرة الاخوة الانسانية . والمؤسف ان زعماء الاتحاديين امثال انور وطلعة وجمال لم يبروا بقسمهم الذي اقسموه يوم تسلموا الاحكام والذي قالوا فيه انهم لن يفرقوا بين العناصر العثمانية بل نكلوا به ومشوا في تأييد الفكرة الطورانية ومحو اللغة العربية — حتى اصبحت المرافعات في المحاكم بدمشق وبيروت وحلب بالتركية — وكانت لهذه السياسة الطورانية نتائجها في البلاد العربية المتوثبة للتعلم والنهضة والحياة الحرة فكانت الجمعيات العربية الاستقلالية وكانت الجمعيات الاصلاحية واللامركزية ثم كانت المآسي والاحكام العرفية في عاليـــه والتي علقت خيرة المفكرين في دمشق وبيروت . اقول كانت هـــذه العوامل كلها تلعب دورها في تهيئة العرب للقومية ثم جاءت مواعيـــد

بريطانيا للعرب والثورة العربية ثم كان الانتداب فخلق عند السوريين موجة من التعرف الى اقدارهم وامجادهم ولكن فرنسا لم تحسب هذا الحساب كله ولم تحفل بهذا الشعور الحي النامي وعدت اعمال العصابات السورية في جبال العلويين وعلى حدود لبنان الكبير والحرب في ميسلون والتظاهرات في دمشق وحلب من اجل لجنة كراين الاميركية للاستفتاء من ضروب الدسائس والدعاية البريطانية ولم تر في فيصل زعيما وطنياً بل عدته غريباً وتمادى بعض كتابها فنعتوه بالبدوي. ولعل استخباراتها كانت ضعيفة فصور لها جواسيسها الحال على غير حقيقتها حتى استفحل الامر وامتلأت القلوب السورية بالحقد وكانت الثورة اللاهبة ثورة سورية عام ١٩٢٥.

ولعل اعمال الظلم والارهاب اشاعت حب الثورة في القلوب فكثير من العيون والعلماء والشباب المثقف القوا في غياهب السجون واحتملوا من انواع الاهانات ما يعجز عن وصفه الحر، فحماه مدينة النواعير كانت تعيش في حكم ارهابي من قبل الكابتن «ميك» وكان معظم المستشارين يستخدمون الجواسيس لاذكاء النعرات الطائفية وتضخيم الضرائب على المكلفين، وقد قص علي صديق أن الابرياء كانوا يضربون في السجون ضرباً شديداً لمجرد وشاية كاذبة ولهذا فضل بعضهم الموت على حياة الذل وكانوا اول من التحق بالثورة السورية يوم تأججت نيرانها. وكان الشباب الذين اعتقلوا في تظاهرات عام ١٩٢٢ خير شاهد على ما نقول فان بعضهم اعتقل وعذب وسجن ونفي. كذلك الشباب الذين تظاهروا ضد بلفور والوطن الصهيوني في اوائل عام ١٩٢٥ فانهم نزلوا للشارع ونادوا ضد الاستعمار ولم يكن الموظفون الفرنسيون ليتفهموا العقلية العربية فراحوا يزيدون النار لهيباً بسوء ادارتهم، وامزجتهم العصبية، التي لا تحل المشاكل عند تعقدها ولا تسعى لفضها.

فهذا جبل الدروز كان يحكمه الطرشان وهم امراء اشاوس ما زال بهم الفرنسيون حتى بذروا بينهم بذور الشقاق فاختلف بعضهم مع بعض وانتزعوا منهم الحكم الوطني واحلوا الكابتن كاربييه سيداً على الجبل. وبدأ كاربييه حياته في جبل العرب مستشاراً ثم رُقي فصار وكيلاً للحاكم ثم حاكماً عاماً في عهد

الجنرال فيجان واتخذ كاربييه سياسة اللين والعطف مع الدروز بادىء الأمر ثم تحول الى سياسة الشدة والقهر والتنكيل حتى انه اذا ذهب الى قرية من القرى ولم يخرج كل سكان القرية لاستقباله بالخيول والاهازيج فرض على سكانها الغرامات الباهظة واخذها لنفسه وصرفها على تبذلاته الرخيصة ويروي الرواة الثقـــاة ان كاربييه استاء مرة من قائمقام صلخد خريج الاستانة فهد بك الاطرش فأخـــذ يضربه بالسوط وبيديه ورجليه على مرأى ومسمع من الجماهير الدرزية. وقام مرة احد رجال كاربييه العريف – دي بوشل – الى محمد عز الدين الحلبي مدير العدلية وخاصمه وسدد اليه مسدسه واطلق النار عليه ولكنه اخطأه ومع ذلك فلم يقل له احد كلمة بشأن جريمته. واذا وشى واشٍ على احد الأعيان من الدروز او شيوخ العقل سجنه دون محاكمة وارسله لتكسير الحصى على الطرق كما فعل بالشيخ صالح طربيه احد الفقهاء والشيخ سليمان بك نصار مختـار قرية سالة والمضحك ان آل الاطرش كانوا يلقون في غياهب السجون اذا تردد احدهم في القاء التحية عليه وعلى رجاله وكانوا يعيشون في السجن من غير طعام بل على الماء المالح فتأمل !!

ويتندر اهالي السويداء على هرة ضاعت للملازم الفرنسي – موريل – فغرم الاهلين بسببها عشر ليرات عثمانية ومن مزايا كاربييه التي لا تنسى ابداً ان بعض الجواسيس ذكروا له ان الدروز اذا تنحنحوا فانما يقصدون منها لعنة من يرون به من غير طائفتهم ولهذا كان الويل كل الويل لمن كان منهم مصاباً بالتهاب في حلقه او سعال في حنجرته فان عليه ان يتحمل آلام السجن حتى يطيب او تزول اعراض مرضه.

والمؤسف ان كاربييه كان مأفوناً سكيراً عربيداً وما كان الدروز ليتحملوا مثل هذا الحاكم فانفجرت ثورتهم على يديه وهو من هذه الناحيـة صاحب الفضل الاكبر في اضرام الثورة السورية بل ولعله من العوامل المباشرة التي لفتت نظر العالم الى سوريا والمظالم فيها.

•

الظلم المتواصل والاستهتار بمصالح الشعوب والاندفاع المستميت وراء الشهوات ثم ارواثها بالطمع والجشع والرشوة واقتناص الأسباب لجمع الثروات الطائلة بحق وبغير حق بوسائل النفوذ الحكومي كلها قد تدفع هذه الشعوب لثورات داخلية تحرق المدن وتسفك الدماء وتقتل الابرياء من نسوة واطفال ومستضعفين . وليس كمثل « الاستياء العــام » مغذياً للثورة ودافعاً لها فهو المادة الخام التي يستفيد منها المعارضون من زعماء الاحزاب السياسية وهو الحطب الذي يشعلون به النار وكان الوطنيون امثال الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وغيره من الذين يكرهون الاحتلال الفرنسي ويحاربون الانتداب قد مهدوا السبيل للثورة السورية بخلق موجة من الاستياء العام فكانوا دوماً يدعون للاحتجاج ويهيئون الافكار للاضطرابات العامة وينادون بالدعوة للاضراب العام عن الاعمال واغلاق المتاجر والحوانيت والاسواق لاسباب وطنية بسيطة وغير بسيطة حتى يعرقلوا الحكم الفرنسي وقد التقت هذه الموجة الرهيبة من الاستياء العام الذي كان يعم الدمشقيين بصورة خاصة مع الظلم الفادح الذي كان يتحمله الدروز في جبل العرب فكانت اول فرصة آذنت بتفاهم الزعماء في الشام مع رجالات الدروز . والغريب في دمشق انه إذا سرت كلمة الاضراب في سوق من الاسواق عمت المدينة كلمح في البصر وتعاون الاغنياء والفقراء على المحنة التي يظنون انها نازلة بهم وكانوا كلهم يــداً واحدة ضد الاجنبي . وهــذه المزية هي التي جعلت دمشق تصمد امام الاحتلال وتقاومه بقوة خالدة لم تقدر المدافع والنيران والجيوش على خنقها .

فلما التقت موجة الاستياء العام الدمشقية مع الظلم الذي نزل بالدروز فتفاهم زعماء الطرفين على الاجتماع لبحث احوالهم وكان اول اجتماع تاريخي عقد بينهما في بيت الصحفي قاسم الهيماني صاحب جريدة الفيحاء وكان ذلك في اوائل شهر نوار عام ١٩٢٥ وقد مثل الدروز الامير حمد الاطرش ثم عقب هذا الاجتماع اجتماعات عديدة في منزل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في عرنوس طريق الصالحية وكان عبــد

الرحمن الشهبندر دماغ هذه الثورة وحركتها الدائمة وروحها التي لاتنطفيء . اما الاطارشة امثال نسيب الاطرش وعبد الغفار الاطرش ومتعب الاطرش فكانوا حياتها وقـد اقسم هؤلاء كلهم بالله ان يضرموا نار الثورة في سورية ويطردوا فرنسا من بلادهم ويحققوا الوحدة والاستقلال وانضم اليهم السيد ابو حمد سيف العيسمي وهو من زعماء الدروز ورجالهم المعروفين . والغريب ان هـذه الحفنة من الشباب هي المسئولة مباشرة عن الثورة وليست الاحزاب السياسية المعارضة التي اتهمتها فرنسا وحاولت ان تلقي باعضائها في غياهب السجون والمنافي السحيقة والحق ان الجنرال سارايل المفوض السامي الفرنسي قداتهم ابرياء كثيرين وعذبهم على الشبهة .

وغادر الزعماء الدروز دمشق وقلوبهم مؤمنة بالثورة ولكنهم كانوا ينتهزون الفرصة لاعلانها وحدث - وكم للدهر ابي الحدثان من فرص - ان رحل الكابتن كاربيه حاكم الجبل بالاجازة الى فرنسا فحل محله الكابتن رينو بالوكالة وكان هذا يعلم ان الدروز ينفرون اشد النفور من كاربيه ويمقتونه لمظالمه وتبذله واستهتاره فطمع ان يأخذ مركزه وجعل يتقرب من الدروز ويعمل على اظهار معائب سلفه وكان مـن الافواه الـتي نفخت في بوق الثورة وحاول ان يجمع بين زعمائهم وبين الجنرال سارايل لعل سارايل يأمر بنقل كاربيه مـن الجبل فيخلو له الجو وسهل رينو اسباب السفر للزعماء الدروز كي يقابلوا المفوض السامي في بيروت وكان على رأس الوفـد الدرزي الامير حمد الاطرش والامير نسيب الاطرش والامير عبد الغفـار الاطرش واسعد مرشد ولكن الجنرال سارايل رفض الاجتماع بهم ومقابلتهم فرجعوا الى السويداء وقـد شعروا بالاهانة التي لحقت بهم وهم الكرام ابناء الكرام وقرروا الانتقام وتفجير الثورة واشعال نيرانها .

وفي اليوم الاول من عيد الاضحى الواقع في الواحد والعشرين من تموز عام ١٩٢٥ تألفت تظاهرة كبرى من شباب بني معروف باشارة من الزعماء في ساحة السويداء ونادت بسقوط كاربيه الظالم السفاك ثم حيت وكيله رينو العادل الحليم

وراح الشباب يبحثون عن نوابهم لعلهم يبسطون امانيهم للمسؤولين من الفرنسيين ولكن نوابهم كانوا في واد والشباب في واد . وفيما الشباب يهزجون اهازيجهم الحماسية التي تحملهم على اقتبال الموت بوجوه باسمة ونفوس راضية هاجمهم الملازم مورل زميل الكابتن كاربييه في الظلم والتبذل والاستهتار ومعه بعض الجنود ونزل على ظهورهم بالسياط فما كان من احد فتيان بني معروف حسين مرشد الا ان تناول عصاه وضربه بها على انفه ثم اطلق الامير يوسف بن الامير عبد الغفار الاطرش نيران مسدسه عليه فلم يصبه وانهزم امامهم فتناولوه بالحجارة حتى بلغ سراي الحكومة .

ولما تأزمت الحال اراد الكابتن رينو ان يقف عند هذا الحد ويحل قضية التظاهرة حلاً سلمياً يحفظ للدروز كرامتهم ثم يحفظ لفرنسا وللسلطة العسكرية الفرنسية هيبتها ووقارها . فحمل الشباب الدرزي الذي قام بالتظاهرة على الاعتراف بالخطأ الذي اقترفه تجاه الملازم موريل وضرب عليهم غرامة قدرها مائتي ليرة عثمانية ذهبية ثم أصر فوق ذلك على نسف دار حسين مرشد . وقد قبل الدروز الشرطين الاولين اما الشرط الاخير فلم تتحمله مروتهم ان يسلموا به مطلقاً واشتدت التظاهرات المسلحة التي اطلقت بها الوف العيارات النارية . وهكذا نرى ان رينو اراد ان يصرف التظاهرة الى خير وسلام ولكن جهله بطبائع الدروز قلبها الى شر وحرب .

والغريب ان رينو كان من جهة يصر على نسف دار حسين مرشد ثم من جهة ثانية يجتمع الى سلطان الاطرش في دار ترجمانه يوسف الشدياق ويؤكد عليه المثابرة في التظاهرات حتى يتم له الامر ويعزل كاربييه . ولا ريب في ان السياسة الملتوية التي كان ينهجها بعض الفرنسيين واطماعهم الشخصية واندفاعهم وراءها ثم ظلم بعضهم للجماهير شجعت الدروز على الثورة والاستماتة في سبيلها .

•

فرنسا تخادع الزعماء الدروز وتعتقلهم

شعرت المفوضية الفرنسية في بيروت وعلى رأسها الجنرال سارايل ما يبيت لها في الخفاء « الكابتن رينو » في السويداء . انه كان يهدف الى اعتلاء مركز كاربييه مهما كان الثمن فدعا الدروز سراً الى المثابرة على التظاهرات الدامية فاضطرت المفوضية اذ ذاك لاستدعاء رينو وتعيين القائد « تومي مارتان » حاكماً للجبل .
وكان تومي مارتان مشهوراً بقسوته وكبريائه ومراوغته وقد دعا عقب وصوله الى السويداء السادة عبد الغفار الاطرش ونسيب الاطرش وحمد الاطرش وقال لهم ان الجنرال سارايل يرغب في الاجتماع اليهم لدراسة الموقف في الجبل دراسة صادقة ولينصف المظلوم من الظالم وليضع الحق في نصابه فآمنوا به ووثقوا بكلامه وغادروا الجبل ولكنهم لم يكادوا يطأوا دمشق حتى القى عليهم القبض المسيو شوفلر مندوب المفوض السامي في سوريا وساقهم الى المنفى في قلعة تدمر وكان هذا الاسلوب الخادع الشاذ الملتوي من اكبر الاسباب التي دعت رجالات العرب وعلى الاخص الدروز منهم الى التهالك في اشعال الثورة وعدم الاستسلام الى فرنسا . ولا ريب في ان الذين اشاروا على سارايل ان يلجأ الى الحيلة الرخيصة في القبض على زعماء الدروز قد كلفوا الجيش الفرنسي دماء غزيرة لا مبرر لها الا جهلهم بطبائع السكان . وتمادى الحكام الفرنسيون في طغيانهم فقبضوا على برجس الحمود وعلي الاطرش وحسني صخر ويوسف الاطرش وارسلوهم مخفورين الى الحسجة .
وهنا لم يعد امام الدروز اي مجال للتراجع فقرر سلطان الاطرش وحسن الاطرش ان ينفخا في بوق الثورة وان يثأرا لكرامة الرجالات الذين رموا في السجون والمنافي السحيقة فقاما يتجولان في القرى ويدعوان الشباب الى القتال والموت الزؤام ويحضانهم على رفع لواء الاستقلال وحمل السلاح ضد فرنسا .

قال الثقاة : ان الحوادث الجسام هي التي تظهر الرجال بمظهرها الحقيقي فقد برهن سلطان الاطرش انه الزعيم المرجى عند المصائب وانه ابن بجدتها اذا جد الجد فراح يجوب القرى الواحدة اثر الاخرى وكان يصاحبه الفرسان وهم



سلطان باشا الاطرش

مدججون بالسلاح أنى سار وكان يوم الجميع ان الدروز كلهم قد هبوا على قدم وساق لانقاذ شرفهم فبدأ من قرية ام الرمان فأمنان فملح فعرمان فصرخد. وكان كلما حط الرحال في قرية جمع حوله شبابها ورتبهم حوله ترتيباً يسلفت الانظار ثم امرهم بالهزج الحماسي واطلاق الرصاص في الفضاء، وهكذا سرت النخوة في شباب القرى وانضموا اليه وساروا في ركابه وكان سلطان يرجو ان يزحف الى صرخد لمنازلة البعثة الفرنسية فيها وحرق دورها وقد تم له ما اراد لان اهل صرخد انفسهم اطاعوه اطاعة عمياء . ومن ثمة قصد الى « القرية » للايقاع

بالعسكر الفرنسي الذي كان يتجمع فيهـــا فعرف قادتهم بمقاصده فرحلوا الى « الكفر » ونزلوا على مائها وتحصنوا في مواقعها الوعرة التي تشرف عـلى الطريق ويقول الذين زاروا « الكفر » ان الصخور فيها تعطف بشكل مستدير وتكاد كل صخرة منها تكون متراساً وقـــد انقسم الدروز بقيادة سلطان الى قسمين وهاجموا العسكر الفرنسي من جهتين متقابلتـين واقتحموا الكفر تحت نيران المدفعية والبنادق والتحموا مع العسكر الفرنسي بالسلاح الابيض ملحمة قيـل انها لم تستمر اكثر من عشرين دقيقـــة وقضوا عليه قضاء مبرماً . وكان عدد الدروز لايتجاوز المائتين بينما كان عدد الجنود الفرنسية يزيد على المائتين والستين بينهم عدد من الضباط وقد خسر المجاهدون الدروز اربعين شاباً كان من ألمعهم واشدهم شجاعة مصطفى الاطرش شقيق سلطان الاطرش واسماعيل الاطرش نجل جاد الله الاطرش وقال الذين رأوا الكفر بعد المعركة الرهيبة فيها ان كثيراً من الرؤوس والارجل والايدي كانت مبعثرة في ساحتها . ولعل هذه المعركة هي التي ثبتت زعامة سلطان في الرجال والقت عبء القيادة العامة والمسئولية الكبرى عليه وقتلت الفوضى التي يتعشقها المتزعمون وكانت النواة الصالحة النظام ولبلوغ اهداف حربية معينة ولولا ذلك لقامت رؤوس كثيرة تطلب الزعامة لنفسها ولتعددت القيادات ولفشلت الثورة حالا. ثم لا بد لنا ان نشير الى ان معركة الكفر جعلت الثورة امراً مبرمـــاً وشجعت السوريين المترددين ان يمتشقوا السيف ويقتدوا بسلطان ورجاله ولا يحتموا للتضحية مهما بلغ ثمنها . وقد ارجعت معركة الكفر الثقة الى نفوس السوريين اجمعين فاعتقدوا ان حقهم بالوحدة والاستقلال شيء صريح لاغبار عليه وانهم على قلتهم قادرون ان يجابهوا الجيوش المنظمـــة ذات المدفعية الكثيفة والآلات الضخمة .

وعقد الزعماء السوريون اجتماعات عديدة في دار المجاهد الطبيب عبـد الرحمن الشهبندر بعد هذه المعركة اسفرت عن قرار هام جداً وجوب اعلان الثورة بدمشق في الثاني والعشرين من آب عام ١٩٢٥ وقد عرفنا من هؤلاء الزعماء يحيي حياتي بك وحسن الحكيم وسعيد حيدر وجميل مردم بك ونسيب البكري وسعد الدين المؤيد

العظم وما كادت تبزغ شمس الثاني والعشرين من آب حتى كانت دمشق تقوم بواجبها القومي فيتسرب شبابها الى الغوطتين كما تسرب رجال سلطان الى السويداء لمحاصرة قلعتهـــا .

•

حملة الجنرال ميشو الى جبل الدروز

فقد الجنرال سارايل توازنه واستولت عليه الاوهام حينما رأى ان الامر كاد يفلت من يديه وان الدروز اخذوا يشقون طريقهم نحو الاستقلال وطرد القوات الفرنسية من الجبل فجهز حملة كبيرة لتأديب العصاة كان عددها يتجاوز الخمسة آلاف من الجنود وعلى رأسها الجنرال ميشو . وكانت هـذه الحملة مجهزة باحدث آلات الحرب كالطيارات والدبابات والمدفعية والتقت هذه الحملة القوية بالدروز في شرق محطـــة ازرع في اوائل آب سنة ١٩٢٥ ففرّ الدروز من جحيمها ونارها ورأوا الا قبل لهم بمنازلتها ولكن فرقة من المجاهدين من المقرن الغربي ـ اي من نجران وعاهرة ومعهم عدد من اهـــل المقرن الشرقي لا يتجاوز عددهم المائتين وفي مقدمتهم جاد الله سلام ومحمد شرف هاجموا مؤخرة حملة ميشو وكانت تتألف من الذخائر المحملة على ظهور البغال وتحرسها الفرقة السورية قرب « بصرى الحرير » وانقضوا عليها انقضاض الصاعقة وقتلوا معظم رجالها واستولوا على احمالها ودوابها وقد نشط هذا النصر اهل القرى القريبة من بصرى الحرير فهبوا الى خيولهم وكان في مقدمتهم ما يقرب من مائة فارس من اهل السويداء وعاضدهم ما يقرب من اربعمائة شاب من المجدل ونجران وسليم والتقوا بالحملة في عين المزرعة . ونازلتهم القوات الفرنسية من متاريسها واطلقت عليهم قنابلها السريعة وقال الذين شاهدوا قذائف المدفعية انها كانت تنثر قطع الصخور في السماء ومع ذلك فكان الدروز لا يهابون الردى ويتقدمون نحو رجال ميشو بشجاعة غريبة . وراحت المصفحات تخترق صفوف الثائرين وتصب عليهم الحمم ولكن الدروز كانوا يقابلونها بالسيوف

ويتقدمون ويقتلون سائقيها.

وحلقت الطائرات فوق الرؤوس والقت مفرقعاتها وحفرت الارض وملأتها بالأشلاء ورغم كل ذلك فقد تقدم الثائرون كأنهم سكرى بروح الايمان وراحوا يشقون طريقهم في قلب حملة ميشو . وقد هال هذه الحملة شجاعة المهاجمين فدب في جنودها نوع من الفزع المريع الذي تعقبه الفوضى فصاروا يطلقون النيران بصورة طائشه حذر الموت المداهم وراح الدروز يشنونها عليهم حرباً بالسلاح الابيض فكانت معركة اشتدت فيها حماسة المجاهدين الى الذروة ولعلها من المعارك التي لم يسطر لها التاريخ مثيلاً منذ الحروب العربية والوقائع الصليبية وكان الثائر الدرزي ينفرد عن اخوانه ويقول «اشهدوا اشهدوا واقرأوا اقرأوا» ويهجم بسيفه البتار فيضرب الجندي الفرنسي ضربة تبتر عنقه او تشقه الى نصفين ويروي الراوون ومن جملتهم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ان المجاهد سليمان العقباني من قرية السجن قتل بسيفه ثمانية عشر جندياً بهذه الطريقة الى ان اصيب بالرصاص فخر صريعاً .

واستبسل الثائرون في هذه الملحمة فقتل منهم الصفوة المختارة من الشباب واشهرهم حمد البربور من قرية ام الرمان وكان اليد اليمنى لسلطان باشا وهو آية في الذكاء والحصافة والشجاعة ولولا امثال حمد البربور الذين هزأوا بالموت فهابهم الموت واكبرهم لما قامت للدروز قائمة بعد هذه الحملة وقد أبيد اكثرها ولم يسلم منها الا القليل وكان هذا القليل يتراكض نحو السكة الحديدية في قرية ازرع وكأنه اصيب في عقله فجن جنوناً في طلب السلامة . وقال الذين شاهدوا الجنود الذين سلموا من معركة المزرعة انهم كانوا يلقون بانفسهم على عربات القطار الذاهب من قرية ازرع الى دمشق وكأنهم اشباح دون ارواح وكانت معركة المزرعة كارثة كبيرة اصيب فيها الجيش الفرنسي بالصميم فقد كانت جثث الرجال من حملة ميشو منتشرة من عين المزرعة الى الطريق المعبدة غرباً ولا يقدر المرء ان يقطعها مشياً بأقل من ساعتين وخرب الدروز في هذه المعركة المصفحات الفرنسية وقتلوا سائقيها والغريب انهم كانوا يميلون المصفحة رأساً على عقب باكتافهم .

ولو كان للدروز خطة محكمة وواصلوا بعد معركة عين المزرعة زحفهم نحو العاصمة دمشق لاحتلوها ولطردوا سارايل ولكنهم مع الأسف سكروا بخمرة النصر واضاعوا فرصة فريدة في التاريخ لاجتناء ثمرة انتصارهم بعد ابادتهم حملة ميشو . وحاول سارايل بعد هـذه المعركة ان يصالح الدروز وان يضع معهم اسساً جديدة لطراز الحكم في الجبل وكاد ينجح لولا ان «الدماشقة» بعثوا برسلهم الى سلطان باشا يرجونه المساعدة ويضعون تحت امرته امكانياتهم كلهـا . وكان رسل الدماشقة للدروز السادة توفيق الحلبي واسعد البكري وزكي الدروبي وقد تكلم هؤلاء باسم الاحزاب السورية كلها وعلى الاخص حزب الشعب وقاوموا فكرة الصلح وعارضوها حتى قضوا عليها ورجعت الثورة الى لهيبها وقد امتدت من السويداء الى الغوطتين فحماه .

وذهب الزعيم عبد الرحمن الشهبندر الى جبل الدروز واجتمع الى سلطان باشا في قرية « كفر اللحى » في اواخر عام ١٩٢٥ فارتبط معـه قلباً وقالباً باشعال الثورة ومهاجمة دمشق واتفقا ان يسلما هذه المهمة الى القائد يحيى حياتي بك وكان من رأيه حشد خمسمائة فارس لتدخل المدينة من ثلاثة مداخل مختلفة ولكن حشود الجنرال غاملان على طول السكة الحديدية في حوران حالت دون اتمام هذه الخطة . ولم يبق امام الدروز «والدماشقة» الاّ مهاجمة حملة غاملان الجديدة .

●

معركة المسيفرة بعد معركة المزرعة

لا ريب في ان المعارك التي وقعت في جبل العرب اظهرت البطولة الدرزية بأجلى معانيها ولعلّ معركة « المسيفرة » وهي المعركة الثانية بعد معركة المزرعة كانت خير شاهد على ما نقول . وقد اهتم الثائرون بعد مداولات طويلة ان يهاجموا الجيش الفرنسي في قرية المسيفرة وكانت هذه القرية نقطـة التجمع لهذا الجيش وأصرّ على تنفيذ هـذه الخطة الثائر الشجاع محمد عز الدين الحلبي وكان يرمي من

ورائها محق القوات الفرنسية محقاً تاماً وعزلها عن الامدادات من دمشق فاجتمع من بني معروف عدد يناهز الخمسمائة لمهاجمة قوات فرنسية تزيد على الألفين وزحف الدروز قبـــل فجر السابع عشر من ايلول على المسيفرة الا ان الحرس الفرنسي استيقظ على بعض العيارات النارية التي أطلقها بعض المتطرفين من الشباب فأخذ في اطلاق الأسهم النارية في الفضـــاء لانارة الظلماء ومن ثم بدأت معركة رهيبة بالسلاح الابيض فاضطر الجند الفرنسي الى الانسحاب والالتجاء الى المتاريس التي أقامها داخل القرية . وأخذت الامدادات الفرنسية تفد على الجيش في المسيفرة فما كادت الشمس تشرق بانوارهـــا حتى كان قسم كبير من الدروز محاصرين في بيوت المسيفرة وكان الفرنسيون في متاريسهم تحميهم المصفحات . والمهم في هذا كله ان القوات الفرنسية رغم الامدادات التي كانت تصلها ورغم سلاحها الفتـــاك اخذت على غره فدب فيها الجزع ولكن الدروز شغلوا عنها باقتناء السلاح والبغال والخيل والغنائم .

وجاءت الطائرات الفرنسية تمطر الدروز وابلاً من القنـــابل فشتتت شملهم وتحصن قسم كبير منهم داخل بيوت القرية الى أن جنّ الليل فخرجوا يحملون ما كسبوه . وكان اشهرهم في الدفاع داخل القرية « حمزه الدرويش » وقد نال بذلك شهرة فائقة ذاعت بين الناس . ونفد السلاح من أيدي الثوار في المعركة الا انهم استعاضوا عنه بالسلاح الذي غنموه مـــن الجنود الفرنسية وأبلوا البلاء الحسن في القرية . والحقيقة التي يجب ان تسطر ان رجلاً كمحمد عز الدين الحلبي مع سبعة عشر فارساً من رجاله هاجموا الفرنسيين الذين كانوا يحاصرون الدروز المتقطعين داخل القرية وقتلوا منهم عـــدداً كبيراً من الجنود وهـــذا منتهى الشجاعة والتضحية . وقد خسر الدروز في معركة المسيفرة ما يقرب من مائتين من رجالهم .

وروى الدكتور عبد الرحمن الشهبندر عن البطولة الدرزية في معركة المسيفرة ما يذكرك بالبطولة العربية عند الفتح الاسلامي قال الدكتور ان في « رساس » اسرة تدعى بيت حمزه كان على ابنائها حماية العلم الذي يحمله المجاهدون من اهل

هذه القرية فلما نفر اهل رساس الى معركة المسيفرة نفر معهم رب هذا البيت من آل حمزه وهو شيخ كبير في نحو الثانين من عمره ومعه اولاده الاربعة وقـــد أخذ على نفسه اسقاء المجاهدين من قربتين حملهما على بعير لهذه الغاية واما اولاده فللدفاع عن علم رساس وحدث في الهجوم على الافرنسيين بالمسيفرة ان قتل الاول من الاولاد عند متاريسهم بالرصاص فحمل الثاني العلم وحلّ محل اخيـــه فقتل ايضاً فتقدم الأخ الثالث وابى ان يقهر علم رساس ويتراجع الرساسيون فاخترق الرصاص صدره وقلبه فخر صريعاً الى جانبها . وتقدم الرابع ولم يقتـل فتضرع رجال القرية ليبقى الى جانب والديه العجوزين وما زال يمشي ويحمل العلم حتى اصابه من بنادق الجيش الفرنسي ما اصاب اخوته . واما الشيخ الذي كان يسقي المجاهدين فرجع من المسيفرة وقد حمله اهل القرية على بعير وفي جسده شظايا من قنابل الطائرات وانحنت الزوجة على زوجها تقبله وتشجعه وتدعو الله ان يرجع اولادها ليخففوا عن ابيهم آلام جراحه ولكنها انتظرت الليل بطوله ولم يرجع احد من اولادها فعلمت ان التغيب في ايام الثورة والجلاد معنـــاه الموت المحقق فارتعشت واحست بهول الكارثة التي نزلت بالأسرة . وراحت الزوجة تقبـــل زوجها والزوج غائب عن وعيه حتى خارت قواها وماتت الى جانبـــه . قال الدكتور عبد الرحمن الشهبندر : «جاءني اهلها الى بيت متعب بك الاطرش شيخ القرية يستنجدون بي لاسعافها فذهبت معهم على الفور عليّ انجدها فبلغت الدار بعد عشر دقائق فوجدت ذراعها اليمنى تحت رأس زوجها الشيخ وكلاهما جثـــة هامدة لا حراك بها» .

آل حمزة الام والاب والاولاد مثل حي من امثال الاسرة العربية التي تموت فداء للدفاع عن كرامتها وشرفها ووطنها وقومها وأرضها . آل حمزة روحهم الشريفة منقوشة في قلوب الاجيال العربية التي تقدر معنى الاستقلال والسيادة ولو لم يكن لمعركة المسيفرة الا فضل المثل الاعلى الذي ضربه آل حمزه لكل العرب في الدنيا لكفى هذا الفضل يا معركة المسيفرة .

●

اقتحم الجنرال غاملان السويداء عاصمة الجبل عقب معركة المسيفرة وقد كانت معنويات الدروز اذ ذاك ضعيفة لدرجة انهم لم يطلقوا على الجند الفرنسي طلقاً واحداً . وانهارت معنويات الدروز من الدعاية الفرنسية التي صورت لهم ان الصلح مع فرنسا يؤمن لهم الاستقلال والدعة والرفاه فآمن بعضهم بهذه الدعاية ولكن الجنرال غاملان لم يبق في السويداء وخاف من عواقب قلة المياه فيها وكان يعتقد ان القائد الثائر يحيى حياتي بك قد دبر له الدخول الى السويداء بهذه السهولة ليحاصره ويفنيه مع جنده ويظهر ان الجنرال غاملان بعد اخلائه السويداء تقدم نحو صلخد وأراد ان يؤدب في طريقه بعض القرى فمشى بقوة عظيمة ومعها الدبابات والمصفحات والمدفعية فصمد له الدروز في المقرن القبلي « بالمجيمر » وفيها أبلى المجاهد سعيد العاص بلاءً عظيماً واظهر من الشجاعة ما بقي مثلاً يتردد في كل انحاء الجبل . وخسر الثائرون في هذه المعركة شاباً قلّ مثيله بين الشباب عنيت به نسيب الاطرش . وواصل الفرنسيون زحفهم فدخلوا قرية « عرى » ثم قرية « رساس » وعسكروا فيها ثم نسفوا بيوتها وقطعوا اشجارها بصورة تشمئز منها النفوس . ولما ظهرت بوادر الثورة في الغوطتين وحماه ورأى الجنرال غاملان أن الاخطار تحيق به من كل مكان بالجبل الدرزي انسحب منه نهائياً وقد بدأ هذا الانسحاب في التاسع من تشرين الاول عام ١٩٢٥ .

واذا كان لنا ان نسجل اسماء المجاهدين على لوحة الشرف التاريخية في معارك جبل الدروز ، فاننا لانقدر الا ان نذكر الامير حسن الاطرش ويوسف الاطرش وسعيد العاص وفؤاد سليم وصياح الجيود وحمد بك عامر وزيد الاطرش وحمزه الدرويش وفضل الله باشا هنيده وغيرهم من الذين بذلوا النفس والنفيس في سبيل الثورة .

وبينما كان الدروز في الجبل يبذلون جهد الجبابرة لاشعال نيران الجهاد قام شاب في حماه سيذكره التاريخ بكثير من الاعجاب يدبر مؤامرة لطرد فرنسا من

هذه المقاطعة السورية وهو فوزي القاوقجي وكان برتبة كابتن في الجيش الفرنسي وقد قرر فوزي بك ان يبدأ ثورته في الرابع من تشرين الاول عام ١٩٢٥ وقت العشاء . وكان فوزي بك طلب الى القومندان كوستيليه المستشاري الاداري لحماه ان يخرج لتفتيش البدو لئلا يغزوا القرى ويوقعوا بها . وكان فوزي بك على رأس مفرزة من الخيالة فذهب الى العشائر وجعل يبث فيهم روح الكفاح والجلاد ويطمّع مشايخهم ويعين لهم الرواتب والوظائف وفي الساعة المعينة للعمل هاجم جميع مخافر حماه وتسلم اسلحتها كما قبض على قوات الدرك والشرطة ثم سار الى دار الحكومة واعمل النار فيها وبعد معركة دامت حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل استولى عليها وقتل جميع حاميتها وخرج الفرسان الفرنسيون في الصباح من الثكنات المحيطة بالبلدة لملاقاة فوزي بك وجنده فردهم بعد معركة دامت ما يقرب من نصف ساعة امام «جسر السرايا» واستسلم له الكثيرون منهم مع رشاشاتهم ولكن الطائرات الفرنسية اسرعت لنجدة الجيش الفرنسي في حماه وبدأت تلقي قنابلها على المدينة ثم وصلت النجدات الى القوات الافرنسية المحصورة فاضطر فوزي بك الى الانسحاب من المدينة ليقوم بالثورة مع العشائر البدوية والحقيقة ان قوات فوزي بك اسقطت طائرتين قبل انسحابها من حماه وقدر الثقاة خسائر الجيش الفرنسي في هذه المعركة باربعمائة قتيل وجريح بينما كانت خسائر الثوار لا تتجاوز الخمسة وثلاثين قتيلا .

ولم يكن انسحاب فوزي بك نتيجة الضغط الذي لاقاه من كثرة النجدات التي وردت الى حماه فحسب بل كان ايضاً نتيجة محتومة لجبن بعض المتزعمين الذين لم ينضموا الى الثورة بل وقفوا على الحياد ولم يوفوا بعهودهم ووعودهم . وكان هؤلاء ينتظرون الساعة التي يكتب فيها الفوز لأحد الجانبين لينضموا اليه ويظهرون له اخلاصهم وولاءهم وكان شأنهم شأن الرجل الذي يقدم على عمل وهو غير مؤمن به . وهكذا دفع هؤلاء جميعاً ثمن جبنهم كثيراً من شممهم واموالهم وارواحهم لفرنسا .

وانسحب فوزي بك من حماه الى الشمال وحمل معه عشائر الموالي على مهاجمة

فرسان فرنسا في المعرة وبعد معركة دامت اربع ساعات غنم منهم ٣٥ رأساً من الخيل و٤٢ بندقيـــة وكان ذلك في ليل السابع من تشرين الاول عام ١٩٢٥ وخسرت القوات الفرنسية في المعرة ثلاثة من الضباط وسبعين جنديا ولم تخسر قوات فوزي بك سوى بدوي واحد .

وثبت لفوزي بك وغيره من القادة العسكريين ان البدو او رجال العشائر لا يصلحون للحرب الثابتة الجامدة التي تتطلب صبراً وجلداً ولذلك لا يعتمد عليهم في الملمات وهم يصلحون للهبات الموقتة او « لفش الخلق » كما تقول العامة . وعلى كل فقد أثمرت ثورة حماه ثمرها اليانع وجعلت غاملان ينكس اعلامه في جبل الدروز ويجزىء جيشه فيرسل بعضه الى حماه والغوطتين .

●

سارايل يمطر دمشق بالقنابل

لعب فوزي القاوقجي دوراً هاماً في جوار العاصي فحمل حملات صادقة على القوات الفرنسية في حماه وهذا ما حمل الثائرين وعلى رأسهم الشاب الشجاع حسن الخراط ان يقوموا بدورهم أيضاً باعظم المعارك في دمشق والغوطة . ولعل اول معركة ذاق فيها الفرنسيون طعم الذل في ضواحي العاصمة الاموية كانت معركة « الزور الاولى » فقد خرج من دمشق الى الغوطة فئة من الرجال يقودهم حسن الخراط وألفوا عصابة قوية كانت تستمد طعامها وعتادها من القرى القريبة وكان الفلاحون يبذلون لهم ما عندهم بسخاء وكرم . وأرسلت عليهم فرنسا قوات من الدرك والتحمت معهم في قرية « المليحة » وهي قرية خصبة يملكها آل الدالاتي ، وقد نمت فيها ليلة من الليالي فكانت النتيجة اندحار قوات الدرك باجمعها وأسر حسن الخراط جميع ضباطها وغنم كل ما يملكون من سلاح وخيول .

وعرف الوطنيون الثائرون أنه لن يكون لجهادهم الاثر المدوي في العالم الا اذا دخلوا دمشق واشتبكوا مع الجيوش الفرنسية في شوارعها وأزقتها وصارعوا

قواتها صراعاً نبيلاً تشهد لهم به الدنيا أنهم يطالبون باستقلال تام وسيادة كاملة وأنهم ليسوا كما صورهم البعض جماعات متعصبين يريدون تقتيل الاقلية ونهبها . ثم لو بقيت الثورة محصورة في الضواحي لاستطاعت فرنسا التظاهر باهمال هذه الثورة عن بكرة أبيها وإطفائها مع الزمن . ولهذا نعد اندلاع الثورة الى قلب دمشق انتصاراً هائلاً للديبلوماسية الوطنية العربية على الديبلوماسية الفرنسية في سورية ولو كلفت هذه الديبلوماسية «الدماشقة» بصورة خاصة الكثير من الدماء والاموال والآثار التي لا تعوض .

وقرر الزعماء أن تدخل قوات الثورة مدينة دمشق في الثامن عشر من شهر تشرين الاول عام ١٩٢٥ بعد أن خذلوا في دخولها بآب من السنة نفسها . ويقول الثقاة من الذين شهدوا الوقائع انه دخل دمشق من المرج «٢٠٠» مجاهد ، ومن الغوطة «١٠٠» مجاهد ومن دروز الجبل «١٠٠» مجاهد يقودهم نسيب البكري وانضم اليهم رجال الاحياء من أهل الشاغور وباب السلام بزعامة حسن الخراط وحسن المقبعة وغيرهما من الفدائيين. وظل الثائرون المجاهدون في دمشق أربعة أيام متوالية سحقوا فيها كل القوات الفرنسية المعتصمة في متاريس الشاغور والميدان وهربت الامر الفرنسية مع معظم الموظفين الفرنسيين الى القلعة واحتموا بابراجها ومدافعها .

وهنا فقد الجنرال سارايل توازنه وظن أن دمشق كلها ثائرة وأن الحكم في العاصمة الاموية أصبح بيد الاحياء ورجالها وأن الفرنسيين ملاقون مذبحة شائنة فاقر مع ضباطه الذين امتلأت رؤوسهم بالكبرياء العسكرية ضرب مدينة دمشق بالقنابل من سائر القلاع . ونفذ الجنرال المحموم بالغطرسة الفاشلة وعيده وأرسل مدافعه على المدينة الخالدة فأحرق الكثير من دورها ودمر أجمل قصورها الاثرية ولا ريب في أن دمشق فقدت ما يزيد على ستمائة دار من دورها وأشهرها دور بني الحلبوني والقوتلي وغيرهما ثم أعقب هذا الضرب بالمدفعية هجوم الجنود على الحوانيت والمخازن الطافحة بالبضائع والبيوت المتطرفة فقتلوا سكانها وحملوا أمتعتهم ورياشهم وأوانيهم. ويظهر أن سارايل أباح لجنوده أن يعملوا ما يشاؤون

في دمشق فاستباحوا الاعراض و كسروا أبواب القصور . ولكن الدمشقيين من الشباب استماتوا في الدفاع عن مدينتهم ، فكانوا ينكلون بكل جنـــدي فرنسي يرونه أو يقع بين أيديهم .

أراد الجنرال سارايل ان يتفقد ما فعلته النيران في آثـــار العاصمة الاموية فذهب لزيارة قصر آل العظم في البزورية وقـــد اتصل نبأ هذه الزيارة بالشاب المجاهد حسن المقبعة وبعض رجاله فتسللوا من احياء الشاغور حتى وصلوا القصر ولكن الحظ اباح للجنرال الخروج قبل ان يصلوا اليه لاختطافه ولم يجدوا في القصر إلا كتيبة من الجنود التحموا معها بالرصاص وكادت النيران تلتهم تحف القصر لولا ان المجاهدين انصرفوا للدفاع عنها بينما كان الجنود يطلقون الرصاص على كل من يرونه والمؤسف ان حسن المقبعة خرّ صريعاً على باب القصر بعد ان ابـــلى في الثورة بـــلاء لا تنساه الايام . وكان حسن المقبعة يرجو ان يختطف سارايل ويساوم عليه ولكن سارايل الذي يعرفه السوريون رجلاً عاثر الحظ منذ ان فكر بضرب دمشق كان لامع الحظ يوم أفلت من يـدي حسن المقبعة في قصر آل العظم .

وأراد الفرنسيون ان يظهروا الثورة الوطنية الاستقلالية بمظهر التعصب الديني فتركوا « باب توما » و « الباب الشرقي » وهما حيان مسيحيان خاليان من الجنود ليغروا الثوار بمهاجمتها حتى يملأوا الصحافة باخبار اعتـداء المسلمين على النصارى ولكن الاحياء المسيحية التي تخلت عنها فرنسا حافظت عليها الاحياء المسلمة لأن الوطنية السورية العربية كانت اعظم من ان تنال منها الطائفية المتعصبة . ولعل أعظم مثل على ما نقول ان حسن الخراط الرجل الأمي زار بنفسه الاحياء المسيحية وقال لاهلها كلمته الخالدة — انتم اخواننا — ثم ان القناصل الاجـانب في دمشق شهدوا ان فرنسا ضربت البلد الامين دون انـــذار وان الاحياء المسيحية كانت خالية من الجند للدفاع عنها وان الاحياء المسلمة هي التي حرستها من كل معتدأثيم .

ومهما يكن من امر فان دمشق تحملت مصابها بشجاعة رغم انهـا ظلت تحت رحمة القنابل من منتصف يوم الاحد الى مساء الثلاثاء ورغم انها خسرت في هـذه

الفترة خسارة مادية تقدر بثلاثة ملايين من الجنيهات .

ان هذه الخسارة المادية لا قيمة لها امام الفوز المعنوي الذي ربحتـــه دمشق وبرهنت للعالم انها تود الاستقلال ولو بذلت في سبيله ارواح ابنائها . ولما رأى الثائرون ان فرنسا مصممة ان تضرب المدينة بقنابل الطائرات دون تعيين انسحبوا الى الضواحي حفظاً على حياة النساء والاطفال .

•

معارك الغوطة الرهيبة

ألقت ثورة دمشق الرعب في قلوب الفرنسيين فانسحبوا من جبل الدروز مدة سبعة اشهر متوالية ارتاح خلالها بنو معروف وتمكنوا من جمع شملهم ثم الاشتراك مع «الدماشقة» والغوطتين في الجهاد . وكان القتال في الغوطة شديداً وقد بلغ عدد المعارك التي وقعت فيهـــا ما يقرب من خمسين معركة واشهرها معركة « الزور الثانية » . واسباب هـذه المعركة ان الجيش الفرنسي خرج من العاصمة الاموية لحصار حسن الخراط ورجاله في الزور قرب قرية المليحة وكان عددهم يقرب من تسعين مجاهداً وكانت الطائرات الفرنسية تكتشف مواقع المجاهدين وتخابر قوات الجيش بملاحقة فرسان حسن الخراط وسعيد العاص ولكن المجاهدين صادموا هذه القوات قرب الغروب حتى نفذ عتادهم واضطروا الى الانسحاب وخسرت القوات الفرنسية في هذه المعركة عدداً من القتلى والجرحى ملأ اربعة عشر سيارة .

ولا ريب في ان لولب الدفاع عن الغوطة كان رجلاً من العامة يتحلى بكل ما يتحلى به الشهم من مروءة ونجدة وشرف واباء وايمان بالله والوطن . وكان هـذا الرجل فتى من فتيان دمشق الذين يسمونهم بالقبضايات . أما اسمه فيذكر كلما ذكرت ثورة ١٩٢٥ في سورية وهل للمؤرخ ان ينسى حسن الخراط ودفاعـــه عن احياء دمشق والغوطة اذا درس صفحات الثورة دراسة علمية عميقة صحيحة ؟ ولم يكن حسن الخراط من القبضايات الذين يتناولون المعاشات او الجوائز ليسيروا

في ركاب الحاكمين او الذين يتمون بالتهريب وسفك الدماء التي حرم الله سفكها لقاء اموال يتقاضونها. ولم يكن ليؤجر نفسه ليطلق الرصاص تأييداً لفلان او لفليتان من اصحاب النفوذ بل كان يدافع عن بلده واعراض بلده وشرف بلده « كما يقول » بلغته الخاصة لأن حال الذل والتحدي لم تعد لتطلب من الرجل الشريف القعود والتزام البيوت .

وحسن الخراط شاب في الخمسين من عمره أمضى الشطر الاكبر من حياتـه حارساً في الاسواق او ناطوراً في البساتين وكان كريماً مضيافاً حتى لو تناول تفاحة لعض" منها عضة واعطى البقية منها لرجاله وفرقها على اخوانه فالتفت حوله جماعته وفدته بالمهج والارواح ثم كان في الوقت نفسه بطاشاً لا يرحم خائناً ويذكر الكثيرون ان حسن الخراط علق بنفسه بعض الخونة على ابواب دمشق ابان الثورة . وذكر لي الذين يعرفونه انه كان ربعة في القامة ذا وجه مستطيل وجبهة بارزة وعينين شهلاوين تلمعان ورأس اصلع وكان خفيف الحركة يركض كالغزال وكان دائماً يلبس القنباز وفوقه العباء ويعتم بالعمة الغبانية . وكان حسن الخراط امياً الا انه كان يحفظ بعض آيات الكتاب الكريم التي يرددها في صلاته .

وامتاز حسن الخراط بقوة التنظيم والقيادة فاذا أمر اصحابه أمراً وجب تنفيذه وكان جميع رجاله يطيعونه اطاعة عمياء ولذا رأيناه ناجحاً ظافراً في معارك الزور الاولى والزور الثانية والنبك ومدينة دمشق والغريب انه كان مغامراً من الدرجة الاولى فلم يحتم بمتراس او شجرة بل كان يحارب اعداءه عن بعد مائة متر ويصرخ دائماً : « لا تفتشوا عني في بيوت الشام بل امام استحكاماتكم .. انا حسن الخراط .. » ولعل الشجاعة التي اظهرها حسن الخراط في مهاجمته لمعمل الزجاج في دمشق لا تنسى فانه مزق القوات الفرنسية فيه واخذ كل ما يملكونه من سلاح وعتاد فرقها على رجاله وظلت بايديهم اشهراً طويلة . وجرح حسن الخراط في معركة الزور الثانية (١٨ تشرين الاول عام ١٩٢٥) وقضى نحبه غـدراً فقد قتله اثنان من الشراكسة في وقعة يلدة في الحادي والعشرين من كانون الاول عام ١٩٢٥ .

وحاول الفرنسيون ان يشتروا حسن الخراط وامثاله من المجاهدين واغراءهم

بالمال الكثير فلم يفلحوا لأن حسن الخراط وأمثاله من الرجال كانوا يعتقدون انهم يدافعون عن بيوتهم واعراضهم واطفالهم تجاه عدو غاشم لا يرحم . ولمـــا فشل الفرنسيون ان يستجلبوا الى جانبهم اصحاب الايمان اشتروا بفلوسهم بعض الخونة امثال « سليم المفتي » وغيره من المأجورين ولهذا اضطر المجاهدون ان يحاربوا على جبهتين : جبهة الخونة وجبهة الفرنسيين وكانوا دوماً يتخذون خطة الدفاع امام هجمات العدو الذي اسس المخافر الثابتة تأييداً لهجومه المتكرر . وكان المجاهدون يحاولون مراراً عديدة تطويق القوات الفرنسية ليحولوا بينها وبين نقلياتها وذخائرها ويكرهوها على الانسحاب فنجحوا في بعض محاولاتهم نجاحاً باهراً .

ولعل اكبر معركة وقعت بعد ضرب دمشق بالقنابل كانت معركة « يـــلدة وببيلا » وخلاصتها ان السيد نزيه المؤيد العظم ذهب بخمسين فارساً لقتل الخائن سليم المفتي ورجاله . ولما وصل الى الميدان رأى الجيوش الفرنسية فاستدرجها بالانسحاب الى ببيلا حيث اسعفته قوات متعب الاطرش وعـــلي الاطرش وسعيد العاص وعبد القادر آغا سكر واشتد القتال بين المجاهدين والفرنسيين حتى اصبح الصراع مع العدو بالقنابل اليدوية والسلاح الابيض ودامت الملحمة من الصباح الى المساء واسفرت عن هزيمة الجيش الفرنسي هزيمة نكراء . وقد تعقب سعيد العاص القوات الفرنسية حتى القشلة العزيزية بالميدان ويقول بعضهم ان عدد القتلى والجرحى من الفرنسيين بلغ ما يزيد على الستمائة . ولم يتوقف القتال حتى بدأت الطائرات تلقي قنابلها والمدافع الضخمة مقذوفاتها حتى خيم الليل على المدينة المنهوكة .

هذه امثلة عن الدفاع الباهر التي كتبها المجاهدون بدمائهم على تربة الوطن لا فرق بين القبضاي منهم كحسن الخراط او خريج المدارس الحربية المتعلم . انهم كلهم كانوا يعملون للوطن لا لأنفسهم ولا لكسب قد يزول او نعمة قد تبلى . اما الخونة كسليم المفتي ومأجوريه فقد رذلتهم فرنسا كما رذلهم الوطن .

•

كانت الثورة بعيدة عن التعصب الديني

طاش سهم الفرنسيين حينما رأوا الثورة تندلع وتقوى فأكثروا من اقتراف الجرائم التي لا مبرر لها واعتدوا على الاعراض وقتلوا الفلاحين العزل من السلاح وقد جن جنون الفرنسيين في « معركة حمورة » التي وقعت في السابع عشر من كانون الاول عام ١٩٢٥ فانهم لم يتورعوا أن يحرقوا أكوام القنب بما فيها من النساء والاطفال ثم راحوا يهدمون البيوت على رؤوس أصحابها . ولم يقصد المجاهدون أن يدخلوا مع الجيش الفرنسي في معركة حامية بحمورة ولكنهم التقوا به وهم قادمون لاغاثة قرية جوبر من القوات التي أحاطت بها فكانت هذه المعركة التي حمل لواءها نزيه المؤيد العظم وسعيد العاص ومنير الريس وغيرهم من الرجال وقد خسر أهل حمورة الكثير من شبابهم ونسائهم وأطفالهم ولكن فرنسا أيضاً تركت في تربتها ما ينيف على اثنين وستين قتيلاً .

وانسحب الثائرون من مناطق الغوطة بعد معركة حمورة الى جبل الدروز والنبك ولم يبق فيها الا أقلية اخذت على نفسها مهاجمة الخطوط الحديدية كخط شام – درعا وخط شام – بيروت وإزعاج الفرنسيين في نقلياتهم .

وقرر زعماء الثورة الكبار أمثال سعيد العاص وفوزي القاوقجي وغيرهم أن يتخذوا النبك مركزاً لاعمالهم لان مثل هذا المركز إذا فاز في الاعمال الحربية اشتد ساعده وتناول منطقتي حمص وحماه بالتهديد الدائم . ولهذا قررت قيادة الجيوش الفرنسية أن تجهز حملة كبيرة بقيادة الجنرال « مارتي » الذي اشتهر بين أترابه بالحروب الجبلية تتألف من أربعة آلاف جندي من المشاة والفي جندي من الفرسان وكتيبة من المصفحات وسبعين رشاشاً لخنق الثورة في مهدها في جبل القلمون . وقرر الثائرون ان يجمعوا صفوفهم فكانوا نحواً من ثمانمائة مجاهد وان يدافعوا عن النبك اولاً في جهات « قاره » شمالاً ثم في « مضيق عين العلق » وقد تم لهم ما ارادوا لكن قوات الجيش الفرنسي اضطرتهم الى الانسحاب وبدأت المعركة في ضحى الرابع عشر من آذار عام ١٩٢٦ ولم تنته الا بعد العصر لأن

الثائرين نفد منهم عتادهم . وكان الثائرون في معركة النبك مثالاً للنظام والبسالة . ولا ريب في ان خسائر فرنسا في معركة النبك كانت زهاء اربعمائة قتيل فرنسي .

واذا كان لنا من كلمة نقولها في معركة النبك فهي ان سكان هذه المدينة كانوا يحاربون عن كل شبر من بلدهم وعن اعراضهم المهددة .

وبينما كانت الجيوش الفرنسية تحارب في الغوطة والقلمون جموع الثائرين كانت منطقة حاصبيا تشتعل بالنيران فقد نزلت بها العصابات الدرزية وعلى رأسها صباح الحمود وزيد الاطرش وفضل الله الاطرش وحمزه الدرويش وعلي عامر واسعد كنج وشكيب وهاب وفؤاد سليم والامير حسن الاطرش ونزيه المؤيد العظم واحتلت اقليم البلان واتخذت قصبة المجدل مركزاً لها . وبدأت المعارك في هذه المناطق في اوائل تشرين الثاني عام ١٩٢٥ حتى اواخر كانون الثاني عام ١٩٢٦ . وادعى زعماء الثوار انهم قدموا لهذه المنطقة لحماية الاهلين من تعديات الجيش ولمفاوضة الأمير محمود الفاعور بالانضمام للثورة . والغريب ان الثائرين احتلوا حاصبيا دون ان يطلقوا رصاصة واحدة لأن قائد الحامية الفرنسية فيها شعر بضعف قواته فعرض امره على الشيخ حسين قيس كبير شيوخ البياضة راجياً منه ان يتوسط بينه وبين الثائرين وينجيه مع حاميته من الهلاك فلبى الشيخ طلبه وارسله مع القوة التي كان يقودها للنبطية ودخل الثائرون حاصبيا بين زغردة النساء واناشيد الرجال .

وانضمت جموع القرى الى الثائرين فكبر نفوذهم وامتد سلطانهم . واخاف فرنسا جديدة مرجعيون فجاء وفد من اهليها المسلمين والمسيحيين يعرض خضوعه ويطلب الى قادة الثورة ان يحتلوا بلدتهم . فسار الثائرون وعددهم بضعة آلاف لاحتلالها الا ان القائد حمزة الدرويش وصل في زحفه الى مفرق الطريق الموصلة الى قرية « كوكبة » فاعترضه وفد من سكان هذه القرية وعلى رأسه كاهن القرية ودعاه الى تناول الطعام معه . وكان اهل قرية كوكبة حزبين حزب موال للسلطة الافرنسية وقد امدته بالمال والسلاح وطلبت اليه ان يقاوم الثورة وقسم

موال للثورة وعلى رأسه الكاهن الذي ذكرنا . وما كاد حمزه الدرويش يصل الى القرية حتى قابله حزب كوكبة الفرنسي بالرصاص فقتل ثلاثة من رجال الثورة فارسل حمزه الدرويش يقول لهذا الحزب اننا ما اتينا لمحاربة كوكبة ولا سكانها وانما اتينا لمحاربة الجيش الفرنسي واننا نعتبر هؤلاء القتلى فداء عن الوطن فلم يسمعوا له ولم يلبوا طلبه فهاجم الثوار القرية وغدت بعد نصف ساعة اثراً بعد عين . وهكذا خلقت معركة كوكبة للثوار معضلة لاسيما وسكانها جميعاً من المسيحيين فقامت الصحافة اللبنانية تلبس الثورة والثائرين ثوباً ذمياً من التعصب وتلقي عليها مسؤولية الدمار الذي احاق بالبلدة الآمنة المطمئنة . والحق ان قسما لا يستهان به من أهالي كوكبة كان وطنياً لاسيما كاهنها الا ان فرنسا التي سلحت بعضهم هي المسؤولة في الدرجة الاولى عن مجزرة كوكبة وعما اصاب سكانها من الموت ودورها من الخراب . وظلت بعض الصحافة اللبنانية التي كانت تغذيها الاموال الفرنسية تكبر من شأن كوكبة ومن الفظائع التي حلت بكوكبة حسب زعمها حتى كادت تخلق حرباً دينية بين الاخوان في الوطن الواحد .

●

قصة ألمعة راشيا

أزمع رجال الثورة على احتلال جديدة مرجعيون لولا خطر شديد أحسوا به وكان الدافع الاكبر اليه الفرنسيون انفسهم وهذا الخطر هو الباس الثورة المقدسة لباس التعصب الذميم وصبغها بصبغة الطائفية التي كان يكرهها الوطنيون ويسعون للقضاء عليها فقد ارسل شاب متفرنس اسمه « بطرس كرم » — جاءت به القوات الفرنسية لمرجعيون على رأس عصابة من المأجورين الذين يكرهون الاستقلال ويخافون السيادة ويخشون العروبة على اطلاقها — كتاباً الى قيادة الثورة ملأه وعيداً وتهديداً وشتائم وحشاه لوناً ذمياً من الوان الطائفية البغيضة فكتبت اليه القيادة تقول ان ثورتها وطنية وان المسيحيين وغير المسيحيين هم في

ذمة المبادىء الشريفة للثورة وان هذه الحركة ليست دينية ولا ترغب في قتال النصارى كما تصور بطرس كرم ومن كان وراء بطرس كرم من الفرنسيين والمتفرنسين . ولهذا انصرفت قيادة الثورة عن احتلال جديدة مرجعيون ورجعت جموعها من « ابل السقي » الى حاصبيا لئلا تصبغ الحركة الثورية بصبغة بشعة لم يردها لها الوطنيون .

والمؤسف ان بطرس كرم توهم ان الثوار يخشون بأسه فأرسل عصابته الى « قرية برغز » ليحرقها فكمن لها شكيب وهاب وقبض على بعضها وسلب سلاح رجالها ثم افهمهم ان الثورة لا تريد شراً بالمسيحيين وانما تحارب الفرنسيين وتقاتلهم اينما وجدتهم واطلق سراحهم ولكن بطرس كرم لم يرجع عن غيه واصرّ على الالتحام بالثوار فهاجمه شكيب وهاب ورجاله فلم يصمد امامهم بل هرب الى جديدة مرجعيون وانضم الى الحامية الفرنسية ودار بين هذه الحامية والثوار معركة دامت سبع ساعات انتهت بانخذالها وهروبها الى صيدا .

ومنذ ان تمركز الثوار في حاصبيا أبت راشيا ان تظل خاضعة للسلطات الفرنسية فقام سكانها واشتبكوا مع حاميتها بقتال عنيف وقد أسعف اهل راشيا القادة حمزه الدرويش وتوبه المؤيد وأسد الاطرش فاضطرت الحامية ان تتحصن في قلعة آل شهاب ومعها قسم كبير من مسيحيي راشيا . وقد احتلت جموع الثوار راشيا وقابلتها الحامية المحصورة في القلعة بالرصاص ودام حصار القلعة بضعة ايام الا ان القيادة قررت في النهاية ان تقسم قواتها الى اربع فرق وتشدد الحصار عليها . وكانت الجيوش الفرنسية قد أقامت في جميع نوافذها وسطوحها استحكامات من الأسمنت المسلح والاكياس الرملية وراح الجنود الفرنسيون المتحصنون في القلعة يقذفون الثوار بالقنابل وبالرصاص من بنادقهم ورشاشاتهم وقابلهم الثائرون بالمثل الا انهم ادركوا حالاً ان ذخيرتهم تذهب عبثاً امام الاستحكامات الحصينة فقرّ الرأي في النهاية ان يهاجم الثائرون القلعة والاسلاك الشائكة الممتدة حولها الى مسافة عشرة امتار . وعهدت القيادة الوطنية الى المجاهد توبه المؤيد العظم بتنفيذ العمل فباشر خطته بفتح طريق من داخل المنازل

المحيطة بالقلعة من الجهة الغربية الجنوبية حتى وجد نفسه مع قواته امام الأسلاك الشائكة . قال نزيه المؤيد العظم : « عملنا كل الليل وعندما اصبح الصباح وجدنا انفسنا امام الاسلاك الشائكة وقد وصلناها كأننا ضمن نفق فلا يمكن للجنود القائمين على حراسة جدرانها رؤيتنا الا حينما نخرج الى دائرة الاسلاك الشائكة .. وفتحنا في بعض جدران المنازل رمايات اي ثقوب ووقف خلفهـــا رهط من رجالنا بقيادة اسد بك الاطرش واخذوا يطلقون النار على الجنـــد القائمين على حراسة الجدار الذي اصبحنا تحته الى ان اكرهوهم على الجلاء عنه ولكنهم ادركوا خطتنا واخذوا يرموننا بالقذائف اليدوية وقد قتل وجرح من هذه القذائف عدة اشخاص من اخواني المجاهدين ... اقتلعنا الأسلاك الشائكة تحت نار القذائف وجلبنا سلمين طويلين شددنا الواحد منهما الى الآخر وطرحناهما على جدار القلعة ويبلغ علو هذا الجدار نحو خمسة عشر متراً وصعدنا عليهما الواحد منا خلف الآخر وكان في مقدمة الصاعدين احد ابناء الجربوع من دروز السويداء الذي ما كاد يصل الى اعلى الحائط ويتسلقه للاستحكام حتى اتته رصاصة اردته قتيلاً فتبعه في الصعود غيره من المجاهدين فسقطوا صرعى الى ان جاء دوري فأخذت قذيفـــة يدوية والقيتها الى خلف الاستحكام والحقتها بثانية وثالثة فانفجرت كلها وتعالى صراخ السنغاليين فصعدت فوق الجدار ودخلت الاستحكام وتبعني ابطالنا واخذنا نطلق نيران بنادقنا بشدة على الاعداء فارتبكوا وصاروا يفرون ثم احرقنـــا بالبترول سقوف الغرف فالتهمتها النيران ووجد اخواننا المجاهدون الذين كانوا عنـــد اسفل السلم ممراً ضيقاً في جانب الجدار مغطى ببعض الاحجار فاقتلعوها ودخلوا منه الى القلعة كالسيل العرم وهم ينادون « الله اكبر الله اكبر » ودخل المجاهدون كلهم القلعة بقيادة شكيب وهاب وحمزه الدرويش وأغلبهم من شجعان الشام وابطال المجـــدل واستغاث الفرنسيون باطلاق الصواريخ ذات الانوار الحمراء الساطعة » .

وعفا الثائرون عن بعض القناصة اللبنانيين الذين كانوا يدافعون عن القلعـة مع الفرنسيين وغنموا كثيراً من الاسلحة والذخائر والمهم ان الثورة كانت نبيلة

في مبادئها فلم تمس احداً من المسيحيين بسوء واطلقت سراح كل من كان محصوراً منهم في القلعة . وجاءت النجدات الفرنسية وكلها مجهزة بالدبابات والمصفحات والمدافع السريعة الطلقات وحلقت اسراب الطائرات فوق راشيا والقت قنابلها على الثائرين فاضطروا الى الانسحاب من راشيا والاعتصام بالجبال ودخل الجند الفرنسي راشيا وقتل كل من وجدوه من زعماء القرية ورجالها .

هذه قصة القلعة في راشيا ابان الثورة السورية ولهذه القلعة قصة أخرى في تدعيم الاستقلال اللبناني قد يسجلها غيرنا من الذين قد يدرسونها دراسة صحيحة بعيدة عن النزعات والمؤثرات .

•

المجاهد فؤاد سليم وجه صادق للثورة

كان يقود الثورة في الجبل والنبك وعلى ضفاف بردى والعاصي وفي سهول راشيا وحاصبيا رجال كبار صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وكان رأسهم المفكر في معارك الاقليم المجاهد المغفور له فؤاد سليم ، فقد استطاع هذا الشاب ان يلتحق بالثورة متطوعاً في اواسط ايلول عام ١٩٢٥ ، وقد اقتحم صحراء التيه وفلسطين وشرقي الاردن من مصر رغم حرص الانجليز والفرنسيين وعيونهم على منع المتطوعين من القدوم الى السويداء . والمهم في هذا الثائر الفذ انه لم يحرص ان يكون زعيما بل كان حريصاً على ان يكون اداة منفذة لرؤسائه يذوب في طاعتهم وكان فؤاد سليم بطل الدعاية في راشيا وحاصبيا ومرجعيون وهو صاحب الرسائل الوطنية البليغة التي كان ينشرها باسم القيادة العامة بعنوان – الدين لله والوطن للجميع – وحسبنا ان نسجل ان فؤاد سليم كان يمثل هذه الحفنة من الرجال التي كانت تنعم بعقول راجحة وشجاعة نادرة واخلاص مجسم والتي كانت تندفع اندفاعاً غريباً نحو الموت في سبيل مثالها الاعلى الاوهو تحرير الوطن من الاستعمار والانتداب اللذين فرضهما الاجانب . ومات فؤاد سليم مستشهداً بجوار مجدل شمس

وافاه أجله من قنبلة اصابته عرضاً رحمه الله عدد حسناته .

وحينما انسحب الفرنسيون من الجبل وخافوا مغبة الحوادث في الغوطة ودمشق وحمص وحماه وراشيا راحوا يتحدثون بالسنة دعاتهم عن السلام وقام دي جوفنيل يمني الدروز والشاميين بالاماني الطيبة واثرت دعوته اثرها حتى ان بعض الزعماء الكبار في الجبل انتدبوا الشيخ اسماعيل عبد الدين من اهالي السويداء ليحمل شروطهم الى الكومندان كوستيليه في درعا فما كان من كوستيليه الا ان عامل مندوبهم معاملة سيئة وقال له بصراحة تامة وجفاء ما بعده جفاء انـه لا يعترف بالزعامات الدرزية في الجبل وان على الكبار ان يطيعوا فرنسا اطاعة تامة وان يعيدوا جميع الأساحة التي غنموها وان يعيدوا اثمان الخيول التي باعوهـا لعرب شرقي الاردن وان يشيدوا القلعة في السويداء وسائر عمارات الحكومة التي اصابها الخراب وان تأتوا كلكم ايها الدروز خاضعين وان تسلموا ذخائركم واسلحتكم جميعها وان تطردوا الدكتور عبد الرحمن الشهبندر اصل البلاء والفساد في الجبل او تقبضوا عليه ثم أشار كوستيليه للمندوب ان يجتمع الدروز للمذاكرة شرط ان يضعوا علامة الخضوع على صدورهم وان يوقعوا صك التسليم كلهم لأن فرنسا لا تعترف بزعامة احد مهما كان مركزه ومقامه في جبل الدروز وفي نهاية الاجتماع التفت كوستيليه الى الشيخ اسماعيل عبد الدين وقال له : ولا بد مـن استدعاء جميع العصابات الدرزية التي تعبث بالامن خارج الجبل وانني لا اضمن العفو عـن اي واحد منكم » .

وكان بعض الزعماء من الدروز قد ملوا الحرب وتعبوا مـن احوال البؤس والفقر والخراب التي اصابت الجبل الدرزي بصورة خاصة وكان بامكان كوستيليه لو كان ديبلوماسياً حاذقاً ان ينال منهم مآربـه ولكن حديثه الفظ الخالي من الحنكة واللياقة جعل الكبار منهم يقسمون مجدداً عـلى متابعة الثورة وحرق بيوت الزعماء الذين قد يوالون فرنسا . ان هذه الخطيئة التي ارتكبها كوستيليه ممثل الطغيان العسكري في سورية هي كالخطيئة التي ادت الى امتنـاع الجنرال سارايل عن الاجتماع الى كبار الدروز يوم ارادوا ان يبثوا شكواهم اليه وهكذا

جرت فرنسا الى حرب كانت في غنى عنها . ولا بد لنا من ان نشير هنا الى ان العامل المؤثر في التصلب الفرنسي لكبح الثورة كان العسكريون امثال اندريا وغاملان وغيرهما فكان هؤلاء يعتقدون ان شرف فرنسا العسكري في الميزان وان عليهما ان يحافظا على هذا الشرف مهما كان الثمن .

واجتمع زعماء الثورة في السويداء في الثامن عشر من كانون الثاني سنة ١٩٢٦ وذلك بعد ان رفض كوستيليه مطالب الدروز ، واحب ان يفرض ارادته عليهم واقروا احتلال اللجاة وحوران لأن هذا الاحتلال اذا كتب له النجاح يريح الغوطة ويخفف الوطأة عن سائر المناطق الشمالية .

وفي السادس والعشرين من شهر شباط عام ١٩٢٦ قام المجاهدون الى اب اللجاة في حوران فاحتلوا من غير مقاومة قرية جدل وسائر قراه واهتمت القيادة الفرنسية لسقوط اللجاة لأنه يجعل اتصالها بقلعة بصرى الشام ودرعا مهدداً واعتمد الثوار على خنق الفوضى من صفوفهم فكتبوا عهداً امضاه كبار المشايخ وبه يقسمون ان يتحدوا على ١ - الامتناع عن الشر وعلى اتيان الخير . ٢ - وعلى التبرؤ من كل من يراسل العدو او يقابله . ٣ - وعلى تأديب من تثبت عليه الشبهة وهدر دمه . ٤ - وعلى التآخي التام والتعاون في الداخل والخارج . ٥ - وتنفيذ هذا العهد منوط بفتيان الوطن الغيورين .

ولولا هذا العهد وشهامة الفتيان الغيورين الذين قاموا بتنفيذه لتمكن كوستيليه من اغتيال الدكتور عبد الرحمن الشهبندر فانه تآمر مع بعض الخونة على قتل رجل الثورة النشيط لقاء مبلغ لا يقل عن خمسة آلاف عثمانية ذهبية . ولكن الشباب الدرزي كان يقدر مواهب الزعيم الدمشقي ويحافظ عليه في كل خطوة كان يخطوها في قرى الجبل فلم يمكن الخونة من الوصول اليه . والمؤسف ان كثيراً من متطوعة الشركس كانت حرباً عواناً على الثورة ورجالها فكانوا يخدمون المستعمرين لقاء معاشات يتناولونها منهم . وكانت بعض القبائل البدوية المشتراة بالذهب الفرنسي تغزو بيوت العرب من رعيان الدروز ومع ذلك فقد ثبتت رايات الثورة في حوران واللجاة .

بعض الحكام من العرب يستغلون نفوذهم

انصرف كثير من ساسة العرب في العراق وسورية ولبنان ومصر وغيرها الى استغلال نفوذهم في عهدي الانتداب والاستقلال حتى انه لم يكن لهم من هم الا جمع الثروات بشتى الاساليب وقد كان بعضهم يشارك الشركات الاجنبية والوطنية والتجار والزراع في الارباح لعلهم يثرون على حساب الشعوب العربية ثراء سريعاً وكان من جراء ذلك ان انتشرت الفوضى والرشوة في دواوين الحكومات العربية وبين معظم اصحاب المناصب ونوه الصحفيون ورجال الاقلام الحرة واعضاء المجالس النيابية وحملوا حملات صادقة على هذه الحال المؤسفة مما ادى الى تدخل العسكريين في الحكم والقيام بانقلابات في العراق وسورية ولا تزال بلاد الشام تئن من وطأة التدخل العسكري في كل صغيرة وكبيرة حتى هذا التاريخ .

ولعل اول انقلاب عسكري عرفته البلاد العربية كان انقلاب بكر صدقي في العراق فان المعارضة سئمت الاحكام العرفية التي كانت تعيش في ظلها وسئم الاهلون الثورات المتوالية التي كانت تتخبط بها بلاد الرافدين ثم سئم كبار الضباط ان يسوقوا وحدات الجيش في قمع الفتن فاتفق بعض القادة مع بعض كبار الساسة على اسقاط الوزارة التي يرأسها ياسين الهاشمي بالقوة وكان قسم من وزراء الهاشمي يشجع هذه الحركة في الخفاء فما كاد يبزغ فجر التاسع والعشرين من شهر تشرين الاول عام ١٩٣٦ الا وكان الفريق بكر صدقي قائد الفرقة الثانية يزحف بقواته على بغداد من لواء ديالى ثم كان زميله الفريق عبد اللطيف نوري قائد الفرقة الاولى يحمي مؤخرته . واراد جعفر العسكري ان يحول دون دخول الجيش الى بغداد وكان يشغل وزارة الدفاع فلقي حتفه وكان يحمل رسالة من المغفور له الملك غازي الى الفريق بكر صدقي وبها كان صاحب الجلالة الملك غازي يأمر بايقاف الجيش عن دخول بغداد لئلا تتسرب الفوضى الى صفوف الاهلين ويقوم نزاع بين الاحزاب لا يعرف منتهاه . وهذه هي الرسالة التاريخية :

عزيزي بكر صدقي :

تتسلمون هذا الكتاب من يد جعفر العسكري الذي سيلاقيكم بصورة خصوصية لاجل بحث الموقف . لقد بلغني الآن ان بعض الطيارات القت ثلاث قنابل فاستغربت جداً لهذا الحادث الجديد بعد ان سبق لي ان اخبرتكم تلفونياً بلزوم ايقاف كل حركة بينما اتدبر الوضع الحاضر . ان كل حركة اخرى سوف لا تخلو من ان تؤثر اسوأ الاثر على مستقبل البلاد وسمعة الجيش اذ ليس من حاجة البتة لشيء من ذلك وسوف تفهمون التفاصيل من جعفر

٢٩ تشرين الاول ١٩٣٦ القائد العام

غازي

ولما تم للجيش دخول بغداد قدّم الفريقان بكر صدقي وعبد اللطيف نوري طلباً الى الملك بوجوب اقالة الوزارة الهاشمية والا اضطرا الى تحقيق ذلك بالقوة ثم تعيين وزارة من ابناء الشعب المخلصين برئاسة السيد حكمت سليمان في خلال ثلاث ساعات فما كان من الملك الا ان امر ياسين الهاشمي بالاستقالة والخروج من بغداد فجاء الى بيروت وقد اجتمعنا به ولاقى وجه ربه في بلدتنا اثر مرض الم به ودفن بدمشق بجوار بطل الحروب الصليبية صلاح الدين . وكان اول عمل قامت به هذه الوزارة احالة رئيس اركان الجيش العراقي العميد الركن طه الهاشمي الى التقاعد واسناد منصب رئاسة اركان الجيش هذه الى الفريق بكر صدقي ثم وجه رئيس الوزراء حكمة سليمان رسالة الى الشعب العراقي شكر بها رئاسة اركان الجيش الباسل والتفاف الشعب حولها ورأى ان يرجع كل مواطن الى اعماله سواء اكانت تجارية او صناعية او زراعية .

واتهم رجال الانقلاب حكومة ياسين الهاشمي بانها كانت حكومة طاغية تجاوزت حدود الحكام المستبدين واستهانت بالدماء التي اهرقت وتفننت في اضطهادها للحريات فخنقت الصحافة الحرة ولاحقت الشباب المفكر وملأت السجون بهم لأقل شبهة ثم كانت حكومة المحسوبين والمنسوبين اليها . وقد كانت لا تأبه الا للمصالح الشخصية والمنافع الذاتية والمهم في رأي رجال الانقلاب ان الحكومة

الهاشمية تركت الخزينة في عوز وعرضت بكثير من المشاريع الوطنية الى الخطر والافلاس .

ونادت حكومة الانقلاب انها ستكفل الطمأنينة لجميع ابناء الشعب وانها ستحفظ هيبة القانون وتطبقه على الكبير والصغير وانها ستسهر على أرواح الناس وحرياتهم واموالهم ومعابدهم وشعائرهم الدينية وهي لا تفرق بين الاديان والمذاهب واعلنت انها تعتزم توزيع الاراضي الاميرية غير المملوكة وغير المزروعة على طبقات الشعب كما تتطلبه المصلحة العامة وتقوي الروح الثقافية والعلمية التي تكفل الوحدة الوطنية وتقضي على النزعات والفوارق العنصرية . وقالت حكومة الانقلاب انها سترمي الى تعزيز روح التآزر بين العراق وبريطانيا العظمى وستؤمن أقصى الفوائد المالية والاقتصادية والعسكرية من المعاهدة العراقية البريطانية وانها ستحكم أواصر الصداقة والتعاون مع الجمهورية التركية وايران .

واما في الشؤون الداخلية فقالت انها ستسند الوظائف الى الشباب المتعلم النزيه وانها ستحسم كافة المنازعات بين العشائر وتعمل على اسكان العشائر الرحل وتزيد عدد المستشفيات والمؤسسات الصحية وتكافح الامراض التي تهدد حياة الامة وأخصها الامراض الزهرية والملاريا والانكلستوما وتصلح الادارة المالية فتجبي واردات الحكومة وتنجز حساباتها باقل كلفة ممكنة وبوسائل تمنع التذمر والشكاوى وتعديل قوانين الضرائب وبالاخص ضريبة الدخل لتلائم روح العدالة الاجتماعية واتخاذ التدابير لموازنة الصادرات مع الواردات وتأسيس معامل للغزل والنسيج ووضع اسس قوية للنهوض بالجيش وعلى الاخص القوة الجوية وتسليحها بالسلاح الحديث لتأمين حاجات الدفاع الوطني وتعزيز روح الجندية بين سائر طبقات الامة ثم الاهتمام بالمشاريع المنتجة التي تزيد الثروة العامة كمشاريع الري وتعبيد الطرق الرئيسية وإنشاء الجسور المهمة وهدفت حكومة الانقلاب الى تنظيم التعليم القروي والغاء اجور الدراسة في المدارس المتوسطة والثانوية وتشييد اكبر عدد ممكن من المباني المدرسية العصرية .

وكاد الفريق بكر صدقي يفتك بالسادة ياسين الهاشمي ونوري السعيد ورشيد

عالي الكيلاني لاعتقاده ان هؤلاء سيعرقلون منهاج حكومة الانقلاب الاصلاحي فوقف حائلاً امام مقاصده رئيس الوزراء حكمت سليمان واستنكر منه هذه البادرة الخطرة واستطاع ان يصرف بكر صدقي عن رأيه الجهنمي كما ان الحكومة البريطانية استنكرت هذا العمل فكان ذلك من جملة الاسباب التي حفظت على هؤلاء السادة رؤوسهم .

•

كاد بكر صدقي يفتك بكل من ينازعه الحكم

أراد الفريق بكر صدقي ان يقتل كل من يقف في وجهه من الرجالات التي قد تنازعه الحكم او اسباب الأصلاح التي يراها للعراق وكاد يعدم نوري السعيد وياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني ولكن رئيس الوزراء حكمة سليمان استرحم من الملك غازي ان يشير على هؤلاء الساسة بمغادرة العراق في هذه الظروف الشائكة فأوفد صاحب الجلالة احد مرافقيه وأمرهم ان يتركوا بغداد ليتجنب كارثة لا تعلم نتائجها . وكان نوري السعيد في عناية الانجليز ورعايتهم فحملوه على طائرة من السلاح الجوي الى القاهرة واتخذت السلطات البريطانية في مصر كل التدابير الواجبة للمحافظة على حياة نوري السعيد فكانت تعرض عليه اسماء كل العراقيين الذين يودون زيارة وادي النيل او المرور به قبل ان تسمح لهم بذلك . وفي يقيننا ان الانجليز حافظوا على حياة هذا السياسي لاعتقادهم انه حلقة الاتصال بينهم وبين الشعوب العربية وهو يمثل الاعتدال والواقعية عند العرب خير تمثيل.

واقصى الانقلاب اول ما اقصى عن الخدمة في مناصب الحكومة اشياع ياسين ونوري ثم شجع الاعتداء على دور بعض الوزراء السابقين وهذا ما اسف له العقلاء كثيراً ثم دعا الانقلاب الصحفيين من سائر الاقطار العربية للاطلاع على الاحوال الراهنة في العراق وتأييد رجال الجيش في حركتهم وافرج عن الجرائد والكتب الممنوعة واستصدر ارادة ملكية بالعفو عن المجرمين السياسيين وشرعت وزارة

حكمة سليمان بايعاز من الفريق بكر صدقي تجمع الاموال من الاثرياء لشراء طائرات للجيش فكان كل من اراد ان يحافظ على نفسه وامواله ونفوذه يتبرع للحكومة دون سؤال او جواب خيفة ان تنزل به داهية من الدواهي او تحيق به مصيبة من المصائب لا سيما والأمر والنهي بين شفاه العسكريين.

واغتالت يد اثيمة سكرتير مجلس الوزراء في الوزارة الهاشمية الثانية السيد ضياء يونس مساء يوم الواحد والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٣٧ لأنه بحسب زعم الانقلاب كان يرأس اجتماعات سرية في بغداد وقد ثبت مؤخراً ان القاتل كان اسماعيل توحلة الموصلي وهو من اعوان الفريق بكر صدقي المتطرفين واحد مرافقيه الذين لا يفارقونه.

وحاول الانقلاب ان يؤلف لجنة برلمانية لاحصاء الثروات التي جمعها بعض الوزراء واصحاب المناصب بطرق غير مشروعة وبسبب نفوذهم ثم مصادرتها لخزينة الدولة ولكنه لم يوفق رغم ان ثلاثة عشر نائباً طلبوا الى رئاسة مجلس النواب في السادس من آذار سنة ١٩٣٧ ان تسن الحكومة قانوناً بهذا المعنى. ولكن رؤي في النهاية ان قانون - من اين لك هذا - قد يمس معظم الوزراء و الذين تقلدوا مناصب عالية في الدولة. ولهذا فقد اهمل الطلب بعد تقديمه الى الحكومة. وقامت فكرة «من اين لك هذا» تطرق ابواب الصحافة في لبنان ومصر مؤخراً ولكنها ماتت في مهدها لأنها تلوث الكثير وتسيء الى سمعة الاستقلال في البلدين. والمؤلم ان الثروات التي هبطت على بعضهم من المسئولين في الاقطار العربية والذين لهم رواتب معينة محددة ومعروفة ما تزال في نمو مطرد ومايزال اصحابها ينعمون بالاحترام والنفوذ كأنما المال لا رائحة له وكانما الوظيفة مورد حلال لجيوبهم وفي نظرنا ان الوقت الذي سيحاسب فيه امثال هؤلاء قريب لأن وعي الجيل الجديد من الشباب قد يستكمل نضجه ويسوقهم الى محاكم العدل.

أحاط الفريق بكر صدقي نفسه بحاشية شوهت له الحقائق وحسنت له المساوىء وجعلته يركب مركب القوة في كل اعماله وأراد ان يتدخل في الكبيرة

والصغيرة من امور الادارة وشؤون البلاد فاضطربت الاحوال في لواء الديوانية واستغل رجال ياسين ونوري ورشيد عالي هذه الاضطرابات حتى تطورت الى ثورة علنية فعمد بكر صدقي الى القسوة وقبض على كثير من الزعماء والرؤساء وسجنهم ورفع الحصانة عن العينين السيد علوان الياسري والسيد محسن ابي طبيخ وعن النائب الحاج عبد الواحد الحاج سكر وكان ذلك في الثامن من ايار عام ١٩٣٧ واضطر بكر صدقي ان يرسل طائرات الجيش العراقي لالقاء القنابل على القرى والدساكر فاضرم النار في البيوت والمزارع وفقد الجيش في هذه الاضطرابات ٣١ جندياً ومن الاهلين ٢٥٥ شخصاً والغريب ان مجلس الوزراء كان لا رأي له البتة فيما صدر عن الفريق بكر صدقي من الاوامر العسكرية . وقد نقم بعض الوزراء اشد النقمة على اهمالهم وعدم استشارتهم فيما يجري من الحوادث فقدموا أستقالتهم فعين الديكتاتور العسكري غيرهم في الحال .

عمد الزعماء العسكريون والسياسيون الى قتل بكر صدقي حينما بالغ في ظلمه ليتخلصوا منه وشرعوا يعدون العدة لذلك ويظهر ان الدسائس الاجنبية شجعت هذه الجماعة من الزعماء . فلما وجهت حكومة الجمهورية التركية الدعوة للعراق للاشتراك في مناورات الجيش التركي في تراقية اعتباراً من الثامن عشر من آب عام ١٩٣٧ أحب الفريق بكر صدقي ان يرأس الوفد العسكري الذي يزور تركيا ورأى المتآمرون على حياة الديكتاتور ان الفرصة سانحة لاغتياله وبينما كان بكر صدقي وزميله محمد علي جواد قائد الجو العراقي في حديقة مطار الموصل يتأهبان للرحيل الى تركيا تقدم منهما الجندي محمد عبد الله التلعفري وصوب فوهة مسدسه الى بكر صدقي واطلق عليه رصاصتين اصابت منه مقتلاً فوقع يتخبط بدمائه في الحال ولما هم المقدم محمد علي جواد القبض على الجاني عاجله الجندي بطلق ناري فارداه قتيلاً ايضاً ونقلت الجثتان في اليوم التالي الى بغداد ودفنتا في احتفال عسكري مهيب وكان مقتل الفريق بكر صدقي في الحادي عشر من آب عام ١٩٣٧ .

واصدرت حكومة حكمة سليمان اوامرها بالقاء القبض على جماعة كبيرة من

الضباط والسياسيين المتهمين بالاشتراك في القتل وكان بين الذين قبض عليهم العقيد فهمي سعيد والرئيس محمود هندي وكان في نية آمر منطقة الموصل امير اللواء محمد امين العمري ان يسلمهما الى بغداد ولكنه عدل عن ذلك اعتقاداً منه ان تسليمهما مع بعض الشباب قد يجره ايضاً الى المحكمة لأنه كان من جملة المتآمرين على قتل بكر صدقي فاطلق سراح الموقوفين جميعاً ووحد كلمة الضباط في الموصل تحت امرته وحصن البلد واعلن انفصاله عن بغداد اعتقاداً منه انه يصون بذلك حياة الابرياء .

•

اختلاف رجال الانقلاب في العراق

أعلن اللواء امين العمري آمر منطقة الموصل بجيشها وادارتها خروجه على وزارة السيد حكمة سليمان لزعمه ان هذه الوزارة ستركب مركبا خشناً وستجعل من مقتل بكر صدقي وسيلة للانتقام من العسكريين الأبرياء . وتحمس انصار الانقلاب المفجوعين بمأساة بكر صدقي واخذوا يجاهرون بوجوب الاستعانة بحامية الوشاش لتأديب حامية الموصل العاصية ولكن فرق الوشاش اعلنت تضامنها مع قطعات الجيش في الموصل وصرحت عن اخلاصها للعرش ولصاحب الجلالة الهاشمية ثم قالت ان الاخوة العسكرية تعني وحدة الجيش التي لا تتجزأ وطلبت بلسان واحد عدم مداخلة الجيش في السياسة وابعاد بعض الضباط عن مناصبهم ونقلهم الى مناصب اخرى لأنهم توغلوا في الحزبية المتطرفة . فاضطر حكمة سليمان الى الاستقالة وقبل جميل المدفعي تأليف الوزارة الجديدة شرط ان « يسدل الستار » على ما مرّ من الاحداث المؤلمة وان يفتتح العراق صفحة جديدة في تاريخه السياسي.

والمؤسف ان حكومة جميل المدفعي استصدرت مرسوماً في ايلول عام ١٩٣٧ اسمته « مرسوم منع الدعاية المضرة » ويخول هذا المرسوم الحق لمجلس الوزراء ان يعتقل من يشاء ممن يخالفون الحكومة في بعض آرائها بناء على تقرير يرفعه وزير

الداخلية اليه وقد يجوز ان يمنع من يشاء من الاقامة في امكنة معينة او يجعله تحت مراقبة الشرطة. وطبقت حكومة المدفعي هذا المرسوم على بعض المعارضين من الشباب الوطني امثال رشيد عالي الكيلاني وطالب مشتاق وفائق السامرائي وابعدتهم الى بعض الاقضية المنعزلة وشاءت حكومة المدفعي ان تمثل نفس الدور مع ضباط الجيش القوميين الذين تربطهم بالكيلاني صداقة متينة كالعقداء صلاح الدين الصباغ ومحمود سلمان وفهمي سعيد وكامل شبيب وغيرهم والظاهر ان هؤلاء شعروا بما يبيت لهم فقرروا اسقاط الحكومة المدفعية فأرسلوا فصيلا من الجند الى دار طه الهاشمي شقيق ياسين الهاشمي لحمايتها والدفاع عن صاحبها لئلا يصيبه الاذى من انصار بكر صدقي الموتورين كما ارسلوا فصيلا آخر الى دار نوري السعيد للمحافظة على حياته وارسلوا احدهم الى رئيس الوزراء جميل المدفعي وابلغوه بوجوب التخلي عن الحكم فوراً كما انهم رفعوا عريضة الى جلالة الملك غازي قالوا فيها ان البلاد العراقية لا تحتمل سياسة البطش والشدة التي تسلكها وزارة المدفعي ثم زحفوا بوحدات من الجيش الى بغداد واحتلوا فيها الامكنة المحصنة. واعلنوا ان انقلابهم الجديد يجب ان يسفر عن قيام حكومة جديدة يرأسها احد رجلين اما نوري السعيد واما طه الهاشمي وهكذا نرى ان رجال الجيش نزعوا ثقتهم من حكومة ياسين الهاشمي وحكومة حكمة سليمان وحكومة جميل المدفعي في برهة صغيرة من الزمن.

كان لنوري السعيد أنصار وأعوان في الجيش العراقي لا سيما وهو من مؤسسي هذا الجيش ولذا التفت اليه الضباط القوميون عند عودته الى العراق «آب سنة ١٩٣٧» بعد مقتل بكر صدقي وطلبوا اليه أن يرأس الحكومة العراقية الجديدة ولكن نوري الداهية اللبق رفض أن يؤلف وزارة تستند في قواها الى الجيش، لأنه كان يعتقد اعتقاداً جازماً ان تدخل الجيش في السياسة يجر البلاد الى الفوضى. وقد أنقذ الموقف جلالة الملك غازي فانه عهد الى نوري السعيد بمنصب رئاسة الوزارة بوصفه سيد العراق الملك الدستوري الذي له وحده حق تعيين رئيس الوزراء فقبل نوري المهمة والف الحكومة الجديدة التي قامت تنفيذاً لارادة

العسكريين وارادة جلالة الملك .

سهر نوري السعيد على الامـــن في العراق فسعى لحفظ النهضة العراقية من عمال الفوضى واصحاب الشهوات والمطامع وأحب ان لا يجعل لرياح المؤامرات والفتن والاجرام مجالاً في تهديم الدستور وترويع السكان ومصادرة الحريات وجر المغانم فتحمل مسؤوليته ووضع نصب عينيه وجوب الاستقرار التام في العراق والسير في البلاد تحت ظل العرش فقبض على كل من سولت له نفسه ان يتآمر مع نفر من ضباط الجيش على قتل الزعماء والحكام .

والحقيقة ان نوري السعيد اكتشف مؤامرة دبرت في ليل لاعدام ما يزيد على كثير من الشخصيات المحترمة منهم بعض امراء الجيش وكبار موظفي الدولة . وكان بعض المتطرفين يهدفون الى اغتيال الملك غازي ، ولكن نوري عاجل هذه المؤامرة بتوقيف طابخيها وعلى رأسهم حكمت سليمان وأعلن الاحكام العرفية في معسكر الرشيد وحكم بالاعدام على حكمت وجماعته . لكن الملك غازي استبدل حكم الاعدام بحكم السجن المؤبد .

ولسنا نذيع سراً اذا قلنا ان الحكومات البريطانية والتركية والايرانيـــة بذلت مجهوداً جبـــاراً لحفظ حياة حكمت سليمان اعتقاداً منها ان قتل رئيس حكومة سابق سابقة خطرة واعتقاداً منها ايضاً ان نوري السعيد الموتور بمقتل جعفر العسكري وموت ياسين الهاشمي لم يكن يسير سيراً متزناً تجاه هذه المؤامرة وانه كان يبالغ في خطرها اكثر من اللازم .

ان هذه الانقلابات المتتالية واختلاف رجال الحكم في العراق جر بلاد الرافدين الى الحرب الجنونية مع انكلترا عام ١٩٤٠ وقد بذلت انكلترا جهوداً كبيرة إذ ذاك لابعاد العراقيين عن حكم انفسهم بانفسهم فاستبدلت كثيراً من الشباب العراقي في المناصب بالشباب البريطاني ثم اضاع العراق على العرب فرصة الاستيلاء على سورية وضمها الى التاج الهاشمي لأن فرنسا كانت إذ ذاك في حال بائسة ، ولا نبالغ اذا ذكرنا انها كانت تئن من الاحتلال الهتلري ولم يكن لهـــا اذ ذاك في سورية قيمة من الوجهة العسكرية .

عانت البلاد العراقية آلاماً مبرحة من اضطراب الحكم فيها ومن دسائس الوصوليين الذين كانوا يرجون ان ينالوا مآربهم بواسطة الجيش . وفوجيء الشعب العراقي في صباح الرابع من نيسان عام ١٩٣٩ بمقتل الملك غازي الاول على أثر اصطدام سيارته التي كان يقودها بنفسه بالعامود الكهربائي الواقع في منحـــدر قنطرة النهر بالقرب من قصر الحارثية في الساعة الحادية عشرة والنصف ليـلاً . فهاجت بغداد لهذه الفاجعة ، وروّج اصحاب المقاصد المختلفة الدسائس والاخبار ، وراحوا يقولون ان عمال الانكليز هم الذين قتلوه . وتجمهر الاهلون في الموصـل وهاجموا القنصلية البريطانية وقتلوا القنصل الانكليزي انتقامـاً لدم الملك غازي الاول مـــا اضطر الحكومة العراقيـة لأن تعلن الاحكام العرفية في الشمال .

والتأم مجلس الوزراء في قصر الزهور بعد الكارثة بوفاة غازي الاول وأعلن سمو الامير فيصل ولي العهد ملكا على العراق باسم صاحب الجلالة الملك فيصل الثاني وذلك وفقاً للمادة العشرين من القانون الاساسي ثم سمي الامير عبد الاله ابن الملك علي وصياً على جلالة الملك فيصل الثاني بالنظر الى عدم بلوغه سن الرشد القانونيـة ونزولاً عند وصية جلالة المغفور له الملك غازي الاول المستندة الى شهادتي صاحبة الجلالة الملكة وسمو الاميرة راجحة شقيقته امام مجلس الوزراء . وقـد وافق المجلس النيابي في السادس من نيسان ١٩٣٩ على هذه الوصاية .

وفي غمرة هذه الحوادث المتتابعة وقعت الحرب العالمية الثانية فاعلنت بريطانيا الحرب على المانية في الثالث من ايلول عام ١٩٣٩ فاضطر مجلس الوزراء العراقي بدوره ان يقطع ايضاً العلاقات السياسية مع المانيا وان يعتقل الرعايا الالمان ويسلمهم للسلطات الانكليزية وهذه ارسلتهم للمعتقلات في الهند . وكانت حكومة نوري السعيد مخلصة كل الاخلاص لقضية الديموقراطية علها تستفيد منهـا وتثبت استقلال العراق والبلاد العربية النهائي بصورة منظمة فطلبت الى الوصي ان يبرق

الى قصر بكنغهام بالبرقية التالية التي تعرب عن اخلاص العراق لحليفته انكلترا في صراعها مع المحور :

« حضرة صاحب الجلالة الملك جورج ـ قصر بكنغهام ـ لندن

« في الظروف الدولية العصيبة الحاضرة يدفعني واجب الصداقة وشرف الوفاء بالعهد الى الاعراب لجلالتكم عن تمسكنا حكومة وشعباً بمعاهدة التحالف بيننا نصاً وروحاً ، وعن عزمنا الراسخ على كل ما في وسعنا للسير مع حليفتنا العظمى حتى ينصر الحق والعدل وتسود المبادىء السامية التي دخلتم الحرب من اجل الدفاع عنها »

« عبد الاله الوصي »

فجاء الرد الآتي من لندن في الثامن من ايلول عام ١٩٣٩

« صاحب السمو الملكي الامير عبد الاله الوصي على عرش العراق ـ بغداد

« تأثرت جداً ببرقية سموكم الملكي المعبرة عن عزم العراق الراسخ . حكومة وشعباً ـ للتعاون مع حكومتي بموجب المعاهدة التي تربطنا . ان عمل الحكومة العراقية هذا لدليل آخر على الصداقة المتينة والاخلاص المتبادل بين شعبينا . ان حكومتي تقدر جداً ما جاء في برقيتكم من التشجيع للقيام بواجبها في مقاومة القوة المعتدية واني اؤكد لسموكم انه اذا ما اصيب العراق باهوال الحرب فان حكومتي ستقوم بتعهداتها بروح الوفاء والعدل » .

الملك جورج .

والمؤسف ان بعض المغامرين من الوصوليين الذين نجحوا في تولي زمام الاحكام في العراق عن طريق المؤامرات والخروج على القانون ، والذين عفت عنهم سياسة ـ اسدال الستار وتناسي الماضي ـ قاموا واغتالوا وزير المالية رستم حيدر بديوانه في الثامن عشر من كانون الثاني عام ١٩٤٠ وهو من رجال العرب الذين تجلت وطنيتهم وكفاءتهم في الظروف العصيبة ثم هو صديق فيصل العظيم مؤسس المملكة العراقية . اما قاتل وزير المالية رستم حيدر فيدعى حسين فوزي وهو مفوض سابق في الشرطة ولدى التحقيق معه ادعى انه ارتكب جريمة القتل بتحريض من

بعض الشخصيات السياسية المعروفة ولما كان رئيس الوزراء نوري السعيد يرى ان تتابع المؤامرات والاجرام السياسي ينذر البلاد بالعواقب الوخيمة فقد اراد ان يوسع التحقيق ويقضي على روح الاغتيال وينقذ العراق من المجرمين السياسيين وقد آلمه ان يسقط رجال فيصل من بناة المملكة العراقية الواحد اثر الآخر صرعـــى لمؤامرات ينفذها اصحاب المطامع الشخصية الذين لا يقيمون اي وزن للشريعة والقانون والضمير الانساني ويظن ان زملاء نوري السعيد في الوزارة لم يكن ليشاركوه رأيه فاضطر للاستقالة وكانت حجة رئيس الوزراء ان الاجرام السياسي يشبه النار من وجوه عديدة فهو يلتهم كل ما يقع امامه دون تمييز واللعب به لا يقل خطراً عن اللعب بالنار ثم ان الانسان يستطيع ان يشعل النار حيث شاء ومتى شاء ولكنه يعجز عن اخمادها متى اراد كذلك الاجرام السياسي فان اهله يستطيعون ان يثيروه متى شاؤوا وحيث شاؤا ولكنهم لا يستطيعون ان يوقفوه وان يتعرفوا الى نتائجه المريعة . اما الوصي على العرش فقد كلف نوري السعيد ثانية الحكم فقبل المسئولية وشرع في محاكمة قتلة رستم حيدر والظاهر ان المحرضين توصلوا الى الهرب من طائلة القانون ونفذ حكم الاعدام شنقاً بالقاتل حسين فوزي « ٢٧ آذار عام ١٩٤٠ » . ومهما يكن من امر فان نوري السعيد كان رجل العراق الذي وجه وجهه الى سياستين : الاولى داخلية وهي تقول بنشر لواء الامن واعادة الحياة الدستورية بعد ان لعبت الاهواء بهذه الحياة وكان مـــا كان من احداث ونزوات مؤلمة وتحسين شؤون العراق الادارية والاقتصادية والاجتماعية والثانية خارجية وقد رسمها الملك فيصل الاول وهي تسعى لتوطيد الاستقلال في العراق وتوثيق صلات الود بينه وبين شقيقاته العربيات والاقطار التي تربطه بها روابط الدم والمصالح المشتركة وحماية حدوده وحفظه من الوقوع في براثن الاستعمار .

•

قررت الحكومة العراقية في الخامس من ايلول عام ١٩٣٩ ان تقطع علاقاتها السياسية مع المانيا وذلك على اثر نشوب الحرب العالمية الثانية ثم لما اشتركت ايطاليا الموسولينية في الحرب الى جانب هتلر رغبت بريطانيا العظمى الى العراق ان يقطع علاقاته ايضاً مع روما فلم تر الحكومة العراقية وعلى رأسها رشيد عالي الكيلاني ان تستجيب الى هذه الرغبة لا سيا وكان العراق قد طلب الى السفارة الانجليزية في بغداد ان تتوسط لدى الدول الديموقراطية في اصدار بيان تظهر فيه عطفها على الاماني العربيـة الاستقلالية في سورية وفلسطين . والمهم ان نعلم ان السفارة البريطانية لم ترد على العراق رسمياً بل أخذت تعتذر عن الكتابة في هذا الموضوع لانهماك الديموقراطيات في الجبهة الليبية وكان وزير الخارجية السيد نوري السعيد ووزير الاشغال محمد امين زكي يقولان انه من الواجب ان تحسن حكومة العراق سياستها مع بريطانيا العظمى فتقطع حالاً علاقاتها السياسية مع ايطاليا كما قطعتها قبلا مع المانيا فخالفهما في هذا الرأي بقية الوزراء ولكن عقداء الجيش الذين كانوا يناصرون السيد رشيد عالي الكيلاني ويقولون بوجوب بقائه في الحكم وهم صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد ومحمود سلمان وكامل شبيب كانوا يرون وجوب استمرار رشيد عالي في قيادة السفينة العراقية لانه لا يتهاون مع الانجليز ولا يفرط في حقوق العراق ولكن وجود رشيد عالي في رئاسة الوزارة كان يزيد في حراجة الموقف بين لندن وبغداد ولا يساعد على حل المعضلات بين البلدين المتعاهدين لصلابة الرجل صلابة لا معنى لها في بعض الاوقات . واراد رشيد عالي تجاه اصرار الجيش على استمراره في الاحكام ان يصدر ارادة ملكية بحل مجلس النواب وانتخاب مجلس جديد يؤيده في سياسته فاستمهله الوصي عبد الاله في توقيعها بضع ساعات ولمـا كان الوصي يرجو ان لا يحتك برئيس وزارته الذي يسنده الجيش فقد استقل سيارته ورحل الى « الديوانية » فلما علم رشيد عالي بذلك ابرق الى الوصي يستقيل من منصبه وقال في جملة ما قاله في البرقية : « ان عدم ارتياح

سموكم في الابتعاد عن عاصمة المملكة وايقاف الارادات المعروضة على سموكم لا سيما الارادة المتعلقة بحل مجلس النواب اذ ان الوزارة التي اخذت على عاتقها تحمل مسئولية البلاد وادارة شؤونها في هـذه الظروف العصيبة رأت ضرورة استفتاء الرأي العـــام عن خطتها السياسية لتأمين تعاون اوثق بين السلطتين التشريعية والتنفيذية » ولم يتردد الوصي عن قبول استقالة رشيد عالي برقياً . وجاء الى الحكم العميد طه الهاشمي بعد رشيد عالي الكيلاني ولكنه لم يقدر ان يوقف حركة الجيش التي تزعمها العقداء الاربعة وراح هؤلاء يضغطون على طه الهاشمي بوجوب الاستقالة كما انهـــم لم يتورعوا من ارسال بعض الفرق لتحيط بالقصور الملكية وتتظاهر بسلاحها الكامل امامها فما كان من الوصي الا ان انسل خفية من داره الى « مطار الحبانية » واستقل طائرة من سلاح الجو البريطاني وسافر عليها الى البصرة وهناك استدعى بعض الوزراء واقطاب السياسة للتداول في شؤون البلاد ولكن سيطرة الجيش بقيادة العقداء الاربعة حالت دون وصول احد منهم اليه فاضطر الوصي الى مغادرة العراق لفلسطين ولبث في الخارج حتى اطفئت حركتهم في حزيران عام ١٩٤١ ورجع الى بغداد .

وقام العقداء الاربعة يؤلفون حكومة مدنية في الظاهر عسكرية في الباطن واطلقوا عليها اسم حكومة الدفاع الوطني واستولى الجيش على المرافق العامة ثم جمعت المجلس النيابي واعلنت تنصيب « الشريف شرف » وصياً على عرش العراق بدلاً من الوصي عبد الاله .

ويظهر ان بريطانيا أدارت ظهر المجن لهذه الحركة وتنكرت لهـــا اشد التنكر وصارت تماطل وتسوف في الاعتراف بهذا الانقلاب ثم بدأت تنزل قوات عسكرية عظيمة في ميناء البصرة . وفي صباح الثاني من ايار عام ١٩٤١ بدأ الجيش البريطاني المرابط في الحبانية باطلاق النار على الفرق العراقية التي كانت تحتل الروابي الرملية المحيطة بسن الذبان وزحفت القوات الانجليزية الى الرطبة فالرمادي فبغداد واستمر الحرب بينها وبين الجيش العراقي حتى التاسع والعشرين من الشهر نفسه . وهكذا انتهت هذه المأساة التي يطيب لي ان اطلق عليها اسم « المأساة الهوجاء » والتي لم تهدف

الى خير العرب ووحدتهم بل الى مصالح خاصة بائسة اودت بأصحابها الى المشانق . وهرب العقداء الاربعة الى ايران ولحقهم الكيلاني ووزراؤه ثم عاد الوصي عبد الاله الى بغداد واعلن الاحكام العرفية . واخيراً تمّ للسلطات البريطانية ان تقبض على بعض الساسة العراقيين وتنفيهم الى روديسيا في جنوبي افريقية ثم اعتقلت العقداء صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد ومحمود سلمان وحـاكمتهم الحكومة العراقية امام مجلس عرفي وحكم عليهم بالاعدام ونفذ الحكم شنقاً بالعقيدين فهمي سعيد ومحمود سلمان في فجر الخامس من ايار عام ١٩٤٢ . اما العقيد صلاح الدين الصباغ فجيء به من تركيا الى بغداد ونفذ به حكم الاعدام شنقاً في السادس عشر من تشرين الاول عام ١٩٤٥ . كذلك نفذ الحكم بكامل شبيب في العشرين من آب عام ١٩٤٤ أما رشيد عالي فقدحكم عليه بالاعدام شنقاً ولكنه لجأ الى صاحب الجلالة عبد العزيز آل سعود فأجاره . كذلك نفذ حكم الاعدام شنقاً بكبير من كبار العسكريين وهو يونس السبعاوي وحكم على آخرين بعقوبات بالسجن لمدات طويلة.

ترى لو وجه العقداء الاربعة وجوههم نحو احتلال سوريا وهي ترجو الوحدة مع العراق !! ترى لو وجهوا وجوههم نحو الاهـداف الوطنية وفرنسا صريعة تئن !! أما كان هذا هو الافضل؟ ولكن نحن نفكر والقدر يدبر ويضحك .

•

قضية الاقليات في العالم العربي

معضلة الاقليات في الشرق العربي معضلة استغلها الاستعمار الى اقصى الحدود وسيستغلها السياسيون دوماً ولهذا يجب ان تعالج بالحكمة والتؤدة ومع الزمن والا هددت الاقليات استقلالنا وكانت شوكة مؤلمة تستنزف دماءنا . ومن الاقليات التي بدأت السياسة تلعب بها هم الاكراد وقد كان الاكراد دوماً اخواناً للعرب تهذبوا بآدابهم وتمذهبوا بمذاهبهم وكانوا ركناً ركيناً للاسلام ويكفي الكرد فخراً انهم لعبوا الدور الامثل في الحروب الصليبية ومنهم نبغ الامراء ورجال

الحكم وارباب الدولة ويكفي ان نقول أن صلاح الدين بطل الاسلام هو كردي الاصل وكفى ، والحق ان للاكراد لغة ولكنها غير حية ولذا كانت العربية لغتهم وقد حاول بعض الاجانب ان يبعثوا في اللغة الكردية روح النهضة فلم يتمكنوا وحاول غيرهم ان يفرقوا بين الكرد والعرب في العراق ففشلوا .

وغالب الظن ان عدد الاكراد في العالم غير معروف تماماً ولكن التقارير البريطانية الخاصة عن تقدم العراق تذكر ان عدد الاكراد يبلغ نحواً من ثلاثة ملايين . أمـــا كتاب الشرفنامة فيقول انه سبعة ملايين وهو رقم خيالي في اعتقادنا ولكن الاحصاءات الاخيرة دلت على ان مجموع الاكراد يبلغ ٤،٦٨٠،٠٠٠ منهم اكراد ايران ويبلغ عددهم مليونان واكراد تركيا ويبلغ عددهم مليون وخمسمائة الف واكراد العراق ويبلغ عددهم ستمائة الف واكراد بلوخستان والهند ويبلغ عددهم ثلاثمائة وخمسون الف واكراد سورية وروسية ويبلغ عـــددهم ٢٣٠،٠٠٠ الف والاكراد في العراق لهم اهمية كبرى وهم يسكنون السليمانية وكركوك واربل والموصل وكان لهم جولات في طلب الاستقلال والانفصال عن تاج فيصل ولكنهم في النهاية تأكدوا ان العراق يجمعهم في المصالح والاخوة والثقافة فهدأوا واصبحوا من العناصر التي تعتز بها الدولة ، اما البحث في منشأ الاكراد فما يزال غامضاً ويقول بعض الاكراد انهم عرب ويستشهدون على ذلك بالبيت المشهور :

لعمرك ما الاكراد ابناء فارس ولكنهم ابناء كرد بن عامر

ثم يرددون انهم قبائل عربية تفرقوا بعد انهيار سد مأرب ويقول غيرهم انهم طورانيون ويذكر البعض انهم من الجنس الآري وهذا هو الرأي الغالب .

وقد تعرفت الى بلادهم : مدنهم وقراهم في العراق ويقطنون في الحـــدود الايرانية ـ العراقية على خط مستقيم يمتد من جبل حمرين حتى جبل سنجار ثم يتصل بالحدود العراقية التركية السورية وهم جبليون اشداء احتفظوا بعاداتهم وتقاليدهم الموروثة من الشجاعة والانفة والحمية وهم يتعصبون لزعمائهم ومشايخهم ويتمسكون باهداب الدين الحنيف .

وظهرت القضية الكردية للوجود اثر انهيار الدولة العثمانية عام ١٩١٨ وقيام الجمعيات الارمنية لتأسيس دولة لهم تمتد حدودها من شاطىء بحر قزوين الى شواطىء البحر الاسود ثم تنحدر غرباً الى شواطىء البحر الابيض المتوسط فتشمل ولايات الاناضول المشهورة وهي سيواس وارضروم وخربوط وديار بكر وبتليس ووان ولما كان الاكراد يؤلفون في هذه الولايات اكثرية محترمة فانهم خشوا ان يصبحوا من رعايا الدولة الارمنية اذا عطف عليها الحلفاء وأيدوها والحق ان بين الارمن والاكراد ثارات عميقة وهم يكرهون بعضهم بعضاً ولذلك اجتمع الزعماء الاكراد في حزب اطلقوا عليه اسم « الحزب الوطني الكردي » وترأسه احد الوزراء الاكراد في ايام الدولة العثمانية واسمه عبد القادر شمونان وساعدته في ذلك الاسرة الكردية المشهورة آل بدرخان وكان مركز الحزب في استانبول . وطالب هذا الحزب عصبة الامم بتوحيد المناطق الكردية ومنحها الحكم الذاتي وراجع اللجان الاوروبية والاميركية التي تألفت لاستفتاء الشعوب التي انفصلت عن الامبراطورية العثمانية بهذا الشأن كثيراً دون ان يصل الى نتيجة حاسمة . ورأينا في اوائل عام ١٩١٩ جمعية وطنية للاكراد تنشأ في القاهرة وتطالب تأسيس دولة كردية تحت الرعاية البريطانية ثم اصدرت جريدة تنطق بلسانها وتنشر مبادئها .

وهبت الاحزاب الكردية وجمعياتها كلها وانتخبت الجنرال شريف باشا السليماني ممثلاً للقضية الكردية امام مؤتمر باريس اي لدى دول الحلفاء في مؤتمر الصلح وقدم شريف باشا الى مجلس الحلفاء الاعلى في الثاني والعشرين من اذار عام ١٩١٩ مذكرة طالب فيها باستقلال دولة كردستان وجمع الشعوب الكردية في امة واحدة ذات علم واحد وتوصل الى عقد اتفاق مع الاحزاب الارمنية على ان تكون كردستان منفصلة عن الدولة الارمنية وكان زعيم هذا الاتفاق بوغوص نوبار باشا ممثل الارمن وفي اوائل اذار عام ١٩٢٠ رفع الممثلان شريف باشا الكردي ونوبار باشا الارمني مذكرة باسم كل منهما ضمناها الاتفاق الذي توصلا اليه فاقر مجلس الامم الرغبة في استقلال كردستان وارمينيا مبدئياً شرط ان تعطى الضمانات الكافية لحماية الكلدان والاثوريين في مناطق الكرد والارمن .

وعينت العصبة لجاناً يتألف اعضاؤها من الانجليز والفرنسيين والطليان لتصحيح الحدود بين كردستان وارمينيا كما انها رغبت الى تركيا المغلوبة ان تقر استقلال هذين البلدين الناشئين وان تتنازل عن جميع حقوقها وامتيازاتها فيهما . وكل هذه الاماني نصت عليها معاهدة سيفر . ولكن ما كل ما تنص عليه المعاهدات يحقق.

•

الاكراد بين الانجليز والاتراك

قهر الانجليز الاتراك في العراق واعلنوا الدولة العراقية بزعامة فيصل وراحوا يتوددون الى الاكراد لعلهم يكونون من اعوانهم وانصارهم ولكن الاتراك بزوا الانجليز في هذه الطريق فاطلقوا سراح الزعيم الكردي المشهور بالشيخ محمود وهو زعيم السليمانية من سجنهم لعرقلة مساعي الانجليز في حكم العراق حكماً مباشراً وفوضوا اليه حكم منطقة السليمانية وقيادة الجيوش التركية فيها وأمدوه بالاموال والعتاد والسلاح ولكن الزعيم الكردي الشيخ محمود رأى بثاقب نظره ان الانجليز هم اصحاب الكلمة الاخيرة في العراق فاظهر استعداده لهم بتسليم الحامية التركية في السليمانية الى القوات الانجليزية المتمركزة في كركوك انْ عينوه حاكماً على الاكراد في منطقة السليمانية فقبل الانجليز شرطه الاساسي وجعلوه الآمر الناهي على القبائل الكردية كما انهم عينوا انصاره حكاماً على بعض القرى المجاورة للسليمانية وهكذا نقلت الجيوش العثمانية الى بغداد أسيرة وصار تنظيم القبائل الكردية بحسب النظم الاقطاعية واصبح زعماؤهـا موظفين حكوميين يتقاضون رواتب رسمية ثم يرجعون في امورهم العامة الى الحكام البريطانيين .

وأحب الانجليز ان يعقدوا لزعماء الاكراد مؤتمراً يتعرفون فيه الى آمالهم وأمانيهم فطار اليهم الكولونيل ولسن الحاكم الملكي العام في العراق واجتمع اليهم بالسليمانية في اوائل كانون الاول عام ١٩١٨ وحضر المؤتمر حوالي ستون زعيماً يمثلون الاكراد احسن تمثيل ويقول ولسن ان الاكراد لم يكونوا متفقين

في مطالبهم فأعرب بعضهم بانشاء دولة كردية مستقلة تستعين بانجلترا وقـال غيرهم انه مـــن الواجب الحاقهم بالعراق ليتمكنوا من الحياة اقتصادياً ولم يتورع البعض ان يقول بالحكم الانجليزي المباشر ، ثم أسر بعض الزعماء الى الكولونيل ولسن انهم لا يرضون مطلقاً عن انشاء حكومة اقطاعية يرأسها الشيخ محمود وتمكن ولسن بدهائه وحسن تدبيره ان ينـال منهم عريضة وقعها اربعون زعيماً هذا نصها الحرفي :

« لما كانت الحكومة البريطانية قد اعلنت من قبل عن رغبتها في تحرير الشعوب الشرقية من ارهاق الترك وفي مساعدتها على تكوين استقلالها فان الزعماء الاكراد يطلبون منها بوصفهم الممثلين عن اهالي كردستان ان تضعهم تحت حمايتها وان تربطهم بالعراق لكي لا يفقدوا الفوائد التي يجنونها من مثل هـــذه الرابطة وهم يطلبون الى الحاكم المدني في العراق ان يرسل ممثلاً عنه لمدّ يـد المساعدة لتمكين الشعب الكردي من احراز التقدم بصورة سلمية وعلى اسس مدنية باشراف بريطانيا العظمى وهم يتعهدون للحكومة اذا ساعدتهم ان يأتمروا بأوامرها ويتقبـلوا نصائحها وارشاداتهـــا . »

وصرح الكولونيل ولسن في المؤتمر ان الحكومـــة البريطانية تعضد الزعيم الكردي الشيخ محمود ولا تعارض القبائل الكردية التي تريد الانضمام تحت لوائه وان بريطانيا العظمى تعتبره ممثلا لها ولهذا يجب ان تحترم اوامره وتطاع باكملها.

ولما اتيح لانجلترا ان تؤسس الحكومة العراقية الموقتة في السابع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٢٠ رأت ان تحتفظ بالسيطرة المطلقة على كردستان ولكنها في النهاية وجدت ان الانفصال الاقتصادي بين كردستان العراقية والعراق معناه الموت المحتم لمنتوجات كردستان التي ستحرم من سوقها الطبيعية في بغداد . وهذا بالتالي يعني الضرر البالغ للأكراد .

وراح الكولونيل ولسن يعين في المناطق الكردية الواقعة في لواء الموصل موظفين عراقيين يحسنون اللغة الكردية ويرضى عنهم زعماء الاكراد ، واشرك بعض الضباط البريطانيين في الادارة والمالية ثم كان القائمقامون في المنـــاطق

الكردية من البريطانيين ، ووعد الكولونيل ولسن الاكراد بان يحل مكان البريطانيين ، مع الزمن ، رجال من الاكراد تتوفر فيهم الكفاءة . وقد قبل الاكراد في لوائي الموصل واربل بمقترحات الكولونيل ولسن التي تدعو الى الانضمام للدولة العراقية فيصبح لهم ما لاخوانهم العراقيين من حقوق وعليهم ما على العراقيين من واجبات . اما اكراد السليمانية فقد ظلوا على عنادهم لا يقبلون الانضمام للدولة العراقية فظل هذا اللواء تحت السلطة البريطانية المباشرة ، يحكمه موظف بريطاني مسؤول امام المندوب السامي ويعاونه مجلس ملي منتخب ، وقد اشتركت كل الالوية الكردية في انتخاب فيصل الاول ملكاً على العراق ما عدا لواء السليمانية وبعض الاكراد في لواء كركوك ولهذا قيل يومئذ ان نتيجة الاستفتاء في انتخاب فيصل كانت ٩٦ بالمائه بدلا من مائة في المائة .

احترم الانجليز الزعيم الكردي الشيخ محمود ورتبوا له كل المظاهر التي تعلي من شأنه وعينوا له معاشاً شهرياً قدره خمسة عشر الف روبية ، ولكنهم عزموا في الوقت نفسه ان يحدوا من نفوذه فأحاطوه بالمستشارين العسكريين والاداريين ، واعلنوا عن رغباتهم في تفهم الاماني الكردية . فذهب رسلهم يبثون الدعوة ضد الشيخ محمود ليتخلصوا منه ، فما كان من الشيخ محمود الا ان ثار ثورته المشهورة فاحتل السليمانية في الواحد والعشرين من ايار عام ١٩١٩ وقبض على الحكام السياسيين البريطانيين واعتقلهم ثم هاجم كركوك وثبت قدميه فيها واعلن نفسه حاكماً عاماً على كردستان فهال ذلك حكومة بغداد وكان لها معه شأن .

•

امعن فيصل في التساهل مع الاكراد

هال الحكومة العراقية هذا الاقدام من الشيخ محمود واحتلاله لمدينتي السليمانية وكركوك فان ذلك يعني قتل الوحدة في الدولة ثم تألمت السلطات البريطانية منه لأنه قبض على بعض الضباط الانجليز واعتبرهم رهائن عنده وقد

اضطر المندوب السامي البريطاني في بغداد لارسال قوات كبيرة لقهره وكسر شوكته واستطاعت هذه القوات ان تلتف حول عصابات الشيخ محمود وان تشتت شملها وان تأسر الشيخ محمود نفسه وترسله مخفوراً الى بغداد وقد حوكم الشيخ محمود امام مجلس عرفي وقرر اعدامه ولكن البريطانيين استبدلوا عقوبة الموت بالسجن المؤبد أملاً ان يكون لهم في الليالي الحالكات وابعد الشيخ محمود الى الهند ولبث فيها الى عام ١٩٢٢ ثم اعيد الى السليمانية عزيزاً مكرماً لأن الثورة بدأت تعصف بين القبائل الكردية ولأن الفوضى اخذ يشتد اوارها في السليمانية واخذت السلطات البريطانية الضمانات اللازمة من الشيخ محمود ان يكون حسن السلوك وموالياً لحكومتي لندن وبغداد ، والغريب ان سلوك الشيخ محمود الحسن كان صورياً فانه ما كاد يصل الى كردستان حتى بث نفوذه فيها والف حكومة كردية قومية في اليوم الاول من تشرين الاول عام ١٩٢٢ ، وعجزت حكومة الشيخ محمود عن جباية الضرائب والرسوم من المنطقة الكردية كلها فباءت هذه الحكومة بالفشل الذريع وهرب موظفوها لانهم لم يقبضوا رواتبهم وتركوا الامر فوضى وتغلب زعماء القبائل على الضعفاء وصار القوي يأكل الضعيف .

وتساهلت انجلترا مع الشيخ محمود وتركت له الحبل على الغارب لأنها كانت ترجو ان تجعل من الاكراد العراقيين الذين يبلغ عددهم نحو نصف مليون شخص قوة في يدها في سبيل سيطرتها على العراق بأجمعه فتظاهرت بالدفاع عن قوميتهم وعن مصالحهم حتى اغرتهم بالرجوع اليها رأساً في امورهم وكلنا يذكر ان بعض القبائل الكردية لم تعترف بالملك فيصل الاول ملكاً على الدولة العراقية المتحدة الا اذا اعترف العراق بان يعين المفوض السامي البريطاني الموظفين الاكراد بنفسه وان يكون هو مرجعهم الوحيد لا الحكومة العراقية وهذا فيه ما فيه من انتقاص لسلطة الدولة وسيادتها الداخلية ولكن فيصل رحمه الله احب ان يطيل الحبل للأنجليز حتى يستجاب الكرد للحظيرة وقد نجح وتوصل الى غايته بسعة صدره وطول اناته .

وراح فيصل يمعن في التساهل الى اقصى الحدود فأصدرت حكومته مع

الحكومة البريطانية بياناً مشتركاً في الرابع والعشرين من كانون الاول عام ١٩٢٢ قالت فيه : « ان حكومة صاحب الجلالة البريطانية وحكومة العراق تعترفان بحقوق الاكراد القاطنين في اراضي الحكومة العراقية ولا تمانع في ان يؤسس لهم حكومة كردية في جميع المناطق التي يؤلف الاكراد فيها اكثرية مطلقة شرط ان تتفق العناصر الكردية فيما بينها الى نوع الحكومة التي تريد وان تبعث بممثلين رسميين عنها الى بغداد للمداولة بشأن العلاقات السياسية والاقتصادية مع حكومتي بريطانيا والعراق » والحقيقة التي لا مراء فيها ان هذا البيان رغم ما تضمن من تصريح بحقوق الاكراد فانه لم يعن امراً مهما طالما كان الاكراد مختلفين وطالما كانت الدسائس تهب عليهم من كل مكان .

قلنا ان الشيخ محمود الزعيم الكردي كان صاحب اطماع واسعة فلم يرض عن البيان المشترك الذي اصدرته حكومتا لندن وبغداد فكثرت دسائسه وشرع في وضع الخطط لاحتلال كردستان العراقية فاضطرت السلطات البريطانية لاحتلال السليمانية مجدداً ولاذ الشيخ محمود الى الجبال المجاورة فراراً من البطش البريطاني وعدلت حكومة المندوب السامي عن ابقاء منطقه السليمانية تحت نفوذها وجعلتها لواء كبقية الألوية العراقية تديره مباشرة وزارة الداخلية العراقية ورغم كل هذا تغلب الشيخ محمود على القوات البريطانية في السليمانية ودخلها فاتحاً في الحادي عشر من تموز سنة ١٩٢٣ ، وعلى اثر هذا الاعتداء الصارخ من الشيخ محمود قرر الجيش العراقي وقوة الطيران البريطانية ان تقمعا نفوذه وان تأتيا به حياً او ميتاً وعينت الحكومة العراقية بناء على اقتراح المندوب السامي جائزة قدرها مئة الف روبية لمن يقبض او يقتل الشيخ محمود ومعاونيه وهما كريم فتاح وصابر . وقد حاول كثيرون اغتيال الشيخ محمود من الاثوريين طمعاً بالجائزة ولكنه كان حذراً فلم يتمكنوا منه .

واخيراً وبعدان اوصت عصبة الأمم بوجوب الاهتمام برغبات الاكراد في الادارة والعدلية والمعارف وقررت الحاق كردستان بالعراق سعت الحكومة العراقية لمصالحة الشيخ محمود فعرضت عليه عروضاً سخية لتأمن جانبه وليرجع الأمن الى

نصابه فأوفدت مندوبيها وجيشها الى معاقله وصالحته في اليوم الثاني من حزيران عام ١٩٢٧ شرط ان لا يتدخل في السياسة العراقية بعد اليوم ولا في شؤون الحكومة العراقية واخذت نجله الثاني - بابا علي - الى بغداد وجعلته رهينة عندها يتلقى العلوم في مدارسها واصدرت قانوناً خاصاً عفت فيه عن جرائمه وجرائم اتباعه واعادت اليه املاكه وهكذا توارى الشيخ محمود عن مسرح السياسة العراقية حينما امرته بريطانيا بالرحيل من العراق الى ايران .

●

الاقلية الاثورية

كان الغرب ولا يزال دائماً يرجو ان يستغل الاقليات في الشرق ويدفعها في بعض الاحيان لركوب مراكب خشنة تحملها من الكوارث ما لا طاقة لها به. وقد كانت المذابح الارمنية والكردية والاثورية خير دليل على صحة مانقول .

تظاهرت روسيا بالاخلاص للقضية الارمنية في اواخر العهد العثماني فكانت المذابح الارمنية وتظاهرت انجلترا بالغيرة على القضية الكردية علها تملي ارادتها على حكومة العراق الناشئة فكانت قلاقل الاكراد بزعامة الشيخ محمود التي كلفتهم دماء واموالا كثيرة وها ان الاقلية النسطورية او الاقلية الاثورية تلاقي ما لاقاه الارمن والاكراد من الويل بعد ان سلمت قيادتها لساسة الروس والانجليز.

يزعم النساطرة انهم من بقايا الآثوريين وكان معظمهم يسكن في قضاء « جولامرك » من ولاية وان في الاناضول الشرقي بالقرب من الحدود الايرانية الروسية . وقد منحهم الترك استقلالاً داخلياً واسعاً فكانوا يعيشون تحت امرة رؤسائهم الروحيين ويخضعون لبطريركهم الكبير الذي يلقب «بمار شمعون». ولما اندلعت نار الحرب الكونية الاولى هاجم الروس ولاية « وان » واستولوا عليها وأسسوا المنظمات النسطورية واغروها بالثورة على الترك وقلدوها السلاح فقام هؤلاء يفتكون بالسكان الترك الآمنين فما كان من الحكومة العثمانية إلا ان

سلطت عليهم جيشها فكال لهم الكيل كيلين واعملت فيهم المذابح فهرب قسم كبير منهم الى ايران حيث اتصل بالجاليات النسطورية وقام يلم شعثه ويوحد صفوفه .

وكانت سياسة الدولة البريطانية عند انهيار الامبراطورية العثمانية قائمة على تشجيع كل العناصر المعادية للترك، فارسلت بعثة عسكرية الى «اورمية» اتفقت مع النساطرة وزعمائهم ان يقضوا على كل تركي في هذه المنطقة ومونتهم بالذخائر والسلاح وأعطتهم الاموال ، ولكن الترك كانوا جد حذرين فهاجموا اورمية وفتكوا بالنساطرة وكان ذلك حوالي تموز سنة ١٩١٨ فما كان من الانجليز الا أن نقلوا البقية من النساطرة الى مخيمات اقاموها لهم على الضفة اليمنى من نهر ديالى بجوار قرية بعقوبا التي تبعد حوالي ستين كيلومتراً عن بغداد شرقاً واخذوا يستخدمون رجالهم ويبذلون بسخاء على شيوخهم ونسائهم وأطفالهم .

وحاولت انجلترا مراراً بعد هذه النازلة التي نزلت بالنساطرة ان تعيدهم الى تركيا ، فأبت تركيا عودتهم اليها بعد الذي ذاقته منهم وبعدما رأتهم يتعاونون مع اعدائها ويضربونها من الخلف وهي تصارع الموت . كذلك اظهر الكرد كرههم للنساطرة واعلنوا انهم لا يقبلونهم في المنطقة الكردية من العراق وهكذا اضطرت بريطانيا ان تصرف عليهم من اموالها الخاصة بعد ان حملتهم اهوال الثورة على الاتراك ونتائجها المريرة . والغريب ان بعض الموظفين البريطانيين وعلى رأسهم الكولونيل «لجمن» ابتدعوا فكرة تقول باخراج الكرد المسلمين من قراهم على الحدود التركية وتسليمها للنساطرة الاثوريين ، لان الكرد لم يظهروا الولاء للقوات الانجليزية ولانهم قتلوا بعض الحكام البريطانيين ، وقد ظن هؤلاء انهم بهذا الاسلوب ينصفون الاثوريين ويحلون قضيتهم ، ولكن الاتراك حالفوا الاكراد ومنعوا الانجليز من تنفيذ فكرتهم وخلقوا الاضطرابات على الحدود ، فتهيب الانجليز الموقف وعدلوا عن هذا المشروع .

واستفادت بريطانيا من النساطرة الاثوريين فجندت شبابهم وخلقت منهم جيشاً عرف باسم «جيش الليفي» وكان يقدر عدده بالفي جندي ، وقد استعانت

به في قمع ثورة ١٩٢٠ العراقية وهي الثورة التحريرية المشهورة كما انها حاربت به العصابات التركية التي كانت تغزو الحدود الشمالية وعينت بعض رجالهم في دوائر التجسس .

وحلم احد الاثوريين بتأسيس دولة اثورية تقع بين تركيا والعراق وكان يعرف باسم آغا بطرس وكان يرجو ان تقع شمالي الموصل ، وساندت السلطات البريطانية في بغداد هذه الفكرة لعل هذه الحكومة الاثورية اذا قامت واشتد ساعدها تقف في وجه الترك وتهددهم دوماً وتقلل من اهمية الاكراد وغطرستهم ، عدا انها تخدم مصالحهم وتخلصهم من نفقات كثيرة كانت تنوء بها الخزينة البريطانية وتنفيذاً لهذا المشروع فان انجلترا اسست المعسكرات بالقرب من نهر الخازر بين الموصل وعقرة ونقلت اليها زهاء عشرة الاف اثوري . وراح الاثوريون يستفزون الاكراد ويعلنون انهم سيأخذون قراهم فهاجمتهم القبائل الكردية حول نهر الزاب وفتكت بهم فتكاً ذريعاً ، وكان اشهر هذه القبائل قبائل بارازان المعروفة ، وهكذا تلاشت احلام آغا بطرس وتلاشت معه احلام الانجليز في قيام الدولة الاثورية النسطورية . اما آغا بطرس فقد سافر الى باريس بعد هذه الهزيمة الشنعاء ومات فيها من حسرة الهزيمة .

•

عصبة الامم تدرس القضية الاثورية

اشتدت عناية الحكومة البريطانية بالاثوريين لأنهم خدموها إبان الحرب العامة الاولى وتحملوا من أهوال سياستها التشريد الشنيع ولأنهم وسيلة من الوسائل التي تستعمل دوماً لجدع أنف الحكومة العراقية الفتية ، وضغطت بريطانيا على العراق أن يهب الاثوريين الارض في مناطق الشمال لزراعتها دون ثمن وبشروط مناسبة جداً ، واعطيت لهم الحرية في ادارة شؤونهم الخاصة فهم الذين ينتخبون مختاري قراهم ويجمعون ضرائبهم .

وأوفدت عصبة الامم لجنة لدراسة احوال الاقليات حينما اشتد الخلاف بين العراق وتركيا حول مدينة الموصل : أتبقى جزءاً من الدولة العراقيـة أو تلحق بالجمهورية التركية ؟ فأوصت بوجوب تنفيذ رغبـات الاقليات لا سيما الاثوريين واليزيديين وقالت ان من واجب الحكومة العراقية ان تمنح الاثوريـين بعض الحكم الذاتي وان تعين موظفين منهم وان تحفظ لهم حقوقهم في فتح مدارس خاصة بهم .

ورفضت تركيا رفضاً باتاً عودة الاثوريين الى البلاد التركية كما انها احتجت على انشاء قرى لهم على مقربة من حدودها وطلبت تجريدهم من سلاحهم ثم استثنتهم من قانون العفو العام . وحاولت بريطانيا ان تنقل الاثوريين جميعهم الى احدى مستعمراتها او احدى البلدان الواقعة تحت نفوذها فلم يتيسر لها ذلك ، لذا سعت مع وزارة الداخلية العراقية لتسكن اللاجئين منهم في المناطق الشمالية بالموصل وان تمنحهم الارض لحراثتها وأن تعفيهم من الضرائب . وقـد اهتمت الحكومة العراقية بهم اهتماماً بالغاً فمنحت الاثوريين كل ما قدرت عليـه من الامتيازات ، واعترفت ببطريركهم وعينت له راتباً شهرياً قدره ثلاثة آلاف روبية تدفع من الخزينة العامة .

وتساهلت الحكومة العراقية مع الاثوريين فوافقت على تعيين « كابتن فايكر » أحد الضباط البريطانيين في الليفي – الجيش الاثوري – ضابطاً للاسكان على أن تدفع له رواتبه من خزينتها أيضاً . وكان مرجع هذا الضابط المنـدوب السامي البريطاني في كافة شؤون الاثوريين .

والغريب أن « كابتن فايكر » كان يتصل بالسلطات الحكومية العراقيـة ويحقق ويدقق ويسكن ويرحل دون أن ينازعه منازع أو يعارضه معارض ، وقد تمكن من اسكان حوالي الخمسمائة اسرة في قضاء راوندوز بلواء اربيل كما أسكن غيرها في عقرة من لواء الموصل . وهكذا تلاشت فكرة الاثوريين في انشاء دولة خاصة بهم ، الا أنهم تمتعوا بحريات واسعة في امورهم الادارية وأخذوا يرجعون مباشرة في امورهم الى المندوب السامي البريطاني أو ضباط الليفي كأن الحكومة

العراقية غير موجودة . وتألم العراق من هذا التجاهل المعيب وهذا الاستخفاف الذي لا معنى له ، وظل رؤساء الاثوريين والبطريرك مار شمعون يقفون منه موقفاً عدائياً .

وحينما أعلنت بريطانيا في الرابع عشر من أيلول عام ١٩٢٩ عن عزمها الاكيد بترشيح العراق عضواً في عصبة الامم عام ١٩٣٢ وعقد معاهدة معه تنظم العلاقات بين الدولتين قبل هذا الترشيح ، أظهر الاثوريون جزعاً شديداً من هذا المشروع . وكانت أوهامهم تفوق الوصف عندما نشرت معاهدة سنة ١٩٣٠ بين انكلترا والعراق ولم يكن بها أية اشارة للقضية الاثورية فكتبوا العرائض وقدموها لعصبة الامم وبها يطلبون إما استمرار الانتداب البريطاني على بلاد الرافدين أو ترحيلهم. وقد تأثرت الحكومة العراقية من موقف الاثوريين تجاه القضية الاستقلالية فمنعت عنهم مساعدتها ، وازدادت العلاقات سوءاً بين موظفي العراق وبينهم ، ولعبت الايدي ببغداد في بذر بذور الخلاف والشقاق بين الاكراد والاثوريين ، لعل الاكراد يوجهون نفورهم الى جيرانهم بدلاً من أن يوجهوه للدولة العراقية وتأييداً للقاعدة المشهورة « فرق تسد » فيرتاح العراق من هاتين الاقليتين .

وكانت بعض الجمعيات الاجنبية تدفع الاثوريين للتمرد على العراق وتحرضهم للاحتجاج عليه سواء أكانوا محقين في احتجاجهم أم مخطئين . الا أن مجلس العصبة الاممية أقر في صراحة للزعماء الاثوريين أن مستقبل أمتهم يتوقف على حسن سلوكهم مع الدولة العراقية وأن من الواجب الاخلاص لها لانها تحميهم وتقدم لهم كل معونة .

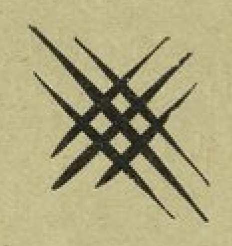
وطالب البطريرك الاثوري بسلطات زمنية الى جانب سلطاته الروحية التي يتمتع بها ، فمانعت في ذلك الحكومة العراقية . وكان البطريرك مار شمعون قد رحل الى جنيف لملاحقة القضية الاثورية أمام عصبة الامم ، ولما طلب الرجوع الى الموصل مقره مانعت الحكومة العراقية في ذلك الا اذا وقع عهداً يحافظ به على التزام الهدوء والسكينة .

وكان الفريق بكر صدقي يكره الاثوريين وهو القائد العراقي الوحيد الذي

كان ملماً باحوالهم ودخائلهم وطالما طالب الحكومة العراقية أن تطلق يده في تأديبهم فكانت تهمل طلبه ولمـــا شعر المتطرفون من الاثوريين ان الهوة قـد اتسعت بينهم وبين العراق أعلنوا أنهم يرغبون في الانتقال الى سورية ، أي الى الارض الخاضعة للانتداب الفرنسي ، فقبلت السلطات العراقيـــة بذلك . وتم نقـل قسم كبير منهم في تموز عام ١٩٣٣ . وها هم اليوم يفكرون في النزوح الى البرازيـل .

فهرس الصور

•



فهرس الكتاب

●

انتهى طبع كتاب [عشت وشاهدت]
على مطابع
دار الكشاف
للنشر والطباعة والتوزيع
بيروت - لبنان
في ٢١ شعبان ١٣٧٠ الموافق ٢٨ نوار ١٩٥١

DATE DUE

